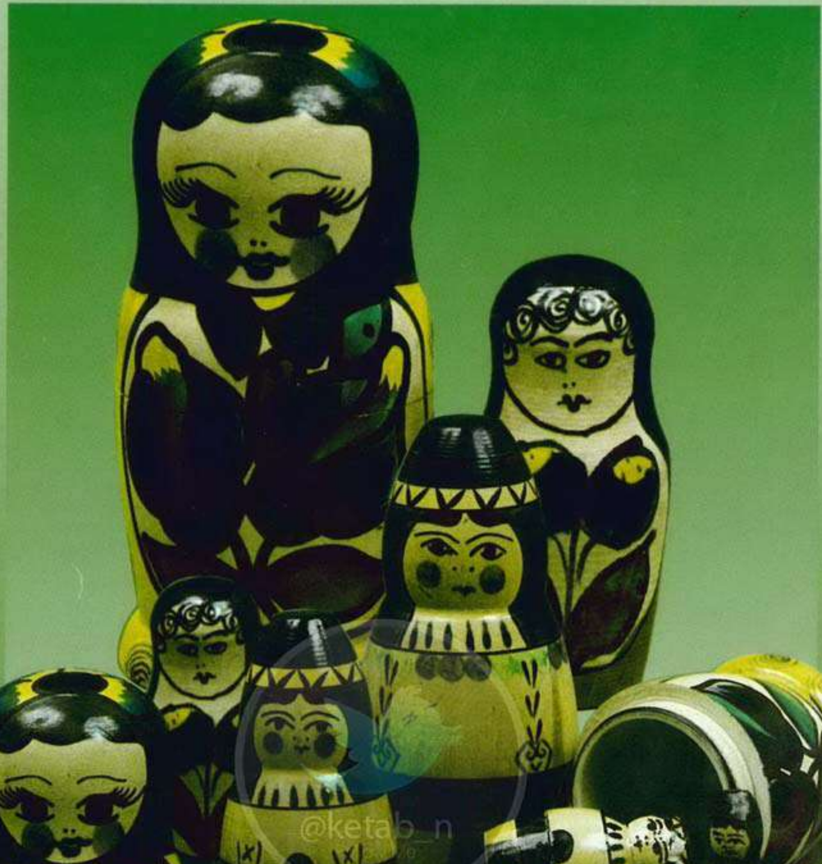
ليون تولستوي

الأعمال الادبية الكاملة

حكايات شعبية



ترجمة
صياح الجهيم

دار
الفكر اللبناني

ليون تولستوي



حكايات شعبية

ترجمة

صيّاح الجهيم

دار الفكر اللبناني
بيروت



العنوان الأصلي للكتاب:

LÉON TOLSTOI

Editions RENCONTRE

RÉCOTE POPULAIRES

Lausanne



دار الفكر اللبناني
للطباعة والنشر والتوزيع
كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا
ص. ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلفون: ٦٤٤٤١٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣١٧٦٠
فاكس: ٦٣٠٧٥٧ - بيروت، لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٩

مـقـدمـة

كتب القراءة الأربعة (١٨٦٩م ــ ١٨٧٢م)

أُوتيَ ليون تولستوي، ذلك المرشد، مقوّمات المبشّر والمعلّم. وإذْ كان قارئاً متحمّساً لجان جاك روسو، كما نعلم، فقد ترك جامعة قازان وهو في التاسعة عشرة، ليعتكف في أملاكه في «إياسنايا بوليانا» وليكرّس نفسه لإسعاد أقنانه. وفي «صبيحة سيّد إقطاعي» يكتب الأمير نيكليوروف، الناطق بلسانه: «أليس واجبي الدقيق والمقدّس أن أنقطع إلى إسعاد سبعمائة النفس التي سيكون عليّ أن أؤدّي حساباً عنها لله؟». وعند عودته إلى بيته سنة ١٨٤٧م، لم يكتف بأن قدَّم للأقنان في أملاكه المساعدة المادية، بل إنه أراد أن يقدم لهم أيضاً المعونةَ الفكرية والأخلاقية. التعليم الابتدائي، ذلك ما يَنْبغي أن يقدَّم، قبل كل شيء، لهؤلاء الفلاحين الأميّين. ولذلك سيَعْمد هو نفسه إلى تأسيس مدرسة، يعلّم فيها أولادَ الفلاحين الذين يشتغلون عنده، دون أن يَمْلك أيَّ مفهوم دقيق للتربية. هذا الولع بتعليم العقول الفتيّة والنفوس الفتية وبتربيتها، سيستولي عليه طوال حياته.

إن سفره إلى القوقاز سنة ١٨٥١م، هو وحده الذي أجبره على إغلاق هذه المدرسة الأولى. وبعد ثماني سنوات بعد أن يهجر السلكَ العسكري، ويعود ليقيم في إياسنايا بوليانا، يستأنف تجربته، ويؤسّس مدرسةً جديدةً مستخدماً مُلْحقات مسكنه. ومع أنه كان مرَبّياً يرتجل التربية ارتجالاً، فقد فكّر في كتابة

كتابٍ مخصّصٍ للتعليم، لأن مناهج التربية آنذاك قلّما كانت ترضيه. لكنه يقرّر، لكي يُغني اطلاعه، أن يقوم بجولة دراسةٍ في أوروبا، فيغلق مدرسته مرةً أخرى أيضاً، ويسافر في شهر تموز ١٨٦٠م. الأهداف: بارس، لندن، برلين، درسدن، وفي مركز اهتماماته المشكلات التربوية. ويزور عدة مدارس عامة، ويدرس مناهجها، فيغتاظ، حيثما ذهب، لأنه يرى أن الطرائقَ المطبّقة هي طرائق القَسْر التي يراها بالية. بينما يحلم هو، وهو تلميذ روسو، «بالتعليم الحرّ والعفويّ». وبما أنه كان راغباً في تأليف كتاب قراءة مدرسي، فقد أوصى على حروف كبيرةٍ (روسية) من بروكسل، لهذا الكتاب الصفّي. وبعد ثمانية أشهر من اسفر والبحث، يعود إلى روسيا محمّلاً بصناديق ضخمة مُلئتْ بكتب التربية المكتوبة بلغاتٍ شتّى. يقول كاتب سيرته الممتاز دانييل جيل. «كان يعتقد أنه وَجدَ طريقَه: فبفضل الطرائق الحديثة والأصيلة والعملية التي سينشرُها بواسطة مجلة ينوي إصدارها، اعتقد أنه سيغدو معلّم الجماعير الروسيّة».

وفي خريف سنة ١٨٦١م، بعد تحرير الأقنان بالضبط، إنما يفتتح مدرسته. وفيها يَدرس الأطفالُ سبع ساعات يومياً، لكن دون دفاتر ولا كتب، ولا وظائف بيتية. وجوهر هذا التعليم العفوي: «المساواة والحرية». ومنذ ١٨٦٢م يُصدر تولستوي مجلةً شهرية هي: «إياسنايا بوليانا» مملوءة بالمقالات المكرّسة للمشكلات التربوية، وفيها يَعْرض أسلوبه التعليمي، وهو أسلوب على جانب من الضبابية، وإن كان حسن القصد. ولكن المجلة تحظى بالقليل من المشتركين، فتكفّ عن الظهور في شهر آب، العدد الثامن. والحقّ أن حدثاً هاماً سيحدث في حياة تولستوي، في الشهر التالي: زواجه الذي يحتفل به في موسكو، في ٢٣ أيلول. وعند عودته إلى إياسنايا بوليانا، وبناءً على إلحاح زوجه، يُقلع عن التعليم وعن الأعمال التربوية. ويكرس وقته كله، للعناية بأملاكه، وبخاصة لتأليف «الحرب والسلم».

عندما ينتهي من هذا العمل الهائل، أي بعد ستة سنوات، يعود إلى اهتماماته التربوية التي لازمته أبداً. وعلى إثر حديث جرى في ١٨٦٨م بينه وبين قنصل الويات المتحدة في موسكو، حول المسائل المتعلّقة بالتعليم، سلّمه محدّثُه كتاباً مؤلّفاً لتعليم الأطفال الأمريكيين هو: كتاب القراءة الأول، والثاني، والثالث، الذي أَعْجبَ تولستوي كثيراً. فتخطُر له ـ طبقاً لمشروع قديم ـ فكرةُ تأليف كتاب مشابه، بالروسية، ومنذ خريف ١٨٦٩م، يشرع في العمل، وهو عمل يشغله أكثر من سنتين، ويكرّس له كل قواه، لأن الكتاب ينبغي أن يكون كتاباً موجزاً تاماً؛ كتب سنة ١٨٧٢م إلى الكسندرا تولستوي، ابنة عمه المفضّلة: «كتاب الألفباء هذا يمكنه وحده أن يوفّر عملاً لمدة مائة عام: فهو يتطلّب معرفة بالآداب اليونانية والهندية والعربية، وبالعلوم الطبيعية، وبعلم الفلك، وبالفيزياء...» وبعد أن يكمل كتابه أثناء السنة نفسها، يَفْتح مدرسته للمرة الثالثة، لا في الملحقات، هذه المرة، بل في مسكنه الخاص وتُساعدهُ زوجُه وأختُها في تعليمه مستخدمتين نفس الكتاب الموجز الذي انتهى من تأليفه.

كان هذا الكتابُ الذي سُمّي بتواضع: «الألفباء» والذي طُبع في أربع كراريس، يحتوي على نحو سبعمائة وخمسين صفحة من النصوص، وهو ينطلق من مواد الحروف الهجائية وينتقل من النصوص السهلة إلى نصوص أَرْصن، فيكوّن موسوعةً حقيقية صغيرة للأطفال، جميعُ نصوصها أعاد كتابتَها، أو كَتبَها، أو رتَّبها تولستوي نفسُه. وحرّرت صوفيا، زوجُه، بعضَ الأقاصيص القصيرة. وبعد أن أبدتْ اهتماماً كبيراً بهذا «الجموح» الجديد من زوجها، تحوّلت عنه بسرعة، وقدّرتْ أن هذا العمل يمنع تولستوي من أن ينصرف كليًا إلى موهبته، موهبة الكاتب.

لكن يجب أن نشير إلى ما يلي: إن تولستوي كان يُعلق أهمية كبيرة على «الألفباء»، ثمرةِ اهتماماته التربوية والأخلاقية. ولقد كتب مرة أخرى إلى ابنة عمه

الكسندرا نفسها في كانون الثاني ١٨٧٢م بصدد كلامه على مؤلَّفه الذي كان يوشك آنذاك أن ينتهي: «آملُ أن أرسله إليكِ هذا الشتاء، ولعلك ستقرئينه، تكرّماً منك. إن حلمي الطَّموحَ بشأن هذا «الألفباء» هو التالي: أن يتربّى بهذا الكتاب، في مدى جيلين، جميعُ الأطفال الروس، بدءاً من أطفال الأسرة الامبراطورية، حتى أبناء الفلاحين، وأن يستمدّوا منه أولى انطباعاتهم الشعرية، وأن أتمكن من الموت بسلام، إذا انتهيتُ منه». «الآن، يا سيّد، تُطلقُ عبدك بسلام». في سنّ الرابعة والأربعين، يعتبر تولستوي أنه قد ابتنى صَرْحَ حياته، وأنه لم يبقَ عليه إلاّ أن يموت بسلام. وقد كان مخطئاً في ذلك أشدّ الخطأ لأنه سيكتبُ أيضاً كتباً عظيمة منها آنا كارنيين، ولأن تبشيره الديني والأخلاقي الذي سيستغرقه ما يقرب من ثلاثين عاماً لم يكن قد بدأ بعد. لكن ينبغي لنا، لكي نحدّد جيداً موضع هذا الكتاب، أن نَعْرف القيمة التي كان يُعلّقها تولستوي عليه. لقد كان مقتنعاً بأنه قد ألَّف، حيث ألّفه، أفضل أعماله، وما هو أنجح وأعظم أهميةً من الحرب والسلم. انظروا إلى ما كتبه في تشرين الثاني ١٨٧٢م إلى صديقه الفيلسوف والناقد الأدبي نيقولا ستراخوف أ «عندما ظهر «الحرب والسلم» كنتُ أعلمُ أن هذا العمل مليء بالأخطاء، وكنتُ أتوقّع النجاحَ الذي لاقاه. أما اليوم، ففي حين أرى قليلاً من الأخطاء في كتاب «الألفباء»، وفي حين أني أعرفُ تفوّقه الهائل على جميع الكتب الأخرى، إلاّ إني لا أنتظر له نجاحاً».

والواقع أن طبعة الكتاب الأولى لم تلقَ سوى القليل من النجاح. فقد كان الكتابُ أولاً، يشمل ميداناً مُفرط الاتساع. كان يَحْتوي على أشياء شديدة الكثرة: طريقة لتعليم القراءة والحساب، تعليقات تربوية، نصوص تاريخية، فصول مأخوذة من الكتب المقدّسة ومن حياة القدّيسين، كما كان يحتوي على أمثال وأقاصيص وحكايات حقيقية، وأيضاً على موضوعات للمحادثة بقلم الكاتب نفسه. ثم إن الكتاب كان غالياً (بسبب كبر حجمه): كان بروبلين، أي بثمانية

فرنكات ذهبية، وهو أمرٌ حال دون انتشاره بين الفلاحين. ولم يكن النقدُ الأدبي مؤاتياً أيضاً. لكن هذا الفشل لا يثبّط عزيمة المؤلّف البتة، وهو يعترف لستراخوف نفسه: «الألفباء» لا يمشي أبداً. «أخبار بطرسبورج» انتقدته بحدّة. لكنني لا أبالي بذلك. أنا على يقين من أنني أقمت نصباً بكتابتي «الألفباء».

ظهرت طبعة جديدة في سنة ١٨٧٤م موزّعة في اثنتي عشرة كرّاسةً، لتسهيل انتشارها وبيعها. حينئذٍ أعلن مراقبان من وزارة التعليم العام هما الشاعر مايكوف وزميله قسطنطين سانت هيلير، أعلن رسمياً أن الحكايات الموجودة في الكراريس ٢، ٤، ٦، ٨، لها قيمةً عظيمة من حيث هي مادة للقراءة. إذ ذاك قرّر تولستوي أن يُعدّل الكتاب: فيضحي بالنصف (ولم يكن في معظمه بقلمه)، ويوزّع الباقي على خمس كراريس. وقد أُطلق على الكراسة الأولى التي كانت تحتوي على طريقة تعليم القراءة والحساب، العنوان التالي: «الألفباء الجديد». وأُطلق على الكراريس الأربع التالية العنوان التالي: «كتب القراءة الأربعة، وفيها جَمعَ الكاتبُ الأمثالَ والأقاصيص والحكايات الحقيقية الخ.. لكن في نظام جديد. وحين عُرض الكتاب بهذا الشكل الجديد، لقي إقبالاً واسعاً. فأوصت وزارة التعليم العام بتعليمه في المدارس الابتدائية، وزكّاه النقّاد.. حتى إن المربّي الرفيع الشأن سيرج راتشنسكي نشر في سنة ١٨٨١م تقريراً أثنى فيه على الكتاب إذ أعلن أن تولستوي قد بلغ في كتب القراءة حذْقَ بوشكين ورصانته وقوّته، وأن هذا العمل ليس من صُنع نزوة أدبية على الإطلاق، لكنه عملٌ رئيسيّ في حياة الكاتب. وهذا الرأي يتّفق مع رأي تولستوي نفسه.

بدءاً من هذا التاريخ، أصبح البيعُ أكثر رواجاً، وتضاعفت الطبعاتُ. ومنذ ١٩٠٠م طُبعت الطبعة العشرون والطبعات التالية في مائة ألف نسخة كل طبعة، وتناقص ثمنُ الكراريس بالتالي من ٩ كوبيكات إلى ٨ وإلى ٧. ونادرة هي الكتب التي انتشرتْ بأكثر من مليون نسخة. وقد كان هذا الكتاب من بينها..

وفضلاً عن ذلك، فقد اختصر قليلاً ليكون جزءاً من المجلّد الرابع من مؤلفات تولستوي الكاملة في سنة ١٩١٢م.

بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧م، وبعد أن اختفت بسرعة المطابعُ الخاصة، لم تُطبع كتبُ القراءة الأربعة لأنها لم تردْ في مناهج المدارس. ومع ذلك، ونظراً للأهمية التي كان المؤلف يُوليها عملَه، ونظراً للعناية التي بذلها في سبيله، ونظراً لكون الكتاب تعبيراً عن فكرة مستمرّة، وأيضاً بسبب النجاح الذي لقيه فيما بعد لدى الجمهور، ولكونه كتاباً تعليمياً رسمياً، بغضّ النظر عن قيمته الأدبية التي لا جدال فيها، مع أن قسماً لا يُستهان به من النصوص ليست من عند تولستوي نفسه ـ لكنه اختارها، وعدّلها غالباً، وأدرجها ضمن المجموع ـ من أجل هذه الأسباب جميعاً، بدا لنا مُسوَّغاً أن نقدّم هذا المؤلَّف في مطلع هذا المجلّد، في الترجمة الممتازة والأمينة التي قام بها شارل سالومون مع الملاحظات الحصيفة التي سيجد القارىء معظمها في مكانها الطبيعي.

إن كتب القراءة الأربعة كانت همّ تولستوي الأكبر بين «الحرب والسلم» و «آنا كارينين» وهما مع البعث روائعه الأدبية. وهي، في شكلها النهائي، تتألف من مائتي قطعة تقريباً، كل واحدة منها تحمل عنواناً فرعياً، مما يسمح بتوزيعها حسب الأبواب التالية:

١ ـ **الأمثال**: وعددُها تسعون. لكنها تشغل حيّزاً صغيراً، لأنها قصيرة. نصفُها مقتبسٌ من «ايزوب» مؤلف الأمثال اليوناني الذي كان تولستوي يُجلّه، ويبذل وسعه ليقرأه في النص الأصلي. ففي هذه الحقبة، بالفعل، أخذ يدرس اليونانية بحماسة بالغة، ويعتبر هذه الدراسة «الفرحة الكبرى» في سنة ١٨٧٠م. والاقتباسات التي تركها ذات أسلوب واضح وبسيط وأكثر إيجازاً، في بعض الأحيان، من أسلوب الشاعر اليوناني نفسه. وستة عشر مثلاً آخر مأخوذة من صاحب الأمثال الهندي البرهمي «بيدبا»، بحسب طبعة إنكليزية. أما باقي الأمثال

فمن مصادر شتّى. وممّا له دلالتُه أن نشير إلى أن تولستوي لم يقتبس شيئاً لا من لافونتين ولا من منافس لافونتين الروسي: «كريلوف». إنه يستقي من المنابع القديمة وحدها، مفتوناً، من غير شك، ببساطة هذه النصوص الخالية من الزخرفة، وسذاجتها.

٢ ـ **الأقاصيص:** عشرون قطعة تحمل عنواناً فرعياً: «أقاصيص» وهي في معظمها أقاصيص شعبية تستلهم في الغالب الخيال الخرافي أو العجائبـي، وهي من مصادر شتى، شرقية وغربية ـ بل إننا نجد بينها اقتباساً للاصبع الصغير التي كتبها «بيرو». وبعضها مأخوذٌ من قصص روسية قديمة ـ رويتْ روايةً مهذبةً ـ تجد فيها أنهاراً وسواقي مشخّصة مثل الفولغا، والفاسوفا، والدرن، الخ. وبعضها أخيراً من عند تولستوي نفسه.

٣ ـ **الأقاصيص الشعرية:** وعددها أربع فقط. أي أن في نهاية كل كتاب واحدة. . وهي مقتطفات من أناشيد ملحمية روسية أصبحت شهيرة بعد ١٨٦١م، وهو التاريخ الذي اكتشف فيه عالم العروق الشاب بول ريبنيكوف في شمال روسيا، في مقاطعة أولونيتز، نحو ثلاثين راويةً ملحمياً أميًا أنشدوه الملاحم الروسية التي مرّ عليها ألف سنة والتي انتقلت من جيل إلى جيل بالرواية الشفهية. ولا بد من الملاحظة أن قطعتين من القطع الأربع التي أخذها تولستوي تتصلان ببطل ليس فارساً، لكنه مجرّد فلاح: ميكولا سيليا نينوفتش الذي بزَّ بقوته الهادئة والبدائية قوة الأمير المتألق فولغا، وقوة الجبار سفياتاغور. وهو ما يتفق اتفاقاً تاماً مع القناعات التي عبّر عنها تولستوي في الحرب والسلم حول فضائل الشعب.

٤ ـ **الحكايات:** ثلاث وعشرون قطعة تحمل هذا العنوان الفرعي، وستّ تحمل العنوان الفرعي التالي: «حكاية تاريخية»؛ أما الحكايات الأولى فمعظمها من ابتكار تولستوي، وأما الثانية فمقتبسة من مؤلفين كلاسيكيين:

هيرودوت وبلوتارك. ونحن نجد في هذه الحكايات صفحات رائعة الجمال مثل «الكرز العنقودي»، أو «كيف تعيش امرأة جندي» وفي حكاية الضابط عن كلبيه، يروي الراوي، وهو تولستوي، بدون شك، ذكرياته الشخصية، وسوف نُعجب بفهمه العميق للحيوانات، وهو فهم كان قد ظهر في قصته «كولستومييه».

٥ ـ **القصص العقيقية:** نجد في هذا الباب اثنتين وثلاثين قصة، وهي من أشد القصص إثارة للاهتمام لأنها من عند المؤلف، وهي أطول وأرصن من «الحكايات» وإن كان بينها قرابة. إن «أسير القوقاز» مثلاً التي تحتل مكاناً كبيراً في نهاية الكتاب الرابع، هي وحدها رائعة صغيرة من الروائع الأدبية، بواقعيتها ووضوحها. وفيها يسترجع تولستوي ذكرى مناوشة، في سنة ١٨٥٣م، أوشك أن يأسره فيها «التشيتشين»، ويروي قصة ضابطين وقعا في الأسر، بكل ما في القصة من فجاجة. ولا يفوتنا أن نشير إلى بعض المشابه بين هذا النص وقصيدة بوشكين التي نشرت سنة ١٨٢١م. فنحن نرى، في النصين بالفعل، فتاةً من البلاد تُعين أسيراً على الفرار ليلحق بالروس، لكن اللهجة تختلف كما تختلف شخصية البطلين: البطلُ عند بوشكين رومانسي، يصحو من أوهامه، بينما هو متواضعٌ وقد رُسم بكثير من الواقعية، عند تولستوي في شخصية تيلين. والفتاة في القصيدة مولّهةٌ بالبطل وهي تنتحر بعد أن تتيح الفرار لحبيبها. أما في قصة تولستوي فهي تبدو فتاةً نضرةً، ضاحكةً، حية.. ونحن نعثر هنا ثانية على النقاء والحقيقة الإنسانية اللتين نجدهما في القصص القوقازية. وبين القصص التي حالفها التوفيق لنُشرْ إلى «صيد الدب»، وهو فصلٌ عاشه المؤلف الذي أوشك أن يقتله حقاً دب جُرح وهاج.

٦ ـ **الأوصاف وموضوعات المحادثة:** إن الأوصاف وعددها ثمانية وموضوعات المحادثة وعددها سبعة عشر، تهدف إلى غاية تربوية خالصة ولكنْ كم فيها من رشاقة متناثرة هنا وهناك، ومن دقة في التفاصيل، ومن حدّة في

الملاحظة، كما هي الحال في «الندى على العشب». أما موضوعات المحادثة حول الظواهر الفيزيائية مثل «لهواء الملوّث»، والجمد، والرطوبة والغازات الخ. فقد حمّلته الكثير من العناء، لأنه حاول أن يكون في متناول صغار الفلاحين الذين كان يتوجّه إليهم، والذين من أجلهم أراد أن يكون دقيقاً وشاعرياً في آن واحد.

إن ما يمكن أن يبعث على الدهشة، في المجموع، ليس غياب الفكرة القائدة، فهي موجودة، لكنْ غياب الأخلاق الانجيلية المميزة للحكايات الشعبية التي نشرها تولستوي فيما بعد. وسببُ ذلك بكل بساطة أن الأزمة الكبرى التي ستقوده إلى استلهام المسيحية (في ١٨٧٧م) لم تكن قد أعلنت عن نفسها بعد. ففي الحقبة التي كان يؤلف فيها «الألفباء»، أي قبل خمس سنين أو ست، كان بعيداً جداً عن ذلك الاستلهام. ألم يكتب في «ديني» سنة ١٨٨٤م: «عشت خمسين سنة، وفيما عدا الأربع عشرة سنة أو الخمس عشرة التي كنت فيها طفلاً، فقد كنت طوال خمس وثلاثين سنة عدميًا بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، لا بمعنى إنسان لا يؤمن بشيء. إن هذه الحالة النفسية اللادينية هي التي تطبع كتب القراءة الأربعة، فليس فيها، في الواقع أي تبشير أرثوذكسي أو متشيّع، بل كل ما فيها أخلاقٌ إنسانية بسيطة تستعير عناصرها من الحكمة القديمة، وموجزٌ للفضائل المدنية إذا شئنا، والتعبير عن حب عظيم للطبيعة والحيوانات، واحترام الجمال. على كل حال ليس لنا إلاّ أن ندع تولستوي يتكلم عندما يخاطب في رسالة له شارل سالومون، مترجمه، سنة ١٨٩٤م «... إن الحكايات المدرجة في الألفباء.. قد ألفتُ في حقبة كانت فيها العقيدة المسيحية غريبة عني كليًا ولم يكن يحدد اختياري سوى اعتبار واحد: أن تكون هذه الحكايات مفهومةً ومشوِّقة بالنسبة إلى الأطفال». ومن الملاحظ، مع ذلك، أنه لم ينكر هذا العمل حتى عندما دخل بشغف عقيدته الجديدة كما أنكر أعمالاً أخرى. وكان يُهديه أصحابه

حتى موته. وظلّ عزيزاً عليه لأنه قد اجتهد حقاً في وضع «روحه كلها» فيه، كما كتب إلى الشاعر «فيت» سنة ١٨٧٢م. وبهذه الصفة أيضاً نعتقد أن من الضروري نشره.

لنلاحظ أخيراً أن شارك سالومون ألحق عشر قطع ألّفها تولوستوي بعد ذلك العمل بكثير، في سنة ١٨٨٦م، مخصصة لديوان السيدة كالميكوفا الذي عنوانه المختارات، وهي تنم على روح مختلفة جداً. فحكاية «الياس» حكاية سيرته الذاتية تقريباً، وهي تعبّر عن قناعة تولستوي العميقة بأن الأغنياء لا وقت لديهم للتفكير في نفوسهم، ولا وقت لديهم للصلاة». ولم تنكشف أخيراً الحقيقة الإلـٰهية لالياس وزوجه إلّا عندما فقدا ثروتهما كلها. وفي المقدمة التي كتبها تولستوي لديوان السيدة كالميكوفا التهذيبي، يؤكد تولستوي الحقبة المؤمّنة، أن جميع القصص والأساطير والأمثال الرامزة «هي تعبير عن الحقيقة إذا تضمّنت حقيقة ملكوت الله».

* * *

الحكايات الشعبية (١٨٨١م ـ ١٨٨٥م)

إن الحكايات العشر المجموعة تحت هذا العنوان لا تتيح بدقة الترتيب الزمني لأعمال تولستوي. فنشرها جاء بعد آنا كارينين (١٨٧٧م)، لكننا نضعها، لأسباب عملية في المجلد نفسه الذي يضم كتب القراءة الأربع، وإن كانت تتباين فيما بينها تبايناً موحياً: إننا نرى تولستوي صاحب النهج الثاني الذي تُهيمن عليه هموم التثقيف هو الذي يظهر فيها. لسنا هنا بإزاء مدوّن وقائع طبقات المجتمع الراقية ـ كما هي الحال في الحرب والسلم وآنا كارينين ـ لكننا بإزاء الكاتب الذي تتملّكه الآلام الإنجيلية وحياة سواد الشعب الذي يرى فيه وحده الخلاص والذي يرغب، من أجل ذلك بالذات، ان يساعده فكرياً (بكتب القراءة الأربعة)

وأخلاقياً بحكايات الإنجيل الذي يعتقد أنه قد فهم رسالته فهماً كلياً بعد أزمته الدينية في سنوات ١٨٨٠م.

ولذلك يَعْزم، كما نعلم، أن يتنكر لنهجه السابق. إنه لا يريد بعد الآن أن يكون الروائي الشاهد والحكم على المجتمع الراقي: إنه يرغب بحرارة أن يكلِّم الذين ينتظرون من الكتّاب رسالة جوهرية، لا تسلية. ولقد أسرّ ذات يوم إلى الكاتب دانيلفسكي: «إن ملايين الروس الذين يعرفون القراءة، يظلّون أمامنا فاغري أفواههم مثل صغار» الغربان، ويقولون لنا: أيها السادة الكتّاب، ألقوا في أفواهنا غذاءً فكرياً جديراً بكم وبنا، أكتبوا لنا نحن أيضاً، نحن العطاش إلى الكلمة الحية والأدبية، خلِّصونا من «ارسلان لازار فيتشر»[1] وأمثاله، ومن «مولاي جورج»[2] وأمثاله، وغير ذلك من الغذاء السوقي! وكان يقول أيضاً: «إن الشعب الروسيّ البسيط والشريف يريد حقاً أن نستجيب لنداء روحه الخيرة والعادلة. ولقد فكرت في ذلك كثيراً، وصمّمت أن أجرّب شيئاً بهذا الإتجاه وفي نطاق قواي».

كان تولستوي، منذ صيف ١٨٧٧م، وبعد أن نشر آنا كارينين، يحبّ أن يخرج إلى الطريق الرئيسية الذاهبة من موسكو إلى كييف، والمارّة بقرب إياسنايا بوليانا. وكان يصادف جمهوراً من الحجاج السائرين منذ أسابيع، والمتجهين إلى معابد كييف أو حتى إلى الأرض المقدسة مروراً بأوديسا. وكان يختلط بهم، ويسألهم، ويصغي إليهم. وكان الحديث يتناول شؤون الدين والعقائد والقواعد الأخلاقية. وكان تولستوي يسجّل أمثالهم السائرة وحكمهم الشعبية التي تزين

---

(١) أقصوصة ملحمية خيالية مقتبسة من الفارسية. وقد استخدمها بوشكين في قصيدة شبابه: «رسلان ولودميلا».

(٢) رواية إنكليزية من القرن الثامن عشر، وكانت شعبية جداً في روسيا آنذاك.

حكاياتهم كما تشهد بذلك امرأته: «لم يكن يعتدُّ من قبل إلا بعدد قليل من الأشخاص، بأهله أو أقربائه، أما الآن فكل الناس غدوا أخوة له..» لكن أبناء الطبقات الدنيا هم الذين يخالطهم والذين يعجب بما فيهم من روح التواضع والرحمة. ومن أجلهم، من أجلهم وحدهم، يريد أن يؤلّف حكايات مُثقَّفة، مزدرياً من الآن فصاعداً، تلك «الآلات» الأدبية الكبرى. وتحت مظاهر الحكاية الخيالية والعجائبية المسيحية، إنما يثير أخطر المسائل: معنى الحياة، الحقيقة، طبيعة الإيمان الحقيقي. والوسط الذي ينمو فيه العمل في هذه الحكايات الشعبية هو وسط الطبقات الدنيا، لا في المدينة، بل في الريف، وهو الوسط الذي إنغمست فيه طفولة تولستوي.

لعل أكثر هذه النصوص أهمية وتوفيقاً هو الذي عنوانه: «ممّ يعيش الناس». وهو يدور على تلك الأسطورة الشعبية التي رواها لتولستوي راوية ملحمي أمّي يُدعى فاسيلي شتيغولنكو، وكان شخصية لافتة للنظر. كان خياطاً متنقلاً في منطقة كيجي، على بحيرة أونيغا، ولد حوالي ١٨٠٠م، وكان يعرف عن ظهر قلب نحو خمسة عشر نشيداً ملحمياً قديماً تتضمّن آلاف الأبيات، وقد تعلّمها في شبابه من أحد الشيوخ. هذه القصائد التي حافظت عليها الرواية الشفهية من جيل إلى جيل جَمعَها في سنة ١٨٧٩م الكسي هلفرونج. وسرعان ما غدا الراوية فاسيلي شتيغولنكو شخصية يتسابق إليها الناس، وتُدعى إلى حلقات العاصمة. وأثناء إقامة له في موسكو سنة ١٨٨٠م، زار ليون تولستوي، فاهتمّ به تولستوي كثيراً إذ رأى في هذه الشخصية الممثّلَ الحقيقي للشعر والحكمة الشعبية. وسجَّلَ بعض الأساطير والأناشيد الملحمية التي أنشده إياها الراوية العجوز. إن حكاية «مم يعيش الناس» قصة مؤثرة، لملاك سقط، ليكفّر عن خطيئته. ومن المؤسف أننا لا نعرف النصَّ الأصلي، ومن الصعب، نظراً لذلك، أن نقيس مدى ابتكار تولستوي. ولا شك أن الأسطورة القديمة تُلمّح إلى إله

أقرب إلى يهوه الغاشم منه إلى إلـه الرحمة: إلـه يعاقب ملاكاً أخذته الشفقة فرفض أن ينتزع حياة أم مسكينةٍ، أم وليدين. ولعل تولستوي قد «لطّف» نموذجه، وخفّف من طابع القسوة في الوصايا الإلـهية، وشدّد على عناصر الحب والعطف. لكن الذي يدهشُنا هنا، وفي سائر الحكايات، هو الغيابُ الكلّي للعنصر البسيكولوجي أو على الأصح للتفصيل البسيكولوجي؛ فكلٌّ ما فيها مجازي رمزي، وعجائبي، قليل المرونة والجمال، يُهيمن عليه الحرصُ على بلوغ التبشير النهائي: «من عاش في المحبة عاش في الله؛ لأن الله هو المحبة». والمثيرُ، بهذا الصدد، هو الجهد الذي فَرضه تولستوي على نفسه لإنجاز هذه الحكايات: لا أقل من ثلاثة وثلاثين نصاً مخطوطاً لأقصوصته الأولى! فما كان يتحرّاه قبل كل شيء هو ضربٌ من البساطة الإنجيلية المنسجمة مع الموضوع، ورصانة الأسلوب التي ينبغي أن تبلغ العظمةَ المقدّسة. إن هذا النص المُتقن الصنع ــ أكثر مما يبدو للوهلة الأولى ــ ظهر بتواضعٍ في كانون الأول ١٨٨١م في مجلة «فراغ الأطفال»؛ لكن تولستوي إنما كانَ يخاطب الراشدين، ومن خلالهم الشعب الروسي بأسره. لقد دخلت هذه الأسطورة، منذ ١٨٨٦م، ضمن مجموعة طبعات أعمال المؤلف الكاملة، ونحن نجدها اليوم في أحدث الطبعات السوفيتية.

الحكايات الأخرى الواردة في هذا المجلد نُشرت فيما بعد، في سنة ١٨٨٥م، وهي الفترة التي كان تولستوي قد تعرّف فيها بـ «سيوتاييف»، الفلاح المتشيّع؛ كما تعرّف بـ «فلاديمير تشيرتكوف» تلميذه الشديد الحماسة الذي أثّر تأثيراً عظيماً في أستاذه. وبمساعدته، على وجه الخصوص، أسّس تولستوي دار النشر «الوسيط»، التي كان عليها أن تطبع كراريس للشعب (بكوبيك واحد)، وأن تنشر البُشرى وأنوار المعرفة. وإلى جانب نصوص العصور الكلاسيكية القديمة أو النصوص التي تستلهم المسيحية، طُبعت صفحات لكتّابٍ روسٍ، ولتولستوي

نفسه، بطبيعة الحال. أما الحكايات التسع التي تتلو «ممّ يعيش الناس» فهي متفاوتة الطول والقيمة. ولا شك أن القارىء سيجد مشقة، هنا وهناك، للعثور على مهارة المعلم... ولعل حكاية «الشيخان» أكثرها نجاحاً باستذكارها الحج إلى الأراضي المقدّسة.

لكنْ مهما تكن قيمتُها، ومهما يكن ردُّ فعل القارىء على قراءتها، فمن المهم التعريف بها، ولو لإظهار شخصية الكاتب الكبير في وجوهها كافةً، ولكي يُتاح للقارىء تصوّرُ عمقِ الفاجعة التي عاشها ناشك إياسنايا بوليانا. إن بين الأعمال الأدبية الكبيرة الرائعة وهذه الحكايات الساذجة والمحمّلة، في الوقت نفسه، بنيّة تهذيب الأخلاق، إن بينها هوّةً هي هوة الأزمة الدينية التي أرّقتْ نفس تولستوي.

ألكسندر سولوفييف

كتب القراءة الأربعة

كتاب القراءة الأول

النملة واليمامة[1]

(مَثَلٌ)

هبَطتْ نملةٌ إلى الساقيةَ؛ اشتهتْ أن تشرب، لكنّ موجةً جاءت وغَمرتْها؛ ولولا قليل لغرقتْ. رأت يمامةٌ كانت تحملُ غصناً صغيراً في منقارها النملةَ وهي مشرفةً على الهلاك، فألقتْ إليها بالغصن. فحطّتْ عليه النملةُ ونجتْ.

وبعد زمن، كاد الصيادُ يُلقي بشباكه على اليمامة، فدبّت النملةُ إليه وعضتْه في قدمه. أجفل الصيادُ فوقَتْ شباكُه. رفرفت اليمامةُ بجناحيها وطارت.

الأعمى والأصم

(قصة حقيقة)

ذهب أعمى وأصم ليجنيا بقلاً من حقل جارٍ لهما. قال الأصمْ للأعمى: «أصغ السمعَ جيّداً وأخبرني بكل شيء؛ أما أنا فسأنظر إلى ما يجري وسأنبئك بما أرى».

بَلَغا حقلَ البقل ثم جلسا فيه. جَسَّ الأعمى البقل وقال ـ ما أحسن هذه البقلة! سمع الأصمُّ شيئاً من الكلمة الأخيرة وظنّ أن الأعمى قال ـ الطلقة،

(١) ايزوب: «النملة واليمامة». لافونتين: «اليمامة والنملة».

فقال له ـ «ومن أين جاءت الطلقة»؟[1] وعلى الحدّ بين حقلين، سقط الأعمى في حفرة. قال الأصمُّ: «ماذا تفعل؟» فأجاب الأعمى ـ «هذه حفرة!» قال الأصم: «ماذا تقول»: «مؤامرة»؟ فولّى هارباً والأعمى يَتْبعُه.

السلحفاة والنسر[2]

(مثل)

رجتْ السلحفاة النسرَ أن يعلّمها الطيران. رأى النسرُ أن الطيران لا يوافق السلحفاة فنهاها عن هذه التجربة؛ لكن السلحفاة لم تكفّ عن مضايقته. فأخذها النسر بين مخالبه وحملها وتركها تسقط من الأعالي: وقعت السلحفاة على الحجارة وتحطّمت.

اللقيط[3]

(قصة حقيقية)

كان لامرأة مسكينة ابنةٌ تُدعى مارييت.

ذات صباح، خرجتْ مارييت لتستقي ماءً، فرأت عند الباب خِرقاً باليةً تلفّ شيئاً. وضعتْ سطليها وأخذت تفكّ الصرّة. وما كادت تلمُسها حتى انبعث الأنين منها: «آه! آه!». انحنت مارييت ورأت أن في الصرة طفلاً وليداً شديد الحمرة يصرخ، ويصرخ بقوّة: «آه! آه!». أخذت مارييت الطفلَ بين ذراعيها وحملتْهُ إلى البيت، وسقته حليباً بالملعقة. قالت أمّ مارييت: ما الذي جئتِ به؟ فأجابت مارييت: «هذا وليد وجدتُه عند بابنا». قالت الأمُ: «نحن فقراء جداً

---

(١) في الأصل لعب لفظي لا تمكن ترجمته حرفياً لأنه يقوم على الجناس.

(٢) السلحفاة والنسر: ايزوب: «السلحفاة والنسر» لافونتين «السلحفاة والبطتان».

(٣) في النص الروسي أنها «مثل»، ولا شك أنها «قصة حقيقية».

بدونه! وماذا نُطعم طفلاً يُضاف إلينا؟ سأَمضي إلى العمدة وسأطلب منه أن يخلّصنا منه». انخرطتْ مارييت في البكاء وقالت: «يا أمي العزيز: سيأكل قليلاً فدَعيه هنا. هيّا انظري إلى يديه الحمراوين، المجعّدتين، وإلى أصابعه!» نظرت الأمُ وأخذتها الشفقةُ فاستقبلت الصغير. كانت مارييت تطعمه وتلفّفه وتضعه في سريره وتغنّي له الأغاني لتنوّمه.

رأس الحية وذنبها[1]

(مثل)

اختصمَ، ذات يوم، ذنبُ الحية ورأسها: أيهما ينبغي أن يمرّ أولاً؟

كان الرأس يقول: «لا يجوز لكَ أن تسير أولاً، فليس لك عينان ولا أذنان». وكان الذنبُ يُجيب: «لكني أملك القوة، بالمقابل، فأنا الذي يحرّككَ؛ ولو أني التففتُ على شجرة لما استطعتَ أن تغيّر مكانكَ».

قال الرأس: «فَلْنفترق».

تخلّص الرأسُ من الذنب ومضى أولاً، لكنه ما كاد يتركُه حتى صادف شقاً وسقط فيه.

الحجر

(قصة حقيقية)

قَدِم فقيرٌ على غنيّ وسأله الصدقةُ، فلم يُعطه الغنيُ شيئاً وقال له: «انصرف!». لم ينصرف الفقير، فغضبَ الغنيُّ وتناول حجراً ورماه به. التقط الفقيرُ الحجر ووضعه في جيبه وقال: «سأحتفظ بهذا الحجر حتى يأتي دوري لأرميه به». وجاءت هذه الساعة.

(١) رأس الحية وذنبها. ايزوب «ذنب الحية وجسدها»؛ لافونتين: «رأس الحية وذنبها».

ارتكب الغنيُ جرماً، فجُرِّد من جميع أملاكه. وفي اليوم الذي سيقَ فيه إلى السجن، إعترضَ الفقيرُ طريقه، وتقدّم، وتناول الحجرَ من جيبه ورفع يده. لكنه عندما فكّر ترك الحجر يسقط، وهو يقول: «لم احتفظتَ به هذا الزمن الطويل؟ لا خير فيه. عندما كان غنياً وقوياً كنتُ أخافه، أما الآن فأنا أشفق عليه».

الاسكيمو

(وصف)

في العالم أرضٌ لا يدوم فيها الصيفُ سوى ثلاثة أشهرٍ؛ أما باقي السنة فهو شتاء. والأيامُ في الشتاء قصيرةٌ جداً حتى إن الشمس لا تكاد تطلع أبداً خلال ثلاثة أشهر يعمّ فيها الظلام دائماً في منتصف الشتاء بالذات. في هذه الأرض يسكن ناسٌ يُدْعون: «الاسكيمو». إن لهم لغتهم، وهم لا يفهمون اللغات الأخرى، ولا يخرجون أبداً من مناطقهم. والاسكيمو صغارُ القامة، لكن رؤوسهم كبيرة. وأجسامهم ليست بيضاء وإنما لونها كلون القهوة بالحليب. وشعورهم سوداء خشنة، وأُنوفهم قليلةُ النمو، ووجناتهم عريضةٌ، وعيونهم صغيرة. وهم يعيشون في بيوت من الثلج يبنونها على النحو التالي: يصنعون الثلج على شكل آجّر ويضعون قطع الثلج بعضها فوق بعض كما يُركّبُ الموقدُ. وبدلاً من الزجاج يثبتون صفائح من الجليد على الجدران؛ أما الأبوابُ فإن أنفاقاً طويلةً محفورةً في الثلج تقومُ مقامها. والناس يدخلون البيوت وهم يزحفون على طول هذه الأنفاق، فإذا جاء الشتاء انتشر الدفء في هذه البيوت التي تغطيها الريحُ بالثلجُ ويأكل الاسكيمو لحم الأيّل والذئب والدب الأبيض، وهم يصيدون السمك بالخطّاف وبالشباك. ويصيدون الحيوانات الضخمة بالقسيّ والحراب. وهم يأكلون اللحمَ النيء كالحيوانات المتوحشة. وليس

لديهم كتّان أو قنّب ليصنعوا قمصاناً وحبالاً؛ وليس لديهم صوف ليصنعوا قماشاً؛ وهم يصنعون الحبال بأعصاب الحيوانات، ويصنعون لأنفسهم ملابس بجلودها. فهم يأخذون جلدين ويجعلون الفرو إلى الخارج، ويثقبون الجلدين بحسك السمك ويخيطونهما بالأعصاب وهكذا يصنعون قمصانهم وبنطالاتهم وأحذيتهم. وليس لدى الاسكيمو حديد أيضاً. فهم يستخدمون العظام ليصنعوا حرابَهم وسهامهم، والطعام الذي يُؤثرونه هو الشحم، شحم الحيوانات الضخمة، أو شحم السمك. ويتّخذ الرجال والنساء ملابس واحدة، إلاّ أن أحذية النساء عريضةٌ جداً. وهن يضعن أطفالهن في جرابٍ على ظهورهن وهكذا يحملنهم.

ويعمّ الظلام في بلاد الاسكيمو خلال ثلاثة أشهر، في الشتاء. لكن الشمسَ في الصيف، لا تغيب أبداً ولا يكون فيه ليلٌ.

ابن عرس

(مثل)

دخل ابنُ عرس دكّان نحّاس وأخذ يلحس مبرداً. خرج الدمُ من لسانه، ففرح ابن عرس وأمعن في لعق الدم، ظنّاً منه أن الدم يخرج من المعدن: وعلى المبرد ترك ابنَ عرسٍ لسانه.

عمتي تقص عليّ كيف تعلمتِ الخياطة(1)

(حكاية)

كان عمري ست سنوات. سألتُ أمي أن تدعني أخيط. قالت لي أمي. ما تزالين صغيرةً جداً، ولن ينالك إلاّ وَخْزُ أصابعك. لكنني لم أشأ أن أستمع

---

(1) ابن عرس: ايزوب: ابن عرس والمبرد.
لافونتين: «الحية والمبرد» لقمان: الهر.

إليها، فأخرجت أمي من خزانتها قطعة من الجوخ الأحمر وناولتني إياها؛ ثم أدخلت في الإبرة خيطاً أحمر وأَرَتْني كيف أمسك بها. بدأتُ أخيطُ، لكني لم أتمكن من صنع قطب متساوية. فهذه القطبة كبيرةً، وتلك تقعُ على أطراف من الجوخ وتثقبه. ثم إني وخزتُ أحد أصابعي. لم أشأْ أن أبكي، لكن أمي قالت لي: «كفى! ماذا بك؟». كان ذلك فوق طاقتي فإذا بـي أَخْلُد إلى البكاء. وحين رأت أمي ذلك أمرتني أن أذهب لألعب.

فلمـا أَوَيْتُ إلـى سريـري رأيـت، طوال الوقت قطباً تتراقص أمام عينيّ؛ ولم أكفّ عـن التسـاؤل كيـف يمكن أن أفعل لأتعلّـم الخياطة على الفور، لقد بدا لي ذلك صعباً جداً، وكنتُ أقول في نفسي: «لن أتعلّم أبداً!». وليس بوسعي الآن، بعـد أن رأيتنـي كبيـرة، أن أتـذكّر كيـف فعلـتُ لأتعلّم. وعندما أعلّـم ابنتي درسـاً في الخيـاطة فإنـي أدهش دائمـاً حين أراهـا لا تُحسن مسك الإبـرة.

الخيوط الرفيعة

(مثل)

أوصى رجـلٌ غزّالـة علـى خيـوط نـاعمة جـداً، حضّـرتْها الغزّالةُ، لكن الرجل أعلن أنها غيرُ صالحةٍ وأن ما يلزمه هو أرفع خيوط ممكنة، فأجابت الغـزّالةُ: «إذا كانـت هـذه الخيـوط غير نـاعمة، بمـا يكفي، في نظرك، فخذْ هذه الخيـوط غيرها». وأَرَتْهُ مكانـاً فارغاً. قال الرجل: إنه لا يرى شيئاً. عند ذلـك ردّت الغـزّالةُ: «إن كنـتَ لا تـرى شيئـاً فـلأنهـا بالغةُ النعومة؛ أنا نفسي لا أراها».

سُرّ الغبيُّ وأوصى على خيوط أخرى منها، ودفع ثمنها عّداً ونقداً.

القوة تأتي من السرعة

(قصة حقيقية)

كان قطارٌ يسير بكل سرعته على الخطّ الحديدي. وكان حصانٌ يجر حملاً ثقيلاً، في تلك اللحظة بالذات، عند تقاطع الطريق وسكة الحديد. كان الفلاح يسوط حصانه ليعبر به السكة لكن الحصان لم يتمكن من جرّ العربة لأن إحدى العجلتين الخلفيتين خرجت من محورها، صاح رئيسُ القطار بالميكانيكي: «قفْ!» لكن هذا لم يُطعه. وأدركَ أن الفلاح لم يكن يستطيع أن يتقدّم بالحصان والعربة، ولا أن يعطف العربة، وأن من غير الممكن إيقاف القطار فجأةً. فلم يحاول التمهّلَ. على العكس، سار بأقصى سرعته نحو العربة، فابتعد الفلاح راكضاً، أما العربة والحصان فقد كسحهما القطارُ كما تحمل الريحُ قشةً، وتابع القطار سيره دون أي صدام، قال الميكانيكي لرئيس القطار: «لقد قتلنا الحصان، وحطّمنا العربة، هذا صحيح، لكني لو أطعتُكَ، لقُتِلْنا نحنُ وجميع المسافرين».

عندما سرنا بكل سرعتنا قلّبنا العربةَ ولم نشعر بشيء؛ ولو سرنا ببطءٍ لخرجنا عن الخط.

الأسد والفأر[1]

(مثل)

كان الأسدُ نائماً. مرّ على جسمه فأرٌ وهو يركض. استيقظ الأسد وأمسك به. رجاه الفأر أن يُخلي سبيله، وقال له: «إن أَخْليتَ سبيلي رددتُ لك الجميلَ». أضحك ذلك الكلامُ الأسدَ: «الفأر يَعدُه بردّ الجميل!» وترك الأسدُ الفأر.

---

(١) هذه الحكاية التي كتبتها الكونتيسة تولستوي قد نقّحها زوجها. وينبغي أن نفهم كلمة «عمّة» بمعنى قريبة لا بالمعنى الحرفي.

وَحَدثَ أن الصيادين أسروا هذا الأسد وأوثقوه ومرّروا الحبلَ الذي ربط به حول شجرة. سمع الفأرُ الأسدَ يزار، فهَرع وقرضَ الحبل وقال: «أتذكرُ، لقد ضحكت من كلامي، لم تصدّق أنني يمكن أن أردّ لك الجميل، أرأيت اليوم أنني قادرٌ على ذلك، فحتى الفأر قد يصنع المعروف».

بوب، كلب رجال الإطفاء

(قصة حقيقية)

عندما تحترق البيوتُ، في المدن، يحدثُ كثيراً أن يظلّ الأطفالُ وسط الحريق. ومن الصعب إنقاذُهم لأنهم يختبئون وقد استبدّ بهم الذعرُ وأخرسهم الخوف، ولأن الدخان يحول دون رؤيتهم. وفي لندن، عاصمة إنكلترا، تُدرَّبُ الكلابُ على البحث عنهم وإنقاذهم.

هذه الكلاب ترافق رجالَ الإطفاء. إنهم يعيشون معاً. فإذا شبّت النار في منزل استخدمَ رجالُ الإطفاء هذه الكلاب لتُخرجَ الأطفالَ من الحريق. وقد أنقذ كلبٌ يُدعى «بوب» في لندن إثني عشر طفلاً.

ذات يوم، إشتعلت النارُ في منزل، فهُرع رجالُ الإطفاء إليه، وهناك اندفعتْ امرأةٌ إليهم. كانت تنتحب، وأنبأتهم أن في المنزل طفلةً عمرها سنتان. فأرسل رجالُ الإطفاء «بوب» ليبحث عنها. تسلّق بوب السلّم وغاب في الدخان. وبعد خمس دقائق، خرج بوب من المنزل وهو يحمل في فمه طفلةً صغيرة التقطها من قميصها. سارعت الأمُ إلى ابنتها، وعندما رأتها على قيد الحياة، ذرفت دموعَ الفرح. أغدقَ رجالُ الإطفاء على الكلب مُداعباتهم، وفحصوه بدقةٍ ليروا إن كانت قد أصابته بعضُ الحروق؛ لكن بوب كان يتخبّط ليتملّص منهم وليدخل المنزل مرّة ثانية.

ظنّ رجالُ الإطفاء أن كائناً حيّاً قد بقي في المنزل، فتركا بوب. جرى

بوب وما لبث أن عاد وبين أسنانه شيءٌ. أغرقَ الجميع في الضحك عندما رأوا أن ما كان يحمله لعبة كبيرة جداً.

القرد[١]

(مثل)

ذهب رجلٌ إلى الغابة، وقطع شجرة، وتهيّأ لتقطيعها. رفع طرفَ الجذع، ووضعه على أرومة شجرة، ثم علاها وبدأ ينشرها. أدخل أسفينة في الموضع المنشور وتابع عمله معمّقاً موضع النشر، وحين انتهى من النشر في الموضع الجديد سحب الإسفين وأدخله في الموضع الأعمق.

وكان قردٌ جالساً على شجرة ينظر إليه وهو يعمل. عندما اضطجع ذلك الرجل ليغفو غفوةً، علا القردُ الشجرة وأراد أن يقلّده؛ لكنه عندما رفع الإسفين إنضمّ الخشب وأطبق على ذيله. تخبّط القرد وهو يُطلق صرخاته. استيقظ الرجل فصرع القرد وأوثقه.

قصة صبـي صغير كان يود لو أخذه أبوه إلى المدينة[٢]

(حكاية)

استعدّ أبـي للذهاب إلى المدينة. قلتُ له: «بابا، خذني معك. أجاب أبـي: يا لها من فكرة سخيفة، ستموت من البرد في المدينة». أدرتُ ظهري، وانفجرت باكياً، ولجأتُ إلى المستودع[٣]. بكيتُ طويلاً ثم نمتُ. رأيتُ في الحلم طريقاً ذاهباً من قريتنا يُفضي إلى كنيسة، وعلى هذه الطريق كان يسير

---

(١) ايزوب: «الأسد والجرذ المعترف بالجميل». لافونتين: «الأسد والجرذ».

(٢) المصدر الهندي الذي أشار إليه تولستوي هو «بيدبا»: «نجار وقرد».

(٣) هذه القصة رواها صبيٌّ صغير في مدرسة «إياسنايا بوليانا».

أبـي، لحقتُ به وذهبنا نحن الإثنين إلى المدينة. مشينا طويلاً، وفجأة رأيتُ فرن خبّاز. قلتُ: «بابا، أهذه هي المدينة؟ فقال لي: هذه هي المدينة. وبلغنا الفرنَ؛ كانوا يخبزون فيه رُقاقاً. قلتُ لأبـي: اشترِ رُقاقةً، أتريدُ؟» واشترى لي أبـي واحدةً وأعطاني إيّاها.

فـي هـذه اللحظـة أفقـتُ ونهضـت واحتـذيـتُ حـذائـي ووضعـتُ قُفـازي وخرجتُ. في الشارع، كان الأولاد يتزلجون على الألواح والزلّاقات، وما أن عدتُ إلى المنزل لأتدفّأ قرب الموقد حتى سمعتُ صوت أبـي. كان عائداً من المدينة. سُررت كثيراً واندفعتُ نحوه وقلتُ له: «بابا، هل...؟ هل اشتريت لي رُقاقـةً؟» قـال أبـي: «نعـم». وناولنـي رقاقـةً. وَثَبْـتُ من الفـرح وأخـذتُ أرقص.

الكذّاب[1]

(مثل)

تظاهر راعي الخراف الشابُّ ذات يوم بأنه رأى ذئباً، وصاح: «النجدة! الذئب! الذئب!». هرع الفلاحون واكتشفوا الكذبة. كرّر الراعي ذلك مرة ثانية وثالثة. وجاء الذئب، ذات يوم، فعلاً، فصاح الفتى: «أسرعوا، هو ذا الذئب!» ظنّ الفلاحون أنه كان يخدع الناسَ، على عادته، فأصمّوا آذانهم عن ندائه. رأى الذئبَ أَنْ لا خوف عليه، ففعل ما يشاء وقتل القطيع كله.

إصلاح منزل في باريس

(قصة حقيقية)

تباعـد جـدارا منـزل كبيـر. فتسـاءل أصحابه: ما العمل للتقريب بينهما

(١) أي غرفة المهملات، وهي غرفة صغيرة غير مدفاة، وبدون نوافذ، على العموم، وهي توجد خارج المنزل، في فنائه، مثلها مثل القبو، والمطبخ في الصيف.

دون المساس بالسقف. وقد وجد أحدُهم الوسيلة. ذلك أنه ثبّت في الجدارين، من الجهتين، حلقتين من الحديد، ثم عمل أداةً للتثبيت من الحديد أيضاً، لكن طولها ليس بطول المسافة التي تفصل بين الحلقتين. بل إنه كان ينقص عنها بنحو أربعة سنتمترات. ثم لوى حديدة التثبيت من الطرفين على شكل كلابتين بحيث يمكنها أن تدخل في الحلقتين. وأخيراً عرّض هذه الحديدة لفعل النار فحميت وتمدّدت وبلغت طولَ المسافة التي تفصل بين الحلقتين، عند ذاك تمّ إيلاج كلابتي الحديدة في الحلقتين، وتُركتْ الحديدة على هذه الحالة. فلما برد الحديد تقلّص وشدّ الجدارين أحدهما إلى الآخر.

الحمار والحصان[١]

(مثل)

كان لرجل حمارٌ وحصان. وكان الحيوانان يسيران على طريق. قال الحمار للحصان: «إنني أتألم كثيراً، ولن أتمكن من حَمْل كل شيء حتى النهاية؛ فخذ شيئاً ولو قليلاً من حِمْلي». فأبى الحصان ذلك. أنْهك الجهدُ الحمار فسقط أرضاً وهلك.

لم يلبث صاحبُ الحمار أن نقل الحِمْلَ كله إلى ظهر الحصان، وفوق الحمل جلد الحمار. فأخذ الحصانُ يُعوِل. كان يئن ويقول: «واأسفي! هذا هو قدري البائس، ما أعثر حظي! لقد رفضتُ قبل قليل أن أمدّ يدَ العون للحمار، وهأنذا الآن أنوء بالحمل كله، وفوق ذلك جلد الحمار».

(١) ايزوب: «الراعي المزّاح الثقيل».

كيف فاجأتني العاصفة في الغابة
حكاية صبي صغير
(قصة حقيقية)

عندما كنت صبيّاً صغيراً، أُرسلْتُ ذاتِ يوم لجَنْي الفطور في الغابة. بلغتُ الغابة، وجنيتُ شيئاً من الفطور، وأردتُ العودة إلى المنزل. وفجأةً اكفهرّ الجوُ، وأخذ المطرُ يهطل، ودوّى الرعد. فخفتُ وجلست تحت سنديانة كبيرة. ولمع برقٌ خاطفٌ للأبصار آلمَ عيني حتى لقد أغلقتهما. وانقصف شيءٌ فوقي، ودوّى شيءٌ، ثم لطمني شيءٌ في رأسي، فانقلبتُ على ظهري وبقيت متمدداً طوال هطول المطر. ولما صحوتُ، كانت جميعُ أشجار الغابة تقطرُ ماءً، وكانت العصافير تشدو، والشمس تتراقص بين أغصان الشجر. أما السنديانة الكبيرة فقد تحوّلت إلى قطع يصعد منها الدخان. وكان كل ما حولي مغطّى ببقايا الشجرة. وقد إلتصقت ثيابي بجسمي، وبرز تورّم في رأسي آلمني قليلاً. وجدتُ قبعتي في الأرض، فلممتُ الفُطور وجريتُ إلى البيت. لم يكن في البيت أحد؛ تناولتُ خبزاً عن المائدة، وتسلّقت الموقد. وعندما استيقظتُ رأيت من علُ أن فطوري على المائدة قد شُويتْ، وهي توشك أن تُؤكَلَ. فصرختُ: «هل ستأكلون بدوني، هكذا؟» وكان الجواب: «ولمَ تنام، يا ترى! هيا! أَسرعْ لتأكل».

الغراب والحمائم[1]
(مثل)

لاحظَ غرابٌ أن الحمائم حسنة التغذية. فطلى نفسه باللون الأبيض ودخل أحدَ أبراج الحمام. ظنّته الحمائمُ، في أول الأمر، حمامةً كسائر الحمام فتركتْه

(١) يشير تولستوي إلى «ايزوب» كمصدر من مصادر هذا المثل. وإلى لافونتين: «الغراب يزدهي بريش استعاره من غيره».

يدخل. لكن الغراب غفلَ لحظة ونعقَ كما ينعق الغرابُ الحقيقي. عند ذلك، نقرته الحمائمُ بمناقيرها وطردته. فعاد إلى ذويه على جناح السرعة. لكن الغربان أصابها الخوفُ حين رأت ريشه الأبيض، فطردته كما طردته الحمائم.

الفلاح والخيار[1]

ذهب فلاحٌ، ذات يوم، ليسرق خياراً من مزرعة أحد زارعي الخيار. زحف على بطنه بعض الوقت، فلما دنا من الخيار، قال في نفسه. ليت الحظ يواتيني لأملأ كيسي خياراً؛ فسوف أبيعه وسأشتري بالمال دجاجةً، ستبيض لي الدجاجة بيضاً كثيراً؛ وستحضن البيض؛ وستربّي لي عدداً من الفراريج التي سأطعمها ثم أبيعها. وسأشتري خنزيرة صغيرة تلد خنازير صغيرة؛ وسأبيع هذه الخنازير الصغيرة لأشتري فرساً؛ وستضع الفرس أمهاراً، وسأبيعها وأشتري بيتاً وأصنع حديقة. نعم، ستكون لي حديقة وسأزرع فيها خياراً، ولن أدعه يُسرَقُ، لأني سأحرسه حراسةً مشدّدة، سوف أستأجر حرّاساً أعهد إليهم بحراسة الخيار. وسأصرخ أنا نفسي، وأنا أَصلُ خفيةً: «أيها الحرّاس، احرسوا حراسةً أفضل!». كان الفلاح مستغرقاً في مشروعاته الجميلة استغراقاً شديداً نسي معه أنه في حديقة جاره، وصرخ: «إلى الحراسة!». بكل قواه. سمعَ الحرّاسُ نداءه فسارعوا إليه وأوسعوه ضرباً.

---

(١) الفلاح والخيار: هذا هو الموضوع الأبدي للآمال الخائبة. وقد عالجه «بيديا» الذي كان على الأقل معاصراً ليسوع، ويقول بعضهم أنه ولد قبل المسيحية بألفي سنة؛ كما عالجه «بونافنتور دي بيريه» في أقصوصته عن المرأة التي تحمل جرة الحليب إلى السوق؛ وعالجها لافونتين في «الحلابة وجرّة الحليب»؛ وعالجها «كولان دارليفيل» في: قصور في أسبانيا، الفصل الثالث المشهد ٨: «بطاقة يانصيب».

المرأة والدجاجة[1]

(مثل)

كانت دجاجةً تبيض بيضة، في كل يوم. وظنت ربّة المنزل أنها لو أطعمتها أكثر لباضت الدجاجة أكثر مرتين.. وهذا ما فعلته. سمنت الدجاجةُ وانقطعت عن البيض كليًا.

الجد العجوز وأحفاده[2]

(مثل)

كان الجدُّ طاعناً في السن. لم تعد ساقاه تسيران، ولا عيناه تريان، ولا أذناه تسمعان، ولم يبق له أسنان، فإذا أكل سال لعابُه وكفّ ابنه وكنّته عن الاحتفاظ بمكان له على المائدة، بل أخذا يقدّمان له الطعام وراء الموقد. وذات يوم، حملا له طعامه في قَصْعةٍ. وحين أراد أن يُبعد القصعة عنه، أوقعها وكسرها. فشرعت الكنّة ترمي العجوزَ بحماقاتها مُنحيةً عليه باللوم لأنه خرّب كل شيء في المنزل، ولأنه كسر الآنية، وأعلنت أنها ستقدّم له الطعام، منذ اليوم، في قصعة من الخشب. فتنهّد الشيخُ دون أن يقول شيئاً.

وفي ذات يوم بقي فيه الفلاحُ وزوجتهُ في المنزل، رأيا صبيّهما الصغير يتلهّى على الأرض بقطعٍ من لوحات صغيرة يحاول أن يركّبها بعضها مع بعض. سأله الأب: «ماذا تفعل هنا، يا ميشيل؟». فأجاب ميشيل: «إنني أصنع معلفاً. فإذا صرتما أنتَ وأمي عجوزين، كان هذا المعلف صالحاً لتقديم الطعام لكما».

نظر الفلاح وزوجتُه كلاهما إلى الآخر وانهمرت دموعهُما. لقد خجلا من

---

(١) ايزوب «المرأة والدجاجة» لقمان: المرأة والدجاجة.

(٢) هذه الحكاية التي لا شك أن تولستوي سها عن ذكر مصدرها، مقتبسة من الأخوين غريم.

الإهانة التي ألحقاها بالشيخ؛ ومنذ هذا اليوم أعادا له مكانه على المائدة وأحاطاه بعنايتهما.

قسمة الميراث

(مثل)

كان لأبٍ ولدان. قال لهما: «سأموت ذات يومٍ فاقتسما كلَّ شيءٍ بالتساوي». فلما مات الأبُ لم يتّفق الولدان على القسمة. وذهبا إلى جارٍ لهما ليحكم في نزاعهما. سألهما الجار: «كيف أمَرَكما أبوكما بالاقتسام؟». فأجابا: «أمرنا أن نقتسم كل شيء مناصفة». قال الجار: «بناء على ذلك، مَزِّقا كل الملابس إلى قسمين، كَسروا الآنية وليأخذ كلٌّ واحد نصفها، واقسموا المواشي إلى قسمين بعد ذبحها». عمل الأخوان بكلام الجار فلم يبق لهما شيءٌ على الإطلاق.

أين يذهب ماء البحر

(موضوع للمحادثة)

الماءُ ينبعُ من الينابيع والعيون والمستنقعات ويجري في جداول؛ ويمرّ من الجداول إلى السواقي؛ ومن السواقي إلى الأنهار؛ ومن الأنهار يسيل إلى البحر. والكثير من الأنهار تسيل إلى البحر من كل الجهات وتصبّ جميعاً فيه، مُذْ خُلقَ العالم. لكن أين يذهب ماءُ البحر؟ ولم لا يفيض البحر؟

تتصاعد مياه البحر على شكل ضباب. وهذا الضباب يصعد، وهو الذي يكوّن الغيوم التي تسوقها الرياحُ وتدفع بها فوق الأرض كلها، ومن الغيوم ينزل المطر إلى الأرض. وهذه المياه تسيل من الأرض إلى المستنقعات والجداول، ومن الجداول يَسيل الماءُ إلى السواقي، ومن السواقي إلى البحر، ومن البحر يتصاعد الماء مرةً أخرى على شكل غيوم تتفرّق على الأرض كلها.

الأسد والدب والثعلب[1]

(مثل)

اختصم أسدٌ ودب بعد أن وجدا شيئاً من اللحم. لم يشأ الدب أن يتنازل عن شيء، ولم يتنازل الأسدُ عن شيء. فاقتتلا زمناً طويلاً حتى أنهكهما القتال وناما. لمح ثعلبٌ بينهما قطعة اللحم فالتقطها وولّى هارباً.

ملكة النحل

(حكاية)

كان جدّي يعيش، في الصيف قرب منحلته[2]. وكان، كلما ذهبتُ لأراه، أعطاني عسلاً.

كنتُ، ذات يوم، أتنزّه بين خلايا النحل. لم أكن خائفاً؛ فقد أنبأني جدي أنه يكفي أن نمشي بين الخلايا بهدوء حتى لا نُلسع. ثم إن النحل تعوّد رؤيتي ولم يكن يهاجمني؛ سمعتُ في خليّةٍ طنيناً خاصاً. ذهبتُ إلى جدي وأعلمتُه بما لاحظت.

عاد جدي إلى المنحلة معي، وأصغى إلى دويّ النحل، وقال لي: «لقد خرجتُ من هذه الخلية مع الملكة القديمة، أولُ فرقة، وقد وُلدت ملكاتٌ جديدة، وهي التي نسمع طنينها هكذا. وستذهب غداً مع فرقة جديدة.

---

(١) ايزوب: «الأسد والدب والثعلب». لافونتين: «اللصوص والحمار».

(٢) فلّاح «إياسنايا بوليانا» هذا يُدعى ناوميتش. كان الفلاحون الروس يحبّون أن يجعلوا لهم مسكناً قرب المنحلة يقيمون فيه صيفاً ليشرفوا على المنحلة إشرافاً أفضل. وفي هذا المسكن يُدخلون نحلهم شتاءً ليجعلوها بمامنٍ من الصقيع.

سألتُ جدي: «ما هذه الملكات؟». فأجابني جدي: «الملكة، عند النحل، مثل الملك عند البشر تماماً، إنها الرئيس؛ وبدون الملكة، لا يستطيع النحل أن يعيش».

سألته: «وكيف هي؟»، قال لي جدي: «عُدْ غداً. فسوف ينقسم النحل إلى فرق. وسأريك ذلك، إن شاء الله، وسأعطيك عسلاً».

عندما عدتُ في اليوم التالي، وجدتُ، في غرفة جدي الأمامية، قفّتين للنحل مغلقتين ومملوءتين نحلاً. ولكي يحميني جدي، وضع لي على رأسي واقيةً وثبّتها بمنديل غطّى عنقي. ثم تناول إحدى القفتين وقد دوّى فيها طنين النحل، وحملَها إلى المنحلة. كنت خائفاً فخبّأت يديّ في سروالي. لكني كنت أحبّ أن أرى الملكة فتبعت جدي.

عندما وصل جدي إلى المنحلة، اختار جذع شجرة مجوّفاً[1]، وقرّب سطلاً، وفتح القفة وأسقط النحل في السطل بهزّات صغيرة. مرّ النحلُ متثاقلاً من السطل إلى الجذع الذي غدا خلية له. كان النحلُ شديد الجلبة، وكان جدّي يدفعه بمكنسة صغيرة.

قال جدي: » آه! هذه هي الملكة». ودلّني عليها بطرف مكنسته الصغيرة. كانت نحلة مستطيلة ذات جناحين صغيرين، دبّت مع سائر النحل واختفت في الجذع.

نزع جدي واقية الرأس التي كان قد وضعها لي وعدنا إلى المنزل. وأعطاني كمية كبيرة من العسل. وعندما فرغتُ من أكلها، علق شيء من العسل بوجنتي وبيدي. وعندما عدت إلى البيت، قالت لي أمي: «لقد دلّلك جدّك أيضاً، وأطعمك من عسله». فأجبتُها: «إذا كان جدّي قد أطعمني عسلاً فذلك

(١) كانت خلايا النحل في وسط روسيا من الجذوع المفرّغة. أما في الجنوب، في القوقاز، فكانت تُستخدم أيضاً القُفُف خلايا.

لأني اكتشفت أمس أن هناك ملكاتٍ شابات في خلية؛ واليوم وضعنا نحن الاثنين فرقة من فرق النحل في خليتهما».

الكلب والديك والثعلب[(١)]

(مثل)

اصطحب كلب وديك وذهبا في سياحة. فلما جاء المساء، نام الديك على شجرة؛ أما الكلب فأوى إلى أصل الشجرة، عند الجذور. صاح الديك عندما أزفت ساعة الصياح. سمعه ثعلبٌ فهرع إليه، وطلب إليه، من تحت، أن ينزل، زاعماً أنه يريد أن يهنئه على صوته الجميل. قال له الديك: «من المناسب أولاً أن توقظ البواب وهوَ ينام بين الجذور. ليفتحْ الباب، وسوف أنـزلُ». أخذ الثعلب يبحث عن البوّاب ويضجُ. وثبَ الكلبُ ودقّ عنقَ الثعلب.

البحر

(وصف)

البحر مترامي الأطراف وعميق؛ فنحن لا نرى له حدوداً. وعلى البحر تشرق الشمس، وفيه تغرب. لم يبلغُ أحدٌ قاع البحر، ولا يعرفه أحد. إذا كان الهواءُ ساكناً فالبحر أزرق؛ فإذا هبت الريح أزبد وتَخدَّد. وعلى البحر تتصاعد الأمواج؛ كل موجة تتلو الأخرى؛ إنها تتلاقى وتتصادم، ومنها ينبعث الزبدُ الأبيض. عند ذاك ترتجُ السفنُ من جرّاء الموج وكأنها القش. من لم يركب البحر لا يعرف ما معنى أن نُصلّي لله طويلاً.

---

(١) ايزوب: «الكلب والديك والثعلب». لافونتين: «الكلب والثعلب» وليس في مثل لافونتين غير بعض السمات المشتركة.

الحصان وسائس الخيل[١]

(مثل)

كان سائس الخيل يسرق شوفان حصانه ويبيعه؛ وفي مقابل ذلك كان يَحُسُّه كل يوم. قال له الحصان: «إن كنتَ تحبّ حقاً أن أكون جميلاً، فلا تَبِعْ شوفاني».

الحريق

(قصة حقيقية)

كان ذلك في زمن الحصاد. كان الفلاحون والفلاحات يعملون في الحقول ولا يتركون في القرية إلاّ الشيوخ والأطفال.

وكانت جدّة عجوز قد لزمتْ كوخَها هي وأحفادها الثلاثة الصغار. أشعلت الجدّة الموقد وذهبت لتنام. كان الذباب يحطّ عليها ويقضّ مضجعها، فغطت رأسها بمنشفة ونامت.

فتَحَ الموقدَ أحدُ الأولاد، وكانت بنتاً صغيرة تدعى ماري، وأخذت منه جمراً، ووضعته في قصعة قديمة بالية حملتْها إلى المدخل. وكان المدخلُ مليئاً بحزم القش التي وضعتها النساء هنا لتصنع منها أربطة. وضعت ماري جمرها تحت الحزم ونفخت عليه.

عندما التهب القشُّ فُتِنتْ بذلك، فدخلت الغرفةَ وأخذت أخاها الصغير «سيريل» من يده ــ وكان سيريل لا يُحسن المشي لأن عمره لم يكن سوى سنة ونصف ــ وقالت له: «تعال وانظر قليلاً إلى الموقد الجميل! لقد أشعلتُه وحدي».

---

(١) ايزوب: الحصان وسائس الخيل.

التهبت الحزم. كانت تشتعل وهي نطقطق. لكن عندما امتلأ المدخلُ بالدخان خافت ماري وهربت وهي تجرّ أخاها الذي وقع عند العتبة وأصيب في أنفه وانفجر باكياً. لكن ماري أفلحت في سحبه إلى الغرفة فاختبأ كلاهما تحت المقعد.

لم تسمع الجدّة شيئاً وظلّت نائمة. ولحسن الحظ أن أكبر الأولاد «جان»، وهو صبيٌّ ابن ثماني سنوات، كان خارج البيت، وعندما رأى، من الشارع، الدخانَ يصعد من المدخل على شكل زوابع اندفع إلى البيت، ووثب إلى الغرفة، وهزّ جدّته. استيقظت الجدة مذعورة، وفقدت صوابها، ولم تفكّر في الصغار، فجَرتْ لتستنجِد بالجيران. وظلت ماري تحت المقعد وقد أخرسها الخوف. وكان سيريل الصغير يصرخ لأن أنفه كان يؤلمه كثيراً. سمع جان صرخاته، نظر إلى ما تحت المقعد، وصرخ بماري: «أخرجي بسرعة! ستحترقين». جرت ماري نحو المدخل: كان المدخل ممتلئاً بالدخان، وكان كل شيء يحترق فيه. فلم تتمكن من المرور، وتراجعت إلى الوراء. فتح جان النافذة وساعدها على التسلّق. وعندما صارت في الشارع، أمسك جان بسيريل وسحبه إليه. لكن الصغير كان قوي البنية وقاوم أخاه بكل ثقل وزنه. كان يبكي ويتخبط ويصدّ جان عنه بيديه الصغيرتين. وقد وقع جان مرتين قبل أن يُفلح في جرّه إلى النافذة وكان باب المدخل قد أخذ يشتعل. أراد جان أن يمرّر الولد من النافذة، أخرج جان رأسَ الصبي من النافذة، وأخذ يدفع جسمه بكل قواه. لكن الصغير الذي استبد به الرعبُ تشبّث بيديه الصغيرتين وأبى أن يرخي النافذة، صرخ جان بماري: «اسحبيه إلى الخارج، أمسكيه برأسه!». وأخذ هو يدفعه من الخلف. انتهوا بأن أخرجوه، ونجا الأولاد الثلاثة.

الضفدع والأسد[1]

(مثل)

سمع أسدٌ ضفدعاً ينقّ نقيقاً شديداً؛ خاف الأسد وحسب الضفدعَ وحشاً ضخماً يطلق مثل هذه الصرخات. انتظر لحظة ليعرف الحقيقة؛ خرج الضفدع من المستنقع، فسحقه الأسد بضربة من مقنبه، وقال: «منذ الآن، لن أخاف قبل أن أرى».

الفيل

(قصة حقيقية)

كان لهنديٍّ فيلٌ. وكان يُسيء تغذيته ويُرهقه بالعمل. فانتهى به الأمر إلى الغضب وإلى وضع قدمه على صاحبه فدهسه. ومات على الفور.

أخذت الأرملة أولادها، وهي تذرف الدموع الغزار، وقادتهم إلى الفيل، ورمتهم عند قدميه، وقالت له: «أيها الفيل، لقد قتلتَ أباهم، فاقتلْهم بدورهم».

نظر الفيل إلى الأولاد، ولفّ خرطومه على الولد الأكبر، ورفعه برفقٍ ووضعه على ظهره.

ومن هذا اليوم والفيل يطيع الصبـيّ الصغير ويعمل له.

القرد والبقل

(مثل)

كان قردٌ يحمل في يديه كل ما استطاع حمله من البقل، وقعت حبةٌ. أراد القردُ أن يلتقطها فنثر عشرين حبة على الأرض. وسارع لالتقاطها فأسقط كل ما بقي معه. حينئذٍ غضبَ وبعثر كل البقل وهرب.

---

(١) ايزوب: «الأسد والضفدع».

كيف كففت عن الخوف من المتسولين العميان[1]

(حكاية)

عندما كنتُ صغيراً، كنتُ أُخوَّفُ من المتسوّلين العميان. وكنتُ أخاف حقاً منهم. وذات يوم، وسلتُ إلى البيت فوجدتُ اثنين جالسين على درج المدخل. فلم أدرْ ما أفعل؛ لم أجرؤ على الهرب ركضاً، كما لم أجرؤ على المرور أمامهما؛ ظننتُ أنهما سيخطفانني. وفجأة نهض أحدُهما (وكانت عيناه بيضاوين كالحليب)، وأمسك بذراعي وقال لي: «هيّا، أيها الصغير، هلا تصدّقت علينا بصدقة صغيرة». فتخلصتُ وجريتُ إلى أمي. أعطتني أمي مالاً وخبزاً كي أحمله إلى المتسوّلين. وابتهج المتسوّلان كثيراً بالخبز. رسما علامة الصليب وأكلاه. ثم قال لي ذو العينين البيضاوين: «خبزك لذيذٌ، شكراً»٨ ثم أمسك بذراعي من جديد وبدأ يجسّها. أخذتني الشفقةُ عليه، ومنذ هذا اليوم، لم أعدْ أخاف من المتسوّلين العميان.

البقرة الحلوب

(مثل)

كان لرجل بقرةٌ تعطي كل يوم جرّة حليب. دعا الرجل أصدقاءه؛ ولكي يتمكن من أن يقدّم لهم حليباً أكثر، ظل عشرة أيام دون أن يحلب البقرة. وظن أنها ستعطيه في اليوم العاشر عشر جرار من الحليب.

لكن حليب البقرة كثفَ وأعطت أقل من ذي قبل.

---

(١) يبدو على هذه الحكاية طابع الذكرى الشخصية: ذلك أن تولستوي كان يخاف، وهو صغير، من المتسولين العميان.

«سي ـ لنغ شي» امبراطورة الصين[1]

(قصة حقيقية)

كان امبراطور الصين «هوانغ تي» يحب زوجه «سي ـ لينغ ـ شي» كثيراً، وكان يود أن يحتفظ شعبه دائماً بذكراها. وذات يومٍ، أراها دودةَ قز وقال لها: راقبيها جيداً، وانظري فيم يمكن أن تنفع، وكيف يمكن أن نربّيها، ولن ينساك الشعبُ أبداً.

راقبت «سي ـ لينغ ـ شي» ديدان القز؛ ولاحظت أنها تموت وهي محاطة بالخيوط. حلّت هذه الخيوط الملفوفة وغزلتها ونسجتها وصنعت منديلاً حريرياً. ثم لاحظت بعد ذلك أن ديدان القز تكثر على شجر التوت. فقطعت أوراق التوت وأطعمت منها ديدان القز. وربّت كثيراً من هذه الديدان وعلّمت شعبها كيف يربّيها.

جرى ذلك منذ خمسة آلاف سنة، ويحتفل صينيّو اليوم الذين لم ينسوا امبراطورتهم «سي ـ لنغ ـ شي» بعيدها.

---

(١) أراد ملك الصين الذي كان يعيش قبل الميلاد بـ ٢٦٠٠ عاماً أن تُسهم زوجته الشرعية في سعادة شعبه. فكلّفها أن تدرس ديدان القز وأن تحاول استخدام خيوطها. وقد جمعت «سي ـ لينغ ـ شي» كمية كبيرة من هذه الحشرات وأرادت أن تطعمها في مكان تخصصه لهذه الغاية وحدها. ولم تجد طريقة تربيتها فحسب، وإنما وجدت أيضاً طريقة حلّ حريرها، واستخدامه في صنه الملابس. هذا ما ينبئنا به «مايا» في كتابه: تاريخ الصين العام.
وما يزال شارعٌ ضمن سور القصر يحمل بشهادة المسافرين في القرون الماضية اسم: «الطريق الذي يقود إلى الموضع المخصّص لتربية دود القز من أجل تسلية الامبراطورات والملكات».

الصرصور والنمل[1]

(مثل)

إن كومة الحبوب التي جمعها النمل قد أصابتها الرطوبة في الخريف، فجفّفتها. سألها صرصورٌ جائع شيئاً من الطعام، فقالت له: لمَ لم تجمع شيئاً في الصيف، يا ترى؟ أجاب الصرصور: «لم يكن لديّ متّسعٌ من الوقت: كنت أغنّي» فأخذت النمل تضحك وقالت له: «بما إنك غنّيتَ صيفاً فارقص شتاء!».

الفأرة الصغيرة، البنت ـ الفأرة[2]

(أقصوصة)

كان رجل يسير بحذاء الساقية فلمح غراباً يحمل في منقاره فأراً صغيراً. رمى الرجلُ الغرابَ بحجر فأرخى الفأرةَ وسقطت في الماء. انتشلها الرجلُ من الماء وحملها إلى بيته.

لم يكن لهذا الرجل أولاد، فقال في نفسه: «آه! ليت هذه الفأرة بنتٌ صغيرة!». وإذا بالفأرة الصغيرة تتحوّل إلى بنت صغيرة!

عندما كبرتْ، سألها الرجل: مَنْ تريدين أن تتزوجي؟». أجابت الفتاة: أريدُ أقوى الأشياء، زوجاً لي».

خاطب الرجلُ الشمسَ قائلاً: «أيتها الشمس، إن ابنتي تريد أقوى الأشياء زوجاً لها. ولا شك أنكِ أنتِ الأقوى.. فتزوجي ابنتي». أجابت الشمسُ: لستُ الأقوى. بما أن الغيوم تحجبني.

---

(١) ايزوب: الصرصور والنمل؛ لافونتين: الصرصور والنملة.

(٢) المصدر الهندي الذي يشير إليه تولستوي هو «بيدبا»: «في الفأرة التي تحوّلت إلى بنت».

قال الرجل للغيوم: «أيتها الغيوم، أنتِ الأقوى، فتزوجي ابنتي». قالت الغيوم: «لا، فالريح أقوى من كل شيء، لأننا نهرب أمامها».

حينئذٍ ذهب الرجل ليلقى الريح وقال لها: «أيتها الريح، أنت الأقوى، لتزوّجي ابنتي». قالت الريح: لستُ الأقوى، فقمم الجبال تصدّني».

سار الرجل نحو الجبال وقال لها: «أيتها القمم، ينبغي لك أنتِ أن تتزوّجي ابنتي». قالت القمم: كلاّ، انظرْ إلى الفأر، إنه يقْرضني».

وأخيراً، قال الرجل للفأر: «أيها الفأر أنتَ الأقوى، فتزوّجْ ابنتي». فأعلن الفأرُ موافقته.

عندما عاد الرجلُ إلى بيته قال لابنته: لا ريب أن الفأر هو الأقوى: إنه يقْرض الجبال التي تصدّ الريح، تلك الريح التي تسوق الغيوم التي تحجب الشمس. وقد قبل الفأر بالزواج منك.

فهتفت الفأرة الصغيرة: «آه! يا إلـهي، ما العمل؟ أنا أتزوج فأراً!».

تنهد الرجل وقال: آه! ليت ابنتي تستطيع أن ترجع فأرةً!».

وتحوّلت إلى فأرةٍ فتزوّجها الفأر.

الدجاجة ذات البيضات الذهبية[1]

(مثل)

كان لرجل دجاجة تبيض بيضات ذهبية، اشتهى أن يحصل على كمية أكبر من الذهب دفعةً واحدة فذبح الدجاجة. ظن أنه سيعثر على كتلة ضخمة من الذهب. لكنه رأى أن هذه الدجاجة كانت دجاجةً كغيرها من الدجاج.

---

(١) ايزوب: الدجاجة ذات البيضات الذهبية؛ لافونتين: الدجاجة ذات البيضات الذهبية.

قشة قنب

(أقصوصة)

كان هناك، ذات مرة، رجلٌ عجوز وامرأته العجوز، وكانا يعيشان سعيدين معاً. لكن لم يكن لهما أولاد. وذات صباح، ذهب الزوج ليحرث حقلاً بعيداً جداً عن كوخه. ترك امرأته في البيت: أرادت أن تصنع فطائر.

أعدت العجوزُ الفطائر وقالت في نفسها: «لو كان عندنا ولدٌ لحمَل هذه الفطائر إلى أبيه. وها إني لا أجد أحداً ليحملها إليه».

وفجأة برز أمامها صبيٌّ صغير. قال لها:

صباح الخير، ماما.

ـ من أين طلعتَ، يا بنيّ، وما اسمك؟

ـ خرجتُ من الصندوق الذي حشوْتِ فيه خيوط القنب بعد أن انتهيت من قشره. ففيه تفتّحت، واسمي قشّة قنب. أعطيني فطائر، يا ماما؛ سأحملها إلى أبـي.

قالت العجوز:

ـ يا قشّة القنب، أتستطيع أن تحملها.

ـ بالتأكيد، يا أمي الحنون.

لفّت العجوزُ الفطائر وسلّمتها إلى ابنها. فأخذها وجرى عبر الحقول.

صادف في طريقه أكمةً فصاح:

ـ بابا! بابا! تعال وساعدني على اجتيازها! لقد حملتُ إليك فطائر!».

سمع الشيخُ مَنْ يناديه، فجاء إلى لقاء قشة القنب، وعَبَرَ به العقبةَ، وقال له:

ـ من أين عساك طلعتَ، يا صغيري؟

ـ أنا، يا بابا، طلعتُ من الصندوق، ووُلدتُ في خيوط القنب. وناوله زوّادة الفطائر.

جلس الشيخ ليأكل وقال له الصبي:

ــ بابا، إسمحْ لي أن أحرث مكانك.

وكان الصغير قد أمسك بالمحراث أخذ يحرث ويغني وهو يحرث.

مرّ سيّد إقطاعي، في هذه البرهة، أمام الحقل. رأى فلاحاً عجوزاً يأكل فطائر، وحصاناً يحرث وحده، فنزل من عربته وقال للشيخ:

ــ ما معنى هذا، يا شيخ؟ حصانك وحده وهو يحرث الحقل.

أجاب الفلاح:

ــ هذا إبني يحرث وهو يغنّي.

دنا السيّدُ فسمع الأغنية ورأى قشّة القنب، فقال: «أيها الشيخ، بعْني هذا الصبيّ الصغير».

قال العجوز:

ــ هذا غير ممكن؛ فليس عندي غيره.

همس قشةُ القنب إليه: «بعْني، يا بابا، فسأتمكن من الهرب».

قَبِلَ الفلاح أن يبيعه بمائة ريال فضة.

سلّم السيّدُ المال وأخذ الصبيّ، ولفّه في منديل، ووضعه في جيبه. وعندما بلغ بيته، قال لزوجته:

ــ ما أحلى المفاجأة التي حملتُها إليك!

قالت:

ــ ما عساها تكون؟ أَرني إياها.

فتّش السيد في جيبه، وبسط منديله، فلم يجد شيئاً. ذلك أن قشة القنب كان قد لاذ بالفرار منذ زمن بعيد ليعود إلى أبيه.

الذئب والمرأة العجوز[1]

(مثل)

قضى ذئبٌ زمناً طويلاً يبحث عن فريسة. ولما وصل قريباً من إحدى القرى، سمع، في كوخ، صراخ ولدٍ وصوت امرأة عجوز: «إن لم تكفّ عن البكاء على الفور، ألقيتُ بك إلى الذئب...».

لم يغادر الذئبُ مكانه؛ كان ينتظر بهدوء أن يُلقي إليه بالولد، جاءَ الليل وظل الذئبُ ينتظر. وإذا به يسمع مرة أخرى صوتَ العجوز: «لا تَبْكِ، يا صغيري، لن ألقي بك إلى الذئب. لَئِنْ جاء لَنَقْتلنّه».

قال الذئب في نفسه:

«من الواضح أن الوعد، في هذا البلد، لا يُلزم صاحبه». وانصرف.

الهر الصغير

(قصة حقيقية)

كان هناك أخوان: باسيل وكاتيا، وكان عندهما هرة. في الربيع، إختفت الهرة. بحث عنها الولدان في كل مكان فلم يعثرا عليها. وبينما كانا يلعبان، ذات يوم، قرب مخزن الحبوب، سمعا فوق رأسيهما شيئاً. كان ذلك مواءَ الهرّة، أصواتاً نحيفة ما تزال ضعيفة. تسلّق باسيل السلم حتى أسفل سقف المخزن. ظلّت كاتيا تحت، ولم تكفّ عن السؤال: «هل وجدتَها؟». لكن باسيل لم يكن يجيب. وأخيراً صرخ: «وجدتُها! إنها هرتنا. وقد وضعتْ صغاراً، ما أحلاها! تعالي، أسرعي».

جَرتْ كاتيا إلى المنزل، ووجدت حليباً فحملته إلى الهرة. لقد وضعت

---

(١) ايزوب: الذئب والعجوز. لافونتين: الذئب والأم والولد.

خمسة صغار. وعندما كبرت هذه الصغارُ قليلاً وأخذت تزحف إلى خارج الموضع الذي وُلدت فيه، إختار الولدان أحدها، وكان رمادياً قوائمه بيضاء، وحملاه إلى المنزل. وزّعت الأم الصغار الأربعة الأخرى وأبقتْ هذا للولدين. وكانا يطعمانه ويلعبان وينامان معه.

ذهب الولدان، ذات يوم، يلعبان على الطريق؛ وأخذا الهرَّ الصغير معهما.

كانت الريح تحرّك القشّ على الطريق، وكان الهرُّ الصغير يلهو بها، وكان الولدان ينظران إليه وهو يفعل ذلك، وقد امتلأا فرحاً. لكنهما وجدا، بعد ذلك، حمّيضا، على جانب الطريق، فذهبا لجَنْيه ونسيا الهرّ الصغير. وفجأة سَمِعا صوتاً غليظاً. كان أحد الناس يصرخ: «هنا! هنا!» ورأيا صياداً يُهرَع على جواده يسبقه كلبان. لقد رأى الكلبان الهرَّ الصغير وأرادا أن يمسكا به. وبدلاً من أن يهرب الهرّ الصغير (وكان غبيّاً) تجمّع على نفسه وتكوّم ونظر إليهما. خافت كاتيا من الكلبين، وأطلقت صرخةً وابتعدت ركضاً. إندفع باسيل بكل ما أمكنه من سرعة نحو الهرّ الصغير وبلغه في اللحظة نفسها التي بلغَه فيها الكلبان اللذان كادا يصيبانه. لكن باسيل إرتمى على الهر الصغير وغطّاه بجسمه، وأخفاه عن أعين الكلبين.

وصل الصيّاد جرياً وطرد الكلبين. عاد باسيل بالهر إلى البيت ولم ينزّهه في الحقول بعد ذلك.

الابن العالم

(مثل)

وصل طالبٌ شاب آتٍ من المدينة إلى منزل أبيه في الريف. قال الأب له: «نحن نجمع الكلأ اليوم، فخذ مشطاً، وهيّا، ساعدْني». لم يكن الولد يحب أن

يعمل، فأجاب: «لقد درستُ العلوم، ونسيتُ كل هذه الألفاظ الريفية، فما المشطُ؟».

ما إن دخل الفناءَ حتى داس مشطاً، فانتصب المشط ولطم جبينه بشدة. تذكرّ حينئذٍ ما المشط، ورفع يده إلى جبينه وقال: «مَنْ الأحمق الذي ترك مشطه هنا؟».

كيف تعلّم أهلُ بخارى تربية ديدان القز
(قصة حقيقية)

ظلّ الصينيون زمناً طويلاً يعرفون وحدهم فنَّ تربية ديدان القز. كانوا حريصين على سرهم، وكانوا يبيعون بثمن غال جداً النسيج الذي يصنعونه.

وصل النبأُ سمعَ إمبراطور بخارى، فصمّم أن يحصل على دود القز وأن يدرس القضية. وطلب إلى الصينيين أن يرسلوا إليه بذور دود القز وشجر التوت، لكن الصينيين رفضوا[1]. بناءً على هذا الرفض، أرسل امبراطور بخارى بعثةً إلى امبراطور الصين ليطلب يد ابنته، وأمر سفيره أن يعلم هذه البنتَ أن بخارى وإن كانت تفيض حقاً بالخيرات، إلا أن شيئاً كان ينقصها وهو: النسيج الحريري؛ وكذلك إذا شاءت أن تستمر على لباسها المترف فمن الخير أن تحمل معها، ودون أن تقول لأحد شيئاً، بذور شجر التوت ودود القز.

حصلت الأميرة على هذه البذور وخبّأتها في زينة رأسها.

---

(١) كان تشريع الصين بشأن تصدير بيوض دود القز شديد الإقتضاب. كان القرار الوحيد هو: «يُمنع، تحت طائلة الموت تصدير بيوض دود القز من الصين».

فتّشت عند الحدود للتأكد من أنها لا تحمل شيئاً محظوراً، لكن لم يجرؤ أحد على نزع زينة رأسها.

هكذا أدخل أهلُ بخارى شجر التوت ودود القز إلى بلادهم، وعلمتهم الأميرة فن تربية دود القز وزراعة شجر التوت.

الفلاح والحصان

(مثل)

ذهب فلاح على حصانه إلى المدينة: أراد أن يأتي بالشوفان لدابته. وما كاد يخرج من القرية حتى حزن الحصان وحاول الرجوع إلى المنزل. فأنحى عليه بالسوط. فأنطلق الحصانُ وهو يفكّر: «إلى أين يجبرني هذا الغبيُ أن أذهب؟ الأفضل أن نعود إلى المسكن». وما كاد الفلاح يصل المدينة حتى لاحظ مدى ما يعانيه حصانه من مشقة كي يسير في الوحل. فقاده إلى الجزء المبلّط من الطريق، لكن الحصان لم يشأ المضيّ فيه وحاد عنه، فساطه الفلاحُ وجرّه من لجامه، عند ذاك عاد الحصان إلى الطريق المبلّطة وهو يقول في نفسه: «لمَ أَعادني إلى الطريق المبلّطة؟ لا فائدة من ذلك سوى إتلاف الحوافر. قاسية على القدم، هذه الأماكن».

وصل الفلاح إلى دكان اشترى منها الشوفان ورجع إلى بيته. فلما بلغ البيت أعطى الحصان حصته من الشوفان. كان الحصان يقول في نفسه وهو يأكل: «ما أغبى البشر! فهم يؤمنون إيماناً راسخاً بأنهم أذكى منا، مع أنهم أقلّ ذكاء، لمَ عذّب نفسه كل هذا العذاب من غير جدوى؟ لقد ذهب إلى مكان لا أعرفه وهو يسوقني بضربات سوطه، ثم عدنا، مع ذلك، إلى البيت وإن كنا قد بعدنا. كان الأجدر بنا الإثنين ألا نتحرّك بتاتاً؛ فيظل هو فوق الموقد وأنا أكون قد أكلت شوفاني.

بوغاتشوف[1] حكاية عمة عجوز لجدتي

(قصة حقيقية)

كان عمري نحو ثماني سنوات، كنا نعيش في مقاطعة قازان، في قرية كانت ملكاً لنا. وأذكر أن والدي وأمي أخذا ينزعجان: كانا يلمّحان دائماً إلى بوغاتشوف. ولم أعلم من هو «بوغاتشوف قاطع الطرق» إلا فيما بعد. كان يطلب أن يُدعى الإمبراطور بطرس الثالث؛ وقد جمع حوله كثيراً من قطّاع الطرق وشنق كل النبلاء؛ أما الأقنان فقد منحهم الحرية. وكان يقال أنه هو وعصابته لم يكونوا بعيدين عنا. كان أبي يريد أن يسافر إلى قازان، لكنه كان يخاف أن يأخذنا، نحن الأولاد، معه لأن الطقس كان قاسياً، ولأن الطرق كانت سيئةً. كنا في شهر تشرين الثاني، ولم تكن الطرق مأمونة. سافر أبي إلى قازان مع أمي، ووعد بالرجوع مع رجال من القوزاق لأخذنا.

سافرا وبقينا وحدنا مع مربيتنا، آنا تروفيموفنا. كنا نعيش في غرفة واحدة، في قبو. ما أزال أرى كيف كنا؛ كنا، ذات مساء معاً: المربيّة تحمل أختي بين ذراعيها وتهدهدها وهي تتمّشى بها خلال الغرفة ــ كانت الصغيرة ممغوصة ــ ؛ وأنا ألبس لعبتي؛ وخادمتنا باراشا معنا أيضاً، تجلس إلى المائدة مع زوجة خادم الكنيسة، وتشربان الشاي، وتثرثران؛ وكان حديثهما يدور دائماً على بوغاتشوف. كنت أُلبس لعبتي، وكلي آذانٌ مصغيةٌ؛ كنتُ أستمع إلى تلك

---

(١) بوغاتشوف ولد في سنة ١٧٢٦ وهو متمرد من القوزاق ومؤمن قديم، أوهم الناس بأنه بطرس الثالث. وقد خرّب فولغا الوسطى من قازان إلى ساراتوف، وأنشأ بلاطاً وحاصر أورنبرج. ثم كسره غوليتزين فانسحب إلى الأورال وأحرق قرى قازان وانتهى بالإندحار على يد بانين. حُكم عليه بالموت في ١٠ شباط ١٧٧٥م وأُعدم في اليوم نفسه، في موسكو. وقد إستمر نشاطه المشؤوم خمسة عشر شهراً. وكتب بوشكين تاريخه، كما أنه يصف في قصته «ابنة الضابط» تلك الحرب العاتية التي لا رحمة فيها.

الأشياء الرهيبة التي تَرْويها زوجة خادم الكنيسة.

ــ إني أتذكّر ذلك جيداً. وصل بوغاتشوف إلى بيت جيراننا، على أربعين فرسخاً من هنا، وشنق السيّد على بوابة الفناء؛ أما الأولاد فقد ذبحهم جميعاً، الواحد تلو الآخر.

سألتْ باراشا:

ــ وكيف قتلهم ذلك الشقي؟

ــ إسمعي كيف قتلهم، يا عزيزتي. اينياس حدثتني بذلك. كان يأخذهم من أرجلهم، ثم يلقي بهم عند زاوية الجدار!...

فتقول مربيتي:

ــ هلاّ كففتم عن رواية هذه الفظاعات أمام الصغيرة! إذهبي إلى النوم، يا كاتيا، فقد حان وقت النوم

كنتُ أستعدّ للذهاب إلى النوم، عندما سمعنا فجأة ضربات على الباب، ونباح الكلاب، وصيحات. جرتْ زوجة خادم الكنيسة وباراشا لتريا ماذا جرى، وعادتا على الفور.

ــ هو بعينه! هو بعينه!

لم تعد مربيتنا تفكّر بمغص أختي؛ رمتْ بها على السرير، وأسرعت إلى الصندوق، فسحبت منه قميصاً وثوباً فلاحيين. نزعت عني ملابسي، وخلعت لي حذائي وألبستني لباس الفلاحة. ثم ربطت لي شالاً حول عنقي وقالت لي:

ــ إنتبهي جيداً، إذا سُئلتِ فأجيبي بأنك حفيدتي.

لم تكد تلبسني حتى سمعنا فوق رؤوسنا صوت الأحذية. وكانت الضوضاء توحي بأن هناك خلقاً كثيراً، جرت زوجة خادم الكنيسة إلينا:

ــ هو نفسه! هو بعينه وصل! وهو يأمر بذبح الخراف. ويطلب ماء الحياة وأشربة أخرى.

قالت آنا تروفيموفنا:

ـ أعطيهم كل ما يطلبون. لكن إحترسي كلما سألوك! إياكِ أن تقولي أن الأولاد هم أولاد السيد. بل قولي إنهم سافروا جميعاً، أما هذه فقولي إنها حفيدتي...

لم تَنَمْ طوال هذه الليلة. وكان القوزاق السكارى لا يكفّون عن الدخول والخروج.

لكن آنا تروفيموفنا لم تكن تخافهم. وكانت، كلما دخل أحدهم، أيّاً كان، تقول له:

ـ ماذا يلزمك، يا صديقي. لن تجد شيئاً مما تطلب هنا! أولاد صغار وعجوز!

وينصرف القوزاق. عند الصباح، نمتُ، فلما إستيقظتُ رأيت في غرفتنا أحد القوزاق يرتدي معطفاً من المخمل الأخضر، وآنا تروفيموفنا تحييه بصوتٍ خافت.

أشار إلى أختي وقال:

ـ لِمنْ هذه؟

فأجابت آنا تروفيموفنا:

ـ هذه حفيدتي، ابنة ابنتي. لقد ذهبت ابنتي مع أسيادها وتركتها لي.

ـ وهذه الصبية؟

وأشار إليّ بإصبعه.

ـ وهذه أيضاً حفيدتي، يا سيدي.

وأشار إليّ بالإقتراب:

ـ تعالي قليلاً إلى هنا، يا صغيرتي.

أحسستُ بالرهبة. لكن آنا تروفيموفنا قالت لي:

ـ إذهبي، يا كاتيش، ولا تخافي!

إقتربتُ. أمسك بخدي وقال:

ـ ما ألطف هذا الوجه الأبيض. سيكون جماله رائعاً!

وسحب من جيبه حفنةً من القطع الفضية واختار واحدةً منها، وأعطاني إياها.

ـ أمسكي، خذي، وتذكري الأمبراطور.

ثم خرج.

ظلوا عندنا نحو يومين. أكلوا كل شيء، وشربوا كل شيء، وكسروا كل شيء، لكنهم لم يحرقوا شيئاً ـ وذهبوا.

عندما عاد أبي وأمي إلى البيت. لم يعرفا كيف يشكران آنا تروفيموفنا وأعطياها وثيقة تحريرها، لكنها أبت أن تأخذها وعاشت عندنا حتى شاخت وماتت. ومنذ ذلك الوقت دُعيتُ على سبيل المُزاح: خطيبة بوغاتشوف. أما القطعة النقدية التي أعطاني إياها بوغاتشوف فقد احتفظتُ بها؛ وكلما نظرتُ إليها تذكرت أيام طفولتي، والمربية آنا تروفيموفنا.

الوزير عبدول

(أقصوصة)

كان لملك الفرس وزيرٌ عادل يُدعى عبدول. وذات يوم، كان عبدول يجتاز المدينةَ على جواده قاصداً الملك. كان الشعب مستعداً للثورة. فما أن تعرّف إليه الجمهور حتى أوقف جواده وهدّده بالموت إن حاول المقاومة. بل إن رجلاً مدّ عليه يده وشدّه من لحيته.

فلما تركه الجمهور يمرّ وصل إلى الملك، وسأله أن يرحم الشعب، وألاّ يعاقب المجرم على الإهانة الشديدة التي وُجّهت إليه.

في صباح اليوم التالي، مَثُلَ صاحبُ دكان أمام الوزير. سأله الوزير عن مراده فأجابه: «جئت لأدلّك على الرجل الذي أهانك أمس. إني أعرفه. فهو جاري واسمه نعيم: أطلبْه وعاقبْه».

صرف الوزيرُ صاحبَ الدكان وأرسل من يأتي بنعيم. أحّس نعيم أنه قد غُدِرَ به. فوصل إلى قصر الوزير وهو أقربُ إلى الموت منه إلى الحياة، وارتمى على قدميه.

أنهضه عبدول وقال له: «إذا كنتُ قد دعوتك إلى المثول فليس ذلك لكي أعاقبك، بل لأقول لك فقط: إن لك جاراً سيّئاً. فهو الذي وشى بك. إحذره، واللهُ معك».

كيف يقع للسارق أن يفضح نفسه

(قصة حقيقية)

تسلّق سارقٌ منزلَ تاجر ليلاً ودخل مخزنه. إختار فرواً وقماشاً وتهيّأ للنزول عندما تعثّر بجسرٍ كان ناتئاً عند السقيفة، وسقط بجلبة. سمع التاجر ضوضاء فوق رأسه، فأيقظ خادماً وصعد إلى المخزن ومعه مصباح. لكن الخادم الذي أخرجَ من نوم عميق قال للتاجر: «لِمَ تذهبُ؟ ليس هناك أحدٌ؛ أفلا يكون هراًّ؟». لكن التاجر صعد مع ذلك إلى المخزن.

ما أن سمع السارق خطا امرىءٍ آتٍ حتى وضع الفرو والقماش في مكانهما، وبحث عن مكان يختبىء فيه. أبصر كومة كبيرة، وكانت من التبغ والورق، فأفرغ فجوةً فيها، وانسلّ إلى وسطها وردّ التبغَ عليه.

سمع شخصين يدخلان ويتحدّثان. كان التاجرُ يقول: «سمعتُ الضوضاء تماماً؛ وسقط شيءٌ ثقيل». أجاب الخادمُ: «الضوضاء من الهر أو من عفريت المنزل». ومرّ التاجر أمام كومة التبغ، فلم يلمح شيئاً وقال: «لقد خُيِّل إليّ أنني أسمع؛ وليس هاهنا أحد؛ وما علينا إلا أن ننزل».

سمعهم السارقُ ينصرفون. ففكّر: «الآن، سأجمع غنيمتي وسأنزل من النافذة»، وأحّس فجأة أن أنفه يدغدغه، وأن التبغ سيَحْمله على العطاس. وضع يده على فمه، لكنّ الدغدغة كانت تزيد فلم يستطع أن يَحْبس العطاس.

كاد التاجر وخادمه يخرجان. فسمعا رجلاً يعطس في زاوية المخزن: «أتشوم! أتشوم! أتشوم!» فعادا أدراجهما وقبضا على السارق.

الحِمْلُ

(مثل)

سار رجلان في طريق واحدة؛ وكان كلٌّ منهما يحمل حملاً ثقيلاً على كتفيه، حَملَ أحدُهما الحملَ طوال الطريق دون أن يرفعه عن كتفيه، في حين أن الآخر كان يقف في كل لحظة ليضعَ حمله أرضاً، محاولاً أن يستردّ أنفاسه. وعند كل وقفةٍ، كان عليه أن يرفع الحملَ مرةً جديدة ويردّه إلى كتفيه. فالذي كان يرفع حمله تعب أكثر مما تعب الذي حمله دون أن يرفعه.

النَواة[1]

(قصة حقيقية)

إشترت الأم خوخاً ونَوت أن تُعطيه أولادَها بعد الغداء. كان الخوخ في صحن. ولم يكن فانياً قد ذاق الخوخَ قط، فكان لا يكفّ عن حمل الخوخات

(١) «النواة» كان لجدة تولستوي قريبٌ يعيش على أربعين فرسخاً من «إسنايا بوليانا». فعهد إليها بطفلة صغيرة من عمر تولستوي. ولها وقعتْ حادثةُ النواة التي لعب فيها المربـي الألمـانـي «ديسيل» دورَ الأب. وهذا المربـي هو نفسه الذي تحدّث عن تولستوي في «ذكريات الطفولة» بإسم «كارل إيفانوفتش موير». كان عمر تولستوي عندما سرقت الطفلةُ الخوخةَ خمس سنوات: لقد كان قوي الذاكرة.

إلى أنفه ليشمّها. أعجبته كثيراً واشتهى كثيراً أن يذوقها. وعندما لم يبق في الغرفة أحدٌ، لم يستطع المقاومة، فتناول خوخةً وأكلها. كانت الأم قد عدّت الخوخ قبل الغداء، ولما رأت أن هناك خوخة ناقصة أخبرت الأبَ.

بعد أن إنتهى الغذاء، قال الأب: «اسمعوا، يا أولاد، ألم يأكل أحدُكم خوخة؟».

أجاب الجميعُ: «لا». إحمرّ فانيا وغدا كالسرطان، وقال كالآخرين: «لا، لم آكل».

حينئذٍ قال الأب: «ليس حسناً أن يكون أحدُكم قد أكل خوخةً. لكن هذا ليس أخطر ما في الأمر. الخطيرُ أن للخوخ نواةً، وإذا لم يعرف الآكلُ كيف يُؤكل الخوخُ بلع النواة ومات في اليوم التالي. هذا ما أخشاه».

شَحبَ فانيا وقال: «لم أبلعها، وإنما رميتُها من النافذة».

ضحك الجميعُ إلا فانيا فقد بكى.

التاجران[١]

(مثل)

إستودع تاجرُ خُرْدَةٍ، وكان فقيراً، وقد أزمع على السفر، تاجراً غنياً كلَّ ما يملك. وعند عودته، ذهب إليه وسأله أن يعيد إليه ما استودعه إياه.

أجاب التاجر الغني الذي كان قد باع كلَّ شيء بالجواب الذي خطر في باله آنذاك:

ــ لقد حلّتْ بالخُرْدة كارثة.

ــ وما تلك الكارثة؟

(١) بيدبا: «تاجر وصديقه».

ــ أجل كارثة! لقد وضعتُ الخردة في مخزن الحنطة الذي تعبث فيه الفئران، فقرضتْه كلّياً. ورأيتها أنا بنفسي وهي تقرضه. وإذا لم يطبْ لك أن تصدقني فتعال وانظرْ. لم يلحّ التاجر الفقير، وقال:

ــ ولمَ أذهب لأرى؟ إني أصدّقك دون أن أذهب. وأنا أعلم أن من عادة الفئران أن تقرض الحديد. وداعاً.

وانصرف.

رأى صبيّاً صغيراً، هو ابن التاجر الغني، يلعبُ في الشارع. فداعبه وحمله بين يديه وأخذه إلى بيته.

في اليوم التالي، لقي التاجرُ الغنيُ التاجرَ الفقير وروى له مصيبته: لقد اختفى ابنُه. ألم يرَه، ألم يسمع عنه؟

أجاب التاجرُ الفقير:

ــ طبعاً رأيتُه. فعند خروجي من عندك، رأيتُ بازياً ينقضّ على صبيّك ويخطفه ويطير به.

غضب التاجرُ الغنيّ وقال:

ــ يجب أن تستحي من الهزء بي. أممكنٌ هذا؟ البازي لا يستطيع أن يطير بصبيّ صغير.

ــ لكني لا أمزح. ما الغرابة في أن يختطف البازيُّ صبياً صغيراً، عندما تقرض الفئران مائة قنطار من الحديد؟ كل شيء ممكن الوقوع!

أدرك التاجرُ الغني مراده، فقال:

ــ الفئران لم تأكل حديدك، وإنما بعتُه أنا، وسأدفع لك ثمنه ضعفين.

ــ أوه! إن كان الأمرُ كذلك فالبازيّ لم يخطف ابنك، وسوف أُعيده إليك.

كلاب القديس «غوتار»

(وصف)

سويسرا وإيطاليا بلدان متجاوران.

الجبالُ جبال الآلب، تَفْصل بين أراضيهما. وجبال الآلب جبالٌ عالية لا يذوبُ الثلجُ عن قممها. ولا بدّ من إجتيازها للذهاب من سويسرا إلى إيطاليا، والطريق تمرّ من جبل القديس غوتار. وعند القمة، على حافة الطريق، ديرٌ، الرهبانُ الذين يسكنونه يعبدون الله ويُؤون المسافرين الذين يستريحون فيه ويجدون مأوى لليلتهم. وفي سان غوتار الجوُّ غائمٌ دائماً. ففي الصيف، يحول الضبابُ دون الرؤية؛ أما في الشتاء فيسود الإعصارُ الذي يُراكم ثلوجاً قد يبلغ علوُها ثلاثة أمتار ونصف. وكثيراً ما يهلك الذين يسافرون على أقدامهم أو خيولهم من البرد في هذه العواصف. وللرهبان كلابٌ يدرّبونها على البحث عن الناس في الثلوج.

وذات يوم، كانت امرأةٌ تقصد سويسرا مشياً ومعها ولدٌ صغير. وبدأ الإعصارُ يَعْصف، فضلّت المرأة طريقها، وجلست على الثلج فخدّرها البردُ. وخرج الرهبانُ من الدير ومعهم كلابهُم فعثروا على المرأة والولد.. ادفؤوا الصغير وأطعموه، أما المرأة فقد حملوها وهي ميتة، ودفنوها في مقبرتهم(١).

لماذا أحب أخي

(حكاية فلاح)

أحبُّ أخي حبًا جمًا، وهذا شيءٌ طبيعي، لكني أحبه بخاصةٍ بعد أن حلّ محلي في الخدمة. وإليك كيف وقعَ ذلك. عندما أُجريتِ القرعة، كان حظي

(١) إن ثَقْب الجبل قد أنهى نشاط الرهبان الذين كانوا يقومون على مأوى القديس غوتار الذي كان يمر به سنوياً آلاف المسافرين.

سيئاً، وكان ينبغي لي أن أغدو جندياً، ولم أكن متزوجاً إلاّ منذ أسبوع. وما كان بودّي أن أترك زوجتي الشابة.

أخذت أمي تنتحب، وهي تردّ:

ـ «بيّرو» يسافر في هذه السن الصغيرة!. لم يكن لنا في الأمر حيلة، وشرعنا في التحضير لسفري. أعدّت لي زوجتي قمصاناً، ووَجدتْ لي مالاً. وكان ينبغي أن يَمْثل المدعوون للتفقّد في اليوم التالي. كانت أمي مهدودة العَزم، أما أنا فكنت كلما فكرتُ بالسفر انقبض صدري وكأني سأسير إلى الموت.

اجتمعنا جميعاً معاً في السهرة للعشاء. لم يُقبل على الطعام أحدٌ منا. وظل أخي نيكولا قرب الموقد لا يقول شيئاً. وأخذت زوجتي، العروس الجديدة، تئن وهي تبكي. ولم يفارق أبي مقعده وقد بدا عليه السخطُ. وعندما وضعت أمي العصيدة[1] على المائدة، أبى أن يمدّ إليها أحدٌ يده. صاحت أمي بنيكولا ودعته إلى العشاء. فنهض ورسم علامة الصليب وجلس إلى المائدة وقال: «كفّي عن الحزن، يا أمي. سأذهب أنا مكان «بييرو»؛ أنا أكبر سنًّا منه، وربما تخلّصتُ من هذه الخدمة. أما أنت، يا بييرو، فاعتنِ بأبينا وأمّنا أثناء غيابي، وعاملْ بالحسنى زوجتي أيضاً». أحسستُ أنني سعيدٌ كل السعادة، وتركتْ أمي نواحها، وأخذنا نحضّر سفر نيكولا.

وفي اليوم التالي، شعرتُ بالضيق منذ أن نهضتُ من النوم، حيث قلتُ في نفسي إن أخي سيسافر من أجلي. فقلت لنيكولا: «لا تذهبْ، وعليّ أنا أن

---

(١) هذه العصيدة هي الأكلة الوطنية، وهي مع البطاطا الأساس في غذاء الشعب؛ وهي محضرة بالحبوب، حبوب الحنطة في وسط روسيا، كما هي الحال في هذه الحكاية، وحبوب الذرة البيضاء في الجنوب وفي القوقاز، وتحتفظ الحبوب الطحينية المقشرة بشكلها رغم الغليان.

أذهب، وسأذهب». لم يقل نيكولا شيئاً وتابع استعداده. وكنتُ أنا أيضاً استعدّ.

ذهبنا معاً نحن الاثنين إلى المدينة لنتقدم إلى الفحص الأخير. أجاب نيكولا على التفقّد وأجبتُ أنا أيضاً. كنا نحن الاثنين من الفتيان الأشدّاء. ظللنا واقفين ننتظر القرار: وقد ثبت أننا صالحان للخدمة نحن الاثنين.

نظر إليّ أخي الأكبر، وعلى فمه نصفُ ابتسامة، وقال لي: «إذا كنت أذهب فلأني أريدُ ذلك».

انفجرت باكياً وعدتُ إلى منزلي. وكلما فكّرت الآن بأخي أحسستُ بأني قادرٌ على بذل حياتي من أجله.

أرنبي الأول

(حكاية)

لم يكن لي من العمر أكثر من ثلاث عشرة سنة، وكان يُشرف علي رجلٌ طيّب يُدعى إيفان اندريفتش الذي اختاره أهلي من أجل ذلك(١).

علّمني هذا الرجل أشياء كثيرة، من بينها استخدام البندقية. لقد حصل على واحدة من النوع الصغير، وكان سمح لي، عندما نتنزّه معاً، أن أطلق النار بها. وقتلتُ غراب زرع مرةً، وعقعقاً مرةً أخرى. ولم يكن أبي يعلم شيئاً من ذلك. وذات يوم خريفيّ، كنا ننتظر خالي. كان آتياً للغداء على شرف أمي في يوم عيدها. كنتُ جالساً على حافة النافذة أراقِبُ الطريق الذي سيُقبل منه. وكان أبي يتمشّى في الغرفة جيئة وذهاباً. رأيت أربعة جيادٍ شُهْب مقرونة تنفذ من

---

(١) يصف النص الروسي إيفان اندريفتش بـ «ديادكا» وهي كلمة يمكن أن يقابلها بالفرنسية «مرافق» أو «مربّ». وهو المشرف على الأولاد، وغالباً ما يكون رجلاً كبيراً في السن وخادماً متواضعاً رُفّع إلى هذه المهمة.

الغابة الصغيرة فصرخت: «ها هو ذا، ها هو ذا!» نظر أبي من النافذة ورأى العربة، فتناول قبعته وخرج إلى درج المدخل ليستقبل أخا زوجته، خرجت وراءه. قال أبـي: مرحباً، وأضاف: «هيّا انزلْ» قال خالي: «لا، هات بندقيتك وتعال معي. لمحت أرنباً كبيراً هناك، بين الأعشاب». ارتدى أبـي معطفه وتناول بندقيته. صعدتُ الدرجَ بسرعة، ودخلت غرفتي، ووضعت قبعتي، وتناولتُ، أنا أيضاً، بندقيتي الصغيرة. وما إن استقرّ أبـي وخالي في العربة حتى تسلّقت خلفهما. جلستُ القرفصاء، وقد شددتُ يدي على بندقيتي. ولم يرني أحدٌ.

عندما خرجتْ العربة من الغابة، أمَر خالي الحوذيَّ بالوقوف وانتصب وقال: «أترى هناك، بين ثلمين، عند أطراف الحقل، بقعةً رماديةً؟ إلى اليمين كتلة من الأعشاب؛ انظر إلى اليسار، على خمس خطوات منّا، ألا ترى؟». نظر أبـي، نظر طويلاً فلم ير شيئاً. أما أنا فكنت مسرفَ الانخفاض ولم يكن بوسعي أن أرى شيئاً وأخيراً قال أبـي لخالي إنه رأى الأرنب. نزلا كلاهما من العربة ودخلا الحقلَ. كان أبـي يستعد لإطلاق النار وكان خالي يدلّه بإصبعه على الموضع الذي تكمن فيه الأرنب، فتبعتهما وبندقيتي في يدي. لم أر شيئاً، لكني كنتُ مسروراً؛ فلا أبـي ولا خالي علما بوجودي هنا. قطعنا نحو مائة خطوة عندما توقّف أبـي ليصوّب. فمنعه خالي: «لا، لا، أنت أبعد من أن تُصيبها؛ لنتقدّم، وستَسْمح لنا بالاقتراب!» أطاعه أبـي. «لكن ما كدنا نسير قليلاً حتى نهضت الأرنبُ فجأةً. وأخيراً رأيتُها! كانت أرنباً ضخمةً غطّاها وبرُها الشتائي الأبيض، إلاّ ظهرها الذي كان رمادياً. بعد أن قفزتُ قفزةً كبيرةً، أصاخت السمعَ وابتعدت بوثبات صغيرة وخفيفة. صوَّب أبـي. بَفْ! وها هي الأرنب تولّي هاربة. ويطلق أبـي طلقة ثانيةً فلا تكف الأرنب عن الجري. أما أنا فلم أعد أفكّر بأبـي. لم أكن أعرف شيئاً. أسندتُ بدوري بندقيتي إلى كتفي،

وأطلقتُ النار مع أنني في الخلف! وأنظرُ، فماذا أرى؟ لم أصدّق عينيّ: رأيتُ الأرنب تنقلب على ظهرها، ثم تتمدد وتحرّك إحدى قائمتيها الخلفيتين. استدار أبـي وخالي: «من أين طلعتَ! أنت جسور!». ومنذ هذا اليوم، صارت لي بندقيتي، وسُمِحَ لي بالصيد.

الإبهام الصغير

(أقصوصة)

كان لرجل سبعة أولاد، كل ولد أصغر من الولد الذي قبله. وكان أصغرهم صغيراً جداً بحيث أنه لم يكن، عند ولادته، أكبر من الإبهام، ولذلك سمّي: الإبهام الصغير. لكن هذا الإبهام الصغير كان عظيم الفطنة شديد الدهاء.

أخذ الأب والأم يزدادان فقراً واشتد بؤسهما حتى أنهما لم يعودا يملكان ما يطعمان به أولادهما. وكانا لا يَنيان يتساءلان عمّا يستطيعان أن يفعلاه. فقرّرا أخيراً أن يأخذا أولادهما إلى الغابة وأن يلقيا بهم بعيداً جداً حتى لا يتمكنوا من العودة إلى المنزل. سمع «الإبهام الصغير» قبل الجميع، وجرى إلى الساقية، وملأ جيوبه بالحصى الأبيض الصغير.

عندما أخذ الأب والأم أولادهما إلى الغابة، ظل «الإبهام الصغير» في المؤخّرة، آخر الجماعة. وكان يمد يده إلى جيبه، طوال الوقت، ويسحب منها الحصى ويرمي الواحدة تلو الأخرى على الطريق.

لما أبعد الأبوان في الغابة ومعهما أولاهما، اختبأ خلف الأشجار، وانصرفا بسرعة. ناداهما الأولادُ طويلاً، حتى إذا رأوا أنه لم يأت أحدٌ يطلبهم أخذوا يبكون.

أما «الإبهام الصغير فلم يكن يبكي، وصاح بصوته النحيل بالآخرين:

«كفّوا عن البكاء، وسأقودكم إلى خارج الغابة». لكن إخوته كانوا يُعْولون فلم يسمعوه، في بادىء الأمر. وعندما أصغوا إليه، قال لهم كيف أنه رمى، على طول الطريق حصًى أبيض، وكيف أنه سيُخرجهم من الغابة، فرح الجميع وهم يستمعون إلى «الإبهام الصغير» وتبعوه، فقادهم من حصاة إلى حصاة حتى بلغ بهم المنزل.

في اليوم الذي قاد فيه الوالدان أولادهما إلى الغابة، تلقّى الوالد مالاً. فصار كل منهما يقول في نفسه: لمَ اقتدنا الأولاد بعيداً في الغابة؟ سيهلكون فيها. ونحن الآن نملك المال ونستطيع أن نطعمهم». كانت الأم تذرف الدموع غزاراً وتقول في نفسها «واأسفي، ليت الأولاد كانوا هنا معنا!». وعندما سمعها «الإبهام الصغير»، وكان تحت النافذة، هتف: «حسناً! ها نحن جئنا».

سارعت الأم إلى لقائهم، والسعادة تغمرها، ودخل الأولاد إلى الغرفة متقاطرين.

اشتروا كلَّ ما يلزمهم، وعادوا إلى حياتهم القديمة، وظلت حياةً هانئة ما ظلّ بين أيديهم المال.

لكن المال كله أُنْفِق، وتساءل الأب والأم مرة أخرى عما يستطيعان أن يفعلاه. وصمّما أن يقتادا الأولاد مرة أخرى إلى الغابة ليتخلّيا عنهم فيها.

وسمعهما، هذه المرة أيضاً، «الإبهام الصغير». وعند مطلع الصباحَ أراد أن يذهب إلى الساقية ليتزوّد بالحصى. لكنه عندما أراد الخروج رأى الباب مغلقاً والمزلاج مشدوداً. وبالرغم من جهوده كله فإنه لم يستطع أن يطاله.

أخذ الإبهام الصغير معه خبزاً مكان الحصى الذي لم يستطع أن يأتي به، وحشا به جيبه وهو يقول في نفسه: «عندما يقتادانا سألقي بفتات الخبز على طول الطريق، وبهذه الوسيلة أخرج أخوتي من الغابة».

اقتاد الأب والأم، للمرة الثانية، أولادهما إلى الغابة، وتركاهم فيها

وعندما بكى أخوا الإبهام الصغير اللذان يكبرانه وعدهما بأن يخلّصهما من هذه المأزق مرة أخرى.

لكنه لم يَهْتد، هذه المرة، إلى الطريق لأن العصافير أكلت الخبز حتى آخر قطعة فيه.

سار الأولاد. ساروا طوال اليوم، جاء الليل ولم يهتدوا إلى الطريق وعند الصباح، كان الإبهامُ الصغيرُ أول المستيقظين. تسلّق شجرة ليلاحظ ما حولها، فرأى بيتاً صغيراً. نزل عن الشجرة وأيقظ إخوته وقادهم إلى ذلك البيت الصغير. قرعوا الباب، فخرجت امرأة عجوز وسألتهم عما يريدونه. قالوا لها أنهم ضلّوا طريقهم في الغابة. فأضافتهم عندها. قالت لهم: «ممّا يثير الشفقة أنكم جئتم إلى هذا البيت! زوجي غول، وإن رآكم أكلكم. حقاً أنكم تثيرون شفقتي. اختبئوا هنا تحت السرير. وغداً سأصرفكم» خاف الأولاد كثيراً واختبؤوا تحت السرير. وفجأة سمعوا دقاً على الباب وسمعوا من يدخل الغرفة. نظر الإبهام الصغير من تحت السرير: كان الغول المرعب الطلعة جالساً إلى المائدة ينادي المرأة العجوز: «هاتي زجاجة». قدمت إليه العجوز الخمرَ. وبعد أن شرب اشتمّ ناحية اليمين ثم ناحية الشمال، وقال «أن ها هنا رائحة بشرية! لقد اختبأ أحدُ البشر هنا». وعبثاً قالت له المرأة العجوز أن ليس في البيت أحدٌ. فقد ظل يفتش مهتدياً بشمّه، وظل يدنو من السرير حتى بلغه، وجسّ ما تحته وأمسك «الإبهام الصغير» من ساقه: وصرخ: «القطتكم!». وسحبهم من تحت السرير الواحد بعد الآخر وفرح فرحاً عظيماً. ثم تناول سكينه واتخذ وضع من سيذبح الأولاد. لكن زوجته أوقفته، وقالت له إيه! ويحك، انظر إليهم ألا تراهم مهزولين، سقيمين؟ يجب أن نطعمهم أولاً، سيصبحون أكثر طراوة وسيغدو لحمهم أفضل مذاقاً.

سمع اغول كلامَ زوجته، وأمر أن يُغذّى هؤلاء الصغارُ تغذيةً حسنة وأن يناموا في غرفة بناته الصغار.

وكان للغول، في الواقع سبع بنات صغار قاماتهن كقامات الأولاد الصغار. وكانت البنات السبع نائمات في سرير واحد، وعلى رؤوسهن قلانس من ذهب. وقد لاحظ الإبهام الصغير زينة رؤوسهن، فلما خرج الغولُ وزوجتهُ من الغرفة نزع برفت القلانس الذهبية عن رؤوس بنات الغول، ووضعها على رأسه ورؤوس اخوته، ووضع مكانها على رؤوس بنات الغول قبعاتهم أنفسهم.

شرب الغولُ طوال الليل. وبما أنه شرب كثيراً اشتهى أن يأكل من جديد. فنهض عن المائدة، وقصد الغرفة التي نام فيها الإبهام الصغير وإخوته وبناته السبع. دنا من السرير الذي ينام فيه الأولاد الصغار، وجسّ ؤوسهم، فأحس بالقلانس الذهبية. قال في نفسه: «كدتُ أذبح بناتي، لا بدّ أنني أسرفت في الشراب». ترك الصغارَ ودنا من سرير بناته: أحسّ أن على رؤوسهن قبعات من القماش اللين، فذبحهن كلهن ونام بهدوء.

حينئذٍ أيقظ الإبهام الصغير إخوته، وفتح الباب وهربوا جميعاً إلى الغابة. مشوا الليل كله، ومشوا النهار كله، دون أن يفلحوا في الخروج من الغابة.

لما أفاق الغولُ، عند الصباح، ورأى أنه ذبح أولاده لا الآخرين، احتذى جزمته التي طولها سبعة فراسخ، وجابَ الغابة كلها بحثاً عن الأولاد الصغار.

هذه الجزمة التي طولها سبعة فراسخ تتيح لمن يحتذيها أن يقطع سبعة فراسخ في كل خطوة.

فتّش الغـول، وظـلّ يفتّـش طـويـلاً دون أن يعثـر علـى الأولاد الصغـار، وعندما أراد أن يستريح تمدد وأغفى على مقربة منهم.

سمعه «الإبهام الصغير» يشخر، فزحف حتى بلغ الغول، ففتش جيوبه ووجد فيها ذهباً سلّمه إلى إخوته. ثم نزع برفقٍ حذاءه. واحتذاه، وأمر إخوته

أن يستمسكوا به وإلاّ يرخوا أيديهم وجرى مسرعاً حتى أنه خرج من الغابة بطرفة عين وأدرك منزله.

سلّم الأولادُ أبويهم الذهبَ الذي حملوه، فأصبحا غنيين ولم يتركا أولادهما بعد ذلك.

بابين الأحمق

(أقصوصة بلازمة)

أخذ أحمق، ذات يوم، يجوبُ روسيا ليرى العالم ويري العالم نفسه أيضاً.

وجد في طريقه كوخين خشبيين ليس فيهما أحدٌ. ونظر إلى القبو فوجد في داخله شياطين شواربها منفوشة، وعيونها كبيرة كالكرات، وجماجمها مقرّنة، وهي تلعب معاً الورق بأصابعها المعقوفة، وترقِّص زهر النرد وهي تعد نقودها.

حياها الأحمق: «ليكن الله معكم!». معكم أيها الناس الطيبون!

ساءَ ذلك الشياطين، فقبضت على الأحمق، وأخذت تضربه، وأرادت أن تخنقه: فلما صار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، تركْته ينصرف.

إذ ذاك عاد الأحمص إلى بيته حزيناً، باكياً، صارخاً بأعلى صوته. فوبّخته أمه، وأهانته زوجته، وأضافت أخته: «لست سوى غبي كبير، لست سوى أحمق، يا بابين! لم تستطع أن تقول لها الكلمات التي كان يجب أن تقولها. كان يجب أن تقول لكل منها: «عليك اللعنة، أيها العدو(١)، باسم الله!». إذن لذهبت الشياطين جميعاً، ولتركت لك المال الذي تراهنت عليه! كان المال سيكون لك، أيها الأحمق!

---

(١) يجب أن تفهم كلمة «عدو» بالمعنى الديني. والفلاح الروسي ليس جاهلاً بأمور الدين.

ـ اتفقْنا، أيتها النساء.

فهمتُ جيداً، يا زوجتي ويا أمي لوكيريا، ويا أختي تشيرنافا، نعم، لقد تحامقتُ ولن أتحامق بعد الآن.

ومضى الأحمق يطوّف في روسيا ليرى العالم وليريه نفسه أيضاً.

وجد في طريقه أربعة أخوة وهم يدرسون حصيد القمح، فقال لكل منهم: «عليك اللعنة أيها العدو باسم الله!». حينئذٍ أخذ الإخوة الأربعة يضربونه. فلما صار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، تركوه ينصرف.

إذ ذاك عاد الأحمق إلى بيته حزيناً، باكياً، صارخاً بأعلى صوته. فوبّخته أمه، وأهانته زوجته، وأضافت أخته: لستَ سوى غبـي كبير يا بابين لست سوى أحمق. لم تستطع أن تقول لهم الكلمات التي كان يجب أن تقولها لهم. كان يجب أن تقول لكل منهم: «عسى أن يدخل عليكم من ذلك ما تعجزون عن حمله».

ـ اتفقنا، أيتها النساء، يا زوجتي، ويا أمي لوكيرا، ويا أختي تشيرنافا، نعم، لقد تحامقتُ، ولن أتحامق بعد الآن.

ومضى الأحمق يطوّف في روسيا ليرى العالم وليُريه نفسه أيضاً.

وجد في طريقه سبعة إخوة يحملون جميعهم أمهم إلى القبر وهم يبكون جميعاً ويصرخون بأعلى أصواتهم. قال الأحمق للإخوة السبعة: «ليكن الله معكم جميعاً، أنتم السبعة، عسى أن يدخل عليكم من ذلك ما تعجزون عن حمله».

عندما سمع الإخوة السبعة هذه الكلمات امسكوا بالأحمق وجرّوه في الوحل وضربوه ضرباً مبرحاً، فلما صار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة تركوه ينصرف.

عاد الأحمقُ إلى بيته حزيناً، باكياً، صارخاً بأعلى صوته. فوبّخته أمه،

وأهانته زوجته، وأضافت أخته: لست سوى غبي كبير، لست سوى أحمق، يا بابين. لم تستطع أن تقول لهم الكلمات التي كان يجب أن تقولها. كان يجب أن تقول لكل منهم: «الصلاة من أجل راحة نفسها الأبدية في مملكة الرب، وفي فردوسه البديع». إذن لطلبوا إليك أيها الأحمق أن تكرّم الميتة وأنت تحشو نفسك بالفطائر والخمر مع الزبيب[١].

ـ اتفقنا، أيتها النساء.

فهمتُ جيداً، يا زوجتي ويا أمي لوكيريا، ويا أختي تشيرنافا، نعم، لقد تحامقت ولن أتحامق بعد الآن.

ومضى الأحمق يطوّف في روسيا ليرى العالم وليُريه نفسه أيضاً.

وصادف عرساً، فقال للعروسين: «الصلاة من أجل راحة نفسها الأبدية في مملكة الرب وفي فردوسه البديع» فوثب فتيانُ العرس وامسكوا به من ياقته، وأوسعوه ضرباً وجلداً وصفعاً لاسعاً.

عاد الأحمص إلى بيته حزيناً، باكياً، نادماً. كان يمشي وهو يبكي، فوبخته أمه، وأهانته زوجته، وأضافت أخته: لستَ سوى أحمق، يا بابين لم تستطع أن تقول لهم الكلمات التي كان يجب أن تقولها: كان يجب أن تقول للعروسين: «يا أميري! يا أميرتي! ليمنحكم الرب زواجاً سعيداً، وحياة في المحبة، وأولاداً كثيرين».

ـ نعم، لقد تحامقت، ولن أتحامق بعد الآن.

ومضى الأحمق يطوّف في روسيا ليرى العالمَ وليُريه نفسه أيضاً.

وجد في طريقه، ناسكاً. فقال له: «أيها الناسك، ليمنحنك الرب زواجاً

---

(١) هذه هي الوجبة التي لا تتغير في الوليمة الشعائرية التي تقدم للمشاركين في إحياء ذكرى الميت: الفطائر، والرز المحلى بالزبيب.

سعيداً، وحياة في المحبة، وأولاداً كثيرين». لم يلبث الناسك أن أمسك بالأحمق فأوسعه لطماً وضرباً وكسر عصاه عليه.

إذ ذاك، عاد الأحمق إلى بيته حزيناً، باكياً، فوبخته أمه، وأهانته زوجته، وأضافت أخته: لستَ سوى غبي كبير، لستَ سوى أحمق، يا بابين! لم تستطع أن تقول له الكلمات التي كان يجب أن تقولها: «باركني، يا أبَتِ القديس!».

ـ اتفقنا، أيتها النساء.

فهمت جيداً، يا زوجتي، ويا أمي لوكيريا، ويا أختي تشيرنافا؛ نعم، لقد تحامقتُ ولن أتحامق بعد الآن.

ومضى الأحمق عبر روسيا ليرى العالم ليريه نفسه أيضاً.

رأى الأحمق، في غابة كبيرة من الصنوبر، دبًّا يمزّق بقرة خلف شجرة. فقال لذلك الدب: «باركني، يا أبَتِ القديس!» حينئذٍ انقض الدب على الأحمق، وأمسك به، ودحرجه على الأرض وحطّم عظامه، وعندما صار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة تركه ينصرف.

حينئذٍ عاد الأحمق إلى بيته، باكياً، حزيناً، وقال كل شيء لامه، فوبخته أمه، وأهانته زوجته، وأضافت أخته: لست سوى غبي كبير. لست سوى أحمق، يا بابين! لم تستطع أن تقول له الكلمات التي كان يجب أن تقولها، كان يجب أن تحثّه، وأن تصيح به، لكي تشجعه: «هيا! تابع!».

ـ اتفقنا، أيتها النساء، فهمت جيداً، يا زوجتي ويا أمي ويا أختي تشيرنافا. نعم، لقد تحامقتُ ولن أتحامق بعد الآن.

سافر الأحمق أيضاً لآخر مرة، وعَبَرَ السهلَ، السهلَ الأجرد، المنبسط، فطلع له ضابطٌ في طريقه. صاح الأحمق: «هيّا، هيا! إلى الأمام، إلى الأمام! تابع! تابع!». حينئذٍ أصدر الضابط إشارةً إلى رجاله فأمسكوا بالأحمق وأوسعوه ضرباً: بقي الأحمق هناك، على الأرض، صريعاً، بلا حراك.

سفياتوغور، الجبار[١]

(أقصوصة شعرية)

كان توغور يجوب السهل المنبسط على حصانه، فلم يلق أحداً يختبر معه قواه، قوى الجبار، القوى العظيمة التي كان يحسّها في نفسه. كان يحسّ بها جيّاشةً، تجري في عروقه، وكان ينوء بها وكأنها حملٌ ثقيل.

نطقَ سفياتوغور البطلُ بهذه الكلمات، كلمات الكبرياء «بقواي هذه، قوى الجبار، أستطيع أن أرفع الأرضَ لو وجدتُ نقطة ارتكاز».

ما إن قال هذه الكلمات حتى شاهد رجلاً، رجلاً يحمل كيساً، على بعد ساحق يعبر السهل.

اتجه سفياتوغور إلى الرجل المار. خبَّ بجواده فظلّ الرجل أمامه؛ وحث جواده فلم يستطع أن يلحق به.

حينئذٍ صاح سفياتوغور بأعلى صوته: «يا أيها العابرُ! انتظرْ قليلاً؛ إني لم أستطعْ اللحاقَ بك حتى على جوادي الأصيل».

---

(١) سفيا توغور، الجبّار: سفيا توغور (الجبل المقدّس ولعله سانت إيغور)، جبّار الروس، الشاعر بقوته، المنفرد بذاته، الذي أعياه أن يجد بطلاء في مستواه، فتحدّى السماء في فَوْرة كبريائه: إن قواه بلغت حداً عظيماً يكفي لرفع العالم وتقريبه من القبّة السماوية بحيث يجمع السماء والأرض. ولكن إذا بعابر سبيل يمر أمامه، بعيداً عنه، عابر سبيل لا يميّزه شيءٌ عن أولئك المشرّدين الذين لا يُحصى عددهم والذين يجوبون السهول الروسية المستوية الجرداء، سوى سرعة جريه. كان يمضي مثلهم وكيسه على ظهره. ومع ذلك فهو الذي اختير ليهزم الجبار المتعجرف: إن الكيس الذي يحمله عباد الله بكل ثقل الأرض، هذه الأرض التي يحرثها ويسطحها منذ الأبد وإلى الأبد والتي هو ابنها. إن سفيا توغور، الذي غدا عاجزاً أمامه، لا يكاد يرفع الكيس عن الأرض. وها إن الأرض تشدّه إليها، فيغرق فيها ويصبح جبلاً: الجبل المقدّس. وأما هذا الجبل سيدفع ميكولا الفلاح محراثه خلال القرون.

سمع العابرُ، من بعيد، سفياتوغور، فوقف وألقى بكيسه؛ وصل سفياتوغور بجواده إلى مقربة من الكيس ودفعه بقبضة سوطه، فلم يتحرك ولم يهتزّ لدى ملامسته إياه بإصبعه. فأمسكه بيده وشدّه إليه، فكأن الكيس كان ملصقاً بالأرض، إذ لم يستطع سفياتوغور أن يرفعه عنها. حينئذٍ وثب البطلُ عن جواده وتناول الكيس بكلتا يديه، وشدّ بكل قوته، قوة الجبّار، وبجهدٍ جاهد حتى تضرّج وجهُه الأبيض بالحمرة القانية. وأخيراً رفعه عن الأرض، لكنه لم يكد يرفعه إلاّ بعد لأيٍ. وإذا به يغوص حتى ركبته في الأرض المُطعِمة.

إذ ذاك قال سفياتوغور بصوته العظيم: «أيها العابر، قل لي الحقَّ، قل لي: بأي شيءٍ مُلىءَ هذا الكيس؟».

أجاب العابرُ: «إن ثقل الكيس هو ثقل الأرض المُطعمة».

قال سفياتوغور للعابر: «وأنتَ، مَنْ أنتَ وما اسمُك»؟.

أجاب العابر: «أنا ميكولا الفلاّح، أنا ميكولا الذي تُحبّه الأرض المُطعمةُ».

• • •

كتاب القراءة الثاني

الطفلة والفطور

(قصة حقيقية)

كانت طفلتان عائدتين إلى بيتهما ومعهما فطور. وكان عليهما أن تجتازا خط السكة الحديدية.

إعتقدتا أن القطار ما يزال بعيداً، فتسلّقتا الردمَ ودلفتا إلى السكة الحديدية. وفجأةً سمعتا صوت القطار. فعادت أكبرهما سناً إلى الوراء وهي تركض، أما الصغرى فعبرت الخط.

صاحت الكبيرة بأختها: «إبقي حيث أنتِ!»

لكن عربة القطار كانت شديدة القرب منهما، وكان لها ضجيج عظيم حتى إن الصغرى لم تسمع ما قالته لها أختها. وظنت أن أختها تأمرها بالجري إليها، فعادت أدراجَها على عجلٍ؛ وتعثّرت، فسقطت الفطور وأخذتْ تلمّها.

إقتربت العربةُ منها وأخذ سائقها يطلق صفارته بكل قواه.

صاحت الكبرى: «دعي الفطور!». لكن الصغرى ظنت أن أختها تأمرها بلمّها، فظلّت تلمّها وهي تزحف على ركبتيها، على طول الخط.

لم يكن السائقُ قادراً على التحكّم في عربته فأدرك الطفلةَ وهو لا ينفك يُطلق صفّارته.

أخذت الكبرى تصرخ وتبكي، وأخذ المسافرون جميعاً ينظرون من النوافذ. أما مدير القطار فجرى إلى العربة الأخيرة ليرى ما الذي حلّ بالطفلة.

بعد أن مرّ القطار رأى الجميعُ الطفلة مستلقية بين خطوط القطار لا ترفع رأسها ولا تتحرك.

لكن الطفلة رفعت رأسها بعد أن ابتعد القطار، وجثتْ على ركبتيها، ولمّتْ الفطور، ثم ركضت نحو أختها.

الحمار في جلد الأسد

(مثل)

إرتدى حمارٌ جلدَ أسدٍ. قال الجميع: «هوذا الأسد». وهربت الحيوانات وهرب الناس من وجهه.

هبّت الريح، فانشقّ الجلدُ، وبان الحمار تحت الجلد. إنقضَّ الناسُ على الحمار وأوسعوه ضرباً.

الندى على العشب

(وصف)

أخرُجوا، في صبيحة صيف مشمسة، إلى الغابة أو إلى الحقول؛ انظُروا إلى ذلك الألق على العشب. إن الماس المتلالىء بالشرار المتعدّد الألوان والمتغيّر ليَبْرقُ في الشمس؛ إنه يتحوّل من اللون الأصفر، إلى الأحمر، إلى الأزرق، وإذا ما دنونا وبحثنا عن المكان الذي ينبعث منه هذا الشرار لرأينا أنه ينطلق من قطرات الندى التي تلتمع تحت الضوء، في أعماق الورقات المثلثة لقشّة عشب.

إن ورقة هذا العشب وَبِرةٌ، زَغِبةٌ في الداخل كأنها المخمل. وإن القطرات الصغيرة تتدحرج فيها دون أن تبلّلها. وإذا قطعنا بلا احتراسٍ ورقة من التي توضّعت عليها لؤلؤةٌ من الندى فإن القطرة الصغيرة، وهي كرّيةٌ مضيئةٌ، تتدحرج بسرعة عظيمة حتى إن العين لا تراها تنساب على طول الساق وتختفي.

كم مرةٍ قطعتُ مثل هذه الكؤوس، كم مرة رفعتُها، بلا احتراس، إلى شفتيّ لأشرب نداها! لقد بدت لي دائماً أشهر شراب.

الدجاجة والسنونوة[1]

(مثل)

عثرت دجاجةٌ على بيوض أفعى فحضنتها. وحين رأتها السنونوة تفعل ذلك قالت لها:

ـ الحقُ أنك غبيّة! ستفقسينها فإذا كبرتْ الصغارُ كنتِ أول ضحيّة لها.

الهندي والانكليزي[2]

(حكاية)

أَسرَ الهنود، وهم يحاربون الإنكليز، شاباً منهم. ربطوه إلى شجرة واستعدوا لقتله.

إقترب منهم هنديٌ عجوز وقال لهم:

ـ لا تقتلوه؛ أعطوني إياه بدلاً من أن تقتلوه.

فسلموه الشابَ الإنكليزي.

فك الهنديُ العجوز قيدَ الإنكليزي، وٱقتاده إلى كوخه وأطعمه وهيّأ له موضعاً يقضي فيه ليله.

في اليوم التالي أمره الهنديُ بأن يتبعه. مشيا طويلاً؛ ولما أصبحا على مقربة من المعسكر الإنكليزي، قال الهنديُ:

ـ أصحابُك قتلوا ابني؛ وأنا أنقذتُ حياتَك. إمضِ والتحق برفاقك واستمرّ في قتلنا.

---

(١) ايزوب: الدجاجة والسنونوة.

(٢) أشار تولستوي إلى أنه إستمدّ هذه الحكاية من مصدر هندي، هندي من أمريكا.

دهش الإنكليزيُ أيّما دهشةٍ. وقال له:

ـ لمَ تهزأ مني؟ أنا أعلم أن أصحابـي قتلوا ابنك؛ أقتلني ولا تتأخّر.

أجاب الهندي:

ـ في اللحظة التي كادوا يقتلونك فيها تذكرتُ ابني فساورتني الشفقةُ عليك. لستُ أمزحُ: إمضِ والحقْ برفاقك، واستمرَّ، إذا شئتَ، في قتلنا.

وترك الهنديُ الإنكليزيَّ ينصرف.

الأيّل والرشأ[1]

(مثل)

قال رشأٌ صغيرٌ ذات يومٍ، لأبيه:

ـ أنتَ أكبر من الكلاب وأرشق، وأنت مسلحٌ، فوق ذلك، بقرنين ضخمين لتدافع بهما عن نفسك؛ فكيف ترهبها مثل هذه الرهبة؟

إبتسم الأيّل وقال:

ـ كل ما تقوله صحيح، يا بُنيّ! المصيبةُ أنني لا أكاد أسمعها تنبحُ حتى أجري دون أن يتسنّى لي أن أفكر.

السُترة

(قصة حقيقية)

شرع فلاحٌ في ممارسة التجارة وربح مالاً كثيراً حتى غدا تاجراً ثريّاً في خدمته مئات الوكلاء الذين لم يكن يعرفهم جميعاً حتى بأسمائهم.

وذات يوم، اختفى من صندوقه عشرون ألف روبل. فبدا رؤساءُ الأقسام تحقيقهم وانتهوا باكتشاف الذي سرق المالَ.

(١) ايزوب: الرشأ والظبية.

قصد رئيسُ العاملين التاجرَ وقال له:

ـ عثرتُ على السارق، ويجب إرساله إلى سيبيريا.

سأل التاجر:

ـ ومَنْ هو؟

أجاب الخادمُ العجوز:

ـ لقد اعترف إيفان بيتروف بكل شيء.

فكّر التاجرُ وقال:

ـ يجب أن نَصْفح عن إيفان بيتروف.

إحتج العامل وقد استبّدت به الدهشة:

ـ كيف! نصفح عنه؟ إذا كانت الأمور كذلك فسيفعل الآخرون مثلما فعل: وسيبّددون كلَّ شيء.

كرّر التاجر:

ـ يجب أن نصفح عن إيفان بيتروف. فعندما بدأتُ أعمالي كنا رفيقين. وعندما تزوجتُ لم أكن أملك لباساً لائقاً أرتديه وأَمثلُ به أمام الهيكل. فأعارني هو سترتَه. يجب أن نصفح عن إيفان.

من أجل هذا صُفِحَ عن إيفان بيتروف.

الثعلب والعنب[1]

(مثل)

رأى ثعلبٌ عناقيد عنب ناضجة تتدلّى من عريشةٍ، فاتّخذ موضعاً له ليتناولها ويأكلها.

---

(١) ايزوب: الثعلب والعنب. لافونتين: الثعلب والعنب.

عبثاً تطاول، فلم يستطع أن يطولها. قال في نفسه ليُذهِب غيظه: «إن العناقيد ما تزال فجّة».

إقبال الحظ

(قصة حقيقية)

نزل قومٌ في جزيرة غنية بالحجارة الكريمة. كان كل واحد يسعى لأن يجمع أكبر قدر ممكن منها، مُثقلاً في أكله وفي نومه، عاملاً بلا أنقطاع. وكان بينهم واحدٌ لا يعمل شيئاً؛ لقد ظل جالساً بلا حراك، يأكل ويشرب وينام. وعندما أوشكت الجماعةُ أن تعود إلى موطنها أيقظت هذا الرجل وسألته: «بمَ ستعود إلى بيتك»؟ لم يتردد الرجلُ: إنحنى إلى الأرض وقبض قبضةً من التراب ووضعها في كيسه.

حين عاد الجميع إلى بيوتهم، أخرج الرجل قبضةَ التراب فوجد فيها حجراً يساوي جميع الأحجار الأخرى.

الخادمات والديك[1]

(حكاية)

كانت ربة المنزل توقظ خادماتها كل ليلة وتأمرهنّ بالعمل عند أول صَيْحةِ للديك. بدأ ذلك، في نهاية الأمر، شاقاً على الخادمات، ففكّرن أن يذبحن الديكَ حتى لا يوقظ سيدتهن. وذبحْنه، لكن حظّهن إزداد سوءاً؛ ذلك أن ربة المنزل أخذت توقظ خادماتها أبكر من ذي قبل، خشية ألا تستيقظ في الوقت المناسب.

---

(١) ايزوب: المرأة وخادماتها. لافونتين: العجوز وخادمتاها.

الطاحونة التي كان ينبغي أن تسير وحدها
(قصة حقيقية)

تعلّم فلاحٌ كيف يصنع الطواحين. عملَ طواحين الماء، وطواحين الهواء، وطواحين أخرى تديرها الخيول.

حلم بصنع طاحونة لا تحتاج، لكي تدور، إلى قوة الماء أو الهواء أو الخيول؛ قامت فكرتُه على تركيب حجرٍ ثقيلٍ يَهْبط فيحرّك الدولاب بثقله، ثم يعلو ليهبط مرة أخرى، بحيث تسير الطاحونةُ وحدها.

قصد الفلاحُ إقطاعياً في الجوار وقال له:

ـ لقد إخترعتُ طاحونةً تسير وحدها، بدون قوة الماء والخيول؛ فما إن تُحرَّكُ حتى تُتابع حركتها وحدها إلى أن تُوقَف. لكني لا أملك المال الذي أشتري به الخشب والحديد اللازمين. أَعطني ثلاثمائة روبل وستكون أول آلة من هذا النوع لكَ.

سأل الإقطاعيُ الفلاحَ إن كان يعرف القراءة. فأجابه الفلاحُ أنْ لا. حينئذٍ قال له الإقطاعي:

ـ لو كنتَ على شيء من المعرفة لأعطيتك كتاباً عن علم الحركة، ولقرأت فيه أشياء عن الطاحونة التي تسير وحدها؛ وسوف تتعلم منه أن من غير الممكن صنع مثل هذه الطاحونة، وأن كثيراً من العلماء جُنّوا وهم منكبّون على البحث عن حل هذه المشكلة: إنشاء طاحونة تسير وحدها.

لم يصدّق الفلاح ما قيل له، فقال:

ـ في كتبكم الكثير من الأشياء السيئة. لقد صنع ميكانيكيٌ متعلّم جداً آلة للغربلة، صنعها لأحد التجار، فلم يُحسن صنعها. وأنا الذي لا يعرف القراءة والكتابة ما إن ألقيتُ عليها نظرةً خاطفة حتى رأيتُ على الفور ما لا يسير فيها، فأجريت عليها تعديلاً طفيفاً، وبدأتْ تعمل.

سأله الإقطاعي:

ــ لكن كيف ترفع الحجرَ بعد أن يكون قد نزل؟

ــ سيرتفع وحده بالدولاب.

ــ سيرتفع قليلاً، لكنه لن يصل النقطة التي انطلق منها، وفي المرة الثانية سيكون أدنى من المرة الأولى، حتى تأتي اللحظةُ التي يتوقّف فيها، مهما يكن وضعُ الدولاب، هذا كما لو كنتَ تهبط هضبةً عاليةً متزلجاً على الجليد: سوف تندفع إلى أعلى الهضبة المقابلة بفعل السرعة المكتسبة، لكنك لن تصل من الهضبة المقابلة ما يوازي أعلى الهضبة العالية: إن ذلك غير ممكن.

ظل الفلاّحُ لا يصدّق ما يقال له، وقصد تاجراً ووعده بأن يبني له طاحونة لا تسير بالماء أو بالخيول.

سلّمه التاجرُ المالَ. وضع الفلاحُ آلته، وأعاد صنعها، وأنفق المبلغ الذي استلفه، ومقدارُه ثلاثمائة روبل، فلم تعمل الطاحونة. وباع كلَّ ما يملك ليتمكن من متابعة تجاربه.

فقال له التاجر:

ــ هيّا، سلّمْني هذه الطاحونة التي تسير وحدها بدون مساعدة الخيول، وإلاّ فأعِدْ إليّ مالي.

ذهب الفلاحُ إلى الإقطاعي وباح له بألمه. فأعطاه الإقطاعيُ المبلغَ وأضاف:

ــ إبقَ هنا: ستشتغلُ عندي: اصنعْ لي طاحونةً، لكن لتكنْ طاحونة ماء أو طاحونة خيول. أنتَ تحسن هذا، ولا تَتصدَّ في المستقبل إلى ما لم يستطع تحقيقَه مَنْ هم أذكى منك.

صيّاد السمك والسمكة الصغيرة[1]

(مثل)

صاد صيّاد السمك سمكةً صغيرة. قالت له تلك السمكة:

ـ أيها الصياد، أعدني إلى الماء؛ أنت ترى حجمي ولن تستفيد كثيراً مني. فإذا أخليتَ سبيلي كبرتُ، وإذا كبرتُ أمسكت بي مرةً أخرى وغدوتُ ذات نفعٍ كبير لك.

أجابها الصياد:

ـ الأحمقُ الشديدُ الحمق هو الذي يتخلّى عن النفع الصغير أملاً بنفعٍ أكبر.

اللمس والبصر[2]

(موضوع للمحادثة)

صالِبْ بين السبّابة والوسطى، وبهذين الإصبعين المتصالبين المس كرّيةً مبرومةً بين أصبعيك، لكنْ إفعلْ ذلك وأنت مغمض العينين.. سيُخيَّل إليك أن هناك كريّتين. إفتحْ عينيك فلن ترى سوى واحدة. خدعتْك الأصابع، لكن العينين أصلحتا الخطأ.

انظرْ، وأنت جالسْ ـ والأفضل أن تجلس جلسةً جانبيةً ـ إلى مرآة شديدة الصفاء، سوف يخيَّلُ إليك أنها نافذةٌ أو بابٌ وأن وراءها شيئاً. ضعْ إصبعك على المرآة فسوف تتأكدّ من أنها مرآة. أخطأت العينان لكن الأصابع أَصْلحت الخطأ.

---

(١) ايزوب: الصياد والسمكة. لافونتين: السمكة الصغيرة والصياد.

(٢) لعل المصدر هو مسائل أرسطو.

الثعلب والتيس[1]

(مثل)

إشتهى تيسٌ أن يشرب، فنزل إلى بئر صعب المُرتقى، وشرب منه حتى امتلأ وتثاقل.

حاول الصعودَ فلم يستطع. حينئذٍ أخذ يثغو، شاهده ثعلب فقال له: «هذا جزاء حماقتك! لو كان لك من الرأي بمقدار لحيتك لتساءلتَ قبل النزول: ما السبيل إلى الصعود».

الفلاح والحجر

(قصة حقيقية)

كان في ساحة المدينة صخرة ضخمةٌ تشغل مكاناً واسعاً وتعرقل حركة العربات. جيءَ بالمهندسين وسُئلوا: كيف يمكن رفعُ هذه الصخرة وكم يكلّف ذلك.

قال أحد المهندسين: يجب تفجير الصخرة بالألغام ونقل أجزائها، وسيكلّف ذلك ثمانية آلاف روبل. وأعلن آخر أنه يجب إدخال مدحاةٍ كبيرة تحت الصخرة ونقلها بهذه الطريقة. وأضاف أن ذلك سيكلّف ستة آلاف روبل.

تدخّل فلاح وقال: طيّب! أنا سأرفع الصخرةَ وسآخذ أجرة ذلك مائة روبل. وعندما سُئل كيف سيفعل، أجاب: «سأحفر حفرةً واسعة قرب الصخرة، وسأنشر التراب الذي أحفره في الساحة ثم أدحرج الصخرة إلى الحفرة، ثم أسوّي الأرض بعد ذلك».

وهذا ما فعله ذلك الفلاح؛ فأُعطي مائة روبل، وأُعطي فوق ذلك مائةً أخرى مكافأةً له على فكرته البارعة.

---

(١) ايزوب: الثعلب والتيس. لافونتين: الثعلب والتيس. لقمان: الغزالة والثعلب.

الكلب وظله[1]

(مثل)

إجتاز كلبُ الساقيةَ مِن فوق خشبةٍ، وقطعةُ اللحم بين أسنانه. رأى صورته في الماء فظنها كلباً آخر ومعه قطعة أخرى. ترك الكلب قطعته واندفع ليخطف الأخرى. لم يلقَ أمامه قطعةً، أما التي كان يحملها فقد حملها الموج.

ظل الكلبُ ولا شيءَ بين أسنانه.

شاتي ودون

(حكاية)

كان لشيخٍ يُدعى إيفان، ولدان: «شاتي إيفانيتش» و«دون إيفانيتش». كان شاتي أكبر سناً وأطول وأقوى من أخيه؛ أما دون فكان أقصر وأضعف. دلّ الأبُ كلاً من ولديه على الطريق الذي يجب أن يسلكه وأمرهما أن يطيعاه. عصى شاتي أباه ولم يسر في الطريق التي رسمها له أبوه؛ لقد إنحرف عن طريقه فأهلك نفسه. أما دون فأطاع أباه وذهب إلى حيث أمره أبوه. ولذلك عبر روسيا كله ونال المجدَ.

في منطقة «ايبيفان» من مقاطعة «تولا» قريةٌ تسمّى باسم البحيرة التي تحتلّ مركزها، بحيرة إيفان. من هذه البحيرة يخْرج جدولان يتجهان إتجاهين مختلفين، أحد الجدولين شديد الضيق حتى ليمكن أن يعبره المرء بخطوة واحدة، ويُدعى الدون؛ والآخر عريض ويُدعى الشاتي.

الدون يمضي قدماً وكلما تقدّم ازداد عرضه. أما الشاتي فيتلوّى، إلى هذه الجهة تارةً، وإلى تلك تارةً أخرى.

---

(١) ايزوب: الكلب الذي يحمل لحماً. لافونتين: الكلب الذي يترك فريسته من أجل الظل. لقمان: الكلب والحدأة.

وهكذا إجتاز الدون روسيا كلها قبل أن يصبّ في بحر آزوف. وهو نهر كثير السمك، يحمل القوارب والمراكب البخارية.

وشَردَ الشاتي فلم يتجاوز أرض «تولا» وصبَّ في نهر «الأوبا».

الكُركيّ واللقلق[1]

نصب فلاحٌ فخاخاً لاصطياد طيور الكركي التي كانت تُبيد بذاره. فوقعت بعض هذه الطيور فيها ومعها لقلق.

قال اللقلق للفلاح:

ــ دعْني أذهب؛ أنا اللقلق ولستُ كركياً؛ نحن شرفاء بين الطيور، وأنا أسكن عند والدك على السطح. وواضحٌ من ريشي أنني لقلق.

أجاب الفلاح:

ــ لقد قبضتُ عليك وأنت بصحبة طيور الكركي، وسأذبحك معها.

سودوما

(حكاية)

سودوما ساقية صغيرة في منطقة «بوركوف»، من مقاطعة بسكوف. وعلى جانبي الساقية يَنْتصبُ جبلان أحدهما في مقابلة الآخر.

على أحد الجبلين كانت تقوم قديماً مدينةٌ صغيرةٌ هي فيشغورود؛ وعلى الجبل الثاني، كان السلاف يتجمعون قديماً ليفصلوا في خصوماتهم. ويروي الشيوخُ أنه كانت تتدلّى من السماء على هذا الجبل، في العصور الغابرة، سلسلةٌ، وأن صاحب الحق كان يستطيع أن يطولها بيده، وأن المخطىء لم يكن يفلح في ذلك.

(١) ايزوب: «قنّاص الطير واللقلق». المصدر ايزوب لكن الموضوع تحولَّ كلّياً.

إقترض رجلٌ مالاً من رجلٍ آخر، ثم أنكر دَيْنه. وجيءَ بالمتنازعيْن إلى جبل سودوما وأُمرا بلمس السلسلة. رفع الدائن يده ولمس السلسلةَ من أول مرّة. وجاء دورُ المذنب ليلمسها. فلم يمانع؛ سلّم عصاه إلى خصمه وطلب إليه أن يمسكها لكي لا يكون بيده شيء يعوقه عن بلوغ السلسلة. ورفع يده ولمسها.

دُهش الشعبُ دهشةً عظيمةً: كيف يمكن أن يكونا كلاهما على حقّ؟ لقد كان مع المذنب عصا مفرغةٌ أخفى فيها المال الذي أنكر إقتراضَه. فأعطى دائنَه هذه العصا ليمسكها لحظةً، وبذلك يكون قد سلّمه المبلغ، وهكذا إستطاع بلوغ السلسلة.

هكذا خُدع الحضور، بيد أن السلسلة إرتفعت إلى السماء، ومنذ هذا اليوم لم تنزل قط. هذا (على الأقل) ما رواه القُدامى.

البستانيّ وأولاده[1]

(مثل)

كان بستانيٌّ يرغب في تدريب أولاده فنّ البستنة. فعندما أشرف على الموت إستدعاهم وقال لهم:

ـ يا أبنائي، عندما أموت ابحثوا عما هو مخبأ في الكرمة.

ظن أبناءُ البستاني أن في الكرمة كنزاً، فلما مات أبوهم أخذوا يحفرون الأرض في كل مكان، ويحرثونها في كل الإتجاهات، فلم يعثروا على الكنز، لكنهم قلبوا الأرض قلباً فأعطت الكرمة أكثر من ذي قبل بكثير، وغدوا أغنياء.

---

(١) ايزوب: الحرّاث وأولاده. لافونتين: الحرّاث وأولاده.

البومة والأرنب[١]

(مثل)

هبط الليل وبدأ البوم الذي يبحث عن فريسته طيرانه في وهاد الغابة. ومن الغابة خرجت بوثبةٍ، أرنبٌ صهباء ضخمةٌ، وأخذت تختال في فرجة بين الشجر. رأتها بومة عجوزٌ حطّت على غصن فسألتها بومة شابة:

ـ لم لا تصطادينها؟

ـ هذه الأرنب كبيرة، أكبر من قدراتي. حاولي أن تنشبـي مخالبك فيها، ستكون الغلبةُ لها في الدغل.

ـ حسناً، أنظري ماذا سأفعل. سأنشبُ فيها مخلباً، وبسرعةٍ فائقة سأغرز المخلب الآخر في جذع الشجرة لأثبت نفسي.

إنقضّت البومة الفتية على الأرنب، وأنشبت مخلبها فيها حتى غاص في لحمها، وأتخذت وضع المقاومة إذ تشبثت بجذع شجرة، بمخلبها الآخر. وعندما أرادت الأرنبُ أن تحمل البومة قالت في نفسها البومة التي ثبتت يدها في الشجرة على نحو مكين: «لن تُفلت مني».

بذلت الأرنب جهداً عظيماً لتخلص نفسها فمزقت البومة ظلت إحدى يديها في جذع الشجرة، أما اليد الأخرى فظلّت في ظهر الأرنب. وفي السنة التالية دهش صيادٌ حين رأى في ظهر أرنب إصطادها مخالب بومة مغطّاة باللحم.

الذئب والكركي[٢]

(مثل)

كان ذئبٌ يختنق. لقد علق في حلقه عظم. وعبثاً سعل: أبى العظم أن يخرُج. فقال للكركي:

---

(١) ربما كانت هذه الحكاية إحدى ذكريات صيد المؤلف.

(٢) ايزوب: الذئب ومالك الحزين. لافونتين: الذئب واللقلق.

ـ أيها الكركي، إن لك عنقاً طويلاً، فأدخل رأسك في حلقي واسحب هذه العظم، وأني لقادرٌ على مكافأتك.

دسّ الكركيُّ رأسه وسحب العظمة وقال:

ـ هات المكافأة الآن.

صرّ الذئب أسنانه وأجاب:

ـ المكافأة! ألا يكفيك أني لم أهشم رأسك عندما كان بين أسناني.

أنثى النسر

(قصة حقيقية)

عملتْ أنثى النسر عشاً لها في شجرة، على جانب الطريق، بعيداً عن البحر. وصار لها في هذا العش فراخٌ.

وذات يومٍ، وكان الناسُ يشتغلون قرب هذه الشجرة، عادت أنثى النسر إلى عشها، وبين مخالبها سمكةً كبيرة. رأى الناس السمكة فأحاطوا بالشجرة وأخذوا يصيحون وهم يرمون أنثى النسر بالحجارة.

تركت أنثى النسر فريستها فالتقطها الناس وانصرفوا.

حطّت أنثى النسر على حافة العش، فرفعت فراخها رؤوسها وأخذت تصيح: كانت تطلب غذاءها.

كانت أنثى النسر متعبةً، وأحسّت أنها عاجزةٌ عن الطيران مرة أخرى إلى البحر، فانسلّت إلى العش، وغطت فراخها بجناحيها، وأغدقت عليها مداعباتها، وملّست لها زغبها: فكأنما كانت تناشدها أن تتذرّع بالصبر. لكنها كانت كلما داعبت الفراخ أمعنت هذه الفراخ في الصياح.

حينئذٍ غادرت أنثى النسر عشها وحطت على أعلى الأغصان، بعيداً عن صراخ الفراخ التي زادت شكاتها.

وفجأة ردت عليها أنثى النسر بصيحة عظيمة، وصفقتْ بجناحيها، وطارت متثاقلة نحو البحر. لم تعد إلاَّ عند حلول الظلام، بطيئة الطيران قريبة من الأرض، لقد كانت تحمل، هذه المرة أيضاً، سمكة كبيرة.

حين اقتربت من الشجرة، نظرت لترى، إن كان أحد الناس من حولها. فلما اطمأنت طوت جناحيها وحطت على حافة العش. رفعت فراخ النسر رؤوسها ومدّت مناقيرها، فمزقت الأم السمكة وأطعمت أولادهما.

البطة والقمر

(مثل)

كانت البطة تسبح في الساقية، باحثة عن السمك. قضت يومها فلم تعثر على سمكة واحدة. ولما جاء الليل رأت القمرَ وظنّته سمكة تلمع، فغطست في الماء لالتقاط القمر. ورأتها البطات الأخريات فسخرن منها.

منذ ذلك اليوم، ظلت البطّة خجلةً وجلةً إلى الحد الذي امتنعت فيه عن محاولة التقاط السمك التي تراه في الماء، وماتت جوعاً.

الدبّ على العربة

(مثل)

لقي مدربُ الدب، ذات يوم، وهو في طريقه، حانةً، فربط دبّه عند باب الفناء، ودخل ليشرب جرعة من خمر. ووصل إلى الموضع نفسه حوذي في ثلاثة جياد مقرونة، فربط رسن الحصان الأوسط بعريش العربة. وكان في العربة كسراتٌ من خبز أثارت رائحتها شهوة الدب فأفلت من حبله وسعى إليها، وصعد إلى العربة، وأخذ يعيث في الحشيش. شاهدته الجياد فانطلقت تجري على الطريق. ولم يدر الدبُّ ما يفعل فتشبّث بحافة المركبة. وكان، كلما أسرعت الجياد وهاجت هزَّز رأسه، وهو متعلق بقائمتيه الأماميتين، فيميله إلى

هذه الجهة تارةً وإلى تلك تارةً أخرى. وكانت الجياد تستدير أحياناً لتلقي عليه نظرة خاطفة ثم تعود وتنطلق من جديد دون أن تخفف من سرعة جريها لا في المنحدرات ولا في الطلعات... وكان الفلاحون لا يجدون الوقت للاحتماء منها. كانوا يرون ثلاثة جياد يغطّيها الزبدُ، تجرّ عربةً عليهادب متشبثٌ بحافة العربة، ينظر إلى هذا الجانب حيناً وإلى ذاك حيناً آخر. عندما رأى الدب أن الأمور قد ساءت بالقياس إليه قال في نفسه: «هذه الجياد ستقتلني». وأخذ يهدر، فازداد اندفاع الجياد. كانت تجري وتجري، ولفرط ما جرت انتهت بالوصول إلى قريتها. كان الناس جميعاً ينظرون إلى وصول هذه الهجمة جرياً فيتساءلون: ما عساه يكون ذلك كله. توقفت الجيادُ أمام اصطبلها داقة بابه. فرفعت ربّة المنزل المنزّل رأسها لترى ما يجري وقالت في نفسها: «ما معنى هذا؟ لا شك أن زوجي في وضع غير عادي حتى يعود بهذه السرعة!». نزلت إلى الفناء، ومَنْ رأت ينزلُ: زوجها؟ لا، بل دبًّا!

قفز الدب من العربة، ووثب إلى الحقل، وقصد الغابة.

الذئب في الغبار

(مثل)

نوى ذئبٌ أن يخطف خروفاً، فعرّض نفسه للريح لكي يصيبه غبار القطيع.

شاهده كلبُ الراعي فقال له:

ـ يا ذئب، أنتَ تخطىء حين تسير في الغبار، فسوف تؤلمك عيناك.

أجاب الذئب:

ـ من سوى حظي، يا كلبي العزيز، أن عينيّ مريضتان منذ زمن بعيد، والناس يزعمون أن غبار قطيع الخراف دواءٌ ممتاز.

الصفصافة

(قصة حقيقية)

في أحد أيام أسبوع الآلام، أراد فلاح أن يرى، أن كان الجليد قد ذاب عن الأرض.

خرج من كوخه وغرز عصاه في تربة بستانه البقلي: لقد غدت الأرضُ أشدّ رخاوةً.

وذهب الفلاحُ إلى الغابة: لقد أخذ الصفصاف يبرعم. قال الفلاح في نفسه: «لو غرست غيضة من الصفصاف حول بستاني لنمَت مع الزمن ولحمت بستاني من الريح».

أحضر فأسه، وقطع عدداً من الأغصان الصغيرة، ثم شذّب رؤوسها الكبيرة وغرسها في الأرض.

نمت جميعُ أغصان الصفصاف وأطلعتْ قضباناً فتيّة تغطّت بالأوراق، كما نمت غراس أخرى أعدت لتربّـي جذوراً في الأرض. بعض هذه الغراس وجدت تربة صالحة فعلقت بها، لكن بعضاً منها كان أقل علوقاً ووجدت عقبات في طريقها فذبلت وماتت.

سرّ الفلاح كثيراً، حين جاء الخريف، إذ رأى أن ست صفصافات قد كبرت حول بستانه. لكن الخراف، في الربيع، قرضت أربعاً منها، فلم يبق سوى اثنتين. وبعد سنة، قُرضتْ الصفصافتان الفتيتان اللتان لم تُمسّا حتى الآن، فماتت إحداهما، وتخلّصت الأخرى من الموت فعمقت جذورها وغدت شجرة.

في الربيع التالي، أخذ النحلُ يدوّي حولها، وكانت فرق النحل، لدى انفراقها، تحطّ عليها في الغالب، فيهرع الفلاحون إلى جمعها. وكان رجالُ

القرية ونساؤها يأتون طوعاً ليتناولوا طعامهم تحت الشجرة وليستظلوا بظلها. وكان الصبية يتسلّقون جذعها ليقطعوا قضباناً لهم.

مات، منذ زمن بعيد، الفلاحُ الذي غرسها قديماً، وخَلَفه ابنه البكر؛ ولم تكفّ الصفصافةُ عن النمو، وقد قطع هذا الابن أغصانها مرتين وتدفّأ من حطبها. وظلت هي تكبر. وعبثاً كانوا يقطعون رأسها ويكوّرونها، ففي الربيع كانت تُطلع أغصاناً جديدة أصغر، في الحقيقة، لكنها أكثر عدداً. تبدو كالقنزعة على الرأس.

لقي الابن حتفه بدوره، وهاجر أهل القرية، واستقروا في مكان آخر؛ وظلت الصفصافة تنمو في عرض الحقل. وجاء فلاحون مجاورون وجرّحوها بفؤوسهم وظلت الصفصافة تكبر. وضربتها الصاعقة، لكنها استعادت قواها، ونبتت فيها أغصانٌ جديدة قرب جراحها. ظلت الصفصافة تنمو وتزهر.

ذات يوم، خَطَر لفلاح أن يجتثّها ليصنع منها معلفاً. لقد كان الجذع تالفاً جداً حتى أنه عدل عن فكرته.

انفتلت الصفصافة الآن، ولم تعد تقف على الأرض إلاّ من جهة واحدة، ومع ذلك كانت تحيا، وفي كل سنة كان النحلُ يُهرع إليها ليجني مؤونته من زهورها.

لكنْ في ذات يوم من بداية الربيع، إذا بأولاد يرعون الخيول يلتقون تحتها. لقد أحسّوا بالبرد فجمعوا القشّ والعشب اليابس والكلأ، وتسلّق أحد الصبية على الشجرة وقطّع أغصانها. ثم ملؤوا جوف الشجرة بهذا الحطام وأشعلوا فيه النار. سُمِعَ صفيرٌ، وتسخّن النسغ، وصعد الدخان، ثم أخذت ألسنة النار تجري هنا وهناك.

غدا جوف الصفصافة أسود كالحاً. وانطوت على نفسها براعمها الجديدة وذبلت أزهارها.

عاد الأولاد إلى القرية يسوقون خيولهم مخلّفين وراءهم، في حقل مقفرٍ، صفصافة محترقة. حطّ عليها غراب أسود وهو ينعق:

«أيتها الأرومة العتيقة! ها أنتِ قد هلكتِ، لكن هلاكك لم يكن، في الحقيقة، مبكّراً.

الفأر تحت مخزن الحبوب

(مثل)

كان فأرٌ يعيش تحت مخزن للحبوب في أرضه ثقبٌ صغير ينفذ منه القمحُ حبةً حبةً. كان هذا الفأر يعيش أياماً سعيدة، لكنه أراد، ذات يوم، أن يتباهى برفاهيته، فقرض الخشب، ووسّع الثقب، ودعا فئراناً أخرى إلى زيارته:

ــ هيّا إلى جولة في بيتي. ستجدون فيه ما يكفي الجميع من الطعام.

لكنه عندما أدخل الفئران لاحظ أن الثقب لم يعد موجوداً. لقد شاهد الفلاح أن الثقب قد اتّسع فسَدَّه.

كيف تربي الذئاب أبناءها

(حكاية)

كنت أسير على الطريق، فسمعتُ صرخات خلفي. كان الصارخُ فتىً راعياً يركض عبر الحقول مشيراً بإصبعه إلى شيءٍ ما.

تطلّعتُ فرأيتُ ذئبين يهربان خلال الحقول، أحدهما كبيرٌ والآخر فتيٌّ. وكان الذئبُ الفتي يحمل على ظهره حملاً مذبوحاً. كان يمسكه بأسنانه من قدمه. وكان الذئبُ الآخر يجري خلفه.

ما إن رأيت الذئبين حتى شرعتُ بمطاردتهما مع الراعي وأنا أطلق صرخاتي مثله. واستجاب الفلاحون لاستغاثاتنا فهرعوا مع كلابهم.

عندما شاهد الذئبُ العجوزُ الكلابَ والناس لحق بالذئب الصغير، وانتزع الحملَ منه، وألقاه على ظهره، وسارعا من جريهما، وغابا عن عيوننا.

حينئذٍ روى الراعي الفتى ما جرى: وثب ذئبٌ من وهدةٍ وقبض على حمل وقتله وحمله. وجاء الذئب الصغير وهو يركض وانقضّ على الحمل. تركه الذئبُ العجوز يأخذه، وشرع يركض معه دون أن يحمل شيئاً.

في لحظة الخطر، قطع الذئبُ العجوزُ درسه وتناول الحملَ فوضعه على ظهره.

الأرانب والضفادع[١]

(مثل)

اجتمعت الأرانبُ يوماً وأخذت تشتكي من حياتها. كانت تقول: «الناسُ والكلاب والنسور سببُ هلاكنا؛ والحيواناتُ المفترسة الأخرى! الأفضل أن ننتهي من هذه الحياة مرةً واحدة بدلاً من أن نحيا في عذاب الخوف. هيّا لنُغرقْ أنفسنا».

وجرت الأرانبَ إلى ضفة البحيرة لترمي بنفوسها في الماء. سمعت الضفادع الأرانب تصل، فإذا بهذه الضفادع تلقي بنفوسها في الماء. قالت إحدى الأرانب:

ـ توقَفْنَ، يا أولادي! انتظرْن قليلاً قبل أن تُغْرِقن أنفسكن في الماء. فلا شك أن حياة الضفادع أسوأ من حياتنا، لأنها تخاف من كل شيء، حتى منا نحن.

---

(١) إيزوب: «الأرانب والضفادع». لافونتين: «الأرنب والضفادع».

قصة دوريّ مدجّن، «المعمّر»

(حكاية عمتي)

بنى دوريّ عشه خلف مصراع نافذة بيتنا ووضع فيه خمس بيضات صغار. وقد كنا، أختاي وأنا، ننظر إليه وهو يحمل القشة أو الريشة، ثم يحمل الأخرى، ويصنع عشّه، فلما وضع بيضاته سُررنا كثيراً، لقد كفَّ الدوريُّ عن المجيء وهو يطيرُ، حاملاً ريشةً أو قشةً في منقاره، بل ظلّ حاضناً بيضه. وأخذ دوريٌّ آخر ــ وقد قيل لنا إن أحد الدوريين هو الذكر وأن الآخر أنثاه ــ يحمل للأنثى ديداناً صغيرة ويُطعمهما.

في مدى بضعة أيام، سمعنا صرخات ضعيفة حادة آتية من خلف المصراع، فنظرنا إلى ما يجري في العش، رأينا فيه خمسة عصافير صغيرة، عارية تماماً، بلا أجنحة ولا ريش؛ كانت مناقيرها صفراء ورخوة، وكانت رؤوسها كبيرة.

وجدناها بشعة جداً، ولم نعد نبتهج حين نفكّر فيها؛ من وقت إلى آخر فقط كنا نذهب لنرى ما تصنع. كانت الأم تطير غالباً بحثاً عن الغذاء؛ وما إن تعود حتى تفتح العصافير الصغيرة مناقيرها الصغيرة وهي تزقزق. وكانت الأم توزّع عليها الديدان في أجزاء صغيرة.

بعد أسبوع كبرت الصغار، وتغطّت بالزغب، وغدت أجمل، فأخذنا نتأملها. وذات صباح، ذهبنا إلى المصراع فرأينا الدوريَّ الكبير ممدّداً ميتاً، بجانب المصراع. وأدركنا أن الدوري حطّ هنا ليقضي الليل، وأنه نام، وأنه هُرس عند إغلاق المصراع.

أخذناه ورميناه في العشب. كانت الصغار تصيح، وتمدّ رؤوسها الصغيرة، وتفتح مناقيرها؛ لكن لم يكن ها هنا أحدٌ ليزقّها.

قالت أختي الكبرى: «الآن لم يبق لها أبٌ، وليس لها أحدٌ يُطعمها؛ وسنطعمها نحن، أتَقْبلان؟».

سُررنا بهذه الفكرة، فتناولنا سلةً وملأناها قطناً، ووضعنا فيها العشّ والصغار، وحملناها إلى بيتنا، إلى أعلى المنزل. ثم استخرجنا من الأرض دوداً صغيراً، وبللنا خبزاً بالحليب، وأخذنا نطعم صغار الدوريّ. كانت تأكل جيداً، وتهز رؤوسها، وتنظّف مناقيرها بحافات السلّة، وكانت كلها فرحةً.

أطعمناها طوال النهار ولم نكفّ عن تأملها. وفي اليوم التالي نظرنا إلى السلة فإذا أصغرها ممدّد وهو ميت؛ لقد علقت ساقاه بالقطن.

رميناه وأفرغنا السلة من القطن كله خوفاً من أن تنشب ساقاً دوري آخر، ووضعْنا مكان القطن عشباً وطحلباً. لكن دوريين آخرين نفشا ريشهما، عند المساء، وفتحا منقاريهما، وأغمضا عينيهما، وماتا هما الآخران.

مات الرابعُ بعد يومين أيضاً، فلم يبق سوى دوري واحد. قيل لنا إننا أتخمناها بالطعام. ذرفت أختي الدموع على عصافيرها، وشرعت تطعم الدوريَّ الأخير وحدها؛ قنعنا بالنظر إليها. عاش هذا الدوريّ الخامس بعد إخوته، وكان دورياً صغيراً، فرحاً، مليئاً بالصحة والحياة. سمّيناه «المعمِّر».

عاش هذا المعمر زمناً كافياً ليتعلم الطيران وليرد على اسمه. فعندما كانت أختي تنادي: معمّر، معمّر!». كان يُهرُع ويحط على كتفها، أو رأسها، أو يدها، فتطعمه.

ثم كبر وتعلم كيف يُطعم نفسه. وكان يعيش معنا، في غرفتنا، في الأعلى. وكان يخرج أحياناً من النافذة، ويطير. لكنه كان يعود دائماً ليأخذ مكانه في السلة، ليلاً.

ذات صباح، لم يطر من السلة: كان ريشه مبلّلاً وكان ينفشه، كما فعل

إخوته قبل أن تموت، لم تكن أختي تتركه، وكانت تُعنى أبداً به. لكن «المعمّر» كف عن تناول الطعام والشراب.

مرض ثلاثة أيام، ومات في اليوم الرابع. وعندما رأيناه ميتاً، ممدّداً على ظهره، منكمش الساقين، بكينا، أختاي وأنا، بكاءً حاراً حتى إن أمي صعدت الدرج بسرعة لترى ما حَدثَ. عندما دخلتْ الغرفة رأت على الطاولة الدوريَّ ميتاً وأدركت سبب حزننا. وأبَتْ أختي الكبرى أن تأكل أو تلعب خلال عدة أيام، ولم تكفّ عن البكاء.

لفّعنا «المعمّر» في قطع من القماش ــ من أحسن ما عندنا ــ ووضعناه في علبة خشبيّة، وأضْجعناه في أرض الحديقة. ثم أقمنا على قبره نَشْزاً صغيراً عليه حجرٌ صغير.

ثلاثة أرغفة صغيرة وبسكويتة

(حكاية)

اشتهى فلاحٌ الطعام فاشترى رغيفاً صغيراً وأكله لكنه ظل يشتهي الطعام، فاشترى رغيفاً صغيراً آخر وأكله. فلم يشبع وظل يشتهي الطعام، فاشترى رغيفاً صغيراً ثالثاً وأكله، ومع ذلك ظل يشتهي الطعام. ثم اشترى بسكويتاً وعندما أكل واحدةً منها زال جوعه. حينئذٍ أمسك الفلاح برأسه وهتف:

ــ ما أغباني! لمَ أكلت كل هذا الخبز بلا جدوى! ما كان علي إلاّ أن أبدأ بأكل بسكويتة.

ألف قطعة ذهبية

(قصة حقيقية)

أراد غني أن يَهبَ الفقراءَ ألفَ قطعة ذهبية؛ لكنه لم يكن يعلم أيّ الفقراء يعطيهم هذا المال.

قصد الكاهنَ وقال له: «أريد أن أهبَ الفقراء ألف قطعة ذهبية، لكني لا أعلم أي الفقراء أعطي خُذْ هذا المبلغ ووزّعْه كما تريد».

قال له الكاهنَ: «هذا مبلغ كبير؛ ثم إني لا أعلم لمن أهبه؛ فقد أسرف في عطائي لهذا، وأقصّر في عطائي لذاك. هيّا، أخبرْني على أيّ الفقراء أوزّع مالك، وكيف أوزّعه».

أجاب الغنيُّ: «إذا كنت لا تعلم لمن تهبه فاللّه يعلم ذلك. هب المال لأول فقير يقصدك.

بين رعية الكاهن كان يعيش رجلٌ فقير؛ كان له كثيرٌ من الأولاد. وكان هو نفسه مريضاً لا يستطيع العمل. وفي ذات يوم كان الرجل الفقير يقرأ المزامير، فوقع على هذا القول: «كنتُ فتى وكبرتُ ولم أر الصدّيقَ تُخلِّي عنه، ولا ذريته تلتمس خبزها».

فكّر الرجلُ الفقير. «هأنذا قد تخلّى الله عني! مع أني لم أسيء إلى أحد. حسناً! سأتوجّه إلى الكاهن وسأسأله كيف يمكن أن يوجد مثل هذا الخطأ في الكتاب المقدّس».

ومضى إلى الكاهن. رآه الكاهنُ مقبلاً فقال في نفسه: «هوذا أول فقير يأتي إليّ».

وأعطاه الألف ليرة الذهبية التي من عند الرجل الغني.

بطرس الأكبر والفلاح

(قصة حقيقية)

بينما كان بطرس الأكبر يتنزه ذات يوم في الغابة، صادف فلاحاً يحتطب. قال له الامبراطور: «ليكن اللّهُ في عونك».

أجاب الفلاح: «الحقّ معك، أنا بحاجة إلى عونه».

سأله الامبراطور:

ـ ألك أسرة كثيرة العدد؟

ـ بالنسبة إلى الأسرة، لي ولدان وبنتان.

ـ أهذا كل ما عندك! ليس هذا كثيراً. وماذا عساك تصنع بمالك؟

ـ أقسمه إلى ثلاثة أقسام: بالقسم الأول أسدد ديوني؛ وأقرض الثاني بالفائدة؛ أما القسم الثالث فأرميه في الماء.

سأله الامبراطور ماذا يعني ذلك. فشرح له الشيخ ذلك بقوله: «أسدّد ديني بأن أعيل أبي وأمي؛ وأضع المال بالفائدة إذ أربي أبنائي، وأرمي مالي في الماء إذ أربّي بناتي».

قال الامبراطور: «لستَ بالغبي ساعدني إذن في الخروج من الغابة فلستُ قادراً وحدي على معرفة طريقي».

أجاب الفلاح: «تستطيع أن تعرفه وحدك. امضِ بخط مستقيم، ثم مِلْ إلى اليمين أولاً، ثم دُر إلى الشمال، وبعد ذلك انحرف إلى اليمين».

قال الامبراطور: «لستُ أفهم شيئاً من شرحك. اصحبني».

ـ أصحبك، لا وقتَ عندي لذلك! إن يوماً من العمل لعظيم القيمة عندنا، نحن الفلاحين».

ـ حسناً! إن كان عظيم القيمة، فسوف أدفع لك الأجر.

ـ طيب، ما دمتَ تدفع فلنذهب.

صعد الامبراطور إلى عربة الفلاح وانطلقا. وفي الطريق سأل الامبراطور دليله: «حسناً! هل سافرت كثيراً؟

ـ سافرت قليلاً.

ـ وهل رأيت الامبراطور؟

ـ لا؛ لم أر الامبراطور؛ وإن كانت لا تنقصني الرغبة في رؤيته.

ـ حسناً! ستراه، ما إن نخرج من الغابة حتى تراه.

ـ وبمَ أعرفه؟

ـ سيرفع الناس جميعاً قبعاتهم عن رؤوسهم؛ وهو وحده سيحتفظ بقبعته على رأسه.

ها هما يخرجان من الغابة. وتدلف العربة إلى السهل. وفي السهل ناس، يحسرون عن رؤوسهم الواحد تلو الآخر. ويحملق الفلاحُ بعينيه فلا يرى الامبراطور، فيقول:

ـ وأين الامبراطور، يا ترى؟

ويجيب بطرس الأكبر:

ـ أنت وأنا وحدنا احتفظنا بقبعتينا على رأسينا: لا بد أن يكون أحدنا هو الامبراطور.

الكلب المسعور

(قصة حقيقية)

اشترى نبيل من المدينة كلب صيد وحمله إلى الريف في كمّ فرويّته وتعلقت امرأته بالكلب الصغير وربّته بكثير من الرعاية، في الشقة التي في أعلى المنزل. كبر الكلبُ الصغير وسمّياه: «الصديق الصغير».

كان يرافق صاحبه إلى الصيد، ويحرس البيت ويلعب مع الأطفال.

ذات يوم، دخل كلبُ حراسةٍ إلى المنزل وهو يركض. جاء هذا الكلب مباشرةً من الطريق وقد خفض ذيله، وسال لعابه على شدقه الفاغر. كان الأطفال في الحديقة. رأى الأب الكلبَ فصاح بالأولاد: «عودوا بسرعة إلى المنزل! هذا الكلب مسعور!».

سمع الأولاد أباهم، لكنهم لم يرو الكلب فجروا لملاقاته. أراد الكلب

المسعور أن يرتمي على أحدهم، في هذه اللحظة انقض عليه «الصديق الصغير» وأخذا يتعاضّان.

هرب الأولاد، لكن عندما عاد «الصديق الصغير» إلى البيت، كان يئن، وكان على رقبته دمٌ.

بعد عشرة أيام، اغتمّ «الصديق الصغير» وانقطع عن الطعام والشراب وارتمى على كلب صغير ليعضّه. فحبس في غرفة فارغة.

لم يفهم الأولاد لمَ حُبس «الصديق الصغير» وذهبوا خفيةً ليروه.

فتحوا الباب ونادوه. كاد «الصديقُ الصغيرُ» يرميهم، واندفع إلى الفناء، وذهب لينام تحت شجيرة ملتفة الأغصان. وعندما شاهدته صاحبته نادته لكنه لم يطعها، ولم يحرّك ذيله، ولم يلتفت إليها. كانت عيناه معكّرتين، ومن فمه كان اللعابُ يسيل. إذ ذاك نادت زوجها وقالت له: «تعال بسرعة، لقد أطلق أحدهم «الصديق الصغير» وهو مسعور تماماً. بالله عليك، أفعل شيئاً!».

تناول الزوج بندقيته ودنا من الصديق الصغير. أسند بندقيته إلى كتفه، لكن يده ارتجفت عندما صوّب. لم يصب رأسه، لكنه أصاب مؤخرته.

أطلق الكلبُ صرخة شاكية وتخبط. دنا الزوج دنواً أكبر ليرى ما أصابه، كانت مؤخرة الكلب تدمى، وقائمتاه الخلفيتان مكسورتين. زحف الصديق الصغير نحو صاحبه وأخذ يلحس قدمه، فعرت الرجل رجفة، وانفجر باكياً، وجرى إلى المنزل.

حينذاك دُعي صيادٌ آخر، فقتل الكلب ببندقية أخرى، وحمله معه.

الجوادان

(مثل)

كان جوادان يجرّان عربتين. وكان الجواد الذي في المقدمة يحسن الجر، أما الذي في المؤخرة فكان يتوقف في معظم الأحيان. عندئذٍ نُقل إلى العربة

الأمامية حمل العربة الخلفية، فلما نقل كل شيء قال الجواد الخلفي الذي كان يسير من غير حمل للجواد الأمامي:

ـ هيّا، اكدحْ واعرق! كلما أتعبت نفسك أتعبوك.

عندما بلغا النزلَ، قال صاحبهما في نفسه: «لمَ أُطعم جوادين في حين يكفيني جواد واحد لنقل الأثقال؟ الأجدر بي أن أزيد في وجبة أحدهما وأن أذبح الآخر؛ سأربح جلده على كل حال؟ وهذا ما فعله.

الأسدُ والكلب الصغير

(قصة حقيقية)

كان في لندن معرضُ وحوش تمكنُ زيارته أما بشراء بطاقة، أو بتسليم التفتيش كلاباً أو هررة تصلح لإطعام الحيوانات، وذلك بدلاً من المال.

وذات يوم، أراد رجلٌ فقير لا يملك مالاً أن يرى الحيوانات المفترسة فالتقط كلباً من الشارع وحمله إلى معرض الوحوش. سُمح له بالدخول أما الكلب فأُخِذ منه ورمي في قفص الأسد ليكون وليمة له.

أقعى الكلب في زاويةٍ وذيله بين ساقيه. مشى الأسدُ إليه وشمّه لحظةً.

إستلقى الكلبُ على ظهره، وقوائمه في الهواء، وأخذ يحرك ذنبه.

جسّه الأسد بيده وأوقفه على قوائمه.

إنتصب الكلبُ وأخذ يُظهر براعته.

كان الأسد يتابعه بعينيه، فيميل برأسه إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى، دون أن يلمسه.

وعندما رمى له الحارسُ بحصته من اللحم، إقتطع قطعةً وتركها للكلب.

ونحو المساء، عندما اضطجع الأسدُ لينام، اضطجع الكلب بجنبه، ووضع رأسه على قائمته.

ومنذئذٍ لم يغادر الكلبُ الصغير قفصَ الأسد، وقد تركه الأسد وشأنه. وكانا يأكلان وينامان وهما في وفاق تام، بل إن الأسد كان يلعب معه أحياناً.

ذات يوم، أعلن رجلٌ جاء ليرى معرض الوحوش أنه تعرَّف على الكلب الصغير وأن الكلب كلبه، وطلب أن يُعاد إليه. قَبِل مدير المعرض، لكنْ ما إن أخذ ينادي الكلب ليخرجه من القفص حتى انتفض الأسدُ وزمجر.

عاش الأسدُ والكلب الصغير سنة كاملةً على هذا المنوال، عندما مرض الكلبُ ومات، أبى الأسدُ أن يأكل؛ ولم يكفّ الأسد عن شم الكلب الصغير إلاّ ليداعبه ويلامسه بيده.

عندما أدرك الأسد أن صاحبه ميتٌ وَثَب واَقشعرّ، ولطم خاصرتيه بذيله، وارتمى على قضبان الحديد، وأخذ يقرض أقفال قفصه ويعض أرضه. واستمرّ هياجُه طوال اليوم. كان يندفع إلى الجهات كلها وهو يزمجر. وعند المساء، هدأ واضطجع بجنب الكلب الصغير الميت. أراد الحارس أن يرفع جثّة الكلب، لكن الأسد لم يدع أحداً يقترب.

فكّر المدير أن يُهدّىء حزنَ الأسد بأن يضع في القفص كلباً صغيراً آخر حيّاً. وفي الحال، مزّقه الأسد إرباً إرباً. ثم أخذ الكلب الصغير الميت بين قوائمه وظل خمسة أيام مضطجعاً وهو يمسك به كالمعانق له.

وفي اليوم السادس، مات الأسدُ.

الحصةُ الفُضلى

(مثل)

كان لتاجرٍ ولدان. كان أكبرهما هو الأثير عند أبيه وكان الأب ينوي أن يترك له ميراثه كله. وكانت الأم تعطف على الصغير، فسألت زوجها ألا يُطلع ولديه، قبل بعض الوقت على نيته في تقسيم إرثه. وكانت تنوي أن يتسنى لها

العثور على وسيلة للتسوية بين نصيبـي ولديها. قَبِلَ التاجرُ طلبَ زوجته واحتفظ بقراره لنفسه.

وذات يوم، كانت الأم جالسةً عند النافذة تبكي، دنا منها حاجٌ وسألها ما بها.

أجابت:

ــ وكيف لا أبكي؟ إني لا أفرّق بين ولديّ الإثنين، وها أن أباهما يريد أن يعطي الأكبر كل شيء ويريد ألا يعطي الآخر شيئاً. وقد سألتُ زوجي ألا يُعلن قراره لولديه قبل أن أتصور وسيلةً أساعد بها الأصغر. لكني لا أملك مالاً ولا أدري ما أفعل لأخفّف من ألمي.

قال الحاجّ:

ــ ليس صعباً أن تخففي من ألمك. إذهبـي واعلني لولديك أن أكبرهما سيرث كل شيء وأن الأصغر لن يرث شيئاً، وأنا أقول لكِ: سيأتي يوم يتساويان فيه.

عندما علم الإبنُ الأصغر أنه لن يحصل على شيء سافر إلى الخارج ودرس الفنون والعلوم، أما الإبنُ الأكبر فعاش قرب والده دون أن يتعلم شيئاً لأنه كان يعلم أنه سيصير غنياً.

لم يكن الإبن الأكبر يُحسن أن يعمل شيئاً، بعد موت أبيه فبدد جميع أمواله؛ وتعلّم الإبن الأصغر، في الخارج كيف يغتني المرءُ، فغدا غنياً.

ثلاثة لصوص

(قصة حقيقية)

كان فلاحٌ يقتاد حماراً وعنزاً إلى المدينة ليبيعهما. وكان للعنز جلجلٌ معلّق برقبتها.

رأى ثلاثةُ لصوص الفلاح يمرّ. قال الأول:

ــ سأسرق العنز، دون أن يُحسّ الفلاح بذلك.

وقال الثاني:

ــ وأنا! سأنتزع منه حماره.

فقال الثالث:

ــ وهذا ليس صعباً أيضاً. أما أنا فسأُعريّه من ثيابه جميعاً.

إقترب اللُّص الأول خفيةً من العنز، ونزع عنها جلجلها، وربطه بذيل الحمار، واقتاد العنز إلى أحد الحقول.

وعند منعطفٍ في الطريق، ألقى الفلاح نظرة خاطفة وراءه، فرأى أن العنز قد إختفت؛ فانطلق يبحث عنها.

ذهب اللصُ الثاني إليه وسأله عمّ يبحث. أجابه الفلاح أن عنزه قد سُرقت.

قال له اللص:

ــ عنزل، رأيتها منذ لحظة فقط، هنا، في هذه الغابة. رأيتُ رجلاً يمرّ وهو يركض ومعه عنز. ومن اليسير اللحاق به.

جرى الفلاح للحاق بعنزه بعد أن طلب من اللص أن يمسك بحماره. فساق اللصُ الثاني الحمارُ.

عندما عاد الفلاحُ من الغابة إلى حماره، رأى أن الحمار قد اختفى أيضاً. فانفجر باكياً وتابع سيره.

شاهد في طريقه، على حافة مستنقع، رجلاً جالساً يبكي، فسأله عمّا به.

أجاب الرجل أنه كُلِّف حَمْلَ كيس مملوءٍ ذهباً إلى المدينة، وأنه جلس على حافة المستنقع ليستريح، وأنه صدم الكيس وهو ينام، فسقط في الماء.

سأله الفلاحُ لماذا لا ينزل إلى الماء لانتشاله.

أجاب الرجل:

ـ إني أخاف الماءَ، ولا أعرف السباحة. لكني سأهب عشرين قطعة ذهبية لمن ينتشل لي كيسي.

إبتهج الفلاحُ وقال: «إن الله قد خصّني بهذه النعمة ليعوّضني عن فقدي عنزي وحماري». فخلع ثيابه ونزل إلى الماء. لكنه لم يجد كيساً مملوءاً بالذهب. وعندما خرج من الماء لم يعثر على ثيابه.

كان ذلك من فعل اللص الثالث الذي استطاع أن يسرق حتى ثيابه.

الأب وأبناؤه[1]

(مثل)

أمر أبٌ أبناءه أن يعيشوا في وفاق تام. لم يكونوا يطيعونه. فجاء ذات يوم بحزمة من الأغصان الصغيرة التي ما تزال خضراء، وقال لهم:

ـ اكسروها.

لم يُفلح الأولاد في كسرها، بالرغم من الجهود المضنية التي بذلوها. فك الأبُ الحزمةَ، وطلب إليهم أن يكسروا الأغصان واحداً بعد الآخر. فلم يجد الأولاد عناءً في كسرها.

قال الأب حينئذٍ:

ـ أنتم مثل هذه الأغصان: فإذا عشتم متّفقين لم يغلبكم أحدٌ؛ لكنكم إذا تخاصمتم وانقسمتم على أنفسكم فسوف يغلبكم أيُ إنسان، وسيسبّب هلاككم، دون عناء.

(١) ايزوب: أبناء الفلاح المتفرّقين. لافونتين: الشيخ وأولاده.

لماذا تهبّ الريح

(موضوع للمحادثة)

تعيش الأسماك في الماء، والناس في الهواء. والأسماك لا تسمع الماء أو تراه مالم تتحرك هي أو يتحرك الماء. وكذلك نحن لا نسمع الهواء مالم نتحرك نحن أو هو.

لكننا إذا ركضنا أحسسنا بالهواء؛ إنه يهبّ على وجوهنا، وقد يصفر في آذاننا. ولو فتحنا باباً يطلّ على غرفة دافئة لهبّت الريحّ فيها من الخارج «من تحت»، ومن الغرفة إلى الخارج «من فوق».

عندما يمشي إنسانٌ في غرفة أو يحرّك جبّته نقول إنّ الإنسان يُحدِث هواءً. وعندما نشعل المدفأة فإن الهواء يدخل إليها دائماً وهو ينفخ.

عندما تعصف الريحُ في الخارج، أياماً وليالي، فهي تهبّ من هذه الجهة تارة، ومن تلك تارةً أخرى. وهذا ينجم عن أن الهواء، في مكانٍ ما على الأرض، قد سخن كثيراً، وأنه قد برد في مكانٍ آخر حينئذٍ تهب الريح. تهبّ باردةً، في الأسفل، لكنها تهبّ دافئةً، في الأعلى. تماماً كما لو هبت على منزل آتيةً من الفناء.. وهي تهبّ حتى تسخّن المكان الذي كان بارداً وتبرّد المكان الذي كان دافئاً.

ما نفع الريح

(موضوع للمحادثة)

لنجمعْ بين قضيبين على شكل صليب، ولنُحطْ الصليب بأربع قطع من الخشب، ولنُلصقْ ورقاً على ذلك كله. ثم لنعلّقْ ذيلاً من خيوط الليف في طرفٍ، وحبلاً طويلاً في الطرف الآخر: سنحصل على طائرة من الورق. ثم لنأخذْ هذه الطائرة، ولنركضْ بعكس إتجاه الريح ونتركها؛ سيتلقفها الهواء

وسيحملها عالياً في السماء. سترتعش الطائرة وتَشْخر، وتنطلق، وسيدور ذيلها ويلفّ ويطير في الهواء. بدون الريح من المستحيل، أن نطلق طائرة ورق.

ونصنع أربع مراوح من أربعة ألواح خشبية، ونُثبتها متصالبة على محور تُرَكَّبُ عليه مُسنّناتٌ وعجلات مسنّنة بحيث أن المحور عندما يدور يجر معه المسننات والعجلات، وأن العجلات تجرّ معها الرحى. ثم توضَعُ المراوح بعكس الريح، فتبدأ بالدوران وتتداخل المسننات والعجلاتُ المسنّنة، وتأخذ الرحى بالدوران فوق رحى أخرى. حينئذٍ يُصَبُّ الحبُّ بين حجري الرحى، فيُسْحقُ الحبُّ ويسقط طحيناً إلى وعاء مخصّص لهذه الغاية.

بدون الريح من المستحيل طحن الحب في طواحين الهواء.

عندما نكون في سفينةٍ، وعندما ننوي أن نُسرع في سيرنا تُؤخذ عصا طويلة وتُركز في ثقب وسط السفينة. وفي هذه العصا يُثبت قضيبٌ طويل بالعرض. وبهذا القضيب تُعلَّق قطعة من كتان يُثبت فيها حبلٌ يُمسَكُ بالأيدي. ثم يُوضع الشراعَ في الريح. حينذاك تنفخُ الريح في الشراع بقوة شديدة حتى إن السفينة تميل على جنبها؛ ويجتذب الحبلُ الأيدي وتُبحر السفينةُ مع الريح بسرعة شديدة حتى إن الماء يأخذ بالفوران بصخب تحت مقدّمة السفينة. فكأن الشواطىء تفرّ خلف السفينة.

بدون الريح، من المستحيل الإبحار في السفينة الشراعية. حيث يعيش الناس، يتكوّن هواءٌ فاسد. ولولا الريح لظل هذا الهواء الفاسد في مكانه. لكن الريح تأتي وتبدّد الهواء الفاسد، وتحمل، من الغابات والحقول، هواءً سليماً، هواءً نقياً. ولولا الريح لما استطاع الناسُ أن يتنفسّوا كلَّ الهواء الذي يلزمهم

وسوف يُفسدونه. فالهواءُ نفسه يظلّ في مكانه وسوف نُضطَرّ إلى مغادرة المكان الذي نفد منه الهواءُ السليم.

عندما تمضي الحيوانات المتوحشة في الغابات والحقول فإنها تسير بعكس الريح؛ إنها تنصب أذنَيها وتشمّ ما أمامها. ولولا الريح لما استطاعت أن تتّجه في سيرها.

من الضروري لجميع الأشجار والأدغال والأعشاب، أن يطير الغبارُ من زهرة إلى أخرى، لكي تتكون البذرة على الشجرة أو الدغل أو العشب. وهذه الزهور متباعدة فيما بينها، وهي لا تستطيع أن يرسل بعضُها إلى بعض ذلك الغبار.

عندما ينبت الخيارُ تحت زجاج المَدْفأة الذي لا يسمح بدخول الهواء، فإن الناس أنفسهم هم الذي يقطفون زهرة ويضعونها على زهرة أخرى لكي يسقط غبارُ تلك الزهرة على التي ستُعطي الثمر ولكي يكون الإخصاب. ويحمل النحلُ والحشرات الأخرى، في بعض الأحيان، على أرجلها، هذا الغبارَ من زهرة إلى أخرى. لكن الريح، بخاصة، هي التي تنقل هذا الغبار وبدون الريح يظل نصف النباتات بلا بزور.

عندما يسخن الجو، يرتفع البخارُ فوق الماء. هذا البخار يصعد وعندما يبرد، في الأعالي، يسقط، مرة أخرى، بشكل قطرات مطر.

لا يرتفع البخارُ إلا حيث الماءَ ــ فوق الأنهار والبرك والمستنقعات والسواقي، ولا سيما فوق البحر. ولولا الريح لما تحركت هذه الأبخرة ولما تجمّعت في غيوم فوق الماء، ولهطلت حيث صعدت، ولسقطت فوق النهر والمستنقع والساقية والبحر، ولما سقطت على الأرض والحقول والغابات، الريح هي التي تفرّق الغيوم وتسقي الأرض. وبدون الريح، سيزيد الماء حيث يوجد الماءُ، لكن الأرضُ ستغدو جافةً تماماً.

أفضل الإجاص

(مثل)

أرسل سيّدٌ، ذات يوم، خادمه ليشتري به إجاصاً، وقال له:

ـ إشترِ لي أفضل الإجاص.

ذهب الخادم إلى دكّان وطلب إجاصاً، فأعطاه التاجرُ إجاصاً.

قال الخادم:

ــ لا، أعطني أفضل الإجاص.

ــ ذُقْ واحدةً منها، وسترى أنها كلها لذيذة.

ــ وكيف أعرف أنها كلها كذلك إذا لم أذقْ سوى واحدة؟

ذاق الخادم كل إجاصة، ثم حمل الإجاصات إلى معلمه. فطرده معلمه.

الفولغا والفازوفا

(أقصوصة)

كان هناك أختان تُدعيان: «فولغا» و«فازوفا». تخاصمتا:

لقد ادّعت كلّ منهما أنها أذكى من الأخرى، وأن حظها في الحياة السعيدة أكبر.

قالت فولغا: «ما جدوى الخصام؟ ها نحن قد كبرنا فَلْنترك المنزل، غداً صباحاً؛ ولتذهبْ كل واحدة منا في طريقها، وسنرى أيّنا أقدر على السير وأينا يصل مملكة «كفالنسك» أولاً.

قبلت فازوفا؛ لكنها خَدعتْ فولغا، فما أن نامت فولغا، حتى إنطلقت فازوفا، في جوف الليل، إلى مملكة كفالنسك. عندما استيقظتْ فولغا، ورأت أن أختها خرجت، إختارت هي طريقها، دون أن تتريّث أو تستعجل، ولحقت بفازوفا وأدركتها.

خافت فازوفا خوفاً عظيماً من أن تعاقبها فولغا. ولم يفتها أن تذكّر بأنها

الأخت الصغرى، ورجت فولغا أن تقودها إلى مملكة كفالنسك. صفحت فولغا عن أختها وأخذتها معها.

ينبع الفولغا في غدير قرية فولغو (مقاطعة أوستاشكوف). هناك بئر ليس كبيراً؛ ومنه يخرج الفولغا. أما الفازوفا فيولد في الجبال. وهو يجري في مجرى مستقيم، بينما يتعرّج الفولغا.

في الربيع يذوب جليد الفازوفا قبل غيره، ويستأنف طريقه، أما الفولغا فيتأخر. لكن عندما يجتمع المجريان يكون عرض الفولغا قد بلغ ستين متراً، في حين أن الفازوفا لا يكون سوى ساقية ضيّقة.

يجتاز الفولغا روسيا بأسرها. وهو يقطع ثمانمائة وأربعين فرسخاً، وقد يبلغ عرضه، في وقت الفيضان، ستة فراسخ ونصف.

العجل على الجليد

(مثل)

إعتاد عجلٌ أن ينطّ في الإصطبل. تعلم أن يدور على نفسه دورة ونصف دورة. وفي يوم من أيام الشتاء، أُخرج مع البقر للشرب، بالرغم من الجليد. إقترب البقر كله من حوض الماء بحذر. أما العجل فركض على الجليد؛ لقد أخذ يدور على نفسه وهو رافع ذيله، خافضٌ أذنيه. ومنذ الدورة الأولى، زلّت قدمه واصطدم رأسه بالحوض.

قال خواره:

ـ ما أشقاني! كنتُ أنطّ على القش الذي يبلغ ركبتي ولم أكن أقع، في حين أنني هنا، حيث كل شيء أملس، إنزلقتُ ووقعتُ.

قالت له بقرة عجوز:

ـ لو لم تكن عجلاً لعلمت أنه حيث يكون الجريُ أسهل شيء يكون الإمتناع عن الوقوع أعسر شيء.

الأميرة ذات الشعر الذهبي

(أقصوصة)

كان هناك أميرة هندية ذات شعر ذهبي. وكانت زوجة أبيها شريرة جداً. كانت تكره إبنة زوجها وقد أقنعت الملك بنفيها.

اقتيدت الأميرةُ إلى مكان ناءٍ في الصحراء، وتُركت فيه. وفي اليوم الخامس عادت الأميرةُ ذات الشعر الذهبي إلى منزل أبيها على ظهر أسد.

حينئذٍ أقنعت زوجة الأب الملك بنفي الأميرة ذات الشعر الذهبي إلى الجبال الموحشة التي لا تسكنها سوى العقبان. وفي اليوم الرابع، عادت بها العقبان إلى منزلها.

حينئذٍ نَفَتْها زوجةُ الأب إلى جزيرة في وسط البحر. وفي اليوم السادس شاهدها صيادو البحر وعادوا بها إلى الملك.

حينئذٍ أمرت زوجةُ الأب بحفر بئر شديدة العمق في الفناء، وأنزلت الأميرةَ ذات الشعر الذهبي إليها، وسدّت فتحة البئر بالتراب.

بعد ستة أيام، بدا ضياءٌ في الموضع الذي طُمرت فيه الأميرة. فأمر الملك بحفر الأرض وعُثر على الأميرة ذات الشعر الذهبي.

حينئذٍ أمرت زوجةُ الأب أن يُحفر جذعُ شجرة توت، ووضعت فيه الأميرة وتركتها في البحر.

في اليوم التاسع، حمل البحرُ الأميرة إلى الأرض اليابانية، وانتشلها اليابانيون من جذع شجرة التوت. لقد كانت حيّةً.

لكنها ما كادت تصل إلى الشاطىء حتى ماتت وتحولت إلى دودة قز.

صعدت دودةُ القز شجرة توت زحفاً وأخذت تأكل أوراقها. فلما كبرت قليلاً، بدت عليها جميعُ مظاهر الموت: لقد كفّت عن الطعام والحركة.

بعد خمسة أيام. في الوقت نفسه الذي عاد بعده الأسد بالأميرة من

الصحراء، إستأنفت دودةُ القزّ حياتها وأخذت تقرض من جديد أوراق شجرة التوت.

وعندما كبرتْ قليلاً، ماتت مرة أخرى، وفي الوقت نفسه الذي إستغرقته العقبان لتعود بالأميرة، في اليوم الرابع، عادت إلى الحياة وأكلت مرة ثانية.

ومات الدودة أيضاً وعادت إلى الحياة في الوقت نفسه الذي عادت بعده الأميرة إلى السفينة.

وماتت مرة رابعة واستيقظت في اليوم السادس، مثلما أن الأميرة إنتشلت من البئر في مدى ستة أيام.

وأخيراً، ماتت الدودة آخر ميتةٍ، وبعد تسعة أيام، وكالأميرة التي أنفقت تسعة أيام قبل أن تصل إلى ساحل اليابان، إستعادت الدودة حياتها في شرنقتها الحريرية المذهبة، على شكل فراشة طارت، ثم وضعت بيوضاً خرجت منها ديدانٌ تأقلمت بإقليم اليابان. وهذه الديدان تنام خمس مرات وتستيقظ خمس مرات.

إن اليابانيين يربّون كثيراً من دود القز وينتجون كمية كبيرة من الحرير. وأول غفوةٍ لدودة القز تُسمّى غفوة الأسد، والثانية: غفوة العقبان؛ والثالثة: غفوة السفينة؛ والرابعة: الغفوة في الفناء؛ والخامسة: الغفوة في الجذع.

الصقر والديك[١]

(مثل)

أَلِفَ صقرٌ صاحبه فكان يأتي ويحطّ على كفّه كلما ناداه. وكان الديك يهرب ويصيح كلما أراد صاحبه الإقتراب منه. قال الصقر للديك:

ـ أنتم، معشرَ الديوك، لا تعترفون بالجميل أبداً. وهذه حقاً دلالة

---

(١) يقول تولستوي. إن مصدر هذا المثل هندي هو «بيدبا»: «صقر ودجاجة». لافونتين: «الصقر والطير المسمّن».

اصلكم الذليل. أنتم لا تذهبون إلى أصحابكم إلاَّ إذا جعتم. أما نحن، معشر الطيور البرية فلسنا مثلكم. نحن ممتلئون قوة، ونحن أسرع طيراناً منكم لكننا لانهرب عندما يدنو الناس؛ ونحن نأتي إليهم ونحط على أكفهم كلما نادونا. نحن لا ننسى أنهم هم الذين يطعموننا.

أجاب الديك:

ـ إذا كنتم لا تهربون عندما يدنو الناس، فذلك لأنكم لم تروا قط صقراً في السفود، بينما نرى نحن، في كل لحظة، ديوكاً مشوية.

الحرارة

(موضوع محادثة)

[١]

عندما تُبنى السكة الحديدية، لماذا يُترك فاصلٌ بين الخطوط؟ ذلك أن الحديد، في الشتاء يتقلّص بفعل البرد، وفي الصيف يتمدد بفعل الحرارة. ولو أن الخطوط رُكّبت في الشتاء، بحيث تتماس، فإنها سترتفع عندما تتمدّد في الصيف، ويدفع كل خط الآخر.

الحرارةُ تمدّد كل شيء، والبردُ يقلّص كل شيء.

إذا لم يدخل المسمارُ في عزقته فليس علينا إلاَّ أن نحمي العزقة فيدخل المسمار، وإذا كان المسمار مخلخلاً فيكفي أن نحمي المسمار ولن يتحرك بعد ذلك (ما دام حامياً).

لماذا ينفجر الزجاج عندما نصبّ عليه الماء الذي يغلي؟

ذلك لأن الموضع الذي يكون فيه الماء المغلي، يَسْخَن ويتمدد، والموضع الذي لا يكون فيه ماء مغلي لا يتحرك؛ في الأسفل يتجه الزجاج إلى الإرتخاء، لكنه في الأعلى يأبى أن يرتخي فينفجر.

[٢]

عندما يسقط الثلج، في زمن ذوبان الجليد، فلماذا يذوب على اليد ويبقى على الفرو؟ ذلك أن حرارة الوجه أو اليد تنقل إلى الثلج وتحلله ولذلك فإن الموضع الذي يذوب فيه الثلج على الوجه أو اليد يبرد.

إذا أمسكنا بطاسٍ من الصفيح في يدينا، فلماذا يسخن الماء، في حين تبرد اليدان؟ ذلك لأن حرارة اليدين تنتقل إلى المعدن ثم إلى الماء. وإذا أمسكنا الطاس، وفي اليد قُفّازٌ، فلماذا يسخن الماء ببطء؟ ذلك لأن القفاز لا يسمح لحرارة اليد أن تنتقل إلى الماء، بينما يسمح الصفيح بانتقال الحرارة. الحديد والصفيح يسمحان بانتقال البرودة والسخونة، في حين أن الفرو أو الخشب لا يسمحان بانتقالهما. ومن أجل ذلك يسخن الحديد والصفيح والنحاسُ وجميع المعادن، في الشمس، أكثر مما يسخن الخشب والصدف والورق، ومن أجل ذلك تبرد بسرعة أكبر. ومن أجل ذلك أيضاً نرتدي في البرد فرواً وصوفاً وكل ما لا يسمح للحرارة بالإنتقال.

لماذا يُغطى المعجن بفرو ولا يُغطى بغطاء معدني؟ ذلك لكي لا يسمح الفرو بخروج الحرارة، ولكي لا يبرد العجين، بينما يسمح الغطاء بانتقال الحرارة فيبرد العجين.

لماذا لا يذوب الثلج تحت النجارة وتحت القش، ولماذا يبقى، على حاله، حتى عيد القديس بطرس(١)؟

لماذا يبقى الجليد وقتاً أطول إذا غُطِّي موضع الجليد بالقش؟

لماذا نضع الألواح الخشبية، عندما نريد تجفيفها، في ظل سقف من صفائح التوتياء لا القصب.

لماذا يعمد الفلاحون، وهم يحصدون الكلأ والقمح، إلى تغطية أباريقهم بالمناشف، لكي يظل ماؤهم بارداً؟

---

(١) أي ٢٩ حزيران.

[٣]

لماذا يكون البردُ، أثناء الرياح العاصفة، بدون جليد، أشد منه أثناء الجليد بدون رياح؟

ذلك أن حرارة الجسم تنتقل إلى الجو إذا كان الجو هادئاً، فيسخن الهواء حول الجسم ولا يغادره؛ لكن عندما تهبُّ الريح، فهي تحمل الهواء الساخن وتأتي بالهواء البارد. الحرارة أبداً تخرج من الجسم وتدفىء الهواء الذي يحيط بها؛ وأبداً تحمل الريح هذا الهواءَ الدافىء. وعندما يفقد الجسم كثيراً من حرارته يتجمّد الإنسان.

لماذا ننفخُ على فنجان مملوء بالشاي الساخن؟

بنات آوى والفيل

(مثل)

بعد أن أكلت بناتُ آوى كلَّ جيف الغابة، لم يبق لديها ما تسد به رمقها. ووجد أحدها، وهو عجوز، الوسيلة التي بها يحصل على ما تقتات به.

ذهب إلى الفيل وقال له:

ــ كان لنا ملك، لكنه ظن أن كل شيء مباحٌ له: كان يأمرنا بما لا يمكن تنفيذه. ونحن نريد أن نختار ملكاً آخر، وقد أرسلني شعبي لأرجوك أن تكون ملكاً لنا. لن تنزعج عندنا، وسنؤدي لك كل واجبات التكريم.

تعالى إلى مملكتنا.

قَبِلَ الفيل وتبعَ ابن آوى. قاده ابن آوى إلى مستنقع. وعندما رآه غارقاً في الطين. قال له:

ــ والآن، مُرْ! ألقِ أوامرك، وستنفَّذ.

أعلن الفيلُ.

ـ آمرُ أن أخرُجَ من هنا.

ضحك ابن آوى وقال:

ـ تعلقْ بذيلي من خرطومك. وسأنتشلك على الفور.

قال الفيل:

ـ وكيف ذلك، أتنوي حقاً أن تسحبني من هنا بذيلك؟

أجاب ابن آوى:

ـ وكيف تأمرني بما لا يمكن تنفيذه؟ من أجل هذا بالضبط طردنا ملكنا السابق.

عندما هلك الفيل في المستنقع، افترسته بناتُ آوى.

حجرُ المغناطيس

(وصف)

كان يعيش قديماً راع يُدعى ماغنيس. وذات يوم فَقَدَ نعجةً. ذهب يبحث عنها في الجبل. وصل إلى مكان قَفْر ليس فيه سوى الحجارة. أحسَّ وهو يمشي أن حذاءه يلتصق بهذه الحجارة. وضع يده على هذه الحجارة: كانت جافةً ولم تلتصق بيده. استأنف سيره؛ فلصق حذاؤه بها، مرةً أخرى. جلس، ونزع حذاءه، وأمسكه بيده ولمس به الحجارة.

لم يَلْصق بها الجلدُ والنعل، لكن المسامير كانت تلتصق الآن كما كانت تلتصق من قبل.

كان مع ماغنيس عصا فيها حديدة. لمس الحجر بالخشب: لم يلصق به الخشب؛ ولمسه بالحديد، فلصق به الحديد إلى الحدّ الذي وجب عليه فيه بذل الجهد لانتزاع العصا.

فحص ماغنيس الحجر فرأى أنه يُشبه الحديد؛ جاء بقطع منه إلى بيته.

وهكذا عُرف هذا الحجر وأُطلق عليه اسم: حجر ماغنيس.

يوجد الحجرُ المغناطيسي في الأرض مع معدن الحديد. وحيثما احتوى الحديدُ على شيء منه فهو أجود. وللحجر المغناطيسي مظهر الحديد.

إذا ما وضعنا قطعةً من الحديد على حجر مغناطيسي، فإن تلك الحديدة ستجذبُ قطعة أخرى من الحديد. وإذا وضعنا إبرةً على الحجر المغناطيسي وأبقيناها بعض الوقت تمغنطت الإبرةُ وجذبت الحديد إليها. وإذا قربنا أطراف مغناطيسين فإن بعضها يتنابذ وبعضها يتجاذب.

وكذلك الأمرُ إذا كسرنا إبرة مغنطةً قسمين، فإن كلا من النصفين سيجذب النصف الآخر بطرف وينبذه عنه بطرف. ويمكن أن نكسرها أيضاً، وستكون النتيجة هي نفسها، ومهما كسرناها فإن الشيء نفسه سيحدث: فعند الكسر يتنابذ الطرفان؛ أما من الجهة الأخرى فهما يتجاذبان. ولنكسرْها ما شئنا، سيظل أحدُ الطرفين نابذاً والآخر جاذباً. ذلك كما لو كسرنا كوز صنوبر، ففي أي موضع منه حدبةٌ من جهة وتجويف من جهة أخرى: الحدبة تطابق التجوي، لكن الحدبة لا تطابق الحدبة، ولا يطابق التجويفُ التجويف!

إذا مغنطْنا إبرةً بأن نبقيها بعضَ الوقت بتماسٍ مع حجرٍ مغناطيسي، وإذا وضعناها من وسطها على محورٍ بحيث يمكنها أنَ تدور كلما أرادت، فنحن نستطيع أن نديرها كما نشاء، لكن ما إن نرخيها حتى تعود لتسجّل بأحد طرفيها جهة الشمال، وبالطرف الآخر جهة الجنوب.

عندما لم يكن المغناطيس معروفاً لم يكن الإبحار صحيحاً. كان البحّارةُ إذا وصلوا إلى عرض البحر، وغاب البرُّ عن أبصارهم، اهتدوا بالشمس وحدها لمعرفة الجهة التي يُبحرون فيها. وفي الأيام الغائمة التي لا تُرى فيها الشمسُ ولا النجوم، كان يتعسّر السفرُ في البحر، كانت السفينة التي تتلاعب بها الرياح لاتني تصطدم بصخور الشاطىء وتتحطّم عليها.

لم يكن السفر في البحر يتجاوز الشواطىءَ بعيداً طوال المدة التي لم يكن المغناطيس معروفاً بها. لكن عندما عُرف، اختُرعت الإبرة المغناطيسية، التي تتحركُ بحرية على محور. وبفضلها عرف الناسُ منذئذٍ في أية جهة يُبحرون. وأخذ الناس، مع الإبرة، يسافرون بعيداً عن الشواطىء، ومنذ هذا الوقت عرف الناسُ كثيراً من البحار الجديدة.

في السفن دائماً إبرة ممغنطة هي البوصلة، وفي ذرف كل سفينة جبلٌ فيه عُقدٌ لقياس المسافة المقطوعة: إنه ينبسط ويعيّن مقدار الطريق الذي قطعته السفينة.

وهكذا يعرف الناسُ، عندما يسافرون في البحر، أين موقع السفينة في لحظة معيّنة، إن كانت بعيدة عن الشاطىء، وفي أية جهة هي.

مالك الحزين والأسماك والسرطان

(مثل)

كان مالك الحزين يعيش بقرب المستنقع. طعن في السن وعجز عن التقاط الأسماك. فأخذ يبحث عن حيلة تساعده على العيش. قال للأسماك:

ــ أيتها الأسماك المسكينة، أنتن تجهلن الشقاء الذي يترصّدكن؛ سمعت ناساً يقولون أنهم سيُفرغون المستنقع وسيصيدونكن كلكن. أنا أعرف هناك، خلف تلك المرتفعات، مستنقعاً صغيراً جميلاً، إني على استعداد تام لمساعدتكن، لكني قد بلغت من الكبر عتيًا ويشقّ علي كثيراً أن أطير.

طلبت الأسماك من مالك الحزين أن يساعدهن في الحال.

أجاب مالك الحزين:

ــ حسناً! قبلتُ؛ أستطيع من أجلكن أن أبذل بعض الجهد. سأحملكن إلى هناك، الواحدة تلو الأخرى، لا كلّكن معاً

غمر الفرحُ الأسماكَ وصاحت كلٌّ منها:

ـ احملْني! احملني!

بدأ مالك الحزين نَقْلَ الأسماك. لكن سرطاناً طاعناً في السن، مقيماً في المستنقع، داخله الشك في حيلة مالك الحزين وقال له:

ـ احملْني الآن، بدوري، إلى مسكني الجديد.

أخذه مالك الحزين، وطار، ومرّ فوق حقل، وأراد أن يلقيه فيه. لكن السرطان، حين شاهد على سطح الحقل حسكَ الأسماك، ضغَط على عنق مالك الحزين بكلاباته وخنقَه، ثم عاد إلى المستنقع وروى للأسماك ما جرى.

كيف تعلّمتُ ركوب الخيل

(حكاية عمتي)

كان في بيتنا عجوز طيّب القلب، يُدعى بيمين تيموفيتش، عمره تسعون عاماً. لم يكن قادراً على العمل، وكان يعيش عند حفيده، تقوّس ظهرُه فصار يمشي على عصاً برفقٍ وهو يجرّ قدميه. لم يبق له أسنان وتجعّد وجهه كله. كانت شفته السفلى ترتعش، وكان يتمتم وهو يمشي: وكان من المستحيل فهم شيء ممّا يهمهم به.

كان لي ثلاثة إخوة[1]. وكنا نحن الأربعة نحبّ ركوبَ الخيل. لكن جيادنا كانت شديدة الجماح بالقياس إلينا ما عدا واحداً هو «الغراب» وكان جواداً مسناً هادئاً يؤذَنْ لنا بركوبه أحياناً.

ذات يوم أذنت لنا أمي بركوبه، فذهبنا إلى الاصطبل بصحبة مربّينا. أسرج الحوذي «الغرابَ» وامتطى أخي الأكبرُ الجواد قبلنا. وطال امتطاؤه له، فذهب

(١) وهم نيكولا، سيرج، دميتري تولستوي، والرابع ليون. وكان بينمين شيخاً حنت ظهره السنون، يعيش آخر أيامه في إياسنايا بوليانا حيث تجري هذه الحكاية.

إلى المزرعة، وطاف بالحديقة. فلما أقْبلَ علينا صحْنا به: «هيّا! أجرِ الآن!».

هَمز أخي «الغرابَ»، وحثّه بسوطه، وجرى «الغراب» عدواً أمامنا.

ثم كان دورُ أخي الثاني. وهو أيضاً قد ركبه طويلاً، واستخدم سوطه ليحثّ «الغراب».

وانحدر الرابية حضراً أمامنا. وكان أخي يودّ ألا ينزل عنه، لولا أن أصرّ أخي الثالث على ركوبه دون تريّث. وجال أخي الثالث الجولة التي قام بها أخي البكر، فمرّ بالمزرعة والبستان، ثم اجتاز القرية فوق ذلك. وهو أيضاً قد عاد إلى فناء الاصطبل عن طريق الرابية التي نزلها جرياً وبكل سرعته. ولما صار قربنا سمعنا «الغراب» ينفخ بصخب، ولاحظنا بقعاً سوداء على عنقه وكاهله: كان العرق يرشح منه.

وجاء دوري. أردتُ أن أُريَ إخوتي كم كنت ماهراً على الجواد. حَثثتُ «الغراب» بكل قواي، لكنه لم يشأ أن يبتعد عن الاصطبل. وعبثاً ضربته، فقد أبـى أن يعدو. واستشطتُ غضباً فهمزتُه بكعبـي ولسعته بالسوط ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا.

حاولت أن أصل إلى المواضع التي تؤلمه أكثر من غيرها. وكسرت سوطي وأخذت أضربه على رأسه ضرباً بما بقي في يدي من السوط. لقد حرن «الغراب» وأبـى أن يجري. فلما رأيتُ ذلك، استدرْتُ واتجهتُ بجوادي نحو مربّينا وسألتُه أن يعطيني سوطاً آخر أغلظ.

قال لي:

ــ كفاك ضرباً، انزلْ. لماذا تعذّب «الغراب» أكثر من ذلك.

اغتظتُ كثيراً، وقلتُ:

ــ آه! أما النزول فلا؛ فأنا لم أركبه بعد! سترون كيف سأجريه! أعطني فقط، من فضلك، سوطاً أقوى. وسأمشّيه.

هزّ المربي رأسه، وقال:

ـ أنت إذن عديم اشفقة. تُمشّيه! جوادٌ سنّه عشرون عاماً، جواد مُضنًى، يشق عليه اللهاثَ، جواد مسنّ! كن تظن سنّه؟ إنه، بالقياس إلى الخيل، بسنّ بيمين. هلا تسلقتَ أيضاً ظهر بيمين تيموفيتش وجمعتَ كل قواك لتمشّيه حتى تنهكه، أتفعل هذا؟

فكّرت في بيمين وأطعتُ المربّي. ترجّلت عن الجواد. وعندما رأيت خاصرتيه تسحّان عرقاً، وهو يتنفّس بمشقة محركاً طرف ذيله المقشر الذي بقي له، أدركت، على الفور، كم عانى من تعب. لقد ظننتُ حتى هذه اللحظة، وأنا على ظهره، أنه سيجد من السرور مثلما أجد. لقد أحسستُ بشفقةَ كبيرة عليه حتى لقد عانقتُ عنقه المبلّل بالعرق، وسألتُه الصفح عن ضربي له.

وأنا الآن، وقد بلغتُ سنّ الرجال، أراعي الخيول دائماً، وعندما أرها تُساءُ معاملتُها أتذكّرُ «الغرابَ» و «بيمين تيموفيتش».

القنفذ والأرنب[١]

(مثل)

لقيت أرنبٌ قنفذاً وقالت له:

ـ يا قنفذ، لولا قدماك الملتويتان المتراكبتان، لكنتَ لا بأس بك.

غضب القنفذ وأجاب:

ـ ممّ تضحكين! قدماي الملتويتان أسرع من قدميك، مهما تكونا مستقيمتين. دعني أولاً أمرّ على البيت؛ وبعد ذلك فَلْنتبارَ.

ذهب القنفذُ إلى بيته وقال لامرأته:

ـ تراهنّا أنا والأرنب: سنرى من هو أسرع ركضاً.

---

(١) المصدر الألماني الذي يذكره تولستوي هو الأخوان «غُريم».

قالت له:

ـ لا شك أنك فقدتَ صوابك، أنت تقيس نفسكَ بالأرنب! إن قدميها رشيقتان، أما أنتَ فقدماك ملتويتان وثقيلتان.

لكن القنفذ أجاب:

ـ إن كانت قدماها رشيقتين فإن لي، أنا، ذهناً ثاقباً. اقتصري على فعل ما سأقوله لك. تعالي معي إلى الحقل.

ـ وجدا الأرنب في حقلٍ محروث؛ قال القنفذ لامرأته:

ـ اختبئي في طرف هذا الثلم؛ أما أنا فسأبدأ السباق مع الأرنب في الطرف الآخر. وعندما يبلغ أوج جريه فسأعود أدراجي، حتى إذا صار قربكِ اخرجي وقولي: «هيا إني أنتظرك منذ زمن طويل!» وهو لن يفرّق بيني وبينك وسيظن أنك أنا.

اختبأت إمرأةُ القنفذ في الثلم وانطلق القنفذ والأرنب.

عندما بلغت الأرنبُ أوج جريها رجع القنفذُ إلى الخلف واختبأ. وصلت الأرنبُ، وهي تعدو إلى الطرف الآخر من الثلم. فماذا رأت؟ قنفذاً جالساً هناك يقول لها.

ـ ها إني أنتظرك منذ زمن طويل.

لم تفطن الأرنبُ إلى أنها زوجة القنفذ، وفكرت في نفسها: «يا إلٰهي يا لها من أعجوبة! كيف فَعلَ ليسبقني.

وقالت:

ـ آه! لكن، لنبدأ السباق من جديد!

ـ كما تشاء.

عادت الأرنب أدراجها، بكل سرعتها، وبلغت الطرف الآخر وهي تركض... فماذا رأت! رأى القنفذ قد صار هناك.

قال لها:

ـ إيه! إيه! يا أختي، الآن فقط وصلت! أنا هنا منذ زمن طويل!

فكّرت الأرنب: «ماذا تعني هذه الأعجوبة؟ لقد سبقني مرة أخرى، بالرغم من السرعة التي جريتُ بها! هيا! لنجرّب أيضاً، وهذه المرة، لن يُدركني».

حسناً! فَلْنَجر!

جرت الأرنب جرياً ضاق نفسها معه. فماذا وجدت؟ القنفذ جالساً أمامه ينتظره.

وظلت الأرنب تجري من طرف الثلم إلى طرفه الآخر حتى أعياها الجريُ. اعترفت الأرنب بأنها غلِبَتْ وأعلنت أنها لن تراهن أبداً في المستقبل.

الأخوان[١]

(أقصوصة)

سافر أخوان معاً. وفي منتصف النهار ناما عند طرف الغابة ليستريحا. وعندما استيقظا وجدا بجانبهما حجراً كُتِب عليه شيءٌ ما. أخذا يفكان رموز الكتاب وانتهيا بأن قرأا ما يلي:

«من وَجدَ هذا الحجر فَلْيعبر الغابة ماشياً نحو الغرب. سيلقى في الغابة نهراً فليعبر سباحة وليبلغ الضفة الأخرى. سيرى دبّةً مع صغارها: فليخطف الصغار من الدبة وليركض على خط مستقيم بلا انقطاع حتى الجبل. وعلى الجبل سيرى بيتاً وفي هذا البيت سيجد السعادة».

عندما قرأ الأخوان كلَّ ذلك قال الأصغر:

ـ لنذهبْ! مَنْ يدري إن كنا سننجح في عبور النهر، وفي اختطاف صغار

---

(١) مع أن تولستوي يجعل مصدر هذه الحكاية عربياً. لكن يبدو أن أصلها هو حكاية بيديا: «المسافران».

الدببة حتى البيت، وفي أن نجد كلانا السعادة.

أجاب الأكبر:

ـ لن أدخل الغابة بحثاً عن الدببة، ولا أنصحك بالذهاب إلى تلك الغابة. فأولاً لا يدري أحدٌ إن كان ما كتب على هذا الحجر هو الحقيقة. وربما كان ذلك كله من صنع رجل ثقيل المزاح. ولعلنا لم نحسن القراءة. ثم لنفرضْ، حتى لو كانت الكتابة تقولُ الحقيقة، أننا عبرنا الغابة، وأن الليل قد جاء، وأننا لم نعثر على النهر، فضللنا طريقنا. ولو سلّمنا بأننا عثرنا على النهر فكيف سنفعل لعبوره؟ ربما كان هذا النهر عريضاً وسريعاً، ثم أننا لو أفلحنا في عبوره، فهل من السهل اختطاف صغار الدببة من أمها؟ ليس الأمرُ بهذه السهولة. ستمزّقنا الدبة، وبدلاً من أن نعثر على السعادة سنفقد حياتنا، من أجل لا شيء. وأخيراً، حتى لو نجحنا في اختطاف صغار الدببة، فلن نصل الجبل ونحن نركض بلا انقطاع. ثم إن الكتابة لا تقول لنا، على الخصوص، أي نوع من السعادة سنجد في ذلك البيت. وليس مستحيلاً أن تكون السعادة التي تنتظرنا هناك مما لا حاجة بنا إليه.

لكن الأصغر أجاب:

ـ ليس هذا رأيي. إذ لم تُكتبْ هذه الكتابة عبثاً. وكل ما فيها واضحٌ. ونحن، أولاً. لا نخاطر بشيء حين نجرّب. ثم إننا إذا لم نجد السعادة نحن فسيقرأ غيرُنا الكتابة وسيجد تلك السعادة، وسنبقى نحن كما كنا من قبل. وفوق ذلك فليس ينالُ فرحٌ في هذه الدنيا بدون مشقة وبدون تعب. وأخيراً، لا أريد أن يظن أحد أنني خفت من أي شيء.

أجاب الأخ الأكبر:

ـ هناك مثلٌ يقول: «الأحسن عدوّ الحسن، بل إن هناك مثلاً يقول: عصفورٌ في اليد خيرٌ من عشرة على الشجرة.

لكن الأصغر أصرّ قائلاً:

ـ أما أنا فسمعت من يقول: «من خاف الذئب وجَبَ عليه ألا يتجوّل في الغابة» أو «أن الثروة لا تأتي الناس وهم في فرشهم» ومن رأيـي أن نذهب.

بقي الأكبر وذهب الأصغر.

ما كاد يدخل الغابة حتى وجد النهر، فعبره؛ وعلى الضفة الأخرى رأى دبةً تنام. فأمسك بصغارها وجرى إلى أعلى الجبل.

ما كاد يصل إلى القمة حتى هبّ للقائه شعبٌ كامل جاؤوا بعربة، ومضوا به إلى المدينة، ونصبوه ملكاً.

دام ملكُه خمس سنوات. لكن ملكاً آخر أقوى منه شن الحرب، في السنة السادسة، واستولى على المدينة، وطرده. فعاد إلى التطواف في العالم، ووصل، ذات يوم، إلى منزل أخيه.

كان الأخ الأكبر يعيش في الريف، لا هو بالغني ولا هو بالفقير. سَعِد الأخوان باللقاء وقصّ كل واحد حياته على الآخر.

قال الأخ الأكبر:

إيه! برهنت الأحداث أنني كنت على حق. لقد عشت كلَّ هذا الوقت سعيداً ومطمئناً. وصحيحٌ أنك كنت ملكاً، لكن كم من المصائب كابدت.

فأجاب الأصغر:

ـ لستُ نادماً على عبور الغابة وصعود الجبل. أنا تعس في هذه الساعة، من غير شك؛ لكن بقيت لي ذكريات حياتي؛ أما أنت فليس عندك ما ترويه.

روح المياه واللؤلؤة

(مثل)

أضاع رجلٌ كان في زورق لؤلؤة ثمينة في البحر. عاد إلى الشاطىء،

وأخذ دلواً، وبدأ ينضح مياه البحر ويصبّها على الأرض. وخلال ثلاثة أيام ظلّ يملأ الدلو ويفرغه بلا انقطاع.

في اليوم الرابع، خرجت روح المياه من البحر وسألته:

ــ لمَ تنضح هذه المياه؟

أجاب الرجل:

ــ أنضحها لأني أضعتُ لؤلؤة.

سألته روحُ المياه:

ــ ألن تنتهي قريباً من ذلك؟

ــ سأنتهي عندما أجفّف البَحر.

عادت روح المياه إلى البحر، وحملت اللؤلؤ الضائعة، وسلّمتها إلى الرجل.

حيّة الماء

(أقصوصة)

كان لامرأة بنتٌ تدعى «مارييت». وفي ذات يوم، ذهبت مارييت لتستحم في النهر مع صاحباتها. خلعت البناتُ قمصانهن، وتركنْها على الشاطىء، وقفَزْن إلى الماء.

زحف ثعبان كبير خارج الماء، وتكوّر كالكرة، ونام على قميص «مارييت». خرجت البناتُ من الماء وارتدين قمصانهن، وعُدْن راكضات. وعندما ذهبت مارييت لتأخذ قميصها رأت الثعبان عليه: تناولت عصا وأرادت أن تطرده لكن الثعبان رفع رأسه وصفر برفق، وتمتم بهذه الكلمات الانسانية:

ــ مارييت، مارييت، عديني بأن تتزوجيني.

بكت مارييت وقالت:

ــ أعد إليّ أولاً قميصي، وسأكون مستعدة لكل شيء.

ـ أتقبلين بـي زوجاً؟

قالت ماربيت:

ـ سأتزوجك.

وفي الحال، ترك الثعبان القميص واختفى في الماء.

ارتدت ماربيت قميصها. وجرت إلى البيت. فلما وصلتْه قالت لأمها:

ـ ماما، كان على قميصي ثعبانٌ ضخم؛ لقد قال لي: «تزوجيني وإلاّ فلن تنالي قميصك». فوعدته بذلك.

ضحكت الأم وقالت:

ـ كنت تحلمين، يا بنتي.

وبعد أسبوع إذا بطائفة من الأفاعي تصل، وهي تزحف، إلى بيت ماربيت.

عندما رأتها ماربيت تقترب خافت وقالت:

ـ ماما، ها هي ذي الأفاعي؛ جاءت تطلبني.

لم تشأ الأم أن تصدّق، في بادىء الأمر، لكنها عندما رأت خافت خوفاً عظيماً، وأغلقت بابَ المدخل وباب الغرفة. انسحبت الزواحف، وتجمعت على شكل رزمة، وتدحرجت كتلةً واحدة نحو البيت، ووثبت وثبة واحدة لتصدم النافذة وكأنها كرةً حطّمت الزجاج؛ ووقعت الأفاعي على أرض الغرفة، وزحفت عى المقاعد والطاولات وحتى على المدفأة. وكانت ماربيت قد اختبأت في زاوية خلف المدفأة؛ لكن الأفاعي اكتشفتها وسحبتها إلى الخارج، وجرّتها إلى النهر.

ركضت الأم وراءها، وهي تذرف الدموع، لكنها لم تستطع أن تلحق بها. ألقت الأفاعي بنفسها في الماء وهي تسحب ماربيت. وظنّت الأم أن ماربيت ماتت فبكتها.

وذات يوم كانت فيه أم مارييت جالسةً قرب نافذتها تنظر إلى الشارع، رأت فجأةً مارييت مقبلة عليها، ممسكةً بيدها صبياً وحاملة بين ذراعيها بنتاً. فقالت لها:

ــ أين تعيشين، ولمن هذان الولدان؟

أجابت مارييت بأن الولدين ولداها. وأن الثعبان قد اتخذها زوجة، وأنها تعيش في أعمق أعماق مملكة المياه.

سألتها الأم: «وهل العيشة حسنة هناك؟». فأجابت بنتها: أن العيشة هناك أحسن من العيشة على الأرض.

طلبت الأمُّ من ابنتها أن تبقى معها، لكن مارييت أبت ذلك وقالت: أنها وعدت زوجها بالرجوع.

حينئذٍ سألتها الأم:

ــ وكيف تفعلين لتعودي إلى بيتك؟

ــ أذهبُ إلى النهر، وأصرخ: «جو! جو! اخرج من الماء! تعال وخذْني!». فيزحف إلى حافة النهر ويَحْملني.

أردفت الأم:

ــ إن هذا لشيءٌ حسن. لكنْ أبقي هذه الليلة معي.

اضطجعت مارييت ونامت. فأخذت الأم فأساً ومضت إلى النهر.

وإذ وصلتْ إلى حافة الماء صرختْ: «جو! جو! اخرجْ من الماء! تعالى إلى هنا!».

أخرج الثعبان رأسه من الماء ليصعد إلى الشاطىء، فضربته الأم بفأسها ضربةً قطعت رأسَه. وغدا الماء أحمر من الدم.

عادت الأ م إلى بيتها. استيقظت ابنتها وقالت:

ــ سأعود إلى بيتي. بدأتُ أضجرُ.

وذهبت مارييت ممسكةً الصبي بيد، وحاملة البنت على ذراعها. فلما بلغت شاطىء النهر صرخت: «جو! جو! اخرج! تعالى إليّ!». لكن لم يخرجْ شيءٌ من الماء.

نظرت إلى النهر فرأت أنه أحمر وأن رأس الثعبان يطفو على الماء.

حينئذٍ قبّلت مارييت ابنها وقبّلت ابنتها وهي تقول:

ـ لم يبق لكما أبٌ، ولن يبقى لكما أم. أنتِ، يا صغيرتي، كوني السنونوة التي تحوم على المياه؛ وأنتَ، يا صغيري، كن العندليب الذي يُغرّد في فجر كل صباح. أما أنا فسأغدو الوقواق الذي يرثي الواحة الرتيب موتَ صاحبه.

ـ وافترقوا. طار كل منهم، انطلق كل منهم في وجهته.

الدوري والسنونوات

(حكاية)

كنت، ذات يوم، في الفناء أنظر إلى عشّ السنونو تحت سقف البيت. رأيت سنونوتين تغادران عشهما، ظلّ العشُّ فارغاً.

أثناء غيابهما، نزل دوريٌّ من السقف طائراً، وقفز إلى حافة العش، وألقى نظرة حواليه، وصفق بجناحيه، ووثب إلى داخل العش، ثم أخرج رأسه وزقزق.

بعد قليل رجعت إحدى السنونوتين إلى العش؛ لكنها عندما شاهدت الدخيلَ أطلقت صرخةً، ورفرفت بجناحيها عدة مرات ثم رجعت.

ظل الدوري في العش يزقزق.

وفجأةً، وصلت جماعة من السنونو؛ طارت جميعاً نحو العش كأنها تريد أن ترى الدوري، ورجعت.

لم يخالج الدوريَّ خوفٌ؛ وظلّ يهزّ رأسه ويزقزق.

دام ذلك زمناً طويلاً، كانت السنونواتُ تعود، وتفعل شيئاً ما، وتذهب مرةً أخرى.

لم تكن تأتي عبثاً؛ كانت كل سنونوة تحمل شيئاً من الطين في منقارها، لتسدّ بها، شيئاً فشيئاً، فتحة العش.

ومرة أخرى، ذهبت السنونوات وعادت؛ ظلت تسدّ فتحة العش التي أخذت تزداد ضيقاً.

في البداية كان يُرى عنقُ الدوريّ، ثم لم يعد يُرى سوى رأسه، ثم سوى منقاره، ثم لم يُر شيءٌ بعد ذلك. حبَستْهُ السنونوات حبساً في العش، ثم نشرت أجنحتها وأخذت تحوّم، وهي تصفر حول البيت.

قمبيز وبسامينيت[1]

(حكاية تاريخية)

عندما احتلّ قمبيزُ، ملكُ الفرس، مصر، وأسر ملكها، بسامينيت، أمر أن يؤتى به إلى الساحة، مع المصريين الآخرين، كما أمر بإخراج ألفي رجل وابنة بسامينيت. وأصدر أمره بإلباسها الأسمال، وبإرسالها لتسقي الماء بالدلاء، ومعها، في هذه الحالة من العري، بنات أشهر أعيان مصر. وعندما مرت بناتهم أمامهم وهن يَنحن ويبكين، انفجر الآباء باكين حين عرفوهن. بسامينيت وحده لم يبكِ؛ لكنه خفض عينيه.

بعد أن مرّت البناتُ، أمر قمبيز بإخراج ابن بسامينيت مع مصريين آخرين

---

(١) بساميتيك الثالث أو بسامينيت (في القرن السادس قبل الميلاد). أما كريزوس الذي أسره سيروس، فقد عفا عنه سيروس وأوصى به، عند موته، ابنه قمبيز، الذي احتفظ به.

وكان في عنق كل منهم حبلٌ، وفي فم كل منهم لجام بين أسنانه. وقد اقتيدوا على هذا النحو ليُقتلوا.

وإذْ رأى بسامينيت ذلك، أدرك أنهم يسوقون ابنه إلى الموت؛ لكنه كما خفض عينيه عند مرأى ابنته، حين كان جميعُ الآباء الآخرين يبكون اكتفى بأن خفض عينيه عندما رأى ابنه يُساق.

ثم مرّ، أمام بسامينيت، رفيقٌ قديم، نسيب له.

كان غنياً من قبل؛ أما الآن فكان يسأل الجنودَ الحسنة كالمتسوّل. ما كاد بسامينيت يراه حتى ناداه باسمه، ولطم رأسه، وأخذ ينتحب. فوجىء قمبيز حين رأى بسامينيت يتصرف هكذا، فكلّف مَنْ يقول له:

ـ بسامينيت! إن سيّدك قمبيز يسألك: لمَ لَمْ تبكِ حين رأيت ابنتك مُذلّة وابنك مسوقاً إلى الموت بينما أظهرتَ كلَّ هذا العطف على بائسٍ ليس من دمك؟

أجاب بسامينيت:

ـ يا قمبيز، إن مصائبي لعظيمة جداً حتى ليعزّ علي البكاء؛ لكني رثيتُ لحال رفيق لي خانه الدهرُ في شيخوخته وسقط في وهدة الشقاء.

وكان حاضراً، ملكٌ آخر «كريزوس»، أسيرٌ هو أيضاً. وعند سماع هذه الكلمات بدت له مصيبته الخاصة أشد إيلاماً فأمعن في البكاء؛ ومعه كل الفرس الحاضرين.

أحس قمبيز بالشفقة تخالجهُ، فأمرَ بإحضار ابن بسامينيت وبسامينيت. لكنهم لم يجدوا ابن بسامينيت حيًّا لأنه أُعدِمَ. وجيء ببسامينيت إلى أمام قمبيز، فعفا عنه قمبيز.

سمكة القرش[1]

(حكاية)

كنا راسين، والجوّ صحوٌ، على الشاطىء الإفريقي. كان النسيم العليل يهبّ من البحر، وعند المساء تغيّر الطقس: لقد غدا الهواء ثقيلاً. ومن الصحراء وافتنا هبّاتٌ من الهواء المحرق، وكأنها آتيةٌ من فرن زيدَ لهيبهُ.

قبيل مغيب الشمس، خرج القبطان إلى جسر القوارب وأصدر أمره قائلاً: «الجماعة إلى السباحة!». وفي مدى لحظة، قفز البحارةُ إلى الماء، وأنزلوا شراعاً، وثبّتوه، وسرعان ما عملوا حوضاً للسباحة.

كان معنا على السفينة صبيان صغيران نزلا قبل غيرهما إلى الماء، لكنهما أحسّا بالضيق في هذا السور من القماش وحدثتهما نفساهما أن يسبحا في عرض البحر ليريا من منهما أسرعُ في السباحة.

كان هدفُ السباق برميلاً صغيراً يستخدَمُ عوامةً للمرساة: وقد اتّجها إليه بكل ما في جسديهما من قوة، وكأنهما، بجسديهما الرقيقين المتمددين في الماء، عظايتان. أخذت قوى الصبي الذي تقدّم رفيقه تضعف، وكاد يسبقه رفيقه. وكان أبوه، وهو مدفعيٌّ عجوز، ظلّ على الجسر، يراقب بإعجاب جهود ابنه، فصاح به: «لا تتراخَ! قليلاً من الجهد أيضاً!».

وفجأة انطلق صوتٌ من السفينة: «سمكة القرش!» ورأينا جميعاً على سطح البحر ظهر هذا الوحش.

---

(١) في هذه الحكاية كما في حكاية «قفزة في البحر» التي ستأتي، تجري الأحداث في سفينة حربية. ولأول وهلة، سيُفاجأ القارىء بوجود أطفال من غير البحّارة الفتيان؛ يجب ألا ننسى أن هاتين الحكايتين مأخوذتان من مصدر أمريكي، وأن تولستوي قد وفّق بينهما وبين تقاليد بلاده. ذلك أن وجود أفراد أسرة القبطان على ظهر السفينة، أمرٌ شائعٌ، في البحرية الروسية، بالنسبة إلى الزوجة والأولاد.

كانت السمكة تسيرل مباشرة نحو الصبيّين.

صاح الضابط:

ـ عودا إلى السفينة! إلى السفينة! عودا! سمكة قرش!

لكن الولدين لم يسمعاه، وظلاّ يبتعدان وهما أشدّ ما يكونان ضحكا وصراخاً.

كان الضابط يتابع الوالدين بنظرته، وهو جامدٌ، باهت اللون.

أنزل البحّارة زورقاً، ووثبوا إليه، وجمّعوا كل قواهم، وعطفوا المجاديف، وجدفوا بكل سرعتهم نحو الصبين الصغيرين كانوا ما يزالون بعيدين عنهم عندما كانت سمكة القرش على أقل من عشرين باعاً من فريستها.

لم يسمع الولدان، في البدء، صراخ الشاطىء ولم يريا سمكة القرش. لكن أحدهما التفت وسمعنا صرخة حادة. ثم لم يعودا يسبحان معاً؛ لقد افترقا.

عند سماع الصرخة، هُرع الضابط إلى المدافع، وكأنه استيقظ بعد أن ظل حتى الآن جامداً، متحجّراً. وأدار مؤخرة الحاضن، وانبطح على المدفع، وأخذ الفتيل.

تجمّد قلبنا، نحن البحّارة، من الخوف؛ كنا ننتظر الحلّ.

انطلق المدفع. رأينا الضابط منهاراً قرب المدفع؛ كان يخفي عينيه. في اللحظة الأولى، حجبَ دخانُ البارود المنظر عنا، ولم نكن نعلم ماذا حلّ بسمكة القرش وبالصبي.

لكن عندما تبدّد الدخان فوق البحر، سُمع همسٌ خفيفٌ أولاً، ثم أخذ يشتدّ ويرتفع من كل الجهات، تلتْهُ، على التوّ، صرخة عظيمة من الفرح انفجرت من كل الجوانب.

كشف المدفعي القديم عن وجهه، ونهض ونظر إلى البحر.

شوهد صدرُ السمكة الأصفرُ ترقّصُه الأمواجُ. وفي بضع دقائق وصلَ الزورقُ إلى الولدين وجاء بهما إلى الشاطىء.

من أين يأتي بخارُ الزجاج والندى

(موضوع للمحادثة)

عندما يجفُّ الماءُ فأين يذهب؟

كل شيء يتمدّد بفعل الحرارة: الماء يتمدّد بفعل الحرارة ويتبخّر كله في جزئيات صغيرة جداً حتى إن أعيننا لا تراها؛ ويذهب الماءُ إلى الجو. هذه الجزئيات ـ البخار ـ تصعد إلى الهواء، ولا نراها ما دام الهواء ساخناً. ولكن لِيَبْرِدْ الهواء فسوف يبرد البخار، في الحال وسيغدو مرئياً.

إذا سخنّا تسخيناً شديداً محمًّا، وصببنا ماءً على الآجر[1] (آجر الموقد) فسيتحول الماء كله بخاراً. وإذا صببنا ماءً أيضاً فإنه يتبخر مرة أخرى. وعندما يغدو المحمّ محرقاً يتبخر ماء الحوض[2] في الهواء. وفي هواء المحم المحرق، يغدو الحوضُ غير مرئي، وإن ظل حيث هو. إن هواء المحم يمتصُّ ماء الحوض. لكن إذا صببنا الماء من جديد، فإن الهواء المشبع لن يقبله، وسوف يسيل الماء الزائد في قطرات. كل ما في الحوض من ماء قد امتصّ، لكن الفائض يسيل.

في المحمّ نفسه، على أن يكون غير مسخَّن، يُؤتى بآجر محرق، ثم يسقى بالماء: إذا لم نصبّ سوى سطل صغير فإن الماء سوف يتبخر ويغدو غير مرئي: إن الهواء يمتصّه. لكن إذا صببنا سطلاً ثانياً سال الماء قطرات: الماء الفائض هو الذي يسيل. لم يستطع الهواء أن يمتص سوى سطل واحد. وفي حين أن الهواء في المحمّ نفسه وهو حام، يمتص حوضاً كاملاً، لم يستطع، وهو بارد، أن يمتص سوى سطل صغير.

---

(١) الحمامات البخارية على المحمّ شائعة الاستعمال في الشتاء، حتى في القرية، ويحل محلها في الصيف استحمام في مياه النهر أو البركة.

(٢) يُحمى المحمّ بواسطة موقد من الآجر الذي يغمر بماء الأحواض الخشبية التي تصلح أيضاً لاغتسال المستحمين.

إذا نفخنا على زجاج توضّعت قطراتٌ عليه، وكلما برد ازدادت القطرات التي تتوضع عليه. من أين هذا؟ جاء هذا من أن النَفَس أسخن من الزجاج، وهو يحوي كثيراً من الماء المعلّق وحالما يبلغُ النفس الزجاج البارد يتصاعد منه الماء الذي يحتويه.

الاسفنج يحتفظ بالماء؛ ولسنا نرى الماء ما دمنا لم نعصر الاسفنج. لكن ما أن نعصر الاسفنج حتى يبدأ الماءُ بالتقطّر. والأمر كذلك بالنسبة إلى الجو الذي يحتفظ بالماء ما دام ساخناً؛ لكن ما أن يبرد الجو حتى يأخذ الماء بالتقطّر.

حين نخرج، في الصيف، جرّة باردة من القبو، فسرعان ما تتوضع عليها قطراتُ الماء. من أين جاء هذا الماء]؟ لقد كان موجوداً من قبل لكنه لم يكن يُرى حين كان الهواء (حول الجرة) ما يزال ساخناً؛ ولكن عندما امتصت الجرّة الباردة سخونة الهواء، برد الهواءُ حول الجرة، وتوضّعت عليها القطرات. وهذا ما يحدث أيضاً على الزجاج. فعندما يكون الجو دافئاً في غرفة، تبقى الأبخرة في الهواء؛ لكن لو برد الزجاج على سطحه الخارجي، لبرد الهواء أيضاً قرب الزجاج، ولبدأت القطرات تنساب.

ومن هنا أيضاً يأتي الندى. فعندما تبرد الأرض أثناء الليل، يبرد الجوُّ فوقها: ومن الهواء البارد تولد أبخرة تتوضع قطرات على الأرض.

قد يكون الجو بارداً في الخارج ودافئاً في الغرفة ــ ومع ذلك فالزجاج لا يَرشح؛ وقد يكون الجو في الخارج أدفأ منه في الغرفة ــ ويرشح الزجاجُ. وكذلك قديكون الليل أحياناً، دافئاً والندى وافراً، وقد يكون الليل بارداً ــ ولا ندًى.

من أين يجيء هذا؟ يجيء هذا من أن الجو يكون جافاً تارةً ورطباً تارة أخرى. وهو جاف حين يمكنه أن يمتصّ كثيراً من البخار، لأنه لم يَسْخن من

جديد، وهو رطب حين لا يمكنه أن يمتص البخار، لأنه لم يسخن. الهواء الجاف هو الاسفنجة التي لم تتشبع بالماء تماماً، والهواء الرطب هو الاسفنجة المشبعة كلياً بالماء. وما إن يبرد الهواء ـ ما أنْ نَعْصر الاسفنجة ـ حتى تبدأ القطرات بالانسياب. في الهواء البارد، كلُّ ما هو أبرد من الهواء يغدو رطباً، وفي الهواء الجاف، كل ما هو رطبٌ يجفّ وتولد أبخرة من ذلك فيمتصها الهواء.

الأسقف واللص(١)

(قصة حقيقية)

لوحقَ أحد المسيئين زمناً طويلاً. تنكر، ذات يوم، ودخل المدينة. عرفه رجالُ الشرطة فانطلقوا في إثره. لاذ اللص بالفرار وبلغ، وهو يركض المقرَّ الأسقفي. كانت الأبواب مفتوحة، فدخل الفناءَ. سأله أحد الرهبان عن مراده، فلم يَدْر كيف يجيب، وقال ما خطر بباله دون تبصر.

ـ أنا بحاجة إلى أن أرى الأسقف.

استقبله الأسقف وسأله عن الأمر الذي جاء به إليه.

فأجاب المسيء:

ـ أنا لصٌّ؛ الشرطة تلاحقني. خبّئني وإلاّ قتلتك!

قال الأسقف:

ـ أنا شيخٌ ولستُ أخشى الموت، لكنك تثير شفقتي. امض إلى تلك الغرفة، أنت مُتْعب فاسترح قليلاً وسأرسل لك طعامك.

لم تجرؤ الشرطة على دخول مقر الأسقف، وظل اللصّ في منزل الأسقف ليقضي ليلته هناك.

---

(١) الأسقف هو الأسقف «ميريبل» واللص هو «جان فالجان» (في البؤساء لهوغو) وكان تولستوي شديد الإعجاب برواية هوغو.

عندما استراح اللصُّ، جاء الأسقف ليراه وقال له:

ـ أنت تثير شفقتي؛ لقد أصابك البردُ والجوعُ، وأنت ملاحَقٌ كالذئب؛ لكن أكثر ما يثير شفقتي هو أنك ارتكبت الكثير من الشرور، وأنك تُهلك روحك. فتخلَّ عن سيئات أعمالك.

أجاب اللص:

ـ لا، لا أستطيع أن أتخلى عما تعودته من سوء. لصًّا عشتُ ولصًّا أموت.

تركه الأسقفُ، وفتح جميع الأبواب ونام.

أثناء الليل، نهض اللصُّ وطاف بالغرف. وبدا له غريباً أن الأسقف لم يُغلق شيئاً، وترك جميع الغرف مفتوحة.

نظر اللصُّ حوله، باحثاً عما تمكن سرقته. رأى شمعداناً كبيراً من الفضة، فقال في نفسه: «هذا ما سآخذه. أنه يساوي كثيراً من الفضة. سأنصرف من هنا، ولن أقتل الشيخ».

وهذا ما فعله.

لم يترك رجال الشرطة أبواب الأسقفية، ولم يكفُّوا عن مراقبة اللص. وما أن خرج حتى أحاطوا به، ووجدوا الشمعدان تحت طرف ثوبه. أنكر اللص، لكن رجال الشرطة قالوا له:

ـ تستطيع حقاً أن تنكر سيئاتك الماضية، لكنك لا تستطيع أن تنكر سرقة هذا الشمعدان. هيّا إلى الأسقف، فسوف يُقنعك بالسرقة وسيق السارق ليواجه الأسقف.

سُئِل الأسقف:

ـ هل هذا الشيء لك؟

أجاب:

ـ نعم، هو لي.

قال رجال الشرطة:

ـ لقد سُرق من بيتك، وهذا السارق.

لم يقل اللصُّ شيئاً، وكانت عيناه المتهربتان من العيون، لا تثبتان على شيء، كأنهما عينا ذئب.

لم يفه الأسقف بكلمة؛ عاد إلى الغرفة، وتناول شمعداناً آخر نظيراً له، وقال:

ـ لماذا لم تأخذ، يا صاحبي، سوى شمعدان واحد؟ مع أني وهبتك الاثنين.

ذرف اللصُّ الدموعَ غزاراً وقال لرجال الشرطة:

ـ أنا سارق ولص، خذوني!

ثم خاطب الأسقف قائلاً:

ـ باسم المسيح اغفرْ لي، وادعُ اللهَ لي.

أرماك[1]

(حكاية تاريخية)

في عهد القيصر إيفان فاسيليفيتش الرهيب، كان يعيش في «بيرم» على نهر «كاما» تُجارٌ أغنياء هم آل «ستروغونوف». وقد سمعوا أن هناك أراضي خصبة على طول نهر كاما الذي كان يمتد على مائة وأربعين فرسخاً في كل

(١) أرماك تيموفيتش، قوزاقي نهاب، فاتح سيبيريا، منافس البيزار والكورينس، في آسيا. منذ ١٥٥٦، اتخذ إيفان الرهيب لقب سيد «أوغري» و «سيبيريا». وفي ١٥٥٨م منح غريغوار ستروغونوف مائة وستة وأربعين فرسخاً من الأراضي على نهر كاما. وستروغونوف هذا، هو جد عائلة لعبت دوراً كبيراً في روسيا، منذ القرن السادس عشر.

الاتجاهات، عبر الأراضي الصالحة للفلاحة التي لم تُفْلح خلال العصور، والغابات المظلمة التي لم تمسسها فأس، خلال قرون. وقد كانت هذه الغابات تزخر بالحيوانات البرية، وكان النهر يشكل بحيرات ملأى بالسمك؛ ولم يكن أحدٌ يعيش على هذه الأرض التي يرتادها التتار وحدهم.

أرسل آل ستروغونوف رسالة إلى القيصر، «أعطنا هذه الأرض، وسنقيم فيها متاجر محصّنة؛ سنجمع الناس وسنستعمر الأرض، ولن ندع التتار يمرّون بها.

وافق القيصرُ على طلب آل ستروغونوف، ومنحهم هذه المنطقة. أناب آل ستروغونوف عنهم وكلاء عهدوا إليهم بجمع الناس، تجمع كثيرٌ من الفتيان السيئين وجاؤوا ليقابلوا ممثّليهم. وكان آل ستروغونوف يخصصون للآتين أراضي، ويعطونهم غابات، ويهبونهم ماشية، ولا يقتطعون ضريبة من أحد منهم.

ــ كانوا يقولون لهم:

ــ عيشوا كما تشاؤون، لكنْ اخرجوا رجالكم، عند الضرورة، لقتال التتار. وهكذا استعمرت هذه الأراضي على أيدي رجالٍ من إصل روسي.

مرّ عشرون عاماً اغتنى فيها كثيراً آل ستروغونوف؛ وعنّ لهم أن يوسّعوا ممتلكاتهم: لم تعد تكفيهم بلاد من مائة وأربعين فرسخاً.

على مائة فرسخ منهم تقوم سلسلة الأورال المرتفعة، وقد علموا أن وراء هذه الجبال تمتدّ أرض لا حدود لها، وهي أجمل أرضٍ في الدنيا. وكان سيّدها أميراً سيبيرياً صغيراً يُدعى «كوتشوم». وقد خضع «كوتشوم» هذا للقيصر، فيما مضى من الزمن، ثم ثار عليه، وهو الآن يُهدّد بتدمير متاجر آل ستروغونوف.

وهذا ما كتبه آل ستروغونوف للقيصر:

«لقد وهَبتنا أرضاً فأخضعناها لسلطانك؛ لكن أميراً صغيراً نهّاباً، هو

كوتشوم، يرفع ضدك علم الثورة. وهو يريد أن ينتزع منا الأرض التي تسلّمناها منك، وأن يقضي علينا قضاءً مُبرماً. مُرْنا باحتلال الأرض التي تمتدّ وراء الأورال؛ سنغلب كوتشوم، وسنخضعه لسلطانك.

وافق القيصرُ وكتب ما يلي:

انتزع من كوتشوم ملكية الأرض، إن كنتَ تَقْوى على ذلك، لكن لا تجتذبْ بوعدك كثيراً من الناس إلى خارج روسيا.

وإذ تلقّى آل ستروغونوف رسالة القيصر، أرسلوا مرةً ثانية وكلاء ليجمعوا الناس ويأتون بهم إليهم. وأصدر آل ستروغونوف تعليماتهم إلى وكلائهم بالاتفاق، قبل كل شيء، مع قوزاق الفولغا والدون. لأن القوزاق كانوا يطوفون، في هذه الأوقات، بأعداد كبيرة على طول الفولغا وعلى ضفاف الدون، في عصابات تتراوح الواحدة بين مائتين رجل وثلاثمائة بل وستمائة. وكانت هذه العصابات تختار زعيماً لها يُدعى هَتْمان، وتطوف في زوارق لتنهب السفن التي توقفها. وكانت تتخذ مقرها، في الشتاء، على ضفاف النهر، متحصنة بالقلاع الصغيرة.

وصل وكلاء آل ستروغونوف إلى الفولغا، وبدؤوا تحرّيهم. إستخبروا قائلين:

ـ مَنْ هم أشهر القوزاق في هذه البلاد؟

فكان الجواب:

ـ القوزاق كثيرون. لقد جعلوا حياتنا لا تُطاق. هناك «ميشا تشيركاشينين»، وهناك أيضاً «ساري آزمان». لكن أشدّهم وحشيةً هو «أرماك» الهَتْمان. إنه يأمر ألف رجل لا يخافهم القريون والتجار وحدهم، بل إن الجيش القيصري نفسه لا يجرؤ على الإقتراب منهم.

ومضى وكلاء آل ستروغونوف ليواجهوا أرماك، الهتمان، وليحاولوا

إقناعه بلقاء ستروغونوف. إستقبلهم أرماك؛ أصغى إلى كلامهم، ووعدهم بلقائه مع عصاباته إبّان عيد الصعود.

حين جاء عيدُ الصعود، وصل ستمائة قوزاقي بإمرة الهتمان «أرماك تيموفيتش» إلى مقرّ ستروغونوف. دفع بهم ستروغونوف، إلى قتال التتار المجاورين، فغلبوا التتار، ولما لم يبقَ لهم عملٌ أخذوا يجوسون الديار وينهبونها. فاستدعى ستروغونوف أرماك وقال له:

ــ لن أحتفظ بك مدةً أطول، في خدمتي، إذا ظللتم تسيئون.

أجاب أرماك:

ــ لا تظن أنني، أنا نفسي، مسرورٌ بما يجري. لكني لم أفلح في ردّهم إلى جادّة الحق: إنهم يركبون رؤوسهم. أعطنا عملاً.

أجاب ستروغونوف:

ــ اعبروا الأورال. إذهبوا وحاربوا «كوتشوم». إستدلوا على أرضه، وسوف نكافئكم: لن أكافئكم وحدي، بل سيكافئكم القيصرُ أيضاً.

وأُطلع ــ «أرماك» على الرسائل الإمبراطورية. غمر الفرح «أرماك» فجمع القوزاق وقال لهم:

ــ جلّلتموني بالعار في عيني سيّدي لا عمل لكم إلا النهب، بلا مسوّغ. فإن لم تكفّوا طَردكم، وحينئذٍ، أين تذهبون؟ جيش القيصر كثير العدد، على الفولغا؛ سيأسرنا رجالُه، وسندفع الثمنَ باهظاً عن سيئاتنا الماضية. فإذا كان قعودُكم عن العمل هو الذي يُثقلكم، وإذا كنتم تبتغون شُغلاً لكم، فدونكم الشغل.

وأرى رجاله الرسائل الأمبراطورية التي خُوِّل ستروغونوف بموجبها احتلالَ الأراضي التي وراء الأورال. وبعد أن تشاور القوزاق وافقوا أن يسيروا قدماً.

ثم قصد ستروغونوف وأخذ يفحص معه الخطة التي سيتبعها. بحث معه مقدار السفن اللازمة، وكميات الحبوب، وعدد رؤوس الماشية، والبنادق، والبارود والرصاص، وكم يَحْسنُ أن يأخذ معه من الأسرى التتار ليكونوا مترجمين، ومن صانعي الأسلحة الألمان.

كان ستروغونوف يقول في نفسه: «مهما كلّفني ذلك، فيجب أن أقدمه لهم، وإلا بقوا هنا، وكان على أيديهم خرابي» قَبِلَ ستروغونوف بكل شيء، وجمع كل ما يلزمه لتجهيز أرماك والقوزاق. في أول أيلول إعتلى أرماك والقوزاق اثنين وثلاثين زورقاً، في كل زورق عشرون رجلاً، ليتبعوا مجرى نهر تشوسوفايا. جدّفوا أربعة أيام صاعدين النهرَ، وانتهوا بأن نفذوا إلى «سيريبريانا» وكان من المتعذر أن يسافروا في النهر إلى أبعد من ذلك. وسُئِلَ الأدلاء فقالوا: لا بد الآن من عبور الجبال والسير مائتي فرسخ على الأرض اليابسة، وبعد ذلك سيجدون أنهاراً أخرى.

حينئذٍ توقّف القوزاق، وبنوا بلدةً وأنزلوا كلّ معدّاتهم. تركوا زوارقهم وبنوا عربات حمّلوها بكل ما معهم؛ ومضوا لعبور الجبال. كانوا يلاقون، أينما ذهبوا، غابات لا يسكنها أحدٌ. ساروا يومين، ثم وجدوا نهراً، «الجاروفنيا». وهنا توقّفوا مرةً أخرى، وبنوا زوارق. فلما إنتهوا منها نزلوا إلى النهر، وسافروا فيه خمسة أيام ووجدوا بلاداً أقل فظاعةً، ومراعي، وغابات؛ كانت البحيرات تزخر بالأسماك، والغابات بالحيوانات البرية، وهي حيوانات لم تكن لتهرب منهم. وسافروا في النهر يوماً آخر فوصلوا إلى نهر تورا، وهنا لقوا التتار ومدنهم المحصّنة.

أرسل أرماك قوزاقاً يستطلعون إحدى هذه المدن. كان يريد أن يعلم كيف بُنيت إحدى قلاعهم المحصنة، وما المقاومة التي ستواجههم بها. إنطلق عشرون من القوزاق إلى الأمام، وهزموا التتار، واحتلّوا المدينة، واستولوا على

الماشية، لقد قتلوا عدداً كبيراً من التتار، وأسروا من بقي منهم. إستجوبهم أرماك بواسطة مترجميه.

ـ من أنتم؟ ومَنْ سيّدكم؟

أجاب التتار بأنهم تابعون للأمبراطورية السيبيرية وأن قيصرهم هو «كوتشوم».

أطلق أرماك سراحَ التتار، ولم يَبق سوى ثلاثة معه، هم أذكى التتار وذلك لكي يدلّوه على الطريق. وصعد القوزاق قواربهم. وكانوا كلما تقدّموا غدا النهرُ أعرض، والبلاد أخصب وأَحْفل بالسكان، وإن كانوا من سلالة قليلة القوة: إستولى القوزاق على كل المنشآت المحصّنة التي كانت تمتد على طول النهر.

وفي إحدى هذه المنشآت، أسروا كثيراً من التتار، بينهم شيخ من سلالة قوية، أجاب عندما سُئِلَ: مَنْ أنت:

ـ أنا «تاوزيك»، خادم الأمبراطور كوتشوم؛ منه تسلّمتُ سلطاتي لأحكم المدينة.

سأله أرماك عن أمبراطوره:

ـ هل مدينة سبير بعيدة؟ هل في حوزة كوتشوم قوى كبيرة، وثروات عظيمة؟

أجاب تاوزيك عن كل شيء. وكان يقول:

ـ كوتشوم هو أول أمبراطور في العالم. عاصمته ـ سيبير ـ أكبر مدينة في العالم؛ وهي تحوي على عدد من الرجال ورؤوس الماشية يساوي عدد نجوم السماء؛ والقوى التي في حوزة القيصر كوتشوم لا تُحصى، ولن يَقْوى عليه جميعُ القياصرة مؤتلفين.

أجاب أرماك:

ـ لقد جئنا نحن الروس، إلى هنا، لكي نغلب قيصرك ونستولي على

مدينته. نريد أن نُخضعه لقيصرنا الروسي. وفي حوزتنا قوى عظيمة. ومَنْ هم معي الآن ليسوا سوى الطليعة؛ وعلى قواربنا، في الخلف، تتقدم جموع لا حَصْر لها، وجميع الرجال مسلّحون. إن رصاص بنادقنا يخترق الجذع وينفذ منه؛ وهو يختلف عن قسيّكم وسهامكم؛ أنظرْ!

وصوّب أرماك على الشجرة؛ شقتها الرصاصة؛ وأخذ القوزاق يطلقون النار. جثا تاوزيك على ركبتيه، من الخوف.

فقال له أرماك حينئذ:

ـ انصرف، اذهب والقَ قيصرك كوتشوم، وأَخبره بما رأيتَ. فليَستسلمْ وإلا فإن هلاكه محتوم.

صَرف أرماك الشيخَ. ركب القوزاق زوارقهم واستأنفوا مسيرهم في النهر فنفذوا إلى نهر كبير هو «التوبول». وأخذوا يقتربون شيئاً فشيئاً من «سيبير» المدينة. وبلغوا نهراً صغيراً «البباباسان»، ورأوا مدينة تتارية تنتصب أمامهم، يحيط بهم شعبٌ كثير العدد.

أرسلوا إلى التتار ترجماناً يسألهم من هم. عاد الترجمان وقال:

هذا جيش كوتشوم مجتمعٌ هنا؛ وقائده هو صهر «كوتشوم» نفسه: «ماميتكول». لقد إستدعاني وأصدر أمره إلي بأن أخبرك بوجوب إنسحابكم وإلا ذبّحكم.

جَمَع أرماك القوزاق، ونزل من النهر، وفتح النارَ على التتار. سمع التتار إطلاقَ النار، وما أسرع ما فرّوا. فاندفع القوزاق في أثرهم وقتلوا بعضاً وأسروا الآخرين. ولم يستطع ما مينكول نفسه أن يُفلت إلا بشقّ النفس.

تابع القوزاق جريهم في النهر، فنفذوا إلى نهر عريض وسريع، هو الإيريتش. فمضوا فيه يوماً كاملاً، ووصلوا إلى أمام مدينة جميلة، وهناك وقفوا. وزحفوا على المدينة. ما كادوا يقتربون منها حتى أخذ التتار يرمونهم

بالسهام، فجرحوا ثلاثةً منهم. أرسل أرماك ترجماناً ليقول لهم أن عليهم أنْ يستسلموا، وإلا فسوف يُذبّحهم. ذهب الترجمان، ثم عاد وقال:

ـ هنا يَحْكم «آنيك مورزا كاتشارا» خادم كوتشوم، إن في حوزته قوى عظيمة، وقد أعلن أنه لن يسلّم المدينة.

جَمَع أرماك رجاله وقال لهم:

ـ يا أولادي! إذا لم نَسْتولِ على هذه المدينة المحصّنة، فسوف يرفع التتار رؤوسهم، وسيحولون بيننا وبين ما نريد. وكلّما أسرعنا في ترهيبهم سُهلَ علينا التسلّط عليهم إلى الأمام، جميعاً! اندفعوا جميعاً اندفاعةً واحدة!

فعلوا ذلك. كان أمامهم الكثير من التتار، وكلهم فتيان أشدّاء.

ما إن انقضّ القوزاق حتى أخذ التتارُ يرمونهم فخرّقوهم بالسهام التي تَنْفذ أحياناً في البعض فتميتهم، وتجرح الآخرين جراحاً خطيرةً، أحياناً أخرى.

هاج القوزاق فحملوا على التتار، وقتلوا بدون رحمة كل الذين إستطاعوا بلوغَهم.

عثر القوزاق في المدينة على الكثير من الثروات، والحيوانات، والسجاد، والفرو، وكمية من نبيذ العسل؛ دفنوا أمواتهم، واستراحوا، وجمعوا غنائمهم، ومضوا في النهر قدماً.

لم يقطعوا مسافة كبيرة بعد، وما أَعجبَ ما رأوه أمامهم! على ضفة النهر، انتصب جيشٌ لا نهاية له، كأنه أسوار المدينة، تحميه حفرةٌ مغروزةٌ بالأوتاد. توقّف القوزاق، وأخذوا يفكّرون. جمعهم أرماك للإستشارة.

ـ حسناً! يا أولادي، ما القرار الذي نتّخذه؟

فقد القوزاق شيئاً من جسارتهم. قال بعضهم:

ـ يجب أن نمضي بمراكبنا.

قال آخرون:

ـ يجب أن نعود إلى الخلف.

تجّهمت جباههم، وتمتمت شفاههم بكلام ضد أرماك.

كانوا يقولون له:

ـ لمَ جئتَ بنا إلى هذا المكان؟ كم رجلٍ منا مات! وكم رجلٍ جُرح جرحاً خطيراً! وسنموت جميعاً هنا.

وأخذوا يبكون.

قال أرماك لمساعده، إيفان كولتسو:

ـ وأنت يا صاحبي، ما رأيك في ذلك كله؟

أجاب إيفان:

ـ أنا، ما رأيي في ذلك؟ إن لم يقتلونا اليوم، قتلونا غداً؛ وإن لم يقتلونا غداً فلا بدّ أن نموت في ذات يوم، إعتباطاً، على فراشنا، في المنزل. برأيي أننا يجب أن ننزل ونحمل على التتار كموجةٍ من حمم، على بركة الله.

قال أرماك حينئذٍ:

ـ مرحى! يا صاحبي، إيفان! هذا ما يجب أن نفعله! أما أنتم، يا أولاد، فما أنتم بالقوزاق، أنتم نساءٌ ضعاف! أنتم لا تصلحون إلاّ لصيد الأسماك وتخويف نساء التتار. ألستم تفهمون؟ أنرجع؟ إن رجعنا إلى الخلف ذبّحونا، أم نتقدم إن تقدمنا في النهر ذبحونا. أنعود أدراجنا؟ إلى أين؟ قد يكفي شيءٌ من الجهد ليغدو كل شيء يسيراً. أنتم تذكرونني، يا أولادي، بفرس جدّي! كانت، في المنحدرات تُحسن الجرّ، وفي الأرض المنبسطة، تحسن الجر، أما في الطريق الصاعدة فكانت تتأبّى. كانت تريد أن ترجع إلى الوراء، ظنّاً منها أن ذلك أسهل. وحين رأى جدّي ذلك، تناول، ذات مرة، هراوته ومشّاها، مشاها وهو يضربها ضربات مبرحة. ظلت تستدير، وتتخبّط، وانتهت بأن كسرت العربة. ففكها جدي وسلخ جلدها. لو أنها جرّت حملها، لما لقيت هذا

العذاب. حسناً! يا أولادي، والشيء نفسه بالنسبة إلينا. لا خيار لنا؛ يجب أن ننقضّ على التتار.

ضحك القوزاق وقالوا:

ـ الأمر واضحٌ، يا تيموفيتش، أنت أعلم منا! لا فائدة في استشارتنا، نحن الأغبياء. قُدنا إلى حيث تشاء. فنحن لا نموت مرتين، وإذا جاء الموت فلا مفرّ منه.

قال أرماك:

ـ حسناً! اسمعوا، يا أولادي! دونكم ما يجب فعلُه: إنهم لم يرونا جميعاً. فلْننقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم في الوسط يمشي رأساً عليهم، أما القسمان الآخران فيهاجمانهم من الجانبين، من اليمين ومن اليسار. وما إن يرى التتار رجال الوسط يقتربون حتى يظنوا أننا جميعاً هنا، وسيثبون إلى خارج حصونهم. عند ذاك سنهاجمهم من الجانبين. واسمعوا يا أولادي! إذا غلبَ هؤلاء فلن يظل بعدهم مَنْ نخشاه. وسنصبح جميعاً كالقياصرة.

وهذا ما وقع. فعندما تقدّم رجالُ الوسط مع «أرماك»، وثب التتار إلى خارج معاقلهم، وهم يطلقون صرخات ثاقبة. حينئذٍ إقتحمهم إيفان «كولتسو» من اليمين، و«ميشتشيراك» الهتمان، من اليسار. إرتعب التتار وتشتتوا، فذبحّهم القوزاق؛ لم يجرؤ بعد ذلك أحدٌ على معارضة أرماك. وعلى هذا النحو، دخل مدينة «سيبير» وأقام فيها وكأنه قيصر.

بادر الأمراءَ الصغار من الجهات المجاورة لتكريمه، حتى التتار أنفسهم جاؤوا بأعداد كبيرة ليقيموا في «سيبير». أما كوتشوم وصهره «ماميتكول»، فلم يجرؤا على مهاجمة «أرماك» مباشرة: لقد اقتصر على دسّ الدسائس، باحثين عن الوسيلة التي بها يمكن أن يدمّراه.

إبان فيضانات الربيع، لجأ التتار إلى «أرماك» وقالوا له: ماميتكول يزحف

عليك، مرة أخرى. وقد جميع جيشاً كثير العدد يعسكر على نهر «فاغاي».

اجتاز أرماك الأنهار والمستنقعات والسواقي والغابات، ومرّ مع قوزاقه من دون أن يشاهده أحد، وانقضّ على ماميتكول، وقتل عدداً كبيراً من التتار، وقبض على ماميتكول حيّاً، واقتاده إلى سيبير. ولم يبق كثيرٌ من التتار العصاة. وأثناء الصيف، زحف «أرماك» على كل من لم يخضع له، واحتل، على امتداد «الإيريتش»، و«الامزلي» مناطق واسعة لا يمكن الطواف حولها في مدى شهرين.

عندما ضمّ أرماك هذه الأرض كلها، أرسل رسولاً إلى ستروغونوف ومعه هذه الرسالة: «إستوليتُ على عاصمة كوتشوم، وأسرت ماميتكول، وأخضعتُ الشعب كله. لكني فقدت كثيراً من القوزاق. فأرسلْ لي اذن ناساً يجعلون لنا الحياة أبهجَ. أما ثروات هذا البلد فلا حَصْرَ لها».

وأرسل مع الرسالة فراءً ثميناً: فراء الثعالب والسمامير والزبلين.

مرّت سنتان، وأرماك فيهما سيّد سيبير. لكن لم يأته من روسيا مددٌ، ولم يبق حوله سوى قلة من أصل روسي.

ذات يوم أرسل التتاري «كاراتشا» رسولاً إلى أرماك ليقول له:

ــ لقد قدّمنا لك ولاءنا، لكن تتار نوغاييس يسيئون إلينا ألف إساءة؛ أرسل رجالك البواسل لنجدتنا، وسنخضع تتار نوغاييس معاً. لن نُهين رجالك البواسل، نقسم لك على ذلك.

صدّق أرماك كلامهم وأرسل أربعين رجلاً مع «إيفان كولتسو» عندما وصل الأربعون رجلاً إنقضّ عليهم التتار وذبّحوهم. وأخذ عدد القوزاق يتناقص.

في المرة الثانية، تجار بُخارى هم الذين أرسلوا ينذرون «أرماك». كانوا في طريقهم يحملون سلعاً إلى «سيبير المدينة»، لكن كوتشوم سدّ طريقهم بجيشه ومنعهم من متابعة طريقهم. أخذ أرماك معه خمسين رجلاً ومضى ليفتح

الطريق للتجار. وصل إلى نهر «أرتيش» ولم يجد تجار بخارى. فتوقّف ليقضي الليل. وكانت ليلة معتمة ممطرة. وما كاد القوزاق يتمددون حتى خرج التتار من أماكن لا ترى، وانقضّوا عليهم، وهم نائمون، وأخذوا يضربونهم. وثب أرماك وشرع في قتالهم. فأصابته طعنة سكين في ذراعه؛ حينئذٍ هرع إلى النهر والتتار في إثره، ورمى نفسه في الماء. ولم يره أحدٌ بعد ذلك أبداً. لم يُعثر على جسده، ولم يعلم أحدٌ كيف مات.

في السنة التالية، وصل الجيش القيصري واستسلم التتار.

سوكمان[(١)]

(أقصوصة شعرية)

عندما كانت تُولم الولائم، في بلاط الأمير اللطيف فلاديمير، وتقام الاحتفالاتُ على شرف النبلاء والسادة الإقطاعيين والفتيان البواسل، كان الجميع يتفاخرون، على مائدته المستديرة:

كان هذا يمدح كنزه المليء بالذهب، وذاك يُثني على جواده الفاره، وكان القوي يمجّد قوته، والغبيُّ زوجته الشابة، والعاقل أمه العجوز، لكن ها هو ذا «سوكمان أوديكمانتييفتش» البطل جالساً إلى المائدة، مع الآخرين، غارقاً في أفكاره. لا يفتخر بشيء. وكان الأمير فلاديمير، «الشمس المنيرة» حاضراً، يتجوّل في الصالة، وخصل شعره الأشقر تهتز. قال لابن أوديكمانت: «أين

---

(١) هذه القصيدة الملحمية الروسية لا تنتمي إلى مجموعة قصائد الجبابرة والأبطال البدائيين، بل إلى مجموعة قصائد كييف. وسوكمان بطل، بطل متواضع، مغامر من الطراز الثاني، في خدمة فلاديمير الشمس المنيرة أو ضوء الشمس، أمير كييف (٩٧٢ ــ ١٠١٥)، والمصدر الذي يستقي منه تولستوي هذا النص ــ وإن لم يذكره هذه المرة ــ هو ريبنيكوف.

تحومُ أفكارك، يا سوكمان اللطيف؟ ولمَ لا تأكل، ولمَ تجلس دون أن تشرب أو تذوق شيئاً؟.

لست تقطع ذلك التمّ الأبيض؟ ولست تتباهى بشيء أثناء هذه الوليمة. ويجيب سوكمان:

«بما أنك تأمرني فهذه هي مُفاخرتي: سأحمل إليك، وأنا كفيلٌ بذلك، تمّاً أبيض بدون لطخة دمٍ، بدون أي جرح وسأضعه حيّاً بين يديك!.

إنتصب سوكمان على قدميه الخفيفتين، وأسرج حصانه، جواده الجسور، وامتطاه ومضى نحو البحر الأزرق، نحو البحر الأزرق والمياه الهادئة. وصل إلى مياه راكدة تحت القصب؛ لم يفاجىء فيها أي تمّ أبيض. ومضى بجواده إلى أبعد من ذلك، فلم يجد في الخليج الصغير الثاني تمّاً. وحتى في المياه الهادئة، مياه الخليج الصغير الثالث لم ير تمّاً رمادياً ولا تماً أبيض. حينئذٍ أخذ سوكمان اللطيف يفكّر: «كيف أعود إلى «كييف» المدينة، المدينة النبيلة؟ ماذا سأقول للأمير فلاديمير؟».

ودفع جواده، فمضى إلى لقاء «نيبرا»[1] الساقية الأم: إيه! ماذا! «نيبرا» خارجة من سريرها، ولا تتبع مجراها القديم، مجراها فيما مضى من الزمن، ومياهها محمّلةٌ بالرمل.

سأل «سوكمان» الساقية: مالكِ، يا أمنا نيبرا، ما لكِ تجرين هكذا، لا كما كنتِ تجرين قديماً، في سريرك القديم، ولم جاء كلُّ هذا الرمل يعكّر مياهك؟

أجابت الساقيةُ «نيبرا» أمُّنا:

«إذا كنتُ قد خرجت من سريري القديم، إذا كنتُ قد غادرت مجرايَ

(١) النيبرا التي يطلق عليها صفتا الأم والأخت ليست سوى «الدنيبير» الذي تصفه الأساطير الروسية، على العموم، بصفة الأب.

القديم، مجراي فيما مضى من الزمن، فذلك أن ورائي، فيما وراء «نيبرا الساقية»، تتاراً شرّيرين يعسكرون بالآلاف. وهم يبنون الجسور من الصباح حتى المساء؛ وما يبنونه في النهار أهدمه أنا في الليل؛ لكن قواي تلاشت الآن».

فهتف سوكمان:

«سأعْهدُ بمجدي إلى بسالتي الفتية، وسأتحدى بقوتي هذه القوى التتارية».

واندفع على حصانه، على جواده النشيط، عبر ساقية النيبرا، دون أن يبلل جواده الجسور حافريه. ووصل إلى قرب سنديانة، قربَ سنديانة ما تزال قوية، وهي على شكل حربة، إجتثّها من جذورها فخرج منها نسغٌ أبيض. أمسك بهذه السنديانة الهراوةِ من أعلاها، وأغار بجواده على التتار. بدأ جولاته وهو يلوّح بهراوته العظيمة: فإن لوّح بها إلى الأمام أحدث ثغرة في جيش العدو، وأن لوّح بها إلى الخلف شق لنفسه درباً.

قهر ابن «اوديكمانت» جميع التتار. على أن بينهم ثلاثة جاحدين صغاراً اختبؤوا تحت شجرة عظيمة في حقل من الصفصاف، على ضفاف نيبرا ــ الساقية. وعندما تقدم سوكمان نحو نيبرا، أمنا، رمى التتارُ الصغارُ الثلاث بسهامهم ابنَ اوديكمانت، عبر الدغل، فأصابوه في خاصرته، في لحمه الأبيض. انتزع سوكمان اللطيف، هذا البطل المتألق، السهامَ من جراحه الدامية؛ وسد أفواه الجراح بورق الخشخاش. وبسكينه شقّ صدور الجحدة الصغار الثلاثة. وعندما عاد سوكمان إلى قصر الأمير فلاديمير، ربط جواده بوتد في الفناء، ثم دخل صالة الولائم. وكان فلاديمير، «الشمس المنيرة» حاضراً يطوف في الصالة. قال لابن اولايكمانت: «ايه يا سوكمان اللطيف، لعلك تحمل إليّ تمّاً أبيض، بدون لطخة دم».

أجاب سوكمان:

«آه[1]! أيها الأمير فلاديمير! أعلم أنني، فيما وراء ساقية نيبرا، لم تَشغلني طيور التمّ؛ فيما وراء نيبرا الساقية، لقيتُ جيشاً من أربعين ألف رجل. كان التتار الشريرون يزحفون على كييف المدينة، ويبنون الجسور من الصباح إلى المساء؛ لكن نيبرا الساقية كانت تهدمها ليلاً، ولذلك استنفذتْ قواها. أغرتُ بجوادي على التتار فقتلتهم عن آخرهم».

لم يصدق الأمير فلاديمير، الشمسُ المنيرةُ، هذا الكلام، فأمر أتباعه المخلصين بأن يربطوا يدي سوكمان البيضاوين، وبأن يودعوه السجن، السجن العميق. وأرسل دوبرينيوشكا إلى نيبرا ليستعلم عن مآثر سوكمان. إنتصب دوبرينيوشكا على قدميه الرشيقتين، وأسرج حصانه، جواده الجسور؛ خرج إلى السهل، ومضى نحو نيبرا الساقية، فرأى قوةً حربية مدمّرةً كلياً منتشرة على الأرض:

رأى أربعين ألف رجل يرقدون هنا، ورأى أيضاً سنديانةً بجذورها، سنديانة تمزّقت مزقاً. التقطها دوبرينيوشكا وحملها إلى فلاديمير. قال دوبرينيوشكا للأمير: «إن الأقوال المجيدة التي قالها ابن أوديكمانت أقوالٌ صادقة».

لقد رأيت، فيما وراء «نيبرا» أربعين ألف تتاري شرير يرقدون على الأرض، ورأيت هراوة ابن أوديكمانت وقد تقطّعت إرباً إرباً».

أمر الأمير فلاديمير خدّامه أن يهبطوا إلى السجون العميقة التي تحت الأرض، وأن يخرجوا، في أسرع وقت، ابن أوديكمانت، وأن يأتوا به ليَمْثُل بين يديه، بين يدي الأمير ذي العينين المضيئتين.

---

(١) آه: تستخدم القصائد الملحمية الروسية، على الأغلب، إن لم يكن دائماً، هذه الأداة، في بداية الكلام، وهي ضرب من التعجب الذي يشجع به المغني نفسه.

قال فلاديمير في نفسه:

«سأعفو عن البطل الشاب، من أجل خدماته، من أجل مآثره. سأغمره بمعروفي، وأهبه المدن وتوابعها، وأضيف إليها القرى والضياع وكنزاً من القطع الذهبية التي لا تُحصى».

ويتّجه الخدّام المخلصون إلى السجون العميقة تحت الأرض، ليَلقوا ابن أوديكمانت.

قالوا له: «اخرج، يا سوكمان، اخرج من سجنك تحت الأرض: لقد عفا عنك الأمير فلاديمير، بسبب مآثرك. إن شمسنا تريد أن تهبك المدنَ وتوابعها، وأن تضيف إليها القرى والضياع، وكنزاً من القطع الذهبية التي لاتُحصى».

عندما خرج سوكمان إلى السهل العاري الطليق، قال هذه الكلمات: «آه! أيها الأمير فلاديمير، أيها الشمسُ المنيرةُ، لم تستطع أن تعفو عني في الوقت المناسب، ولا أن تغمرني بهباتك في الوقت المناسب. لن تراني بعد الآن. لن تتأملني عيناك المضيئتان بعد الآن!».

وانتزع ابنُ أوديكمانت من جراحه الدامية ورقة الخشخاش.

وقال الأميرُ النبيل سوكمان:

«سِلْ، يا دمي، سِل ساقيةً[1]، سل يا دمي أمواجاً مضطرمة، أمواجاً محرقةً، تُراقُ بلا جدوى، سِلْ، يا سوكمان، يا سوكمان الساقية، وأغدُ أختاً للساقية نيبرا».

• • •

(١) إن دم البطل اليائس يتحول إلى ساقية، وهذه الساقية تحمل إسماً مؤنثاً، هو السوكونا، رافد «الدفينا» الذي يروي مقاطعة فولوغدا، في الشمال الأقصى من روسيا.

كتاب القراءة الثالث

القيصر والصقر[1]

(مثل)

أرسلَ قيصرٌ، في الصيد، صقره المفضّل على أرنب ومضى في إثره جرياً.

اصطاد الصقرُ الأرنب. أخذها القيصر وبحث عن ماء ليروي ظمأه وجد ماءً عند سفح تلةٍ، لكنها لم تكن تسيل إلاَّ قطرة قطرةً. جاء القيصر بقدح كان معلقاً بسرجه، ووضعه تحت خيط الماء النحيف، وما إن امتلأ حتى رفعه إلى شفتيه ليشرب. وفجأة ارتعد الصقر الذي حط على ذراعه، وأسقط القدح بخفقة من جناحه. وضع القيصر القدح مرة أخرى تحت خيط الماء، وانتظر طويلاً حتى يمتلىء إلى حافته، ولما رفعه إلى فمه، إذا بالصقر يرتعد، للمرة الثانية، ويُسيل ماء القدح.

وعندما جمع القيصر للمرة الثالثة من الماء ما يكفي لملء القدح، وبينما كان يقرّ به من شفتيه، كبّه الصقر من جديد. غضب القيصر فأمسك بالطائر وضربه ضربة واحدة على حجرٍ، بكل قوة ذراعه، فقتله. في هذه اللحظة، هُرع خدّامُ القيصر على جيادهم. وصعد أحدهم بحثاً عن النبع، ليجد ماء أغزر ويملأ قدحه بسرعة أكبر. لكن الخادم لم يأتِ بالماء؛ رجع بقدح فارغ وقال:

---

(١) يقول تولستوي أن مصدره هندي.

ـ لا يجوز أن تشرب من هذا الماء، فها هنا تنّين نفث سمّه في النبع ومن حسن الحظ أن الصقر كبَّ الماءَ الذي كنت ستشربه؛ ولو شربت لمتَّ.

قال القيصر:

ـ لقد جازيتُ الصقرَ على معروفه أسوأ جزاء؛ هو أنقذ حياتي وأنا قتلته.

الثعلب(١)

(مثل)

وقع ثعلبٌ في فخ؛ ترك فيه ذيله وانصرف. وكان يتساءل كيف يفعل ليستر عاره. دعا الثعالبَ وأخذ يُبرهن لها أن عليها أن تبتر ذيولها قال شارحاً:

ـ الذيل لا يُجدي نفعاً؛ نحن نجرّ وراءنا ثقلاً لا فائدة منه، هذا كل ما في الأمر.

ـ أوه! أوه! لو لم يكن ذيلكَ مقطوعاً لكان كلامك مختلفاً!

لم يفه الثعلب ذو الذيل المبتور بكلمة وانصرف.

العقاب الصارم(٢)

(أقصوصة)

ذهب رجلٌ إلى السوق ليشتري شيئاً من لحم البقر. غشّه التاجرُ؛ أعطاه لحماً رديئاً وبَخَسه الوزن.

عاد الرجلُ إلى منزله وهو يسبّ. لقيه القيصرُ فسأله:

ـ على مَنْ أنتَ ساخط؟

ـ إنما سَبَبْتُ مَنْ غشني؛ دفعت ثمن ثلاث ليبرات فأعطاني اثنتين ومن لحم البقر الرديء!

---

(١) ايزوب: الثعلب الذي بتر ذيله. لافونتين: الثعلب ذو الذيل المبتور.

(٢) المصدر عربي، كما يقول تولستوي، وشرقي كماي قول شارحو شكسبير.

قال له القيصر:

ـ هيا إلى السوق وأرني الذي غشّك.

عاد الرجلُ أدراجه ودلّه على التاجر.

أمره القيصر بأن يزن اللحم؛ كان الغش جليًا.

قال القيصر للرجل:

ـ حسناً! ما العقاب الذي تريد أن أعاقب به التاجر.

ـ مُرْ أن يقطَع من ظهره كمية اللحم التي نقصني إياها.

قال القيصر:

ـ ليكنْ، خذ سكيناً واقطع ليبرةً من ظهر التاجر. ولكن احرص على أن يكون الوزن صحيحاً؛ إن قطعت أكثر من ليبرة أو أقل منها فأنت مسؤولٌ عن ذلك.

لم يجب الرجلُ وانصرف إلى بيته.

الحمار الوحشي والحمار الأهلي[1]

(مثل)

رأى حمارٌ وحشي حماراً أهليًا، فدنا منه، وهنّأه على حظه السعيد، قائلاً له: أنه يجده في وضع حسن، فما ألذّ علفه إذن.

لكن عندما رأى الحمارُ الوحشي وغداً يحمّل الحمار ويسوقه أمامه خبباً بالعصا، قال:

ـ الحقُ أنني لا أغبطك، يا أخي. ومن الواضح أنك كنت تكسبُ عيشك فذلك بالعرق الذي يسيل منك.

(١) ايزوب: الحمار الوحشي والحمار الأهلي: لافونتين: الذئب والكلب.

الأرنب والكلب المطارِد

(مثل)

قالت الأرنب يوماً للكلب المطارد:

ـ لم تنبحُ عندما تطاردنا؟ لو لحقت بنا دون نباح لأمسكت بنا بسرعة أكبر. فنباحك لا ينالك منه شيء سوى أنك تدفعنا نحو الصياد؛ فيعلم من أين نمرّ ويركض إلينا وبندقيته بيده، ويقتلنا ولا يعطيك شيئاً.

أجاب الكلبُ:

ـ إني لا أنبح لأوجّهك نحو الصياد. وإنما أنبح لأنني، حين أشمّ رائحتك، ينتابني الهياج والفرح، إذ أتصور أنني سأقبض عليك بعد ثانية. ولستُ أعلم أنا نفسي لماذا يجب أن أنبح!

الأيّل(١)

(مثل)

اقترب أيّل من ساقية ليروي ظمأه فرأى في الماء صورته، وأحب أن يتأمّل قرنيه. ما أكبرهما، وما أكثر فروعهما! لكنه عندما شاهد ساقيه، قال في نفسه: أما ساقاي فهما، لسوء الحظ، بشعتان ونحيفتان.

وعلى حين غرّة، وثب أسدٌ لينقضّ على الأيل. فانطلق الأيل جارياً في السهل المنبسط. تقدّم في الحقل، لكنه عندما بلغ الغابة، تعرقل قرناه بالأغصان، فأمسك الأسد به.

وعندما حان أجلُ الأيّل قال:

---

(١) ايزوب: «الأيل على النبع والأسد». لافونتين: «الأيل يرى نفسه في الماء».
لقمان: الغزالة.

ـ ما كان أغباني! كانت هاتان الساقان اللتان ظننتهما بشعتين ونحيفتين جديرتين بأن تنقذاني لولا القرنان اللذان أعجبتُ بهما واللذان سبّبا هلاكي.

الأرنب

(وصف)

تتغذى الأرانب ليلاً، أرانب الغابات، من لحاء الشجر؛ وأرانب الحقول من قمح الشتاء ومن الشعب؛ وأرانب البساتين، قرب المزارع، من الحبوب. وفي الليل، تترك الأرانبُ على الثلج آثاراً عميقةً ومرئية. والأرانب يَرْغبُ فيها الناسُ والكلاب والذئاب والثعالب والغربان والنسور. ولو كانت مشية الأرنب على خط مستقيم لعثرنا عليها في الحال عند تتبُّعِ أثرها، ولاصطدناها. لكن الله وهبها الجُبنَ وهو الذي يُنقذها.

أثناء الليل، تمضي الأرنب دون خوف، عبر الحقول والغابات، وتترك أثراً مستقيماً. لكنْ ما إن يطلع الصباح حتى يستيقظ أعداؤها. وتسمع الأرنب نُباحَ الكلاب، وصرير الزحافات، وأصوات الفلاحين، وقرقعات: ذئب يمرّ بالغابة. عند ذاك تنطلق الأرنب من الرعب، في هذه الجهة تارةً، وفي تلك الجهة تارة أخرى. إنها تجري على خط مستقيم إلى الأمام، فتخاف شيئاً ما، فتعود راكضة، متابعة أثرها الحديث. أما تزال تسمع شيئاً؟ ها هي ذي تثب جانباً بكل قواها، وترتدّ بسرعة مبتعدةً عن أثرها القديم. هل هناك من ضوضاء أخرى؟ تبدأ الأرنب جريها من جديد إلى الوراء، وتجري في جهة أخرى. فإذا طلع النهار نامت.

عند الصباح، يسعى الصيادون إلى تحديد مكان الأرنب من خلال آثارها المتكرّرة، فيحارون في هذه الآثار التي تقطّعها وثبات عريضة؛ إن حيلة الأرنب تذهلهم. ومع ذلك، فالأرنب لا تفكر في خداعهم. كل شيء يخيف الأرنب، هذا كل ما في الأمر.

الكلب والذئب[1]

(مثل)

نام كلبٌ خارج فنائه.

هُرع ذئبٌ جائع وأراد أكله. قال الكلب:

ـ انتظرْ قليلاً، يا ذئبُ، قبل أن تأكلني، إني هزيلٌ فأمهِلْني؛ سيُحتَفَل بعرسٍ في بيت أصحابي، وحينئذٍ سأجد ما آكله حتى الشبع؛ سأسمن؛ وسأغدو مستساغاً في هذه اللحظة.

اقتنع الذئبُ وانصرف.

عاد مرة أخرى ووجد الكلب نائماً على سطح. قال الذئب:

ـ حسناً والعرس؟

أجاب الكلبُ:

ـ أتقبل هذه النصيحة الصادقة ؟ خُذْها: إن وجدتَني ذات يوم نائماً أمام باب الفناء، فلا تنتظرْ حتى يوم العرس.

إخوة الملك

(أقصوصة)

كان الملك يتنزّه ذات يوم، في الشارع. اقترب منه متسول وسأله الصدقة.

لم يعطه الملك شيئاً. قال المتسوّل:

ـ مولاي، لقد نسيتَ، بدون شك، أن ليس لنا سوى أب واحد هو: الله. نحن جميعاً إخوة، ويجب جميعاً أن نتشارك.

(١) ايزوب: «الكلب النائم والذئب» لافونتين: «الذئب والكلب الهزيل».

عند هذه الكلمات، توقّف الملكُ وقال:

ـ هذه هي الحقيقة، نحن إخوة، وواجبنا أن نتشارك.

ومَنحَ المتسوّلَ قطعةً ذهبية.

أخذها المتسوّل وقال:

ـ لم تُعطيني شيئاً ذا بال؛ أهكذا حقاً يتشارك الإخوة؟ المشاركة إنما هي المناصفة! أنت تملك مائةَ قطعة ولا تعطيني منها سوى واحدة.

أجاب الملك:

ـ أنْ أملكَ مليون قطعة، هذا صحيح. لكني لم أعطك سوى واحدة لأن لي من الإخوة بقدر ما أملك من القطع الذهبية.

الأعمى والحليب

(مثل)

سأل ضريرٌ مبصراً:

ـ ما لونُ الحليب؟

قال المبصر:

ـ الحليب؟ بلون الورق الأبيض.

ـ هذا اللونُ الأبيض، له إذن صوتُ الورق الأبيض عندما نفركه؟

ـ لا، الحليب أبيضُ كالطحين.

ـ إذن هو ناعم الملمس، وهو يتفتّت بين الأصابع كالطحين؟

ـ لا، إنه أبيض، لا أكثر، كالأرنب في الشتاء.

ـ إذن هو زَغِبٌ وناعم على الملمس كالأرنب؟

ـ لا، اللون الأبيض هو بالضبط لونُ الثلج.

ـ إذن هو بارد كالثلج.

عبثاً أعطى البصيرَ أمثلةً أخرى؛ لم يُفلح الأعمى من تصوّر ما يمكن أن يكونه لونُ الحليب الأبيض.

أرنب
(وصف)

ذات ليلة، نَصَبتْ أذنيها أرنبٌ ضخمةٌ كانت تعيش، في الشتاء، قرب القرية. نصبت، في البداية أذناً، ثم الأخرى، وأصغت بأذنيها. حرّكت لحظة شاربَها، وأنفَها في الهواء، وجلست على مؤخرتها. ثم قفزت عدة مرات في الثلج العميق، وعادت فجلست وأخذت تتطلع. لم تكن ترى حولها سوى الثلج الذي يغطّي الأرض بموجاته البيضاء المتلألئة. وفوق رأسها انتشر بخارٌ متجمّد كان يخرق أنوار النجوم الكبيرة الملتمعة.

كان على الأرنب، لكي تصل إلى بيدر لدرس الحب الفته، أن تعبر طريقاً عريضاً. وكان يُسمَعُ، من هذه الجهة، شيءٌ يطقطقُ ويَصرُّ، وجياد تحمحم.

وصلت الأرنب إلى مقربة من الطريق فتوقفت. رأت فلاحين يمشون قرب زلاجاتهم. وكانت قبّاتُ معاطفهم تكاد تخفي وجوههم. ومع ذلك، كان يُلاحَظُ إن لحاهم وشواربهم وحواجبهم بيضاء. وكان البخار يخرج من أفواههم وأنوفهم، وكانت الجياد التي بلّلها العرق مغطاة بقطرات الضباب المتجمّدة. وكانت الجياد تصطدم بأكاليلها إذا انحدرتْ إلى الوهاد التي لا تخرج منها إلاّ بمشقّة. وكان الفلاحون يحثون خطاهم، ويتجاوزون الجياد المقرونة، ويلسعونها بالسياط. مرّ فلاحان وهما يتحدّثان. كانا يسيران معاً، وكان أحدهما يقص كيف سُرِق جواده.

عندما تجاوزت الزلاجة الأرنبَ، عبرت الأرنبُ الطريقَ على عجلٍ، ومضت إلى البيدر برفق، لكن كلب القافلة شاهدها، فنبَح وانطلق في إثرها.

اجتازت الأرنب كومَ الثلج المتراكم، بلا عائق، ولم تكن تنهار تحتها، بينما تعرقل فيه الكلب، عند الوثبة العاشرة، واضطرّ إلى التوقف. وكذلك توقفت الأرنبُ، وجلست، ثم تابعت طريقها برفق. ولقيت، في طريقها أرنبين ترعيان وتلعبان في القمح الغضّ. شاركتهما الأرنب لعبهما لحظةً، حاكةً مثلهما الثلج المتجمّد لتكتشف القمحَ المبذور في الخريف. وبعد أن أكلت قليلاً، تابعت طريقها.

نامت القرية، وانطفأت جميعُ الأضواء. لم يكن يُسمَعُ صوتٌ، ما عدا بكاءَ طفلٍ في كوخ، وقعقعة المنازل التي كان الحمدُ يُطقطِقُ جسورها. عندما وصلت الأرنبُ إلى البيدر وجدت رفيقات لها. وكان البيدر الذي يجري عليه درسُ الحب، مُنظَّفاً، مؤاتياً للعب. أقامت فيه الأرنب لحظة مع صاحباتها، ثم أشبعت جوعها بشوفان كومة بُدىءَ بدرسها. وبفضل الثلج المتكوّم، صعدت إلى السطح، ومن السطح إلى مَنْشر الأكداس، ومرت فوق السياج، وعادت إلى الوادي، إلى مسكنها.

كان المشرقُ يستضيء بأنوار الفجر الأولى؛ وكانت النجوم تتوارى من السماء واحدةً واحدة؛ وصعدت من الأرض غلالةٌ من البخار أخذت تَثْقل شيئاً فشيئاً. استيقظ كلُّ ما في القرية: ذهبت النساءُ إلى الآبار، وحمل الفلاحون العلفَ لحيواناتهم، وتصايح بعضُ الأطفال وبكى آخرون. وعلى الطريق، تكاثرت العربات التي يقودها فلاحون تتعالى أصواتهم.

اجتازت الأرنبُ الطريق، ببضع وثبات. وعندما بلغت مسكنها، آثرت أن تصنع جحراً آخراً أعلى من الأول، ودخلتهُ سائرة القهقرى، وأرختْ أذنيها على ظهرها ونامت وعيناها مفتوحتان.

الذئب والقوس[1]

(مثل)

ذهب صيادٌ إلى الصيد وهو مجهّز بقوسه وسهامه. قتل يحموراً صغيراً، فحمله على كتفيه. وفي الطريق، شاهد خنزيراً برياً، ألقى اليحمور عن كتفيه، ورمى الخنزير فجرحه، انقضّ الخنزير على الصياد، وشقّ بطنه، ومات هو بجانب جثة الرجل.

وصل ذئبٌ جذبتهُ رائحة الدم إلى المكان الذي تمدد فيه اليحمور والخنزير والرجل مع قوسه. غمر الفرحُ الذئبَ، وقال في نفسه: «ها إن مؤنتي جاهزة لزمن طويل؛ وسأحترس من أكل كل شيء دفعة واحدة؛ سأقنّن الطعام على نفسي، ولن أدع شيئاً. ولذلك سأبدأ بأقسى القطع، ثم أتذوّق أطرى القطع وأشهاها».

شمَّ الذئبُ اليحمور والخنزير والرجلَ وقال:

ــ كل هذا طريٌّ، سأدع ذلك إلى النهاية. لكني سأبدأ بأكل هذه المصارين التي هي على القوس هنا.

وأخذ يلوك وتر القوس. وعندما قطعه، ارتخى القوسُ، ولطم الذئبَ في بطنه، هلك الذئبُ على الفور، فأكلت ذئابٌ أخرى الرجلَ واليحمورُ والخنزير ــ والذئبَ.

قسمة الأوزّ

(أقصوصة)

حَدثَ ذات يوم أن فلاحاً احتاج إلى القمح. وتساءل: ماذا سأفعل؟ وماذا لو طلبت من سيدي قمحاً؟

(١) المصدر هو بيديا «عن الصياد والذئب» لافونتين: «الذئب والصياد».

وبما أنه لم يكن يريد أن يصل إلى القصر، ويداه فارغتان، أخذ أوزة من فناء الدواجن، وشواها، وحملها معه.

قَبِلَ السيد الإقطاعي الأوزة وقال للفلاح:

ـ شكراً جزيلاً على الإوزة، أيها الفلاح. لكني لا أدري كيف أقسمها. هذه هي الحالة: لي امرأة وولدان وبنتان. فكيف أقسم الأوزة بينهم دون أن أجور على أحد؟

أجاب الفلاح:

ـ دعني أفعل.

أخرج سكينه وقطع رأس الطائر وقال للإقطاعي:

ـ أنت الرئيس، والرأسُ لك.

ثم قطع الزمكى وقال لسيدة المنزل:

ـ مهمتك هو أن تلزمي المنزل وتصوني البيت:

الزمكى لكِ.

ثم فصلَ الساقين وقسمهما بين الولدين:

ـ الساقان لكما لأن من حقكما أن تسيرا على خطا الأجداد.

أما البنتان فأعطاهما الجناحين:

ـ لن يطولَ بكما الأمرُ حتى تطيرا؛ وأنا أعطي كلاًّ منكما جناحاً صغيراً. وأما أنا فسآخذ ما بقي.

وخصّ الفلاح نفسه بالإوزّة كاملةً.

ابتسم السيد الإقطاعي ومنح الفلاح القمح والمال.

سمعَ فلاحٌ غني أن السيّد الإقطاعي أعطى فلاحاً فقيراً مالاً وقمحاً مقابل أوزة واحدة. فشوى خمس أوزات وحملها إلى الإقطاعي.

قال الإقطاعي:

ـ أشكرك على أوزاتك. لكن لي امرأة وولدين وبنتين؛ فإذا أضفتني صرنا ستة. كيف نقسم إذن خمس أوزات قسمة متساوية بين ستة أشخاص؟

أخذ الفلاح الغنيّ يفكّر، فلم يجد حلاً.

استدعى الإقطاعي الفلاح الفقير وأمره أن يقوم بالقسمة، أخذ الفلاحُ أوزّة وأعطاها الإقطاعي وامرأته وقال:

ـ أنتما والإوزة ثلاثة.

وأخذ أوزة أخرى أعطاها الولدين قائلاً:

ـ أنتما والإوزة ثلاثة.

وأعطى البنتين واحدة وقال:

ـ إيه! أنتما والأوزة ثلاث.

ثم احتفظ بالأوزتين لنفسه وقال:

ـ إذا عددت نفسي فنحن ثلاثة.

ابتسم السيّد مرة أخرى وأعطاه، مالاً وقمحاً، مرة ثانية. أما الفلاح الغنيّ فطرده من حضرته.

البعوضة والأسد[1]

(مثل)

اقتربت بعوضة من الأسد وقالت له:

ـ أتظنّ نفسك أقوى مني؟ ما أعظمَ خطأك! أأنت، تملك قوة؟ ما هي؟ تستطيع أن تنشب براثنك، وتغرز أنيابك. نساء القرى عندما يقاتلن الرجال لا يفعلن غير ذلك. أنا أقوى منك. فلنتحارب، إذا شئت!

نفخت البعوضة في بوقها، وأخذت تعضّ خديّ الأسد الأملسين وخطمه.

---

(١) ايزوب: «البعوضة والأسد». لافونتين: «الأسد والذبابة» لقمان «الذبابة والثور».

كانت ضربات الأسد ترتد عليه، وكان يلطم وجهه ويمزّق نفسه ببرائنه، حتى أدمى رأسه، وتوقّف منهوكاً.

أعلنت البعوضة انتصارها، وقد ملأها الفرح، وطارت. لكنها علقت في بيت العنكبوت الذي شرب دمها. قالت البعوضة في نفسها: «آه! لقد غلبتُ الأسد، الوحش المفترس القوي، وها أني ضحية عنكبوت تافه».

أشجار التفاح

(حكاية)

غرست مائتي تفاحة فتية، وحفرت الأرض حولها بالمرّ ثلاث سنوات متوالية، في الربيع وفي الخريف، ولففتها بالقش عند دنو الشتاء لأحميها من الأرانب. في السنة الرابعة، عندما اختفى الثلج ذهبت لأرى شجراتي. لقد كبرت أثناء الشتاء: كان لحاؤها لامعاً، مليئاً بالنسغ؛ وكانت كل أغصانها سليمة، وقد طلعت على أطراف الأغصان الصغيرة (وعلى امتداد الأفنان) أزرارٌ من الزهر مدوّرةٌ مثل حبوب البازلاء. وفي بعض المواضع، تفتحت الأزرار وشوهدت أطراف التويجية بحمرتها الباهتة.

كنتُ أعلم أن جميع الأزرار ستغدو أزهاراً وثماراً، واغتبطت كثيراً وأنا أنظر إلى شجراتي.

لكنني عندما نزعتُ القش عن أول تفاحة، لاحظت أن اللحاء، في الأسفل، على مستوى الأرض بالذات، قد قُرِضَ حتى الشكير؛ وكان الجذع مطوّقاً بنوع من الحلق الأبيض. كان ذلك من فعل الفئران ونزعتُ القش عن شجرة أخرى، فإذا هي كالأولى. ولم أجدْ تفاحةً واحدة سليمة بين مائتي تفاحة. دهنت المواضع المقروضة بمزيج من الراتنج والشمع. لكن عندما تفتّحت الأشجار، سقطت الأزهار، على الفور. وطلعت أوراق صغيرة؛ فذبلت

هي أيضاً وجفّت. وتجعّد اللحاء واسودّ. ولم يبق من مائتي شجرة سوى تسع. وفي هذه الأشجار التسع، لم يقرض اللحاء من جميع الجهات، وبقي من اللحاء شريط حول الحلقة البيضاء. وقد تشكل على هذا الشريط الذي انفصل فيها اللحاء زوائد فطرية، ونمت هذه الشجرات من جديد، بعد أن تعرّضت للأذى مدةً من الزمن، أما الأشجار الأخرى فماتت، ولم يطلع فيها سوى عساليج فوق المواضع المقروضة ـ وكانت عساليج من التفاح البري.

لحاء الأشجار هي الشرايين عند الإنسان. عند الانسان يجري الدم في الشرايين، وفي الأشجار، إنما يجري النسغُ في اللحاء، ثم يصعد إلى الأغصان، وإلى الأوراق، وإلى الزهور. ويمكننا أن نفرغ شجرة ـ وهناك صفصاف قديم منفرغ كلياً ـ ويكفي أن يعيش اللحاءُ حتى تستمرّ حياةُ الشجرة؛ لكن إن مات اللحاءُ، فإن الشجرة تموت أيضاً. إذا قطعنا شرايين إنسان فإنه يموت، لأن كل دمه يخرج، ولأن الدوران ينقطع.

وهكذا فإن البتولة التي يثقب الأطفال لحاءَها ليشربوا نسغها تجفّ، لأن نسغها كله يسيل.

من أجل ذلك ماتت أشجار التفاح: لقد فرضتْ الفئران اللحاء من كل الجهات، ولم يجد النسغُ بعد ذلك سبيلاً يصل منه إلى الأغصان والأوراق والزهور.

الحصان ومُلاّكه(١)

(مثل)

كان لبستاني حصانٌ حظّه الكثير من العمل والقليل من العلف؛ أخذ الحصانُ يتضرع إلى الله، ويسأله الانتقال إلى مالك آخر. وهذا ما كان. إذ باع

(١) ايزوب: «الحمار والبستاني». لافونتين «الحمار وأصحابه».

البستانيّ الحصانَ لفاخوري. كان الحصان مسروراً لكن عمله، عند الفاخوري، تزايد عن ذي قبل. وأخذ الحصانَ يبكي حظه، مرة أخرى، ويدعو الله أن يضعه عند مالك أفضل. وهذا أيضاً قد تمَّ. إذ باع الفاخوري الحصانَ لمطريّ الجلود. لكن عندما رأى الحصان جلودَ الخيل، في فناء الدباغة، أخذ يئن:

ـ آه! ما أفدَحَ مصيبتي. كان الأجدرُ بـي أن أبقى عند ملاكي الأوائل؛ لقد اتضح لي الآن أنني إنما أباعُ، هذه المرة، من أجل جلدي، لا من أجل عملي.

البق

(حكاية)

توقفت في نزلٍ لليلة. وقبل أن أنام، أخذتُ شمعة، وفحصت زوايا السرير والجُدُر، فوجدت أن البقّ منتشر في كل مكان. بحثتُ عن الوسيلة التي أستقرُّ فيها هذه الليلة بمنجى من هذه الحشرات.

كان معي سرير سفر، وكنتُ أعلم أنني إن وضعته، ولو في وسط الغرفة، فإن البقّ سينزل من الجدر إلى أرض الغرفة، وستزحف عليها حتى تصل إليّ من قوائم السرير؛ ولذلك طلبتُ من صاحب النزل أن يعيرني أربعة آنية من الخشب لأصبّ فيها الماء. وضعت كل قائمة من قوائم السرير في إناء من هذه الآنية مملوء بالماء. اضطجعت ووضعت الشمعة على أرض الغرفة وراقبتُ البق، وأنا شديد الفضول لأعلم ما سيفعله البق. كان في الغرفة الكثيرُ من البق الذي أحسّ بوجودي. رأيته يزحف ويتسلق حتى حافة الإناء. وقع بعضه في الماء، ورجع بعضه القهقرى. قلتُ في نفسي: «لقد كنتُ أمكر منك؛ وهكذا فأنت لا تستطيع أن تبلغني». وكدتُ أطفىء الشمعة، عندما أحسستُ فجأة أن شيئاً يلسعني. نظرتُ فإذا بها بقّة. كيف وصلت إليّ؟ وبعد أقل من دقيقة، وجدتُ بقة أخرى.

تطلّعتُ حولي، باحثاً كيف وصلت إليّ هذه الحشرات.

ظللتُ طويلاً دون أن أعثر على جواب، لكنني انتهيت بأن عنّ لي أن أنظر إلى السقف، فرأيت بقةً تزحف عليه، ثم إذا وصلت على مستوى سريري أرختْ نفسها وسقطت فوقي. قلت في نفسي: «من المؤكد أن أحداً لا يستطيع أن يبذّك في الحيلة». ارتديت معطفي وخرجت.

الشيخ والموت[1]

(مثل)

بعد أن احتطب شيخٌ في الغابة، وضع رزمة الحطب على ظهره. كان عليه أن يحملها بعيداً عن الغابة. وإذْ أنهكه التعب، وضعَ حملَه وقال: «واأسفاه! ليت الموت يستطيع أن يأتي!».

وفجأة جاء الموت وقال:

ـ هأنذا، ماذا تريدُ مني؟

أجاب الشيخ وقد تملّكه الخوفُ:

ـ أريد أن تساعدني على تحميل هذا الحطب، مرة أخرى.

إوزّ الكابيتول

(حكاية تاريخية)

في سنة ٣٩٠ قبل الميلاد، هاجمت قبائلُ بربرية، قبائلُ الغول، الرومان، لم يستطع الرومان مقاومة هذه القبائل؛ فرّ بعضُهم من المدينة إلى الأبد، وانزوى آخرون في المدينة العليا. وكانت تُدعى «الكابيتول». أعضاء مجلس الشيوخ وحدهم ظلوا في المدينة، فلما دخلها الغاليّون قتلوا جميعَ الشيوخ

---

(١) ايزوب: «الشيخ والموت». لافونتين «الموت والحطاب» لقمان. «الرجل والموت».

وأحرقوا روما. ولم يبق في وسط المدينة سوى الكابيتول الذي لم يستطع الغاليون الإستيلاء عليه. أرادوا أن ينهبوه لأنه كان يحتوي على كثير من الثروات، لكنه كان قائماً على جبل وَعْر المرتقى: في جهة منه أسوارٌ وأبواب، وفي الجهة الأخرى وادٍ شديد التحدّر. وأثناء الليل، انسلّ الغاليون وتسلّقوا الكابيتول من جهة الوادي. تعاونوا بأيديهم على التسلّق ومرّروا من واحد إلى آخر حرابهم وسيوفهم.

وهكذا وصلوا إلى الأعلى دون أن يثيروا الإنتباه؛ ولم يسمع حركتهم كلبٌ.

كانوا قد تسلقوا السور عندما أحست أوزّات، فجأة، بمَقْدمهم، فصاحت وصفقت بأجنحتها. أفاق روماني، واندفع إلى السورر، وصدّ غالياً سقط من شاهق. وبسقوطه أسقط آخرين. وهُرِع الرومان، فأخذوا يلقون بألواح السنديان وبالحجارة إلى الوادي، فقتلوا كثيراً من الغاليين. ثم وصلت النجدةُ إلى روما وطُرد الغاليون.

منذ هذا الزمن، أقام الرومان عيداً لإحياء هذا اليوم. وكان الكهنة يطوفون المدينة باللباس الكهنوتي. وكان أحدهم يحمل إوزة، ومن خلفه كهنة يجرّون كلباً بحبل. وكان الشعب يتقدّم نحو الإوزة فيحيّيها هي والكاهن. وكانت الهدايا تُغْدق على الإوز. أما الكلب فكان يُضرب بالعصا حتى يموت.

لماذا يُقصّفُ الجَمدُ الأشجار

(موضوع للمحادثة)

لأن الأشجار تحتوي على الرطوبة، وأن هذه الرطوبة تتجمّد كالماء. عندما يتجمّد، وعندما لا يجد مكاناً للتمدد يشقّق الأشجار.

إذا وضعنا ماءً في زجاجة وعرضناها للتجمّد، يتجمد ويفجّر الزجاجة.

إن في الماء، عندما يتحول إلى جليد، قدرةً فائقةً حتى أننا لو ملأنا بالماء مدفعاً من الحديد المسبوك ثم جمّدنا هذا الماء، لتفجرّ المدفع بفعل الجليد.

لم لا يتقلص الماءُ بفعل البرد كما يتقلص الحديد، ويتمدد عندما يتجمدّ؟ ذلك لأن الماء يتجمّد، وتنتظم جزيئاته على نحو مختلف، وتَدَعُ فيما بينها فراغاً أكثر من ذي قبل.

لم لا يتقلّص الماء حين يتجمّد. ذلك لكي لا يتجمد ماء الأنهار والبحيرات حتى الأعماق.

إن الجليد (أي الماء) المتمدد بفعل البرد، أخفّ من الماء؛ إنه يطفو على الماء. إنه يتجمد من تحت فيغدو أسمكَ، لكنه لا يتجمد حتى الأعماق. ولو أن الماء تقلّص بفعل التجمّد، كما يتقلّص الحديد، لذهب ماء السطح المتجمد على الأنهار إلى الأعماق، لأن الجليد سيكون حينئذٍ أثقل من الماء، ولذهبت بعد ذلك الطبقة السائلة العليا، حين تتجمّد بدورها، إلى الأعماق، ولكان تجمّد البحيرات والأنهار من الأعماق إلى السطح.

الرطوبة

(موضوع للمحادثة)

[١]

لم تنسج العنكبوت بيتها أحياناً بإحكام وتُقيم في وسطه، ولم تترك بيتها أحياناً أخرى لتنسج بيتاً آخر؟

إن العنكبوت تنسج بيتها بحسب الطقس الحاضر والطقس الذي سيأتي. وعندما ننظر إلى بيت العنكبوت نستطيع أن نتنبأ بالطقس: إذا ظلت العنكبوت ساكنةً، منكمشة وسط بيتها، لا تغادره، فهذا يُبشر بالمطر؛ أما إذا غادرت بيتها لتصنع بيوتاً أخرى فهذا يبشر بالصحو.

كيف تستطيع العنكبوت أن تعلم مسبقاً ما نوع الطقس؟

إن حواس العنكبوت شديدة الإرهاف بحيث أنه عندما تأخذ رطوبة الهواء بالتكثُّفِ فقط، وعندما لا نحسّ نحن بتلك الرطوبة، وعندما يكون الجو صافياً بالنسبة إلينا، يكون المطر قد أخذ يهطل، بالنسبة إلى العنكبوت.

وكما أن الإنسان يحسّ، على الفور، بالرطوبة حين ينزع ثيابه، مع أنه لا يلاحظها وهو مُرتدٍ ثيابه، فكذلك يهطل المطر بالنسبة إلى العنكبوت، في حين أنه لا يعدو أن يكون مُهيّأً للهطول بالنسبة إلينا.

[٢]

لمَ تنتفخ الأبوابُ في الشتاء ولا تنغلق، في حين تجف في الصيف وتنغلق؟.

لأن الخشب، في الخريف وفي الشتاء، يتشرّب الماء، كما يتشرّبه الإسفنج، وأن ذلك يمدّده في حين أن الماء في الصيف يتبخّر فيتقلّص الخشب.

لمَ تنتفخ شجرة ضعيفة كالصفصاف أكثر مما تنتفخ شجرة السنديان؟.

هذا ناجمٌ عن أن في الشجرة المقاومة، كالسنديانة، فراغات أقل وأن الماء لا يستطيع أن يتجمّد فيها، في حين أن في الشجرة الضعيفة ـ كالصفصاف ـ فراغات أكثر، وأن الماء يجد مكاناً له فيها. وفي الشجرة المنخورة فراغات أكثر أيضاً، ومن أجل ذلك تنتفخ أكثر من غيرها وتنهار أكثر. ولصنع خلايا النحل، يُختار جذع أضعف الشجر وأكثرها نخراً؛ وأفضل الخلايا مصنوعة من جذوع الحور المنخور. لم ذلك؟.

ذلك ناجم عن أن الهواء يجري في الحواجز الخلوية لجذع منخور، وأن الهواء، في خلية مصنوعة من هذا الخشب، أخفّ على النحل.

لمَ يَلتوي الدفء؟

هذا ناجمٌ عن أنه يجف على نحوٍ غير متساوٍ. وإذا عرّضنا لحرارة الموقد جانباً واحداً من الدفّ خرج منه الماء؛ فالخشب من هذا الجانب يتضيّق ويشدّ إليه الجانب الآخر. ومن المتعذّر على الجانب الرطب أن يتضّيق لأنه يحتوي على الماء ــ ولذلك يتقوس الدفُّ.

لكي لا يلتوي دفُّ السقفية، تُقطَّع الألواح الجافة وتُمرّر على الماء المغليّ. وعندما يتبخّر الماء تُلصق فلا تلتوي بعد ذلك. (انظرْ) إلى أرضيّة الغرف.

احتلاف التماسك بين بعض الجزيئات

(موضوع للمحادثة)

ينبغي أن يكون اللِجافُ والقبُّ متينين وليس السنديان بأغلى سعراً من البتولة. فلمَ إذن يُصنع اللجاف ويدارُ قب عجلات المركبة في البتولة لا في السنديان.

ذلك لأن السنديان، مع أنه أشد كثافة من البتولة، مكوَّنٌ بحيث يتشقق باتجاه الطول، في حين أن البتولةَ لا تنكسر.

ولمَ يُلوى السنديان والقبقب لا البتولة والزيزفون، لصنع عجلات العربات ومزالج الزلاجات؟

ذلك لأن خشب القبقب والسنديان، إذا عُرِّض لبخار المحم يلتوي ولا ينكسر، بينما يتشظى خشب البتولة والزيزفون.

كلُ ذلك لأن جزيئات الخشب ليس لها التماسك نفسه في السنديان وفي البتولة.

الأسد والثعلب[1]

(مثل)

عجز أسدٌ أثقلته السنون عن الصيد؛ فبحث عن وسيلة يعيش منها بالحيلة؛ دخل مغارةً ونام فيها، وتظاهر بالمرض. كانت الحيوانات تأتي لتسأل عن حاله، فيفترس ما دخل منها عرينه، خالج الشكُّ ثعلباً في حيلته، فظلّ في المدخل، وقال له:

ـ وكيف حالك، يا أسد؟

أجاب الأسد:

ـ الحال سيئةٌ. لكن لمَ لا تدخلُ، أنت؟

أجاب الثعلب:

ـ إن كنتُ لا أدخل فلأن الآثار تدلّني على أن هناك دخولاً كثيراً وما من خروج.

القاضي الصالح

(حكاية)

عنَّ لِـ «بوعكاز»، أمير الجزائر، ذات يوم، أن يتحقّق بنفسه إن كان صحيحاً ما رُوي له عن قاضٍ كان يجلس للقضاء في مدينة من إحدى ولاياته. كان يُقال عنه: إنه يكتشف الحقيقة رأساً، وأن ليس من نصّاب نجح في الإفلات من عدالته.

تنكّر «بوعكاز» في ثياب تاجر، واعتلى صهوةَ جواده، ومضى إلى المدينة التي يعيش فيها هذا القاضي. وعند باب المدينة، زحف إليه مُقعدٌ وسأله

---

(١) ايزوب: «الأسد الشائخ والثعلب». لافونتين: «الأسد المريض والثعلب». لقمان: «الأسد والثعلب».

الصدقةُ. أعطاه «بوعكاز» بعض المال، وأراد أن يتابع طريقه؛ لكن الرجل تشبث بثيابه وأوقفه.

قال بوعكا:

ــ ماذا تريد مني؟ ألم أُعطكَ صدقةً؟

قال الرجل:

ــ أنعمت علي بصدقة، لكن امنحْني حظوةً أخرى: احملني على جوادك إلى الساحة؛ إني أخاف أن تدوسني الخيلُ والجمال.

أردفه بوعكاز خلفه، وأخذه إلى الساحة. وتوقّف هناك، لكن الرجلَ أبى أن ينزل عن الجواد.

ــ ماذا تنتظر لتنزل؟ هيا!! انزلْ! لقد وصلنا.

أجاب الآخر:

ــ أأنْزلُ، ولماذا؟ الجواد لي؛ وإذا لم تدعْني برضاك، فهيّا نذهب إلى القاضي.

تجمّع الناسُ، وسمعوا الرجلين يتخاصمان، فصاحوا بهما:

ــ إذهبا إذن إلى القاضي؛ وهو سيوفّق بينكما.

ذهب بوعكاز والمقعد إلى القاضي. كانت المحكمةُ تعجّ بالناس. وكان القاضي يدعوَ كلاًّ بدوره. وقبل أن يصل إلى قضية بوعكاز نادى على اسمي عالم وفلاح: كان موضوع الخلاف بينهما امرأةً يزعم الفلاحُ أنها امرأته، ويدّعي العالم أنها امرأته هو. استمع القاضي إليهما كليهما:

ــ أتركا هذه المرأةَ هنا، عندي، وعودا غداً.

خرج الفلاحُ والعالم، ودخلَ لحّامٌ وبائع زيت. كان اللحام مغطّى بالدم، وبائع الزيت ببقع الزيت. وكان في يد اللحام نقودٌ، وبائع الزيت ممسك به من ذراعه. قال اللحامُ:

ــ إشتريت زيتاً من هذا الرجل، وأخرجتُ كيس النقود لأدفع له، فأمسك بي من ذراعي يريدُ أخذ مالي. وقد جئنا إليك، وكيسُ النقود في يدي، وذراعي في يده. كنْ على يقين أن المال مالي وأنه سارق.

قال تاجر الزيت:

ــ هذا غيرُ صحيح. لقد جاء هذا اللحام ليشتري مني زيتاً، ولما ملأتُ له جرةً رجاني أن أبدل له ليرة ذهبية. أتيتُه بالمال ووضعتُه على المكتب. فأخذ المال وأراد أن يهرب. أمسكتُ بذراعه ــ وهأنذا آتيك بالرجل.

بعد لحظة صمت، قال القاضي:

ــ أتركا المالَ عندي، وعودا غداً.

وعندما جاء دورُ بوعكاز والمقعد، روى بوعكاز قضيته. أصغى إليه القاضي، ثم سأل المقعدَ. قال هذا:

ــ ليس فيما قاله شيءٌ من الصحة! كنتُ أجتاز المدينة على جوادي. وكان هو راجلاً. رجاني أن أحمله على جوادي، ففعلتُ، وجئتُ به إلى حيث له شغلٌ. لكنه أبى أن يترجّل وقال إن الحصان له. وذلك كذب.

فكّر القاضي لحظة وقال:

ــ أتركا الجوادَ عندي ومُرّا غداً.

في اليوم التالي، كان هنا جمعٌ كبير جاء ليسمع الأحكام.

مَثُلَ العالمُ والفلاح قبل الكلّ، قال القاضي للعالم:

ـ خذ امرأتَك، وليُجلَدْ الفلاحُ خمسين جلدةً.

سافر العالمُ مع امرأته، وعوقب الفلاح على الفور.

ثم نادى القاضي على اللحام، وقال:

ــ المالُ لك.

وأضاف وهو يشير بإصبعه إلى بائع الزيت:

ـ ويُجلَدُ هذا أيضاً خمسين جلدة.

وجاء دورُ المناداة على بوعكاز والمقعد. سأل القاضي «بوعكاز»:

ـ هل تستطيع أن تتعرّف جوادك بين عشرين جواداً.

ـ بالتأكيد.

ـ وأنت؟

أجاب المتسوّل:

ـ وأنا أيضاً أتعرّفه.

قال القاضي لِـ «بوعكاز»

ـ أتبعني.

ذهبا معاً إلى الإصطبل. وبين عشرين جواداً، دلّه بوعكاز على جواده.

طلب القاضي إلى المقعد أن يأتي وأمره أن يُريَه جواده بين الجياد دلّه المقعدُ على واحد ولمسه بيده. حينئذٍ عاد القاضي إلى مجلسه. وقال لِـ «بوعكاز».

ـ إنه جوادُك حقاً. خُذه. وليُجْلَدْ المقعدُ خمسين جلدة.

عندما إنتهت الجلسةُ، انصرف القاضي إلى منزله، فتبعه بوعكاز.

قال القاضي:

ـ ما عساك تريد مني؟ ألست راضياً عن حكمي؟

قال بوعكاز:

ـ كلا؛ أنا راضٍ عن الحكم. لكني أودّ أن أعلم كيف عرفت أن المرأة هي امرأة العالم، وأن المال مال اللحام، لا مال بائع الزيت، وأن الجواد جوادي، لا جواد المستوّل؟

قال القاضي:

ـ أما المرأة فدونك ما فعلتُ. استدعيتُها هذا الصباح وقلتُ لها. ضعي حبراً في دواتي. أخذَت الدواةَ، وغسلتها بسرعة، وصبّت فيها حبراً دون أن تترك بقعةَ. ومعنى ذلك أنها تعوّدت تعبئة الدواة؛ ولو كانت امرأة الفلاح، لما عرفت كيف تفعل ذلك... وإذن فالعالم هو المحقّ.

وأما المال فدونك كيف إكتشفتُ الحقيقة. وضعتُ النقودَ في كأس مملوءة بالماء، ونظرتُ في هذا الصباح إن كان الدسم سيطفو على الماء. ولو كانت هذه النقود لبائع الزيت، لوسّخها بأصابعه الملطّخة بالزيت. والحقَّ أني لم أجد أثراً للدسم على سطح الماء. ومن ثَمَّ، فاللحامُ هو الذي قال الحقيقة.

أما قضية جوادُك فكان إكتشاف الحقيقة أصعب فيها. لقد أشار المقعد، مثلك، على الفور، إلى جواد، بين عشرين جواداً، على أنه ملكٌ له. وإذا كنتُ قد جئتُ بكما إلى الإصطبل فليس ذلك لأرى إن كنتما تستطيعان أن تتعرفا جوادكما، بل لأشاهد أيكما يتعرفه الجواد صاحباً له. وعندما تقدّمتَ أنت نحوه، أدار رأسه ومدّ عنقه إليك. لكن الجواد، عندما أحسّ أن الآخر لمسه خفض أذنيه ورفع إحدى قوائمه. فعلمتُ أنك صاحبه.

حينئذٍ تكلم بوعكاز وقال:

ـ أنا لستُ تاجراً، أنا الملك. وجئت إلى هنا لأرى إن كان ما يقال عنك مطابقاً للحقيقة. وعلمتُ الآن أنك قاضٍ كامل الحكمة. اطلب مني ما تشاء وسأمنحك ما تطلب.

أجاب القاضي:

ـ لا حاجة بي إلى المكافأة: مدحُ مولاي كافٍ لإسعادي.

الأيّل والكرمة[1]

(مثل)

تواری أيّلٌ، تحت كرمة عالية، عن أعين الصيادين. فلما تجاوزه الصياد أخذ يرعى أوراق الكرمة.

رأى الصيادون الأوراقَ تتحرك، ففكروا: «لعل تحت هذا الورق حيواناً مختبئاً»؟ أطلقوا النار فأصابوا الأيل. أحسّ الأيّل بدنو أجله، فقال في نفسه: «أنا مستحقٌ لذلك». لمَ أردتُ أكل ورق هذه الكرمة وكان يحميني؟

ابن الملك ورفيقا دربه[2]

(أقصوصة)

كان لملكٍ ولدان. وكان يحب البكر فأعطاه مملكته كلها. وكانت الأم تعطف على الصغير، ولم تكن على وفاق مع الملك، وكان ذلك يُغضب الملك عليها، فيقع الخصام بينهما، في كل يوم. قال الأمير الشاب في نفسه: «الأفضل أن أنصرف، أن أذهب إلى أي مكان آخر». إستأذن أباه وأمه، وارتدى ثياباً بسيطة ومضى على وجهه.

في الطريق، صادف تاجراً. روى التاجر للأمير أنه كان غنياً، وأن بضاعته كلها في جوف البحر، وأنه يمضي الآن بحثاً عن الثروة في البلاد الأجنبية.

تابع الأميرُ والتاجر طريقهما معاً. وفي اليوم الثالث لقيا صاحباً جديداً. فروى لهما، وهو يحدّثهما، أنه فلاح، وأنه كان يملك بيتاً وأرضاً، ولكن الحرب نشبت فخُرِّبت حقوله، واحترقت مزرعته ولم يبق له ما يُقيم أوده، وأنه

---

(١) ايزوب: «الظبية والكرمة». لافونتين: الإيل والكرمة.

(٢) بيديا: «قصة اسقنديار». لافونتين: «التاجر والنبيل والراعي وابن الملك». وتولستوي يتابع بيديا متابعة شديدة، في حين أن لافونتين يبتعد عنه.

ذاهب في هذه الساعة بحثاً عن العمل في الأرض الأجنبية.

تابع الثلاثة طريقهم معاً، وصلوا إلى مدينة عظيمة وجلسوا ليستريحوا. قال الفلاحُ:

ـ يا صاحبيّ، كفانا تطوافاً على غير هدى، فقد آن الأوان، بعد أن بلغنا المدينة، أن نباشر العمل، كل بحسب مهنته.

قال التاجر:

إني أحسن التجارة؛ لو كنتُ أملك ولو قليلاً من المال، إذن لكانت تجارتي رابحة.

وأعلن الأمير:

ـ لست أتقن العمل ولا الشراء ولا البيع. لستُ أحسنُ إلا أن أملك. لو كانت لي مملكةٌ لأحسنت إدارتها.

أما الفلاح فقال:

ـ لا حاجة بي إلى مال أو مملكة. وسوف أكسب عيشي وعيشك أيضاً معي، على شرط أن تخدمني رجلاي، وأن تكون يداي حرتين. ولذلك، فبينما ينتظر أحدكما المال والآخر مملكة، ستموتان، مع الزمن، جوعاً.

أجاب الأمير:

ـ لا بدّ للتاجر من مال، ولا بد لي من مملكة، ولا بد لك من قوة أعضائك لتعمل، لكن المال والسلطان والقوة، كل ذلك يأتي من الله، فإذا شاء الله أعطاني مملكة، وأعطاك قوةً، لكن إن لم تكن مشيئه فلن يعطيك قوةً ولن يعطيني مملكة.

لم يستمع له الفلاحُ أكثر من ذلك، ومضى إلى المدينة فاشتغل في جرّ أحمال حطب التدفئة. ولما جاء المساء، تسلّم مالاً، فحمله لصاحبيه وقال لهما:

ـ بينما تستعدان أنتما لتملكا، كسبتُ أنا شيئاً من المال.

في اليوم التالي، طلب التاجرُ من الفلاح مالاً واتجه إلى المدينة.

علم في السوق أن السمن نادر وأن الناس ينتظرون، في كل يوم، وصول كميات جديدة.

ذهب التاجر إلى المرفأ، وراقب السفنَ جيداً. وبينما هو هناك، وصلت إلى الرصيف سفينةٌ محملةٌ سمناً. كان التاجر أول من صعد إليها، ولقي صاحبها، واشترى السمن كله، وأعطاه عربوناً ثم أسرع إلى المدينة، وباع السمن، وربح، جزاء تعبه، عشرة أضعاف ما ربح الفلاح، وحمل المال إلى صاحبيه.

قال الأمير:

جاء دوري لأذهب إلى المدينة. لقد كنتما محظوظين، فلعلي أكون محظوظاً مثلكما. على الله، ليس من شيء صعب. أن يُيسّر لك عملاً، أنت الفلاح؛ أن يُحقّق لك الربح، أنت التاجر، أن يعطيني أنا مملكةً، كل ذلك سواء عليه.

يدخلُ الأميرُ المدينةَ، ويرى في الشوارع خلقاً يبكون. فيسأل لمَ يبكي جميعُ الناس هكذا. فيجيبونه:

ـ أتجهل حقاً أن ملكنا قد مات في الليلة الماضية؟ لن نحظى بملك مثله.

ـ وممَّ مات؟

ـ لا بدّ أن الأشرار هنا قد دسّوا له السمَّ.

إبتسم الأميرُ وقال:

ـ وكيف، إن ذلك غير ممكن!

وفجأة حدَّد رجلٌ نظره في الأمير، ولاحظ أنه لا يتكلم لغة البلاد بصحةٍ،

وأن لباسه مختلفٌ عن لباس أهل المدينة؛ فصاح:

ـ أيها الأصدقاء، هذا الرجل رسول القتلة. وقد أرسلوه ليرى حالة مدينتنا، ولعله هو الذي سمّم الملك! انظروا، إنه لا يتكلم مثلنا، وهو يبتسم حين نبكي نحن جميعاً. إمسكوا به، وقودوه إلى السجن!

أمسك ناس بالأمير، وقادوه إلى السجن، وطوال يومين، لم يُعْطَ شيئاً يأكله. وفي اليوم الثالث، جيء بالأمير وسيقَ إلى المحاكمة واجتمعَ كثيرٌ من الناس ليسمعوا محاكمته.

سأله القاضي مَنْ هو، ولم جاء إلى المدينة؟

أجاب الأمير:

ـ أنا ابن ملك، وقد وهب والدي مملكته كلها لأخي الأكبر. وانحازت أمي لي، ومن هنا الخصام بين أبي وأمي. لم أشأ أن أكون سبباً في خلافهما، فاستأذنتهما ومضيتُ على وجهي. وفي الطريق، لقيتُ رفيقين، أحدهما تاجر، والآخر فلاح، ووصلنا نحن الثلاثة إلى قرب مدينتكم. وبينما كنا جالسين نستريح، أعلن الفلاح أن من الواجب علينا أن نعمل الآن، كل بحسب مهنته. وقال التاجر أنه يتقن التجارة لكنه لا يملك المال؛ وقلت أنا إني لا أُحسن إلاّ شيئاً واحداً هو أن أحكم، لكن ليس لي مملكة. قال الفلاح أننا سنموت كلانا من الجوع ونحن ننتظر: رفيقي ينتظر المال، وأنا المملكة لكن له ذراعين قويتين وأنه سيجد ما يقوته ويقوتنا. وذهب إلى المدينة، وكسب مالاً، وحمله إلينا. تزوّد التاجرُ بهذا المال، وقصد المدينة، فردّ عليه المالُ عشرة أضعافه. وأنا أيضاً ذهبتُ إلى المدينة، فأُوقفتُ وأُودعتُ السجن بغير حق، وتركت يومين بلا طعام، والآن سيُحكم علي بالموت، لكني لا أخشى شيئاً لعلمي بأن كل شيء يأتي من الله، وأنكم ستختارونني ملكاً، إذا شاء الله ذلك.

عندما إنتهى الأميرُ من كلامه، لزم القاضي الصمت؛ تحير فيما يقوله.

وفجأة صرخ رجلٌ من الشعب:

ــ إن الله أرسل إلينا هذا الأمير، لن نجد ملكاً خيراً منه. انتخبوه ملكاً.

وانتخبه الجميعُ ملكاً.

بمجرّد أن انتخب الأميرُ ملكاً أرسل مَنْ يأتيه صاحبيه من خارج المدينة. وعندما قيل لهما أن الملك يطلبهما خافا. ظناً منهما أنهما إقترفا ذنباً من الذنوب حين كانا في المدينة. كان من المتعذّر عليهما الهروب، فسيقا إلى حضرة الملك. إرتميا على قدميه، لكن الملك أمرهما بالنهوض. حينذاك تعرّفا صاحبهما، حدثّهما الملك عن كل ما جرى، وقال لهما:

أتعترفان بأن الحقّ معي؟ كل ما يصيبنا من خير أو شر، كل ذلك فمن الله، وليس عطاؤه الأميرَ مملكةً بأصعب عليه من تيسير الربح للتاجر، والعمل للفلاح.

أغدق الملكُ على صاحبيه نعمه، ورجاهما أن يقيما في مملكته.

فرخ غراب الزرع(١)

(مثل)

شاهد ناسكٌ، ذات يوم، صقراً، في الغابة، يَحْملُ قطعةً من اللحم إلى عش، شاهده يمزّقها ويزق بها فرخاً من فراخ غربان الزرع.

دهش الناسكُ كثيراً حين رأى صقراً يطعم فرخاً غريباً. ففكّر في نفسه: «حتى فرخ الغراب هذا لم يدعه الله يَهْلك؛ والله هو الذي علّم هذا الصقر أن يطعمه. الأمر واضح: إن الله يهب جميع الكائنات طعامها، ونحن، نحن مَعْنيّون طوال الوقت بمصيرنا. سأكفّ عن الإهتمام بمصيري. ولن أدّخر بعد

(١) بيديا: «الدرويش والصقر والغراب». وقد عالج «فلوريان» الموضوع نفسه: «الدرويش والغراب والصقر». لكن بيديا هو الذي يتابعه تولستوي.

الآن مؤناً. إن الله لا يتخلى عن أي من كائناته، ولن يتخلى عني أيضاً».

فَعلَ الناسك كما قال؛ جلس في ظل شجرة، في الغابة، ولم يتحرك. وكان كلُّ همّه أن يصلّي لله.

قضى ثلاثة أيام وثلاث ليال دون شرب ولا أكل، وفي اليوم الثالث، ضعفت قواه حتى أنه لم يستطع رفع يديه، فنام من ضعفه، ورأى في منامه شيخاً يدنو منه ويقول له:

لـِمَ لا تدَخر مؤناً؟ تظن أنك ترضي الله، وأنت ترتكب إثماً. لقد أقام الله العالمَ على نحوٍ يستطيع معه كلُ كائن أن يحصل على ما هو ضروري له. إن الله أمر الصقر أن يطعم فرخ الغراب، لأنه كان سيهلك بدونه. أما أنت فلا شيء يمنعك من العمل، تُريد أن تجرّب الله، وذلك إثمٌ. عُدّ إلى نفسك، واشتغل كما كنتَ تشتغل قديماً.

إستيقظ الناسكُ واستأنف حياته القديمة.

تعلمتُ ركوبَ الخيل

(حكاية)

عندما كنا صغاراً، كنّا، أخواي وأنا، نعمل في كل الأيام، ما عدا أيام الأحد وأيام الأعياد. هذه الأيام كنا نقضيها في اللعب والتنزّه.

قال أبـي مرةً:

ــ آن الأوان لتعليم الكبيرين ركوبَ الخيل. وينبغي إرسالهما إلى مدرسة الفروسية.

كنتُ أصغر الجميع فسألتُ:

ــ وأنا، ألا أستطيع أن أتعلّم أيضاً؟

قال أبـي:

ـ أنت، لكنك ستقع.

تضرّعتُ إليه كي يأذن لي. وأوشكتُ أن أبكي، عندما قال لي:

ـ ليكن، سيأخذانك أيضاً. لكنْ تذكّرْ هذا الشيء: إن وقعتَ فلا تبكِ. لا يتعلم المرءُ ركوب الخيل دون أن يقع عن الجواد.

في يوم الأربعاء التالي، أُخذنا ثلاثتنا إلى مدرسة الفروسية، فقادونا إلى منصة كبيرة مررنا منها إلى منصة أصغر تشرف على غرفة شاسعة. لكن هذه الغرفة لم يكن لها أرضية، وإنما كان الرملُ يقوم مقام الأرضية. وكانت تعج بالرجال والنساء على خيولهم. وكان هناك أيضاً صبيةٌ ليسوا أكبر منا سناً، وعلى خيولهم. كانت هذه هي مدرسة الفروسية. لم يكن النور كافياً فيها، وانتشرت فيها رائحةُ الخيل، وعمّتْ الضوضاء: السياط تصطفق، والفرسان يحثون مطاياهم بأصواتهم، وحوافر الخيل تَصْدم، أثناء مرورها، الجدران المغطّاة بالخشب. خوّفتْني هذه الضوضاء، في البداية، ولم أميّزْ شيئاً. نادى مرّبينا معلّمَ الفروسية، وقال له:

ـ يا معلّم، أعطِ هؤلاءِ الفتية خيلاً لكي يتعلّموا ركوبها.

أجاب الآخر:

ـ حاضر.

ثم نظر إليّ وقال:

ـ على أن هذا صغيرٌ جداً.

ـ لقد وعد ألا يبكي إن سقط.

ابتسم المعلمُ وخرج يبحث عن الخيول. جيءَ بجوادين مسروجين. خلعْنا معاطفنا، ونزلنا إلى مكان التدريب بالدرج. كان المعلم يقود الجوادين برسنٍ، وكان أخواي يدوران حوله، ببطء أول الأمر، ثم خبباً. وبعد ذلك جيء بجواد صغير، أشقر، مبتور الذيل. كان يدعى: «الحصان». ابتسم المعلمُ وقال لي:

ـ امتطِ الحصان، أيها الفارسُ الجميل!

كنت مسروراً جداً، وكنت خائفاً في الوقت نفسه، وبذلت جهدي كله كي لا يُرى ذلك عليّ. وحاولتُ طويلاً أن أبلغ الركابَ، لكن ذلك كان مستحيلاً، لأنني كنت أقصر من ذاك. وحين رأى المعلم ذلك، حملني بين ذراعيه، وأجلسني على السرج، وقال:

ـ لست ثقيلاً، فأنت تزن ليبرةً، لا غير.

أمسكني بذراعي، في البداية. لكنني لاحظت أنه لا يفعل الشيءَ نفسه مع أخويّ، فطلبت إليه أن يرخي ذراعي قال لي:

ـ أنتَ لا تخاف، إذن؟

كنتُ مذعوراً، لكني أجبتُه أنني لست خائفاً البتّة. وما كان يخفني، على الخصوص، أن الحصان كان يُسدل أذنيه. ظننتُ أنه حاقدٌ عليّ. قال المعلم:

ـ انتبه، الآن! وإياك أن تسقط!

وترك ذراعي. تابع الحصانِ سيره بخطىً هادئة واعتدلت في جلستي. لكن السرج كان زَلِقاً وكنت أخاف من الدوران. سألني المعلم:

ـ حسناً! هل ثبتَّ على ظهر الحصان؟

أجبتُ:

ـ بكل تأكيد.

ـ إذن، امضِ خبباً!

ونادى على الحصان، فأخذ يخبّ، وبدأت أهتزّ اهتزازاً شديداً. لكني لم أفهْ بكلمة، وبذلتُ وسعي حتى لا أزيح عن مكاني. كان المعلم يشجعني:

ـ أوه! مرحى، للفارس الجميل!

سرّني ذلك كثيراً.

ـ في هذه اللحظة، أخذ المعلمُ يتحدّث مع صديق اقترب منه، وكفّ

عن مراقبتي. وتبيّنتُ فجأةً أنني أخذتُ أنزلق على حافة السرج. وجهدتُ في أن أعدّل جلستي، فلم أفلح. كنتُ أرغب في أن أنادي المعلم ليوقف الحصان. لكني قلت في نفسي إن ذلك مخجلٌ، وسكتٌّ. لم يعد المعلمُ يهتمّ بـي. وظل الحصان يخبّ، وصرت أفقد توازني شيئاً فشيئاً. كنتُ أنظر إلى المعلم وأقول في نفسي: سيأتي إلى نجدتي. على أن شيئاً من ذلك لم يكن. ظل يتابع حديثه مع صديقه، وهو يردّد، دون أن يلتفت إليّ: «مرحى، للفارس الجميل!».

صرتُ على حافة السرج تماماً. خلتُ أنني هالكٌ. لكن الخجل منعني من الصراخ. ويهزّني الحصان هزة قوية فإذا به يقلبني عن سرجه، وإذا بـي أقع أرضاً. وقـف الحصـان، علـى الفـور؛ التفـت المعلـم ورأى أن لا أحـد علـى الحصان. قال:

ـ هذه ورطة حقاً! لقد سقط فارسي!

وهبَّ لنجدتي. وعندما أكدتُ له أنّ الحصان لم يؤذني، قال، وهو يبتسم:

ـ الجسم مرنٌ، في مثل سنك.

كنت أشتهي أن أبكي. رجوته أن يعيدني إلى السرج. ساعدني على امتطاء جوادي، ولم أقع عنه بعد ذلك.

كنا نأخذ درسين في الأسبوع. وغدوتُ، بعد زمنٍ قصير، فارساً مُجيداً لا يخاف شيئاً.

الفأس والمنشار

(مثل)

ذهب فلاحان ليقطعا شجرةً في الغابة. كان مع أحدهما فأس، ومع الآخر منشار. ولما اختارا الشجرة، أخذا يتخاصمان. قال أحدهما:

ـ يجب أن نقطعها بالفأس.

قال الآخر:

ـ يجب أن ننشرها.

قال فلاحٌ ثالث:

ـ سأوفّق بينكما، على الفور؛ إذا كانت الفأس مشحودة شحذاً جيداً، فالأفضل استخدامُها؛ لكن إذا كانت المنشار مسنونةً أكثر منها، فالأفضلُ النشْر.

وتناول الفأس وأخذ يضرب الشجرة. لكن الفأس لا تقطع، والمنشار لا تنشر. ابدأا بشحذ الفأس وسنّ المنشار؛ وسوف يتسنّى لكما بعد ذلك أن تتخاصما.

لكن الرجلين، وقد زاد غضب كل منهما على الآخر، لأن فأس أحدهما غير مشحوذة، ومنشار الآخر غير مسنونة، أخذا يتقاتلان.

كيف تعيش امرأة جندي(١)

(حكاية فلاح)

كنا نعيش عيشة فقيرةً في طرف القرية. كانت معي أمي، وأختي البكر التي كانت مربّيتي، ثم جدّتي. وكانت جدتي ترتدي قميصاً فضفاضاً قديماً بلا كمّين، على تنورة بالية؛ وكانت تلفّ رأسها بما يشبه الخرقة العتيقة. وكانت جدتي تحبني وتهتم بـي أكثر من أمي. وكان أبـي في الخدمة. وكان يُروى عنه أنه كان يشرب كثيراً، ولذلك وشى به أهل الناحية أثناء السوق إلى الجندية. وإني لأذكر بشيء من الغموض، وكالحلم، أنه كان يأتي ليرانا في الإجازة.

لم نكن على شيء من السعة، في بيتنا! كان في الوسط، جذع شجرة ملتوٍ

(١) هذه الحكاية، في شكلها البدائي، هي من ماكاروف ومن بازيل مورروزوف، وهما طالبان في مدرسة إياسنايا بوليانا.

يستخدم كالدعامة له، وإني لأذكر أنني كنت أتسلّق عليه، ذات يوم، فوقعت عنه، وصدمت رأسي بالمقعد. وفي جبهتي، حتى الآن، أثر الضربة.

كان لكوخنا نافذتان صغيرتان: كانت إحداهما مسدودة دائماً بالبياض البالي. وقد هُدم سقفُ المستودعات. وكان الفناء ضيقاً. وبقي، في الوسط، معلفٌ قديم. ولم يكن عندنا من حيوانات سوى حصان قد اعوجّ؛ لم يكن لدينا بقرة؛ وقد بقي عندنا مع ذلك نعجتان وحَملٌ.. وكنت أنام دائماً بقربه(١). وكنا نأكل خبزاً ونشرب ماءً، لم يكن عندنا أحدٌ ليقوم بالعمل، وكانت أمي لاتني تشكو بطنها، وكانت جدتي التي لازمت الموقد لاتني تشكو رأسها. أختي الكبرى وحدها هي التي كانت تعمل، ولحسابها لا للأسرة؛ كانت تشتري الحلي، وتتهيأ لعرسها.

أذكُر أن أمي تفاقم مرضُها ووضعَتْ طفلاً، وفُرِش لأمي في المدخل. واقترضت جدتي من الجار برغلاً، وأرسلت العم نيفوديا ليأتي بالكاهن. أما أختي فذهبت تدعو الناس إلى العماد.

وصل الناسُ، وحملوا ثلاثة أرغفة كاملة من الخبز. وهيّأ الأهل طاولات وغطّوها بالأغطية. ثم جاؤوا بمقعد وبسطل ماء. وجلس الجميع في أماكنهم. وعندما وصل الكاهن تقدم الاشبين والإشبينة؛ وكانت الخالة آكولينا جالسةً وراءهما، والصغير بين ذراعيها، تُليت أدعيةٌ وفُكَّ قِماط الصبيّ؛ أخذه الكاهن وغطسه في الماء. خفتُ وصرختُ:

ــ أعطني هذا الصغير!

غضبت جدتي عليّ، وقالت:

ــ اسكتْ وإلاّ ضربتُك!

---

(١) كان الحمل الوليدُ ينام في صندوق، في غرفة السكن، لأنها أدفأ من الاصطبل.

غطس الكاهنُ الطفلَ ثلاث مرات في الماء[1]؛ وبعد ذلك أعاده للخالة آكولينا. لفته الخالة في قماشةٍ من القطن وحملته إلى المدخل، إلى أمي.

ثم جلس الجميعُ إلى المائدة؛ ملأت أمي قصعتين من العصيدة[2] سكبتْ عليهما زيتاً وصبّت للحاضرين وعندما شبعوا نهضوا عن المائدة وشكروا أمي وانصرفوا.

ذهبت إلى أمي وقلتُ لها:

ــ ماما، ماذا سيُسمّى؟

أجابت:

ــ سيُسمّى باسمك[3].

كان الوليدُ هزيلاً. كانت له ساقان نحيلتان، ويدان صغيرتان، وكان يصرخ طوال الوقت. ولم أستيقظ ليلةً إلاّ سمعته يشكو، وكانت جدتي تأخذه دائماً، وتهدهده، وتنوّمه وهي تغنّي. كانت كثيرة التنهّد، لكن هذا لم يكن يمنعها من الغناء.

وذات ليلة، أفقتُ وسمعت أمي تبكي. نهضتْ جدتي وقالت:

ــ ماذا أصابكِ؟ مالكِ، يا إلـٰهي!

أجابت أمي:

ــ مات الصغير.

أضاءت جدتي المكان، وغسلت الصبيَّ، وألبسته قميصاً أبيض، وزنّرته

---

(١) حافظت الكنيسة الشرقية على التعميد بالغطس في الماء.

(٢) العصيدة المقصودة هنا هي مغليّ الحنطة الذي صبّ عليه زيتُ بذور القنّب.

(٣) كان الكاهن، على المعوم، هو الذي يُسمّى الوليد. وكان يختار اسم قدّيس ذلك اليوم. وكان هناك عددٌ كبيرٌ من القديسين أسماؤهم واحدة يحتفل بأعيادهم مرات كثيرة في السنة. وهذا ما يفسّر أن ولدين من أسرة واحدة يحملان أحياناً الاسم نفسه. وكان ذلك في فرنسا القديمة أيضاً.

بزنّار[1]، ووضعته تحت الصور المقدّسة، فلما طلع الضوء، خرجت وأتت بالعم نيفوديا. جاء العم بلوحين قديمين وصغيرين من الخشب، وعمل تابوتاً صغيراً وأرْقَد فيه الصبي. جلست أمي قربه وأرسلت أنيناً وبدأت نواحها بصوت حاد. ثم وضع العم نيفوديا الصندوق تحت ذراعه ومضى يدفن الصغير.

لم نعرف الفرحَ إلاَّ عندما تزوّجت أختي. ففي ذات يوم وصل فلاحون على عربة، وقد حملوا معهم رغيف خبز وشيئاً من ماء الحياة. قدّموا قدحاً لأمي. فشربته أمي. وقطع العم إيفان قطعة من خبز وقدّمها لها. كنتُ واقفاً قرب المائدة واشتهيتُ الخبز؛ شددت أمي إليّ وهمست في أذنها. ابتسمت أمي، وقال العم إيفان:

ـ ماذا يطلب؟ يريدُ خبزاً؟

وقطع لي قطعة كبيرة.

تناولتُ الخبزة واصنرفت إلى المستودع، وجدت فيه أختي جالسة ألقت عليّ أسئلةً.

ـ والفلاحون، هناك، في الغرفة، ماذا يقولون؟

ـ أجبتُ.

ـ يشربون ماءَ الحياة.

ضحكت وقالت:

ـ إنهم يخطبونني لكوندراشكا.

وبعد ذلك، جرى الاستعداد للاحتفال بالعرس. نهض الجميع مبكرين. أشعلت أمي الموقد، وعجنت العجينَ من أجل المعجنات، وغسلت خالتي «آكولينا» لحم البقر[2] قبل أن تضعه للشيّ. احتذت أختي جزمتها القصيرة،

---

(١) كان من بين ثياب الميت زنار تُسجّل عليه، في الغالب، صلاة.

(٢) غسل لحم البقر قبل شيه موجود في فرنسا للحم المملّح.

وارتدت ثوبها الأحمر[١]، ووضعت على رأسها خمارها الجميل، ولم تهتمّ بشيء. عندما دفئت الغرفة، استكملت أمي أيضاً زينتها ووصلَ كثيرٌ من الناس؛ وامتلأ البيت.

ثم دخلت إلى الفناء ثلاث عربات يجرها حصانان تُرنّ جلاجلها. في العربة الأخيرة، كان كوندراشكا، الخطيب، وهو يرتدي قفطاناً جديداً، ويضع على رأسه قبة عالية. نزل ودخل الكوخ. قُدِّم لأختي معطف فرو جديد واقتيدت إلى خطيبها. أجلسا إلى المائدة جنباً إلى جنب، وغنّت النساءُ على شرفهما. ثم نهض الناس عن المائدة، وتليت الصلاة، وخرج الجميع. ساعد كوندراشكا أختي على الصعود في إحدى العربات، وجلس في عربة أخرى. ولما استقرّ الجميع في العربات، رسموا علامة الصليب ومضوا. عدتُ إلى البيت وذهبت لأجلس عند النافذة انتظاراً لعودة العرس؛ أعطتني أمي قطعة خبز؛ وما أن أكلتها حتى نمتُ[٢] ثم أيقظتني أمي، وقالت لي:

ـ ها هم يصلون!

ووضعت في يدي مِذْحاة العجين لأحمي البيت من الخاطف، وأمرتني أن أجلس إلى المائدة.

دخل كوندراشكا وأختي يتبعهما خلفٌ كثير، أكثر منهم عند الذهاب. ازدحم الناسُ حتى الشارع، وكان الجميع يتطلعون من النوافذ. وكان العم جيراسيم هو الاشبين جاء إليّ وقال لي:

ـ اترك المكان.

---

(١) هذا الثوب الوطني الأحمر اللون، على العموم، يتضمن صدارة بلا كمين، وهي تتصل بتنورة، مع تقوير مربع عريض نازل إلى الأسفل.

(٢) في العادات الروسية القديمة أن الأهل لا يحضرون احتفالات الزواج الدينية ولا عماد أولادهم.

خفتُ وكدتُ أطيعه عندما قالت جدتي:

ــ أَرِهِ عصاك وأجبْه «وهذه، أتعرف هذه؟».

فعلتُ ما قالته لي. وضع العم جيراسيم نقوداً في كأس، وصب فيه شيئاً من ماء الحياة وناولني إياه. أخذتُ القدح وسلّمته إلى جدّتي. حينئذاك فقط تركنا المائدة، وجلسوا هم إليها.

قُدِّم ماءُ الحياة، وجبنُ العيد، ولحم البقر. وبدأ الناس بالغناء ثم رقصوا. قُدِّم ماء الحياة للعم جيراسيم ذاقه وقال:

ــ تبدو لي مُرَّة[(١)].

حينئذٍ أمسكت أختي كوندراشكا من أذنيه وقبّلته. غنى الناسُ طويلاً، ورقصوا طويلاً؛ ثم انصرف الجميع واصطحب كوندراشكا أختي إلى منزله.

بدءاً من هذه اللحظة عشْنا عيشةً أفقر. بعنا الحصان، وبعنا أيضاً ما بقي من الخراف، وكنا نحتاج إلى الخبز في معظم الأحيان. وكانت أمي تذهب إلى الأقرباء تطلب مساعدتهم. ولم تلبث أن ماتت جدّتي. وما أزال أذكر أمي وهي تبكيها وتعول وتنوح النواح المعهود: «ماما! يا حبيبتي! لِمَنْ تركتني، وأنا المسكينة البائسة! ومن كلفته العناية بالبنت المنكودة الحظ؟ ومَنْ أستشيرُ؟ كيف سأقضي بقية عمري؟». وذرفتْ كثيراً من الدموع وهي تنوح هذا النواح.

وذات يوم كنتُ فيه على الطريق، مع أولاد آخرين من القرية.

ــ كنا ذاهبين إلى المرعى نراقب الخيل ــ رأيتُ جندياً مقبلاً ومزوده على ظهره. اقترب منا وقال:

ــ من أية قريةٍ أنتم، يا أولاد؟

ــ نحن من قرية نيكولسكوي.

ــ هل في قريتكم امرأة جندي تُدعى ما ترونا؟ أما تزال حيّة؟

---

(١) كلمة مؤلوفة تستخدم لدفع العروسين إلى العناق. أي أنها مرة ويجب أن تحلى.

ـ طبعاً، هي أمي.

نظر إليّ الجندي وقال:

ـ وهل رأيتَ أباك أحياناً؟

ـ لا، هو في الخدمة.

ـ حسناً، تعال، دلَّني على ما ترونا؛ إني أحمل رسالة لها.

ـ ما تلك الرسالة؟

ـ هيّا، امضِ، سترى ذلك!

ـ طيّب، هيّا!

ذهب الجندي معي، لكنه كان يسير مُسرعاً حتى شقّ عليّ اللحاق به. وأخيراً بلغنا البيت. رسم الجندي علامة الصليب وقال:

ـ طاب يومكم!

ثم خلع معطفه، وجلس على صندوق الثياب وأخذ ينظر حواليه.

ـ ماذا، أليس في البيت سواكما أنتما الاثنين؟

إرتبكت أمي، ولم تجب، ولم ترفع عينيها عن الجندي. قال: وأين أمي؟ وانفجر باكياً. ركضتْ أمي نحو أبي وأخذت تعانقه. وأنا، صعدتُ إلى ركبتيه وأخذتُ أفتّش جيوبه. كفّ عن البكاء وأخذ يضحك.

وصل الجيران؛ سلّم أبي عليهم جميعاً، وأنبأهم أنه نال إجازته وانتهى من الخدمة.

وفي ساعة عودة القطيع، جاءت أختي أيضاً وعانقت أباها. قال أبي:

ـ ابنةُ منْ، هذه الشابةُ؟

أجابت أمي ضاحكة:

ـ ألم تعرفْ ابنتَكَ.

أومأ إليها أبي بالدنوّ مرة أخرى، فعانقها، وسألها كيف الحال في بيتها.

ثم ذهبت أمي لتُعِدَّ عجّةً. وأرسلت أختي لتأتي بماء الحياة. حملت أختي زجاجة مسدودة بسدّادة من ورق ووضعتها على المائدة. قال أبـي:

ــ ما هذا؟

ــ هذا ماء الحياة لك.

ــ لا، ها قد مضى خمسة وعشرون عاماً دون أن أشرب. لكن، هاتي العجّة.

صلّى، وجلس إلى المائدة وأكل، ثم قال:

ــ لو لم أكفّ عن الشراب، لما صرتُ ضابط صف، ولما حملتُ شيئاً إلى المنزل، وأنا، الآن، بفضل الله...

وأخرج من مزوره كيساً مملوءاً بالنقود وسلّمها إلى أمي. فرحتُ كثيراً بالنقود[1] وسارعتْ فلفّتها.

وبعد ذلك انصرف الناسُ؛ اتخذ أبـي موضعاً له على المقعد لينام عليه، في صدر الغرفة. وأخذني معه؛ نامت أمي عند قدميه. وتحدثنا طويلاً، إلى منتصف الليل تقريباً. ثم نمت.

في الصباح، قالت أمي:

آه، لم يبقَ عندي حطب للتدفئة!

سأل أبـي:

أعندكِ فأس؟

ــ نعم، لكنها متثلّمة، إنها فأس رديئة.

احتذى أبـي حذاءه، وأخذ الفأس وخرج. ركضت خلفه.

انتزع أبـي من السقف عصا كبيرة، ووضعها على قرمة شجرة، ورفع فأسه في الهواء وقطعها بسرعة. حمل الخشب إلى البيت وقال:

---

(١) كتب تولستوي: «هذه الكلمة تضيء اللوحة كلها، وهي تحدد الشخصيات وترسمها».

ـ خذي، دونك الحطبَ؛ اشعلي الموقد، وسأخرج، أنا اليوم لأبحث عن بيت صغير أشتريه وعن خشب صقالة لبناء الفناء. ويجب أن نشتري بقرةً أيضاً.

أجابت أمي:

ـ آن! لا بد من مال كثير لشراء ذلك كله!

أجاب أبـي:

ـ حسناً سنشتغل! وهذا الصبـي سيكبر أيضاً.

وأشار بإصبعه إليّ.

رسم علامة الصليب، وأكل خبزاً، وارتدى معطفه وقال لأمي:

ـ إن كان عندك بيضٌ طازج فاشوهِ في الرماد للغداء.

وخرج..

أبطأ أبـي حتى عاد، سألتُ أمي إن كنت أستطيع اللحاق به. عبثاً رجوتُها، لم تدعني أذهب. أردتُ أن أخرج مع ذلك، لكنها منعتني وضربتني. جلستُ على الموقد وأخذت أبكي. في هذه اللحظة، دخل أبـي الغرفة وقال:

ـ لمَ تبكي؟

أجبت:

ـ أردت أن ألحق بك، لكن أمي لم تتركني أذهب، بل أنها ضربتني. وأمعنتُ في البكاء.

ضحك أبـي، ودنا من أمي، وأخذ يضربها، على سبيل المزاح، وهو يقول:

ـ لا أريد أن تضربـي صغيري «تيودور»!

تظاهرتْ أمي بالبكاء. ضحك أبـي وقال:

ـ تيودور وأنت سريعا البكاء، سرعان ما تنهمر دموعكما!

ثم جلس إلى المائدة، ووضعني جنبه وصرخ:

ــ حسناً! والآن قدميّ الغداء لي ولصغيري «فيدكا»[1]، أيتها الأم. لقد جعنا.

حملت أمي زجاجة من ماء الحنطة، وبيضاً وأخذنا نأكل.

قالت أمي:

ــ حسناً! وتلك الصقالة؟

أجاب أبي:

اشتريتُ الخشب، ودفعت ثمانين روبلاً. أنه خشب الزيزفون، الخشب الأبيض، الصافي كالبلور، انتظري قليلاً، سنشتري من ماء الحياة، ما نقيم به وليمة للجيران، وذات يوم من أيام الأحد، سيساعدونني على نقل الخشب.

منذ هذا اليوم غدت الحياة هنيئة عندنا.

الهرّ والفئران[2]

(مثل)

تكاثرت الفئران في منزل. أقام هرٌّ فيه وأخذ يطاردها. أدركت الفئران أن أمورها أخذت تسوء، فقالت فيما بينها: «أيتها الفئران، لن ننزل بعد الآن من جحرنا؛ ولا يستطيع الهر أن يبلغ هذا المكان».

ما إن كفّت الفئران عن النزول من جحرها حتى أخذ الهر يبحث عن حيلة يمكنه بها أن يصطادها. تشبث بالسقف بإحدى قدميه، وترك نفسه يتدلّى من فوق، وتظاهر بأنه ميت. ألقت فأرةٌ نظرة خاطفة خارج جحرها. وقالت:

ــ يا أخ، تستطيع إن شئت، أن تتحول إلى كيس؛ فليس هذا هو الذي يدنيني منك.

---

(١) أي ابنه تيودور.

(٢) ايزوب: الهر والجرذان. لافونتين: «الهر والجرذ المسن».

الجليد والماء والبخار

(موضوع للمحادثة)

عندما يبردُ الجو يغدو الجليدُ صلباً، قاسياً كالحجر. وإذا علق فيه قضيب، فلا يمكن سحبه ما لم يذب الجليد. وعندما يكون الجليد صلباً فيمكن العبور عليه بعربات محمّلة، دون أن تغوص فيه؛ ويمكن أن نلقي عليه مائة وخمسين كيلو غراماً من الحديد، دون أن يتكسّر.

وكلما ازداد البرد ازدادت مقاومة الجليد. ومع الحرارة يلين ويَغْدو كضرب من العصيدة؛ ونستطيع أن نسحب منه بيدنا الأشياء التي علقت عندما تجمّد الماء؛ وهو يرتخي عندما يوطأ بالأقدام، وهو لا يحمل كيلو غراماً من الحديد. وعندما تزداد سخونته يتحول إلى ماء. ونستطيع أن نسحب منه أي شيء بسهولة، ولا يمكنه أن يحمل شيئاً، ما عدا الخشب.

ولو سخناه فوق ذلك لكان حمله أقل، فالسباحة في الماء البارد أسهل منها في الماء الفاتر. وفي الماء الشديد السخونة، يغوص الخشب نفسه.

ولو زدنا من سخونة الماء، لذهب الماء على شكل بخار؛ والبخار لا يحمل شيئاً، بل أنه يتبدد في كل الاتجاهات.

إذا غلينا الماء تحت غطاء، تحول هذا الماء إلى بخار، وتوضع قطرات تحت الغطاء، وسال منه، وتجمّع في القاع، وحصلنا على الماء، مرة أخرى. ولو جمعنا هذا الماء وعرّضناه للجمد، لعاد الماء جليداً.

سَخِّن الماء تحصلْ على البخار؛ بَرِّد الماء مرة أخرى، تحصل على الجليد. الماء نفسه إذا سُخِّن تبخّر وإذا أعيد تبريده تجمد.

ليس في الجليد حرارة، وفي الماء قليل من الحرارة، وفي البخار كمية

كبيرة جداً وإذا وضعنا قطعة من الجليد على تماسٍّ مع سطح متجلّد، فالقطعة لا تسخن ولا تبرد.

لكننا إذا صببنا ماءً على الجليد، سَخَن الجليدُ وبرد الماءُ.

يذوب الجليد عندما يكون هناك الكثير من الماء، ويتجمد الماء عندما يكون هناك الكثيرُ من الجليد.

وإذا أطلقنا البخار على الجليد سَخنَ الجليدُ، وبرد البخار. الجليد يذوبُ ويغدو ماءً، والبخار يبرد ويغدو ماءً أيضاً.

إذا كان الماء بارداً والهواء بارداً لم يسخن الماء ولم يبرد الهواء. لكن إذا كان الهواء ساخناً والماء بارداً فماذا يحدث؟ تنتقل السخونة من الهواء إلى الماء، ويغدو الماء أسخن شيئاً فشيئاً حتى يصيرا في درجة الحرارة ذاتها.

إذا كان الهواء أسخن من الماء سخن الماء وبرد الهواء؛ لكن إذا كان الماء أسخن فالهواء هو الذي يسخن والماء هو الذي يبرد.

وإذا كان الماءُ السائل يغدو، في الهواء الطلق، ماءً متجمداً فمعنى ذلك أن الماء أسخنُ من الهواء؛ هو يبرد والهواء يسخن.

وإذا كان الماء المعلّقُ يغدو، في الهواء الطلق، ماء سائلاً فمعنى ذلك أن الهواءَ أبردُ من الماء المعلَّق. يبرد الماء في حين يسخن الهواء.

إذا كان الماء، بشكله القاسي، يغدو بعد أن يتعرض للهواء، ماءً سائلاً، فمعنى ذلك أن الهواء أسخن: أنه يبرد كلما سخن الجليد.

وإذا تحوّل الماءُ إلى بخار، في الهواء الطلق، وإذا جف الهواء، فمعنى ذلك أن الهواء أسخن من الماء؛ الهواء يغدو أبرد والماء يسخن.

لا نستطيع أن ندفىء بيتاً بالجليد. لكننا نستطيع ذلك بالماء وبالبخار. ودونك كيف نستطيع أن ندفىء بالماء: يجب أن يُحمل الماء إلى الغرفة الباردة؛

وعندما يبدأ الماء بالتجمُّد يحملُ إلى الخارج الجليد الذي تشكّل، وعندما تتشكل في الماء قطعٌ من ثلج مرة أخرى، تُحملُ إلى الخارج، فيدفأ الجوُّ شيئاً فشيئاً في البيت، إلى الحد الذي يمتنع فيه الماء، في النهاية، عن التجمّد. عمّ ينجم هذا؟ ينجم هذا عن أن الماء عندما يتجمَّد، يُطلق في الهواء حرارته الفائضة، وهو يطلق تلك الحرارة حتى اللحظة التي يكفُّ فيها الهواء، وقد سَخَن، عن أن يتجمد.

لكي نُدفىء بالبخار، فدونك ما نفعله: نُطلق بخاراً في البيت البارد. يبردُ البارُ ويسقط قطرات، يغدو ماء، يحمل هذا الماء خارجاً ويدفأ المنزل.

عم ينجمُ ذلك؟ ينجم ذلك عن أن البخار، ما إن يتحول إلى ماء حتى يترك سخونته الفائضة في الهواء.

عندما يتحول الماءُ إلى جليد ويتحول البخارُ إلى ماء، تُخرج من الماء والبخار سخونةٌ تنتقل إلى الهواء، فيسخنُ الهواء. ولكن عندما يغدو الجليدُ ماءً، فإن سخونة الهواء هي التي تنتقل إلى الماء والبخار، فيبرد الهواء.

إذا شئنا أن نُبرّد غرفة ساخنة، فما علينا إلاَّ أن نحمل إليها الجليد وندعه يذوب. ومن أين جاء إن الجو فيها غدا أكثر برودة؟ جاء هذا من أن الجليد قد امتصّ سخونة الهواء لكي يتحول إلى ماء.

أتريد أن تبثّ رطوبة، رش المكان بالماء ودع الماء يجف. عمّ نجم ذلك؟ نجم ذلك عن أن الماء تحوّل إلى بخار ولكي يتحول الماء إلى بخار، لا بد له من أن يأخذ من الهواء كثيراً من سخونته.

من أجل ذلك يكون الجو أبرد عندما يهطل المطر، وأسخن عندما يتهيأ للهطول. يهطل المطرُ: يجف الماءُ، ويتحول إلى بخار، ويمتص السخونة. لكن عندما يتهيأ المطر للهطول، فإن الأبخرة تجري في الهواء وتبردُ مشكلةً سحباً. ومنها تأتي هذه السخونة. ولذلك يقول الناس: إننا نختنف.

الحجلةُ وصغارها

(مثل)

كان حَصدَةٌ يحصدون حقلاً. وفي هذا الحقل، كانت تعيش، تحت مدرة، حجلة وصغارها. وبينما كانت عائدة، وهي طائرة، بزقتها، قرب العش لاحظت أن العش قد حُصِد ما حوله. فقالت لصغارها.

ــ آه! يا أولادي، هذه هي المصيبة! اسكتوا الآن، ولا تتحركوا بعد الآن، وإلاَّ هلكتم. سأحملكم غداً إلى مكان آخر.

لكن الصغار أخذت تقول فيما بينها، وقد استبد بها الفرح لأن الحقل قد غمره الضوءُ الآن: «ماما، عجوز! ولذلك تريد ألا نلهو». وأخذت الصغار تزقزق وتصفرّ.

كان الأولاد يحملون إلى الحقل طعام الفلاحين. سمعوا صغار الحجل فدقّوا أعناقها.

• • •

الفصل الأول

بولكا وملتون[1]

(حكاية ضابط)

بولكا [يتبعني]

كان عندي بلدغ[2] يدعى بولكا. وكان أسود تام السواد، ما عدا قائمتيه الأماميتين، فكان في نهاية كل منهما بقعةٌ بيضاء.

الفك الأسفل، عند هذه الكلاب، أطول دائماً من الفك الأعلى، والأسنان العليا تصطف وراء الأسنان السفلى. لكن الفك الأسفل عند بولكا كان بارزاً جداً بحيث أنه كان من الممكن إدخال الأصبع بين الأسنان العليا والأسنان السفلى. كان له وجه عريض. وعينان كبيرتان، سوداوان، ولامعتان، وأسنانه وأنيابه مكشوفة دائماً، وبيضاء تماماً. كان يشبه زنجياً. وكان «بولكا» وديع الطبع، فلا يعض، لكنه كان قوياً جداً، فإذا قبض على شيء لم يفوّته. وإذا ثبّت أنيابه شد أسنانه وبقي متعلقاً مثل خرقة بمسمار: من المستحيل أن تحمله على أن يرخيه، كان يتمسك به كالقرادة.

---

(١) كان مع تولستوي في القوفاز كلبان يدعيان «بولكا» و«ملتون» أما بولكا فكان بلدغا (Bouledoeue)، وهو الكلب الأقطم المبطط الأنف.

(٢) العنوان الروسي هو: «ما وقع لبولكا في بياتيغورسك».

وذات يوم أطلقناه على دب، فتشبّث بأذنه، وتدلّى منها كأنه عَلَقة. وعبثا ضرب الدب برجله، وضغط عليه، وهزّ رأسه؛ لم يستطع التخلّص منه لقد إنتهى بأن تدحرج على رأسه لكي يسحقه. ولكي نحمل بولكا على أن يرخي أذنه كان لا بد من رشّ الماء البارد عليه.

حصلت عليه وهو فتيّ، وقمتُ بإطعامه أنا نفسي. وعندما اضطررت إلى الذهاب لأداء الخدمة في القوقاز، لم أكن أنوي أن آخذه معي، وتركته دون أن أثير انتباهه. وأمرت بحبسه. وصلتُ إلى أول محطة، وكنت على وشك السفر بخيل نشيطة، عندما لاحظتُ فجأةً كتلة سوداء لامعة تجري على الطريق. كان ذلك بولكا، وطوقه النحاسي في عنقه. كان يجري بأقصى سرعته إلى أول محطة. إرتمى عليّ، ولحس يدي، وتمدد في الظل، تحت العربة. دلّى لسانه أربع بوصات على الأقل. وكان يُدخله حيناً ليبلع ريقه، ويخرجه تارة أخرى. كان يلهث لهاثاً شديداً حتى أنه لم يكن قادراً على استرداد نفسه، وكانت خاصرتاه تخفقان خفقات صغيرة. وكان يستند إلى الأرض بهذا الجنب حيناً، وبذاك الجنب حيناً آخر، ويضرب الأرض بذنبه.

علمتُ فيما بعد أنه كسر لوح الزجاج ليتبعني، وقفز من النافذة، وانطلق جارياً في إثري. لقد قطع عشرين فرسخاً في الحرارة الشديدة.

• • •

الفصل الثاني

بولكا والخنزير البري

كنا في الصيد، في القوقاز، صيد الخنزير البري، وفي هذا اليوم، تبعني «بولكا». وما أن بدأت الكلاب المطاردة بالمطاردة حتى إندفع بولكا، لندائها، كالسهم، وتوارى في الغابة. كان ذلك في شهر تشرين الثاني، وهي الفترة التي تكون فيها الخنازير البرية والخنازير سمينة جداً.

تزخر غابات القوفاز التي تعيش فيها الخنازير البرية بالثمار التي تتشهاها تلك الخنازير: فيها العنب البري وأكواز الصنوبر والتنّوب، والتفاح البرّي والإجاص، والتوت البري، والبلوط، والخوخ البري. وعندما تنضج هذه الأعشاب والثمار ويصيبها الجمد، تتخذ الخنازير البرية طعامها منها وتسمن عليها.

يُصبح الخنزير البري ثقيلاً جداً حتى أنه لا يستطيع أن يُفلت من مطاردة رهط الكلاب. فبعد حوالي ساعتين من المطاردة، يختبىء في دَغَلٍ ويتوقف. ويركض الصيادون إلى الموضع الذي توقف فيه ويطلقون النار عليه. ونستدلّ من نباح الكلاب إن كان الخنزير ما يزال يركض أو ان كان قد توقّف عند المخبأ أمامها. فإذا كان ما يزال يركض تئن الكلاب كما لو كانت تُجلَدُ، وإذا كان متوقفاً تنبح عليه مثلما تنبح حين ترى رجلاً، وتردد نباحها.

في هذا اليوم، طفتُ طويلاً في الغابة، ولم يُتَحْ لي أن أقع على أثره.

وأخيراً سمعتُ نباحاً طويلاً، وصيحات الكلاب المطاردة. إندفعت مسرعاً إلى الموضع الذي إنطلق منه نباحُ الكلاب المطاردة. وصلتُ إلى قرب الخنزير، وسمعت تقصّفاً في الدغل. كان ذلك هو الخنزير في صراع مع الكلاب، واستدللتُ من طريقة نباحها إنها لم ترمه أرضاً وإنما ترصّدته وهو في مخبئه. وفجأة سمعتُ حفيفاً خلفي ورأيت بولكا. لا شك أنه قد ضيّع الكلاب في الغابة وضل طريقه؛ لكنه بعد أن سمعها الآن مثلي، عجّل في جريه نحوها. إجتاز وهو يجري فرجةً في الغابة، لم تسمح لي أعشابها العالية أن أرى غير رأسه الأسود، ولسانه الذي تدلّى بين أسنانه. ناديته ، فلم ينظر إليّ، وتجاوزني وتوارى في الدغل ركضتُ وراءه، لكني كلما تقدمت ازدادت كثافة الغابة. وكانت الأغصان تنتزع قبعتي عن رأسي وتلسع وجنتي؛ وكانت أشواك الخوخ البري تعلق بثيابـي، وصرتُ أسمع النباحَ بقربـي، لكني لم أكن أرى شيئاً.

وفجأة اشتد نباح الكلب، وسمعت تقصّف الأغصان المتكسرة وأنفاس حيوان يلهث. ثم حشرج الحيوان. صدق ظني: لقد لحق بولكا به، وأخذا يتصارعان، ركضت بكل قوتي ودخلت الدغل ميمما شطر النباح، ورأيت، في أكثف موضع فيه، كلباً مطارداً مبقعاً. كان الكلب ينبح. ويعوي دون أن يغادر المكان، وعلى ثلاث خطوات منه، كان يرى شيئاً أسوداً يتخبط كثيراً.

تابعت تقدّمي، شاهدتُ الخنزير ورأيت بولكا يُرسل ضُباحاً حاداً. أخذ الخنزير يَنْخر وانقضّ على الكلب المطارِد؛ ضمّ الكلب ذيله وتحاشاه بوثبة. رأيت الآن خاصرة الحيوان ورأسه. صوّبت البندقية إلى خاصرته. كانت طلقتي صائبة. نخر الخنزير ودخل الدغلَ بصخب. تَبعتْه الكلابُ وهي تعوي وتنبح، و انطلقت إلى الدغل خلفها. وفجأة رأيتُ وسمعت شيئاً تحت قدميّ تقريباً. كان بولكا مضطجعاً على جنبه يئن. وتحته بركةٌ من الدم. قلتُ في نفسي: لقد هلك، لكن كان علي أن أفعل شيئاً آخر، وشققت طريقاً لي وتجاوزته. وبعد

ذلك بقليل، رأيتُ الخنزير. كانت الكلاب متشبثة بمؤخرته. وهو يلوي رأسه بهذه الجهة تارة، وبتلك تارةً أخرى، فلما رآني هَجمَ عليّ. أطلقت الطلقةَ الثانية، عن كثب، عن قرب شديد حتى إن وبره إشتعل. ونخر الحيوانُ، وترنح، وانهار بكل ثقله.

دنوتُ، كان ميتاً؛ تشنج جسمه المتورّم بضع تشنجات. وكانت الكلاب تمزّقه، وهي منفوشة الشعر، يتناوش بعضُها بطنه، وبعضها قوائمه؛ وبعضٌ آخر كان يلعق دماءَ جراحه.

وفجأة خطر بولكا ببالي، فذهبتُ أبحث عنه. أقبل علي وهو يجرّ نفسه ويئن. مضيتُ إليه، وجلست بجنبه، ونظرتُ إلى جرحه. كان بطنه مُفتّقاً، وأحشاؤه خارجةً كالكرة تنسحب على الأوراق اليابسة. عندما لحق بي رفاقي أعدنا أحشاءه إلى موضعها، وخِطْنا بطنه. لم يكفّ عن لَعقْي ونحن نخيط له شفتي الجرح ونمرّر الإبر في الجلد.

علّقنا الخنزير بذيل الحصان لنجرّه إلى خارج الغابة، وحمّلنا بولكا على ظهر الحصان وجئنا به إلى البيت. بعد ستة أسابيع شفي بولكا.

• • •

الفصل الثالث

ملتون وبولكا

حصلت على كلب تربّصٍ لصيد التدرج، وهي طريدة شائعة في القوقاز. كان هذا الكلب يُدعى «ملتون». كان ملتون طويل القوائم، مَشيقاً، رمادياً مبقّعاً، طويل الشفتين والأذنين. كان كلباً مقاوماً وذكياً. وكان هو وبولكا متّفقين. على كل حال، لم يوجد كلبٌ سمع لنفسه أن يشاكل بولكا. كان يكفي أن يُبديَ عن أسنانه لتنسحب الكلاب، وذيلُ كل منها بين ساقيه.

ذهبتُ ذات يوم لصيد التدرج مع «ملتون». لحق بـي بولكا، وهو يجري، في الغابة. أردتُ صرفَه فلم أنجح في ذلك. أأعود أنا نفسي به إلى البيت؟ كان البيتُ بعيداً جداً. قلتُ في نفسي: إنه لن يضايقني، وتابعتُ طريقي معه لكن إذا ببولكا، كلما اكتشف ملتون تدرجةً وبدأ يقتفيها، يسارع ويعبث بالأعشاب، محاولاً إثارتها قبل ملتون. فما أن يسمع شيئاً في العشب حتى يقفز ويدور على نفسه. لكن حاسة شمه كانت ضعيفة ولم يكن بإمكانه أن يتعقب الطريدة وحده. لذلك كان ينظر إلى ما يفعله «ملتون»، ويركض في الإتجاه الذي إتخذه ملتون. فإذا تعقّب ملتون أثراً سارع بولكا إلى الأمام. وعبثاً ناديته وضربتُه. لم يؤثر فيه شيءٌ من ذلك. كان يكفي أن يبدأ ملتون بالبحث حتى يندفع بولكا ويُفسد عمله.

صمّمت على العودة، ظنّاً مني أن هذا اليوم كان يوماً ضائعاً، من جهة

الصيد. لكن ملتون، وهو أمكر مني، عثر على حيلة ليخدع بولكا. ودونَك ما ابتكره: ما يكاد بولكا يتجاوزه راكضاً حتى يكف ملتون عن إقتفاء الأثر، ويستدير إلى جهة ثانية، متظاهراً بتعقّب الطريدة، فينطلق بولكا إلى الجهة الجديدة التي مضى فيها ملتون، ثم يستأنف ملتون إقتفاءَه الأول، بعد أن يومىء إلي بتحريك ذيله. فيعود بولكا راكضاً نحو ملتون ويتجاوزه مرة أخرى، لكن ملتون كان يَحيد عمداً عن الأثر، منحرفاً عشر خطوات إلى اليمين أو اليسار، وهو ما كان يلزم لخداع بولكا، ثم يقودني إلى الطريدة رأساً، لم يكلّ خلال هذا الصيد من خداع بولكا ومن الحيلولة بينه وبين إفساد رحلة الصيد هذه.

• • •

الفصل الرابع
ملتون والسلحفاة

ذات يوم كنت فيه في الصيد، بدأ ملتون يفتّش، عند طرف الغابة، فرفع ذيله، ونصبَ أذنيه، وأخذ يشتمّ. تهيأتُ وتبعته، ظننتُ أنه يتعقّب حجلةً أو تدرجة أو أرنباً. لكن ملتون لم يدخل الغابة، وسار نحو حقل. تبعتُه وأنا أنظر إلى الأمام. وفجأةً شاهدت ما كان يبحث عنه. كانت سلحفاة صغيرة، بحجم العَمْرة، هاربةً أمامه.

في طرف عنقها الطويل الممدود، كان يبدو رأسُها العاري، الرمادي الغامق، على شكل مدقّة. كانت السلحفاة توسع الخُطا، كاشفة عن قوائمها العارية الواحدة بعد الأخرى، من تحت تلك الكُمّة التي تغطي ظهرها كله. لكنها عندما شاهدت الكلبَ أخفتْ قوائمها ورأسها، وارتمت على العشب. لم تعد تُرى سوى قوقعتها. أنشبَ ملتون أسنانه وحاول أن يعضّ؛ لكنه لم يفلح. والواقع أن للسلحفاة بطناً مغطىً بذَبْل، مثله مثل ظهرها. وفي قوقعتها ثقوب في الأمام وفي الخلف، وعلى الجانبين، ومن هذه الثقوب تُخرج السلحفاة رأسها وقوائمها وذيلها.

إنتزعتُ السلحفاة من ملتون وفحصتُ رسوم ظهرها، ونوعَ الذَبْل الذي تحتمي به. عندما نمسك السلحفاة وننظر تحت القوقعة، نميّز شيئاً أسود يتحرك، فكأنه في قاع مغارةٍ. رميتُ السلحفاة في الأرض وتابعتُ طريقي. لكن

ملتون لم يكن ينوي أن يَدعَها هنا؛ أخذها بين أسنانه وتبعني. وفجأةً أطلق صرخة ألم وأرخاها. لقد أخرجت السلحفاة إحدى قوائمها وخمشت وجهه. فاهتاجَ من هذه الحيلة الخبيثة حتى أخذ ينبح، ثم عاد فأخذها بين أسنانه وتبعني. أمرتُه مرة ثانية بأن يُرخيها، لكنه أبى أن يطيعني. وحين رأيتُ ذلك منه إنتزعتها مرة ثانية منه ورميتُها بعيداً. لم يشأ ملتون أن يدعها وشأنها، فبدا يحفر الأرض بجنبها، ولما هيّأ الحفرة، دفع السلحفاة إليها بضربات من قائمته ثم طمرها.

تعيش السلاحف على الأرض وفي الماء على حدّ سواء، شأنها شأن الحيّات والضفادع. وهي تبيض بيضها على الأرض لكنها لا تحضنه؛ وبيضها (مثل بيض السمك) يَنْفَتح من ذاته، وتخرج منه سلاحف، هناك سلاحف صغيرة، ليست أكبر من صحن صغير، وسلاحف كبيرة طولها أكثر من مترين، وهي تزن نحو ثلاثمائة كيلو غراماً. هذه السلاحف الكبيرة تعيش في البحر.

في الربيع، تبيض السلحفاة مئات البيضات. قوقعتها تقوم مقام أضلاعها. لكن أضلاع الناس ، وأضلاع الحيوانات، على العموم، منفصلة. أما أضلاع السلحفاة فملتحمة. وما هو خاص بها هو أن أضلاع الحيوانات داخل الجسم، وأضلاعُها خارج الجسم، ولحمها تحت الأضلاع.

• • •

الفصل الخامس

بولكا والذئب

عندما غادرت القوقاز، كانت البلاد ما تزال في حرب، وكان السفرُ، ليلاً، بلا حراسة، مدعاة للخطر.

نويتُ أن أذهب في أبكر ساعة ممكنة، ولذلك لم أنم.

كان عندي أحدُ أصدقائي الذي أراد أن يصحبني. وقضينا الأمسية والليلَ معاً، جالسين أمام البيت الصغير الذي أسكنه.

كان القمر متوارياً بالضباب. على أننا، وإنْ لم نره، فقد كنا نستطيع القراءة، لفَرْطِ ما كان الليل مضيئاً.

نحو منتصف الليل سمعنا فجأة صرخة خنزير صغير، في فناء، على الجانب الآخر من الطريق. صاح أحدنا:

ــ هناك ذئب؛ وهو الآن يخنق جنزيراً صغيراً.

دخلت غرفتي بعجلة، وتناولت بندقيةً معبّأة، وخرجتُ أركض. كانت القرية كلها أمام باب الفناء الذي إنطلقت منه الصرخات. صاح بي الناس: «من هنا!» أسرع ملتون خلفي، وقد أيقنَ أنني إن كنتَ أخذت بندقيتي فلكي أذهب إلى الصيد. أما بولكا فقد نَصبَ أذنيه الصغيرتين. وكان يرتمي على هذه الجهة تارة، وعلى تلك تارة أخرى، وكأنه يسأل: «بمَ أتشبّث؟».

عندما وصلتُ إلى السياج، رأيت الوحش يتّجه صوبي من صدر الفناء. كان ذئباً حقاً. جرى إلى السياج واستعّد للقفز. تنّحيتُ قليلاً لأدعه يمرّ وتهيأت لإطلاق النار. وما إن إجتاز السياج بوثبةٍ، وصار في الجانب الذي كنتُ فيه، حتى صوّبت البندقية عليه، عن كثب، وشددتُ على الزناد. لكن بندقيتي كَبَتْ: «تشيك»، ولم تنطلق الرصاصة. لم يقف الذئبُ، وعبر الطريق إنطلق ملتون وبولكا في أثره. أدركه ملتون لكنه ــ وكان هذا واضحاً ــ لم يكن يجرؤ على مهاجمته؛ ولم يصل بولكا في الوقت المناسب، بالرغم من السرعة الشديدة التي حمل عليها قوائمه القصيرة. أما نحن فقد ركضنا نحو الذئب بكل قوانا، لكن الذئب والكلبين غابت عنا. وسمعنا فقط، في طرف القرية، قرب حفرة، نباحاً، وعواءً حاداً، ورأينا خلال الضباب الذي جعله القمرُ مضيئاً، الغبارَ يرتفع والكلبين يقاتلان الذئب. وعندما صرنا قرب الحفرة، لم نجد ذئباً، وعاد الكلبان إلينا وقد نصبا ذيليهما وبدت الشراسة عليهما. ولكن بولكا ينخر ويصدمني برأسه: لا ريب أنه كان يريد أن يروي لي شيئاً، لكنه لم يكن يعرف ما السبيلُ إلى ذلك.

فحصْنا الكلبين واكتشفنا جرحاً طفيفاً في رأس بولكا. لقد أدرك الذئبَ قرب الحفرة، لكنه لم يُفلح في إيقافه؛ وعضّه الذئبُ، وهو يدافع عن نفسه، ثم إنسحب مسرعاً. لم يكن الجرحُ بليغاً، ولم يكن فيه إذن ما يُنذر بالخطر.

عدنا إلى الجلوس أمام البيت الصغير، وأخذنا نعلّق على حادثة الليل. كنتُ مستاءً من أن الطلقة كانت كابيةً ولم أفكّر إلاّ في الشيء التالي: كان الذئب سيظل بالأرض لو لم تكبُ الطلقة. وكان صديقي يتساءل: كيف أمكن للذئب أن ينفذ إلى الفناء. بيّنَ قوزاقي عجوز أنْ ليس في ذلك ما هو مدهش، وأننا لم نواجهْ ذئباً، بل ساحرةً، وأن الساحرة هي التي سحرت البندقية. هذا ما كنا نتحدّث به ثلاثتنا، ونحن جالسون على عتبة الباب. وعلى حين غِرة، وثب

الكلبان، ورأينا ذئبنا في وسط الطريق. وقد هرب هذه المرة، وهو يسمع أصواتنا، بسرعة خاطفة حتى إن الكلبين لم يستطيعا أن يُدركاه

هذه المرة، إقتنع القوزاقي العجوز تماماً أن هذا االذئبَ لم يكن ذئباً، وإنما ساحرةً؛ وأنا تساءلت إن لم يكن ذئباً مسعوراً، لأنني لم أَرَ ولم أسمع في حياتي أن ذئباً طُرد من قرية مسكونة يعود إليها بمثل هذه السرعة.

واحتراساً مني، رششتُ على جرح بولكا شيئاً من البارود وأشعلتُ فيه النار. هبّ البارودُ وأحرق الجرح.

وإنما أشعلتُ النار لأحرق لعاب الذئب المسعور إن كان قد بقي منه شيءٌ لم ينفذ إلى الدم. وكنتُ على يقين أنه إن كان في الدم شيء من ذلك اللعاب فإنه ينتشر في الجسم كله مع الدم، وأنه لا شفاء ممكن حينئذٍ.

• • •

الفصل السادس

[بولكا يقع في خطر مرة أخرى][1]

عندما غادرتُ القرية القوزاقية، لم أعد إلى روسيا مباشرةً. توقفتُ أولاً في بياتيغورسك (الجبال الخمسة) وقضيت فيها شهرين. أهديتُ ملتون للقوزاقي الذي كان يصحبني في الصيد. أما بولكا فأخذته معي.

جاء إسم بياتيغورسك من أنها تقع على «بيش ــ تاوو»: خمسة في التتارية هي «بيش»-وجبل «تاوو». ومن هذا الجبل تنحدر عينٌ ساخنةٌ، كبريتية. ماؤها يغلي، وفي مسيرتها، على طول المنحدر، يطفو دائماً بخارٌ، وكأنه فوق سخّانةٍ. والمقام في المدينة وضواحيها بهجٌ جداً. العيون الساخنة تسيل من الجبل، وفي الأسفل تجري ساقيةٌ صغيرة هي «بودكوموك». وتغطي الغاباتُ الجبلَ؛ وتحيط الحقولُ بالمدينة؛ ويرى الناظر إلى الأفق البعيد قمم القوقاز الشامخة. وفي هذه الأعالي لا يذوبُ الثلجُ أبداً؛ ولذلك فهي دائماً بيضاء بياض الثلج. ولأعلى جبل، «الالبروز» شكلُ قالب السكر وبياضه. وعندما يكون الجو صاحياً، يُرى هذا الجبل من كل مكان. ويأتي الناسُ للإستشفاء في بياتيغورسك، بسبب ينابيع الماء الساخن المغطاة بسرادقات خفيفة من الخشب والقماش، ومن حواليها نُظمت الحدائقُ والطرقات. وفي كل صباح تعزف الأوركسترا، ويشرب الناسُ الماء، أو يستحمّون ويتنزّهون.

تقع المدينةُ على هضبةٍ في أسفلها ضاحيةٌ. وفي هذه الضاحية كنتُ أعيش

---

(١) العنوان الروسي هو: «ما وقع لبولكا في بياتيغورسك».

في بيت صغير، وكان البيت ضمن فناءٍ، وأمام النوافذ مكان مسور لخلايا النحل التي يملكها صاحبُ البيت. لم تكن هذه الخلايا محفورة في جذوع الشجر، كما هي الحال في روسيا، لكنها كانت مدوّرة على شكل سلال. ونحلُ هذه البلاد هادىء جداً حتى أنني كنت أقضي نهاري في هذه الأرض المسوّرة مع بولكا وسط المنحلة.

كان بولكا يتجوّل بين الخلايا، وقد اجتذبه النحل، وكان يصغي إليها وهي تدوّي، وكان يشمّ الأرض هنا، ويشمها هناك؛ كان يطوف بين الخلايا بكثير من الإحتراس حتى لا يضايق النحل، وحتى لا يلسعه النحل.

وذات صباح كنت عائداً فيه من الحمام المعدني، جلست في المكان المسوّر لأتناول قهوتي. كان بولكا يحك ما خلف أذنيه، ويرن جلاجل طوقه. وكان هذا الصوت يُزعج النحل، فنزعتُ طوقه

وبعد قليل، سمعت ضجةً غريبة، مُرعبةً. كانت خارجةً من المدينة، آتية علينا من فوق. وكلما كانت الجلبة المتدحرجة من على طول المنحدرات تقترب من ضاحيتنا، كنتُ أسمع بوضوح أكبر نباحَ الكلاب وعواءها وأنينها الشاكي، وصرخات الرجال الحادة. وكان بولكا المضطجع بجنبي قد كفّ عن حك أذنيه، فوضع رأسه العريض الأسود بين قائمتيه الأماميتين البيضاوين بياضَ أسنانه، ووجد مكاناً صالحاً للسانه.

عندما سمع الضجة، نصب أذنيه، وأبدى عن أسنانه، وهمهم. أخذت الضوضاءُ تقترب. فكأن كلاب المدينة كلها كانت تعوي وتنبح وتئن. خرجتُ لأرى ما يجري. وخرجت صاحبةُ البيت أيضاً. قلتُ لها:

ــ ما الخبر؟

قالت:

ــ أوه! هؤلاء محكومو الأشغال الشاقة في السجن يقتلون الكلاب.

لقد تكاثرت هذه الحيوانات كثيراً حتى أن الإدارة أمرت هؤلاء المحكومين أن يطوفوا المدينة ليقتلوها جميعاً.

ـ كيف، سيقتلون بولكا! إن صادفوه؟

ـ لا، لقد أُمِروا أن يتركوا الكلاب التي لها طوق.

في الوقت نفسه الذي كنتُ ألقي فيه سؤالي، مرّت الدوريّة أمام فناء المنزل: في المقدمة جنودٌ، وخلفهم أربعة محكومين، إثنان منهم مجهّزان بكلّابيْن، وإثنان ملسلّحان بهراوتين. وأمام بابنا بالذات، ضرب أحدُ المحكومين كلب حراسة صغيراً بالكلّاب، وجرّه إليه في الشارع وانهال عليه رفيقُه ضرباً. كان الكلبُ الصغير يُرسل صرخات فظيعة؛ وكان المحكومون يصرخون مثله؛ كانوا يصرخون بشيء لم أفهمه، وهم يضحكون، قَلَبَ المحكومُ الكلبَ الصغير مع الكلّاب، فلما أيقن أنه هلك، سحبَ كلّابه، وأخذ يجيل نظره في كل الاتجاهات لعله يرى كلباً آخر.

في هذه اللحظة، اندفع بولكا على المحكوم بكل سرعته، وهو خافض الرأس، كما يفعل عندما يهاجم الدببةَ.

تذكرتُ أن طوقه ليس في عنقه وصرختُ: «بولكا! هنا!»وصرختُ بالمحكومين ألا يقتلوا بولكا. لكن المحكوم الذي رآه مقبلاً إنفجر ضاحكاً. وضربه ضربةً ماهرةً بكلّابه فعلّقها بفخذه.

حاول بولكا أن يتخلّص، لكن المحكوم جرّه إليه، وقال لرفيقه: «اقتله!». لوّح الآخر بهراوته؛ وكان بولكا سيُقتل في مكانه لولا أن بولكا تخلص بمجهود عنيف: مزّق الكلّابُ جلدَ الفخذ. عبر بولكا باب السور كالقنبلة، وذيله مضموم، وفي فخذه جرح أحمر، وتوارى تحت سريري.

لم يُفلت إلاّ لأن الجلد قد ذاب في المكان الذي خَرَقه الكلّاب.

● ● ●

الفصل السابع

موت ملتون وبولكا

مات بولكا وملتون في الفترة نفسها. كان صديقي القوزاقي العجوز يستخدم ملتون بغير تمييز. وبدلاً من أن يأخذه معه لصيد الطير وحده، كان يأخذه أيضاً لصيد الخنزير البري. وفي يومٍ من أيام الخريف، بقر بطنَه خنزيرٌ بري، ولم يكن هناك مَنْ يعرف كيف يخيط الجرحَ فمات ملتون.

أما بولكا الذي أفلت من كلّاب المحكومين فلم يعش بعد ذلك طويلاً. فبعد أن نجا من براثنهم غدا شرساً وأخذ يلعق كل ما يجده، دون اختيار. ظلّ يلحس يدي، لكن لا كما كان يداعبني قديماً. كان بحاجة لأن يعضَّ، لكنه لم يشأ أن يعضّ. وعندما كنتُ أمتنع عن إعطائه يدي كان يلحس جزمتي، أو قائمة المائدة، ثم يعضّها. دام ذلك يومين. وفي اليوم الثالث اختفى، ومنذ ذلك الوقت لم يره أو يسمع عنه أحدٌ.

من المستحيل أن يخطر بالبال أنه سُرق أو أنه تركني؛ وقد عضّه الذئبُ منذ ستة أسابيع. كان لا بدّ من الاستنتاج أن ذلك الذئب كان مسعوراً حقاً. وقد انتقل الداءُ إلى بولكا فتركني. لقد أُصيب، كما يقول الصيادون بالسعر الصامت. وهذا النوع من السعر يتميّز، كما يقولون، بتشنجات عصبية في الحنجرة. الحيوانات التي تصاب به تريد أن تشرب لكنها لا تستطيع ذلك: فالماء يجعل تشنجات الحنجرة أشدّ قوةً. ويَخْبلها الألم والعطش فتأخذ

بالعضّ. والواقع أن بولكا أصيب بتشنجات منذ اللحظة التي أخذ يلحس فيها يدي ويمسكها، ويعضّ قائمة الطاولة.

جبتُ المنطقة طولاً وعرضاً، وأنا أسأل حيثما ذهبت إن كان أحدٌ قد رأى بولكا؛ لكني لم أستطع أن أكتشف أين أختبأ، ولم أعلم كيف مات. ولو أنه طاف بالطرقات يعضّ المارّة، كما تفعل الكلابُ المسعورة عادة، لأخبِرْت بذلك، فمن الطبيعي أنه هرب إلى مكان ناءٍ ومات فيه وحده. يقول الصيادون أنه إذا أصيب كلبٌ ذكيٌ بالسعر الصامت هربَ إلى الحقول أو إلى الغابات بحثاً عن نبتة ضرورية له، وأنه يتقلب على العشب، وأنه يعرف كيف يداوي نفسه. ولا بدّ من الاعتقاد أن بولكا لم يكن يستطيع أن يشفى. لم يعد أبداً، واختفى إلى الأبد.

التدرج

(وصف)

يُسمّى الدجاج البري، في القوقاز، تدرجاً. وهو من الكثرة هناك بحيث أنه يباع بأرخص من ثمن الدجاج البيتي. ويُصاد التدريجُ بالحمّالة أو بالكمين أو بكلب التربّص.

وإليك طريقة الصيد بالحمّالة. تُمدّ قماشة فوق إطار؛ وتركَب على الاطار عارضة من الخشب؛ وتترك فتحة في الوسط. يتجهز الصياد بآلة الصيد هذه، ويخرج من الغابة، عند الفجر، وبندقيته بيده. أنه يحمل الحمّالة قدّامه، ويراقب التدرج من الفتحةِ. فعند طلوع الشمس، يرعى التدرج في فرجات الغابات، الفقسة كلها حيناً، الفرخة وصغارها، وحيناً آخر الذكر والأنثى، وفي بعض الأحيان بض الذكور معاً. ولا يرى التدرجُ الصيادَ؛ ذلك أن الإطار الذي مُدّتْ عليه القماشة لا تثير قلقه. فهو يدعه يقترب. ويثبت الصياد الحمالة في

الأرض، ويمرّر قصبة البندقية من الفتحة، ويطلق النار على ما اختار من هذه الطيور.

أما الصيدُ بالكمين فإليك الطريقة التي يُمارَس بها. يُطلق في الغابة كلب حراسة صغير، يتبعه الصياد. وعندما يعثر هذا الكلب تلى تدرجة يندفع إليها. فيطير الطائر إلى شجرة ويأخذ الكلبُ الصغير بالنباح. ويتنبّه الصياد فيستجيب لنداء الكلب ويرمي الطائر وهو على الشجرة. وهذا الصيد سهلٌ إذا حطّ الطائر على غصن بارز للنظر ومكشوف. لكن التدرج يختار دائماً الأشجار الملتفة في الأدغال الكثيفة ليحطّ عليها؛ وما أن يرى الصياد حتى يختبىء وراء الأغصان؛ ومن العسير، في معظم الأحيان، اختراقُ الحُرجات لبلوغ الشجرة التي حطّ عليها الطائر، ومن الصعب رؤيته. وعندما يكون الكلبُ وحده، لا يخيف نباحه الطائر الذي يظلّ على الغصن، مضطرباً، خفّاقاً بجناحيه لكن ما إن يرى الصياد حتى يتكوّم على طول الغصن، والصياد المجرب وحده ينجح في اكتشافه. ومن لم تكن عينه مجرّبةً فلن يميز شيئاً، وإن كان شديد القرب من الطائر.

وعندما ينسل القوزاق بخطا خفيّةٍ ليقتربوا من التدرج فإنهم يغرقون رؤوسهم بقبعاتهم ولا يرفعون عيونهم أبداً، لأن التدرج إذا كان يخاف الانسانَ المسلّح ببندقية، فهو يخاف عينيه، على الخصوص.

وإليكَ طريقة الصيد بكلب التربّص. يمشي الصياد خلف الكلب، في الغابة، وشمُّ الكلب ينبىء ذلك الصياد بالمكان الذي درج ورعى فيه التدرج عند مطلع الفجر، ثم يبدأ الكلب بتعقب أثره. ولا يستطيع التدرج أن يشوّشه، فالكلب الجيد الشم سيعثر أثره. ولا يستطيع التدرّج أن يشوّشه، فالكلب الجيد الشم سيعثر دائماً على آخر أثر له، وهو الأثر الذي يدل على المكان الذي انطلق منه التدرج بعد أن أكل. وكلما سار الكلب في اقتفاء هذا الأثر اشتد إحساسه بريح الطريدة، ويصل بهذه الطريقة إلى الموضع الذي يختبىء ويَدْرجُ فيه

التدرج، أثناء النهار. وعندما يقترب من هذا الموضع، يبدو له أن الطائر هنا، تحت أنفه، فيمشي بحذرٍ متزايد لكي يرعبه وهو يتربّص قبل أن يثب ليمسك به. وما إن يثب كلبُ التربّص عليه حتى يطير التدرج، فيطلق الصياد النار عليه.

الطيور في الشرك

(مثل)

نَصبَ صيادٌ حبائله قرب بحيرة، واصطاد كثيراً من الطيور. كانت طيوراً كبيرة حملت الحبالة وطارت بها. ركض الصياد خلفها. رآه فلاحٌ يركض فقال له:

ــ إلى أين تركض هكذا؟ أتعتقد أنك تستطيع أن تلحق بالطير وأنت على قدميك؟

أجاب الصياد:

ــ لو كان طيراً واحداً لما لحقتُ به. لكني سأنجح هذه المرة.

وهذا ما كان. فعندما جاء المساء، أخذت الطيور تشدّ كلّ من جهته، كلّ أراد أن يلْقى عشه: هذا نحو الغابة، وذاك نحو المستنقع، والثالث نحو الحقل، فوقعت جميعاً مع الحبالة: والتقطها الصياد.

الشم

(موضوع للمحادثة)

الإنسان يرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويشم بأنفه، ويذوق بلسانه ويلمس بأصابعه. وربّ إنسان صحيح العينين، وآخر أقل صحة. ورب إنسان يسمع من بعيد، وآخر أصم لا يسمع. وقد تكون حاسة الشم عند أحدهم أعظم نموًّا منها عند غيره؛ فيشم الروائح من بعيد في حين أن الآخر لو وضع أنفه على بيضة عفنة لما شم شيئاً. وهذا يعرف جميع أنواع المواد من لَمْسه لها فقط، وذاك غير

قادر، فلا يميز بين الخشبة والورقة. وربَّ امرىءٍ لا يكاد يرفع إلى فمه شيئاً حلواً حتى يحس بمذاقه، ورب آخر يزدردُ ولا يميز المر من الحلو.

والحواسّ عند الحيوانات أيضاً يتراوح نموّها قلةً وكثرة، بحسب الأنواع. لكن حاسة الشم، عند جميع الأنواع، أقوى منها عند الإنسان.

إذا أراد إنسانٌ أن يتبيّن ما الشيء، فهو ينظر إليه، ويسمع الصوت الذي يصدر عنه، وقد يشمه ويذوقه. لكن الإنسان بحاجة، قبل كل شيء، إلى أن يلمس الشيء الذي يريد معرفته، في حين أن المهم، بالنسبة إلى الحيوانات، بالنسبة إليها جميعاً تقريباً، المهم هو أن تشم. فالحصان والذئب والكلب والبقرة والدب لا تعرف شيئاً إذا لم تشمّه. فالحصانُ والذئب والكلب والبقرة والدب لا تعرف شيئاً إذا لم تشمّه.

عندما يخاف الحصانُ يُحمحم: ذلك أنه ينظّف منخريه ليحسن الشمَّ؛ سيظلُّ خائفاً ما لم يشمّ ما خوّفه.

الكلبُ يتبع صاحبه غالباً باقتفاء أثره؛ لكنه عندما يشاهده يخاف، ولا يعرفه؛ وسينبح ما لم يشم ويعرف أن ما بدا له مرعباً إنما هو صاحبه نفسه.

البقرُ يرى البقر يُذبح أمام عينيه، ويسمع خواره في المسلخ، ويظلّ غير فاهم لما يجري. لكن ليَعْثُرْ ثورٌ أو بقرةٌ على دم ثور في مكان ما وليشمّا الدمَ، فإنهما سيفهمان؛ سيضربان الأرض باليد وسيأبيان مغادرة المكان.

ذهب شيخٌ مرضتْ امرأته ليحلب البقرةَ بنفسه. نفختْ بضجة، وعرفتْ أن الذي يحلبها ليس المزارعة، فلم تَدرَّ حليباً. نصحت المرأة زوجها أن يرتدي معطف الفرو، وأن يضع على رأسه الخمار الذي تضعه عادةً، فدرّت البقرة الحليب. لكن العجوز حل معطفه؛ فشمّته البقرة وامتنعت عن الدرّ.

الكلابُ المطارِدة عندما تقتفي أثر حيوان، لا تركض أبداً على الأثر نفسه، بل بجنبه، على عشرين خطوة منه. وإذا شاء صيادٌ غِرٌّ أن يضع الكلب على الأثر

نفسه وأن يجبره على شم الأثر نفسه، خالفه الكلبُ ووثب إلى جانبه فريح هذا الأثر قوية جداً. بالنسبة إليه، حتى أنه لا يميز شيئاً ولا يعلم إن كان الحيوان قد أسرع إلى الأمام أو إلى الوراء. إنه يحيد عن الأثر وهو يركض، وفي هذه الحالة فقط يشم في أية جهة تكون ريح الحيوان أشد، فيتابعه، إنه يفعل ما نفعله نحن عندما يصرخ أحدهُم في أذننا: ونبتعد فنفهم عن بعدٍ فقط ما يقوله لنا؛ أو عندما يكون ما نفحصه قريباً جداً. فنبتعد عنه، وحينئذٍ فقط نراه جيداً.

تعرف الكلابُ بعضُها بعضاً ويُعيّن بعضها بعضاً بالرائحة.

وأرهف من حاسة الشم هذه حاسة الشم عند الحشرات. إن النحلة تطير مباشرة إلى الزهرة التي تلزمها؛ والدودة تزحف إلى الورقة التي تعرفها؛ والبقّة والبرغوث والبعوضة تشم الإنسان على بعد مئات الآلاف من قدم البقّة.

إذا كانت الجزئيات التي تنبعث من الأشياء وتقع في أنوفنا صغيرة، فكم ينبغي أن تكون صغيرة تلك الجزئيات التي تصيب حاسة شم الحشرات.

الكلاب والطاهي

(مثل)

كان طاهٍ يَعُدُّ الغداء؛ كانت الكلاب مضطجعةً عند باب المطبخ. ذبح الطاهي عجلاً ورمى أحشاءه في الفناء. تلقّفته الكلاب وأكلته وقالت: إنه لطاهٍ ماهر، إنه يُحسن الطبخ.

بعد مدة من ذلك، كان الطاهي يَقْصم حمّصاً، ويقشر بصلاً وفجلاً، رمى الفضلات إلى الخارج. فتهافتت الكلابُ عليها؛ ثم شمرت أنوفها وقالت:

ــ لقد ساء صنيعُ طاهينا. كان، من قبل، يحسن الطبخ؛ أما الآن فلا خير فيه.

لكن الطاهي لم يُصغ إلى الكلاب وصنع طعامه كما يهوى. أسياده هم الذين كانوا يأكلونه ويقدّرونه، لا الكلاب.

تأسيس روما[1]

(حكاية تاريخية)

كان لملكٍ ولدان: «نوميتور» و «آموليوس»، عندما حضرتْهُ الوفاة قال لهما:

ــ كيف تريدان أن تقتسما إرثي بينكما؟ مَنْ منكما يأخذ المملكة، ومن يأخذ ثرواتي كلها؟

أخذ «نوميتور» المملكة، وأخذ «آموليوس» الثروات. وعندا أخذ آموليوس الثروات حسد أخاه لأن أخاه غدا ملكاً، ووزّع الهدايا على الجنود، محاولاً أن يقنعهم بطرد «نوميتور» وباختياره، هو، ملكاً.

كان لنوميتور ابنة. رُزقت هذه الابنة صبيين توأمين. وكان كلاهما قوياً وجميلاً.

كان آموليوس يخشى أن يتعلق الشعب بالتوأمين عندما يكبران وأن يختارهما ملكين. فاستدعى خادمَه «فوستينوس» وقال له:

ــ خذ هذين الصبيين والقِ بهما في النهر.

كان النهر هو التيبر، وضع فوستينوس الصبيين في سرير، وحملهما إلى ضفة النهر، ووضعهما هناك. وكان يعتقد أنهما سيموتان وحدهما هنا؛ لكن التيبر فاض على الضفة، ورفع السرير، وحمله، وتركه عند كعب شجرة كبيرة. وفي الليل، أقبلت ذئبة وغذّت بحليبها التوأمين.

كبر الصبيّان وأصبحا جميلين قويين. وكانا يعيشان في الغابة، غير بعيدين عن المدينة التي يعيش فيها آموليوس؛ وقد تعلّما كيف يقتلان الحيوانات المفترسة، وكانا يقتاتان بلحمها. عرفهما الشعب وأحبهما من أجل جمالهما؛

---

(١) أسست روما سنة ٧٥٤ قبل الميلاد.

وسمّى أحدهما «رومولوس»، والآخر «ريموس».

وذات يوم، تخاصم رُعاة نوميتور وآموليوس الذين كانوا يحرسون قطعانهما غيرَ بعيد عن الغابة، فطردَ رعاةُ آموليوس قطعان نوميتور. رأى التوأمان ما جرى، فلحقا بالرعاة، وأدركاهم وانتزعا القطيع.

استشاط رعاةُ نوميتور غضباً على التوأمين، واختاروا لحظة غاب فيها رومولوس، ووضعوا يدهم على ريموس، وأتوا به إلى المدينة، وقالوا لنوميتور:

ـ ظهر في الغابة أخوان يخطفان الماشية ويعيشان على النَّهْب. وها نحن قد أمسكنا واحداً منهما وجئنا به.

أمر نوميتور بأن يُقاد ريموس إلى آموليوس. فقال آموليوس:

ـ إنما أهينَ رعاة أخي؛ فليكنْ أخي هو الحكم.

وأعيد ريموس إلى نوميتور. فأمر نوميتور بإحضاره وسأله:

ـ مِنْ أين أنتَ، ومَنْ أنتَ؟

أجاب ريموس:

ـ نحن أخوان؛ عندما كنّا صغيرين حملنا في سرير إلى قرب شجرة؛ على ضفة التيبر؛ وهناك غذّتنا الحيوانات البريّة والطيورُ. وهناك كبرنا. أما أن نعرف من نحن، فقد بقي لنا سريرنا، وهو مزيّن بشرائط من النحاس كتب عليها شيءٌ ما.

دهش نوميتور وقال في نفسه: «لعلهما حفيداي». احتفظ بريموس عنده وأرسل مَنْ يُحضر فوستينوس، لكي يستجوبه.

في هذه الأثناء، كان رومولوس يبحث عن أخيه فلا يجده. وعندما روى له الرعاة أنه اقتيد إلى المدينة حمل معه السرير وذهب ليلحق بريموس. عَرفَ فوستينوس السريرَ من النظرة الأولى، وقال للشعب إنهما حفيدا نوميتور، وأن

آموليوس أراد أن يغرقهما. حينئذٍ ثار غضب الشعب على آموليوس وقتله واختار رومولوس وريموس ملكين. لكن رومولوس وريموس لم يشاءا أن يعيشا في هذه المدينة، فتركا نوميتور، جدهما، فيها، ليحكمها. أما هما، فقد عادا إلى الشجرة، قرب التيبر، إلى المكان الذي غذتهما فيه الذئبة بحليبها، وبَنيا مدينة جديدة هي روما.

لا بد للحقيقة أن تنكشف

(قصة حقيقية)

كان في قرية فلاديمير تاجرٌ شابٌ، يُدعى آكسيونوف، يملك دكانين وبيتاً. كان فتى جميلاً ذا شعر أشقر مجعد. وكان حلو الغناء ولا همّ له إلاّ اللهو. وكان في شبابه سكّيراً، سريع التهيّج، كثير الصخب إذا شرب. فلما تزوج ترك الشراب. وكان يقع له، مع ذلك، أن يسوء طبعه، لكن ذلك كان نادراً.

وفي ذات يوم من أيام الصيف، كان هذا التاجر الشاب يستعدّ للذهاب إلى سوق المعرض. كان يودّع أسرته فإذا بامرأته تقول له:

ــ إيفان، لا تذهب إلى السوق هذه المرة. لقد رأيتك، هذه الليلة، في الحلم؛ كان حلماً مزعجاً، صدّقْني.

قال إيفان وهو يضحك:

ــ أعرفُ مقصدكِ: أنت تخافين أن أسرفَ في اللهو هناك.

أجابت:

ــ لا أدري ما الذي يُخيفني بالضبط. لقد ظهرتَ لي في الحلم. كنتَ خارجاً من المدينة، وقد رفعتَ قبعتك ورأيت رأسك: كان أشيب تماماً. وهذا نذير شؤم.

ضحك إيفان ما وسعه الضحك. وقال:

ـ هذه بشارة بالربح. ستكون الأعمال رابحة، وسأحمل إليكم جميعاً هدايا جميلة. ستَرَيْن ذلك!

قال هذه الكلمات، واستأذن وانصرف. عندما قطع نصف الطريق التقى تاجراً من معارفه. فقرّرا أن يقضيا الليل في المنزل. وبعد أن أكلا وشربا كما يحلو لهما، ناما في غرفتين متجاورتين. ولم يكن اكسيونوف مُسرفاً في النوم، فاستيقظ في منتصف الليل، وأيقظ الحوذيَّ الذي جاء به، وأمره بربط الجواد. وفتش عن صاحب النزل في المطبخ، وفي الفناء، وصفّى حسابه، وسافر. سار أربعين فرسخاً وتوقّف في محطة الأبدال ليُطعم الجواد ويستريح. ولما حانت ساعة الغداء، جلس عند مطلع الدرج وأمر بتقديم الطعام. وأثناء انتظاره للغداء، تناول قيثارته وأخذ يعزف. وفجأة دوّت أصواتُ الجلاجل. لا شك أنه كان موظفاً مسافراً. ودخلت الفناءَ عربة تجرها جيادٌ ثلاثةٌ، ونزل منها شخصٌ يصحبه جنديان. اقترب وسأل:

ـ مَنْ أنتَ، ومن أين جئتَ؟

أجاب آكسيونوف بدقة عن جميع الأسئلة. وقال:

ـ والآن، أتريد أن تتناول الشاي معي؟

لم يكفّ الموظفُ عن استجوابه.

ـ أين قضيتَ ليلة البارحة؟ أكنتَ وحدكَ أم مع تاجر آخر؟ هل رأيتَه هذا الصباح؟ لم سافرتَ مبكراً جداً؟

لمَ كان يُلقي عليه كلَّ هذه الأسئلة؟ لم يكن آكسيونوف يفهم شيئاً من ذلك. ولم يقل سوى الحقيقة كما هي.

ـ لمَ هذا الاستجواب؟ لستُ سارقاً ولا قاتلاً. لم هذه الأسئلة، يا ترى؟

دعا الموظفُ الجنديين، وقال:

ـ أنا من الشرطة، وإذا كنتُ استجوبكَ فذلك أن التاجر جاركَ في

الغرفة، قد قُتل، في هذه الليلة بالذات. هيّا، أرني متاعكَ. وأنتما، أفرغا جيوبه.

دخل الجميع الغرفة التي كانت فيها حقيبة آكسيونوف وكيسه. فتح المتاعُ وفُتّش كل شيء. وفجأةً، أخرجَ ضابِطُ الشرطة من الكيس سكيناً وقال بصوت خشنٍ:

ـ لِمنْ هذا السكّين؟ انظرْ!

دنا آكسيونوف: كان السكين الذي أخرجَ من كيسه ملطّخاً بالدم؛ فخاف خوفاً عظيماً.

ـ وهذا الدم، كيف تفسّره؟

ودّ آكسيونوف لو يجيب. فلم يَزدْ على أن تلجلج:

ـ أنا... أنا لا أدري... أنا... هذا السكين... ليس لي.

قال الضابط:

ـ في هذا الصباح، وُجد التاجرُ، على فراشه، مذبوحاً! لا أحد غيرك يمكن أن يقدم على هذه الفعلة، كان بابُ النزل مغلقاً من الداخل، ولم يكن فيه غيرك. وقد وجدتُ سكّيناً ملطّخاً بالدم في كيسك، ثم يكفي أن ينظر المرءُ إليك! هيّا، تكلّمْ، كيف قتلتَه؟ كم كان المال الذي سرقتَه؟

أقسم آكسيونوف أنه لم يفعل ذلك، وأنه لم ير التاجر بعد أن شربا وأكلا معاً، وأن ثمانية آلاف الروبل التي كانت معه هي له، وأن السكين ليس له. لكن صوته خانه، وشحب وجهُه؛ وكان يرتجف بجسمه كله، وكأنه مذنبٌ حقاً.

أمر الضابطُ بتقييده، وبسوقه إلى العربة. فأُلقيَ فيها، ورجلاه مقيّدتان، مثل سفط.

رسم آكسيونوف علامة الصليب وبكى.

أخذَ من آكسيونوف كل ما معه: المال، طبعاً، والمتاع. وسيقَ إلى

المدينة المجاورة، ووُضع في السجن. وفي مدينة فلاديمير مسقط رأسه، أجريَ التحقيقُ. كانت الشهاداتُ مجمعةً. الجميعُ، السكان العاديون، والتجار كانوا متفقين بشأن آكسيونوف: هذا السكير، المحبّ للذات، كان رجلاً طيّباً. وعندما انتهى التحقيق، حُكِمَ عليه لقتله تاجراً من ريازان، ولسرقته عشرين ألف روبل.

كانت زوجة آكسيونوف في أسى شديد. لم تكد تدري ما الرأي الذي ينبغي أن يكون لها إزاء ذلك كله. كان أولادها صغاراً، وبينهم واحد ما تزال ترضعه. ومن المستحيل تركهم وحدهم، حتى الكبار منهم. فذهبت مع جميع أولادها إلى المدينة، حيث السجن. لم يُسمح لها بدخول السجن، في أول الأمر. ثم توجّهت إلى إدارة السجن وحصلت على الإذن بالدخول. واقتيدت إلى زوجها. وعندما شاهدته في ثياب السجناء، بين اللصوص والقتلة، والحديد في رجليه ويديه، فقدت وعيها؛ ولم تثب إلى رشدها إلاّ بعد مدة، جلست قرب السجين، يُحيط بها أولادُها، وأخذت تقص عليه شؤون المنزل كلها، وتسأله عن كل ما وقع، فشرح لها كل شيء. قالت له:

ــ مال العمل؟

قال:

ــ يجب أن نتوجّه إلى الامبراطور. أنا بريء وأهْلِك! هذا غير ممكن.

قالت:

ــ لقد فعلت ذلك؛ لكن العريضة لم تصل إليه بعد.

أطرق آكسيونوف رأسه ولم يقل كلمة، قالت:

ــ كان حلمي إذن صحيحاً، كما ترى: أنت الذي رأيت رأسه أشيب، وها أن شعرك قد ابيضّ من الغمّ. آه! كان الأفضل لو بقيت في البيت! كانت تداعب شعره وهي تقول:

ـ إيفان، يا صاحبي، أنا امرأتك؛ قلْ لي الحقيقة: أأنت فعلت تلك الفعلة؟

قال لها آكسيونوف:

ـ حتى أنتِ شككتِ بـي!

وخبّأ وجهه في يديه وبكى. دخل جنديٌّ: كان ينبغي أن يفترقا. ودّع آكسيونوف زوجه وأولاده آخر وداع.

بعد أن بقي آكسيونوف وحده، استعاد في ذهنه كل ما قيل أثناء الزيارة. فكّر في شكّ امرأته فيه، ذلك لأنها شكت فيه: ألم تسأله إن كان هو القاتل؟ وقال في نفسه: «طبعاً لا يمكن لأحد، ما عدا الله، أن يعرف الحقيقة. هو وحده الذي يجب أن أضرع إليه، ومنه وحده يجدر بـي أن أنتظر العفو».

منذ هذا اليوم، لم يرسل آكسيونوف التماساً إلى الامبراطور؛ لقد فقد كلّ أمل. اكتفى بالصلاة لله.

حُكم آكسيونوف بالجَلْد وبالأشغال الشاقة. وبالفعل فقد جلد ثم لما التأمت جراحُه، أرسل إلى سجن الأشغال الشاقة مع مسجونين آخرين. وظل فيه ستاً وعشرين سنة.

ابيض شعره وغدا كالثلج. وكانت له لحيةٌ طويلةٌ رمادية، غير عريضة. وقد اختفى مرحُه كله. وكان يمشي مقوّس الظهر، بطيئاً، دون ضوضاء، ودون أن يتكلم أو يضحك؛ وكان في الغالب يصلّي.

تعلّم آكسيونوف، في السجن، صناعة الأحذية. وكان هذا يدرّ عليه بعض المال. واشترى «حياة القديسين»، وكان يقرأ فيه إذا كان النور كافياً. وكان يتردد على الكنيسة أيام الأعياد. وكان هو الذي يقرأ «الرسائل» ويرتّل في القدّاس لقد ظلّ صوته جميلاً. وكانت الإدارة تقدّر هدوءه. أما رفاقه من السجناء فكانوا ينعتونه بالجَدّ، أو يقولون عنه: أنه قدّيس. وإن كان هناك

عريضةٌ تقدَّم فقد كان هو الذي ينتدب لذلك، وإن نشبَ خصامٌ بين السجناء، فلتحكيمه يخضعون.

لم يكن آكسيونوف يتلقى رسائل من بيته. أما تزال امرأته وأولاده أحياء؟ أنه لا يعلم شيئاً من ذلك.

وذات يوم، وصلت قافلة من المحكومين بالأشغال الشاقة إلى السجن. وعند المساء التفّ السجناءُ القدماء حول الجدد وأخذوا يسألونهم.

ــ وأنت، مَنْ أنت؟ ومن أية مدينة، وأية قرية؟ وماذا فعلت لتكون هنا؟

كان آكسيونوف هنا، مطرقاً رأسه. كان يصغي إلى الأسئلة والأجوبة كان أحدُ الوافدين الجُدد رجلاً مديد القامة، ما يزال نضراً بالرغم من الستّين، وبالرغم من لحيته المقصوصة التي دبّ فيها الشيب. روى هذا الرجل لمَ أوقِف:

ــ الحقيقة، يا أصحابـي، أنني أوقفت لسبب حقير. ففككت حصاناً كان يخب وراء الزلاجة التي ربطه بها صاحبه ليوصله إلى البيت.

أوقفوني متلبّساً بالجرم وزعموا أنني أردت سرقة الحيوان. قلتُ لهم: «أما أني فككت الحصانَ، فهذا صحيح؛ لكن ما لكم؟ لم أشأ أن أسرقه. أردتُ فقط أن أستعجل العودة إلى البيت. ثم، إن صاحب الحصان صديقٌ لي. ما أسخف هذه القصة!» ــ «لقد سرقت، وهذه هي القصة كلها» أن أسرق ممكن. لكن. ماذا؟ وأين؟ ومتى؟ من كان يعلم ذلك؟ نعم كانت لي قصص ذات شأن، وكان ينبغي أن أكون هنا منذ زمن بعيد، لكنهم لم يكونوا على درجة كافية من المهارة ليقبضوا عليّ، إن كنتُ هنا، هذه المرة، فليس عدلاً! نعم، أنا في السجن، لكن، لا تقلقوا، لن تروني فيه طويلاً.

قال أحدُ المحكومين:

ــ من أين أنت؟

ـ أنا من «فلاديمير» واسمي ماكار.

رفع آكسيونوف رأسه.

ـ هل سمعتَ بآل آكسيونوف، تجار المدينة؟ أما يزالون أحياء؟

ـ تسألني عنهم! فمع أن الأب حُكم بالأشغال الشاقة، إلاّ أنّ هذا لم يمنع أولاده من أن يكونوا تجاراً كباراً. ولا ريب أن أباهم شخصٌ من نوعنا. وقد ماتت الأم، وأنت أيها العجوز، لم أنتَ هنا؟

لم يكن آكسيونوف يجب أن يروي مصائبه. تنهّد وقال:

ـ لماذا؟ بسبب ذنوبي، من دون شك، منذ ست وعشرين سنة.

أصرّ ماكار:

ـ ذنوبك؟ وما ذنوبك؟

ـ لا ريب أن ذنوبي تساوي عقابي.

لم يشأ آكسيونوف أن يزيد شيئاً على ذلك. لكن الآخرين حدّثوا الوافد الجديد كيف أصبح محكوماً بالأشغال الشاقة. لقد قتل أحدهُم تاجراً بقصد سوق المعرض، ووضع في كيسه سكيناً دون أن يفطن لذلك. فحكم ظلماً.

ضرب ماكار فخذيه بيديه وهو ينظر إلى آكسيونوف.

ـ ما هذه الحادثة الغريبة! أنها لقصة مثيرة! يجب الاعتراف بأنك فقدت شبابك، أيها الجَدّ!

ضيّق عليه الآخرون بالأسئلة: لم مَظْهرُ الدهشة هذا؟ وأين عساه رأى آكسيونوف؟ لم يجبْ ماكار. لكنه قال فقط.

ـ هذا لا يُصدق، يا أولاد! أن يكون اللقاء، مع ذلك، هنا!

تساءل آكسيونوف إن كان ماكار لا يعرف القاتل.

ـ ماكار، هل سمعتَ عن هذه القضية، فيما مضى من الزمن؟ هل رأيتني من قبل؟

ـ كيف لم أسمع بها الناس يتحدثون عن كل شيء؛ كلٌ شيء يعرف. لكن ذلك كله قديم. وما سمعتُ الناس يروونه قد نسيتُه.

ـ ربما قيل لكَ مَنْ كان القاتل؟

أجاب ماكار ضاحكاً.

ـ القاتل هو الذي كان السكينُ في كيسه. ولنفرض أن أحدهم قد دسّ ذلك السكين في الكيس. فمَنْ ذا الذي رأى ذلك؟ وكيف كان يمكن أن يُفْعل ذلك على غير علم منه؟ لا شك أن كيسك كان عند رأسك، أليس صحيحاً؟ ولا بد لك أن تسمع حينئذٍ.

عندما سمع آكسيونوف هذه الكلمات قال في نفسه أن هذا الرجل هو الذي قتل التاجر. فنهض وابتعد. لم يستطع النوم في هذه الليلة. إستبد به الغمُّ. رأى كثيراً من الأشياء تمر أمام عينيه. ها هي ذي امرأته تودّعه. سيذهب إلى السوق. إنها هنا، حية، أمامه. إنه يرى وجهها، وعينيها، ويسمعُها تتكلم، ويسمع ضحكتها. ثم ها هم أولاده، كما كانوا آنذاك، صغاراً، أكبرهم في معطفه، وأصغرهم في ذراعي أمه. ورأى نفسه شاباً، مرحاً، جالساً على مطلع درج النزل حيث سيتوقف، يَعْزف على القيثار. آه! ما كان أسعده. . . إنه يرى مكان العقاب، يرى الجلادَ، والجمهور الذي أحاط بالمحكومين الذين إستعدوا للسفر؛ رأى نفسه مقيّداً، رأى مرة أخرى ستاً وعشرين سنة من السجن؛ إنه يفكّر بأيام شيخوخته، فيزداد غمُّه: آه! ليته يستطيع أن يموت!

«وكل ذلك من جرّاء هذا الشقي!».

وتملّكه غضبٌ عارم أحسّ معه أنه مستعدٌ للتضحية بكل شيء، حتى بحياته، من أجل أن يروي ظمأه إلى الإنتقام. وصلى سائر الليل، لكنه لم يجد طعمَ الراحة. وفي اليوم التالي تحاشى لقاء ماكار، بل إنه تحاشى النظر إليه.

مرّ على ذلك خمسة عشر يوماً. في الليل لم يستطع آكسيونوف النوم،

وغدا فريسةً للغم حتى إنه لم يعرف ماذا يصنع بنفسه.

وذات ليلة قام فيها يتجول في السجن، سمع ضجةً خفيفةً تحت أحد الأسرة، كان التراب يسقط. توقف ليرى ما يجري. وإذا بماكار أمامه، زائغ العينين. أراد آكسيونوف أن يتجاوزه دون أن يقف. لكن ماكار أمسكه من ذراعه وأخذ يشرح له كيف إنه كان يصنع ثقباً تحت الجدار وكيف أنه كان يحمل كل يوم الحطام الذي يخفيه في جزمته ويتخلّص منه عندما يخرج للسخرة. وأضاف.

ـ لا تفه بكلمة، أيها الأب العجوز، ستخرج من هنا مثلي. إذا ثرثرت جُلدتُ أنا؛ أما أنت فلن أخطئك، سوف أقتلك.

إرتعد آكسيونوف من الغضب لدى مرآة جلاّدَه. فخلّص ذراعه وقال.

ـ أَخرجُ من هنا؟ أَهرب؟ ولماذا؟ أمّا أن تقتلني مرةً ثانية فأنا أتحدّاك: لقد قتلتَني منذ زمن بعيد. وأُخبرُ عنك أو لا أخبر عنك: سنرى ذلك. سأفعل بحسب ما يُمليه الله على قلبـي.

في اليوم التالي فاجأ الجنودُ الذين يسوقون المحكومين إلى السخرة ماكار في اللحظة التي يُفرغ فيها جزمته. وقاموا بالتفتيش في السجن ووجدوا الثقب. توجّه المدير إلى موضع الحادثة وبدأ التحقيق. مَنْ كان المذنب؟ الجميع أنكروا، ولم يشِ أحد بماكار، لأن الجميع كانوا يعلمون أن العقاب، في مثل هذه الحالة هو الجلد وأن المجلود يخرج من هذا القصاص نصفَ ميت. حينئذٍ إلتفت المديرُ إلى آكسيونوف الذي كان يعرف إستقامته، وقال له:

قلْ لي، أيها العجوز، من عملَ هذا الثقب؟ نحن نعرفك، أنت لا تكذب. قلْ الحقيقة وكأنك تتكلم أمام الله.

كان ماكار واقفاً أمام المدير لا يرفع بصره عنه؛ وكأن ذلك كله لا يَعْنيه. ولم يُلق نظره على آكسيونوف. إرتجفت يدا آكسيونوف وشفتاه. وظلّ مدةً

لا يستطيع فيها الكلام. كان يقول في نفسه: «أأسكتُ؟ سكوتي إنقاذٌ له. ولمَ أصفح عمّنْ أهلكني؟ ليدفعْ ثمن الآلام التي عانيتُها! أأخبرُ عنه، بطبيعة الحال سيجلدونه جلداً شديداً. وإذا لم يكن هو القاتل، وإذا كنت مخطئاً؟ أأكون أسعد إذا عوقبَ؟ إذا عوقبَ؟».

أعاد المديرُ طرح السؤال:

ـ هيّا، أيها العجوز، قُلْ الحقيقة: مَنْ عمل الثقبَ؟

أجاب آكسيونوف وهو ينظر إلى ماكار:

ـ لم أر شيئاً، ولا أعلم شيئاً.

ولم يستطع مديرُ السجن أن يعرف شيئاً.

في الليلة التالية، كان آكسيونوف يوشك أن ينام، عندما سمع أحدهم يقترب. أحسّ به يجلس عند قائمة السرير وتعرّف «ماكار» بالرغم من الظلمة. قال له:

ماذا يلزمكَ أيضاً؟ ماذا تفعل هنا؟

لم يجب ماكار. انتصب آكسيونوف:

ـ ماذا تَبْغي مني؟ إنصرفْ وإلاّ ناديتُ الحارس.

إنحنى ماكار وعندما صار قريباً جداً من أذنه قال له:

ـ إيفان، إصفحْ عني!

ـ أَصفحُ عنك؟ فيمَ أصفح عنك؟

ـ أنا قاتلُ التاجر، أنا وضعتُ السكين في الكيس، وقد كنتُ أنوي قتلك، كما قتلتُ الآخر. لكني سمعتُ ضجةً في الخارج، فدسستُ السكين في كيسك، وخرجتُ من النافذة.

عقد الصمتُ لسان آكسيونوف. لم يجد ما يقوله. ترك ماكار السرير، وجثا فلامس الأرض بجبينه، وكرّر:

ـ إيفان، إصفحْ عني، إصفحْ عني، حُبّاً بالله! سأصرّح بأنني أنا الذي قتل التاجر، وسوف يُعْفى عنك، وستعود إلى بيتك.

قال له آكسيونوف حينئذٍ:

ـ كل ذلك يسهلُ قوله! لكن كم ستكون آلامي عظيمة؟

أين أذهبُ في هذه الساعة؟... امرأتي ميتةٌ. وأولادي نسوني؛ فأين عساني أذهب؟ لا مكان لي...

ظل ماكار جاثياً، يصدم الأرض بجبينه ويقول:

ـ إيفان، إصفح! توجعتُ تحت وقع السياط أقل مما أتوجع، أقل مما أتوجع الآن، أمامك.. إصفحْ عني، بإسم المسيح! إصفح الآن، أمامك... إصفحْ عني، باسم المسيح! إصفح عني أنا الشقي!

وأخذ ينتحب. وعندما سمعه آكسيونوف يبكي، بكى بدوره:

ـ الله هو الذي يصفح عنك. ربما كنتُ أسوأً منك، مائة مرة أسوأ منك.

بعد أن قال آكسيونوف هذا أحسّ بغمّ قلبه يتناقص. لم يشأ آكسيونوف أن يترك السجن. وكفّ عن التفكير بمدينته. ولم يكن يفكّر إلاّ بشيء واحد: بساعته الأخيرة.

لم يُصغِ ماكار إليه: صرّح بأنه هو القاتل. لكن عندما جاء الأمرُ بإطلاق سراح آكسيونوف وبإعادته إلى بيته، كان آكسيونوف ميتاً.

البلورات

(موضوع للمحادثة)

إذا سكبنا الملحَ في الماء قليلاً وحرّكناه، فإنه يبدأُ بالذوبان ثم يذوب في الماء إلى الحدّ الذي لا نرى بعده ملحاً على الإطلاق. لكنا إذا أضفنا ملحاً ثم أضفنا فإنه يكف، في النهاية، عن الذوبان، ومهما حرّكنا فسوف يبقى في الماء

غبارٌ أبيض. ذلك أن الماءَ أشبع بالملح ولا يستطيع أن يقبل مزيداً منه. لكنا لو سخّنا الماء لقَبلَ ملحاً أيضاً، ولذاب الملحُ في الماء الساخن، ولم يكن ليذوب في الماء البارد. لكنا لو أضفنا مزيداً من الملح أيضاً فإن الماء الساخن نفسه لن يقبل حينئذٍ هذا المزيد. ولو استمررنا في تسخين الماء لتبخّر الماءُ ولكان الملحُ الباقي أكثر من الماء. وهكذا فإن لكل مادة قابلة للذوبان في الماء نقطةً إذا تجاوزتها لم يُذبها الماءُ بعد ذلك.

الماء يذيب تلك المادة عندما يكون ساخناً أكثر مما يُذيبها عندما يكون بارداً؛ فإن الماء الساخن إذا أشبع كفّ عن قبول المزيد من تلك المادة. ويظل الشيء كما كان تماماً؛ أما الماء فيتبخّر.

إذا أشبعْنا الماءَ بملح البارود، وإذا أضفنا إلى الماء، بعد ذلك، مزيداً من هذا الملح وسخنّاه، وإذا تركناه يبرد دون تحريك، حينئذٍ لا يتوضع ملحُ البارود الفائض في قاع الماء على شكل مسحوق: إنه يتجمّع على شكل أعمدة صغيرة سداسيّة الوجوه في القاع وعلى الجوانب، كل عمود بجانب الآخر.

إذا أشبعنا الماءَ بملح البارود ووضعناه في مكان ساخن تبخّر الماء؛ لكن ملح البارود الفائض يتوضع، كما مرّ معنا، في أعمدة صغيرة سداسية الوجوه

عندما نشبعُ الماء بالملح العادي، ونسخّنه، وندعه يتبخّر تدريجياً، حينئذٍ يتوضّعُ الملحُ الفائض أيضاً لا على شكل مسحوق بل على شكل مكعّبات.

عندما نُشبع الماءَ بملح البارود الممزوج بالملح، فإن ملح البارود والملح لا يمتزجان؛ إن كلاًّ منهما يتوضّع على طريقته، ملح البارود على شكل أعمدة صغيرة، والملح على شكل مكعبات.

عندما نُشبع الماءَ بملح الكلس أو بأيّ ملح آخر، أو بأي شيء آخر وعندما يتبخّر الماء، سيتوضّع كلُّ شيء على طريقته: على شكل أعمدةٍ صغيرة ثلاثيّة الوجوه، ثمانيّة الوجوه، آجرّات صغيرة، نجوم، وبكلمة واحدة، كل جسم له

طريقته. هذه الأشكال الهندسية المتنوعة موجودةٌ في كل الأجسام الصلبة، ويمكن أن تكون كبيرة، كبيرة كاليد. ونحن نجد في الأرض حجارة بهذه الأشكال. وهي، في أحيانٍ أخرى، من الصغر بحيث لا تُميَّزُ بالعين المجرّدة، لكن كل جسم يبدي شكلاً خاصاً به.

إذا كسرنا بإبرةٍ طرفَ أحد هذه الأشكال الهندسية التي بدأت تتشكل، في الماء المُشبع بملح البارود، فإن جزيئات من ملح البارود تنضاف في هذا الموضع لترمّم الطرفَ المكسور، ولتغدو مثله، عموداً صغيراً سداسّي الوجوه.

والأمور تجري كذلك بالنسبة إلى الملح أو إلى أية مادة أخرى؛ كل هذه الجزيئات تعود من ذاتها إلى مكانها، من الجهة المناسبة.

عندما يتجمّد الجليدُ فذلك أيضاً هو الذي يحدث. هذه نُدفة ثلج تطير؛ لسنا نتبيّن فيها أيَّ شكل هندسي؛ لكن لِتَحطّ فقط على شيء عاتم وبارد، على الجوخ، أو على الفراء، نستطيع حينئذٍ أن نكتشف الشكل؛ نتبين نجمةً صغيرةً، لويحةً بست زوايا. والبخار يتجمّد على الزجاج، لا كما يتفّق له، لكنه ما إن يَبْدأ بالتجمدّ، حتى يتوضع فوراً على شكل نجمة.

ما الجليد؟ إنه ماء باردٌ متصلّبٌ. عندما يتحوّلُ الماءُ السائل إلى ماء صلب، فإنه يتوضع بشكل هندسي ويَبْعث حرارةً. وكذلك الأمر مع الملح، وكذلك الأمر مع الحديد المصهور، حين ينتقلان من الحالة السائلة إلى الحالة الصلبة. فعندما تنتقل مادةٌ ما من الحالة السائلة إلى الحالة الصلبة، تبعث حرارتها وتتوضع في أشكال هندسية. لكن عندما تتحول مادةٌ من صلبة إلى سائلة، فهي تمتص الحرارة، وتبعث برودةً، وتختفي أشكالها الهندسية.

لِنأْتِ بحديد مصهور ولنتركْهُ يبرد؛ لنأت بِعجين ساخن ولنتركْه يبرد؛ لنأت بالكلس الحار ولنتركْه يبرد، سيكون لدينا إطلاقٌ للحرارة ولنأْتِ بجليد، ولندعْه يذوب، سيكون لدينا إطلاق برودة. ولنحملْ إلى الماء ملحَ البارود،

أو الملح، أو أية مادة قابلة للذوبان، ولنذبْها في الماء، فسيكون لدينا إطلاق برودة.

لصُنع الشراب، يوضَعُ الملحُ في الجليد.

الذئب والعنز[١]

(مثل)

رأى ذئبٌ عنزاً ترعى على جبل صخري لا سبيل إلى بلوغه. فقال لها:

ـ عليك أن تنزلي؛ فالأرضُ، حيث أقفُ أنا، أكثرُ استواء، والعشبُ أشهى مأكلاً لكِ.

أجابت العنز:

ـ ليس هذا هو السبب الذي يحملك على دعوتي إلى النزول؛ إنك لا تهتم بما آكل، بل بما ستأكله أنتَ.

بوليقراط ساموس[٢]

(حكاية تاريخية)

كان هناك ملكٌ يونانيٌ يُدعى بوليقراط. كان سعيداً، في كل شيء. فقد استولى على مدن كثيرة وغدا غنياً جداً. ووصَفَ بوليقراط في رسالة جميع ضروب السعادة في حياته، ووجّهها إلى صديقه، الملك أمازيس، في مصر. قرأ أمازيس الرسالة وكتب جواباً؛ وإليكَ ما قاله:

---

(١) ايزوب: «الذئب والعنز».

(٢) بوليقراط ابن أياكس، طاغية ساموس، إستولى على السلطة سنة ٥٣٣ ق.م. وتخلّى عن أمازيس سنة ٥٢٦ عندما أنهى قمبيز استعداداته للهجوم على فرعون هذا. وإذا كان قد حمى أناكريون فقد نفى فيثاغورس. وقد قتله المرزبان أوروايتس صلباً سنة ٥٢٢ ق. م. وقصة الخاتم موجودة في هيرودوت.

«لا شك أن ممّا يسرّ الصديقَ أن يعلم بنجاح صديقه. بيد أن سعادتك لم تعجبْني. وفي رأيي أنّ من الأفضل للمرء، إذا ما نجح في مشروع، أن يفشلَ في آخر، لكي يحدثَ توقّفٌ في نعمائه. ثقْ بـي وافعلْ ما أقوله لك: خذْ أعز ما تملك، وتخلّصْ منه حيث تشاء، في مكان تختاره أنت وبحيث لا يمكن لغيرك أن يجده. وهكذا تَقْطعُ سلسلة الرخاء بمصيبةٍ من المصائب».

بعد أن قرأ بوليقراط هذه الرسالة، عَملَ بنصيحة صديقه. وإليك ما فعله. كان يملك خاتماً ثميناً. فأخذه، وجمع الشعب، وصعد سفينةً مع كثير من الناس. ثم أمر بالتوجه إلى عرض البحر. وعندما أبْعدَ ووصل إلى ما وراء الجزر، رمى الخاتم في البحر، أمام الجميع، وعاد إلى بيته.

بعد خمسة أيام، حالفَ الحظُ صياداً فالتقط سمكةً كبيرة جداً، سمكة بديعةً. أراد أن يهديها إلى الملك. قصد بلاط بوليقراط، وعندما خرج الملك إلى لقائه، قال:

ــ أيها الملك! اصطدتُ هذه السمكة فحملتها إليك، لأن مثل هذه السمكة الجميلة يجب أن تكون على مائدة الملك.

شكر بوليقراط الصياد، ودعاه إلى الغداء معه، وبعد أنّ سلّم الصيادُ السمكة إلى مطابخ الملك. ذهب إلى الملك. عندما فتح الطهاة السمكة، وجدوا في بطنها هذا الخاتم الذي رماه بوليقراط في البحر.

حملوا إلى بوليقراط خاتمه ورووا له كيف عثروا عليه. حينئذٍ كتب بوليقراط رسالةً أخرى إلى صديقه أمازيس في مصر، يروي له فيها كيف رمى الخاتم وكيف عَثَرَ عليه الصياد. فكّر أمازيس بعد أن قرأ الرسالة وقال: «هذا نذير شؤم: واضحٌ أن من المستحيل أن يفلت المرء من قدره. الأفضل أن أقطع علاقاتي جميعاً مع صديقي حتى لا أُضطر فيما بعد إلى أن أتوجع على سوء مصيره. وأرسل أمازيس مَنْ يقول له أن صداقتنا قد إنتهت.

في ذلك الزمان كان يعيش رجلٌ يُدعى «اورواتيس». وكان قلبه ممتلئاً بالغضب على بوليقراط، وكان يتمنى هلاكه. فابتكر الحيلة التالية: كتب إلى بوليقراط ــ وما كتبه غيرُ صحيح ــ أن ملك الفرس قمبير أهانه، وأراد قتله، فهجر ذلك الملك.

كتب «أورواتيس» الرسالة التالية:

«إن لي ثروات عظيمة، لكني لا أعلم أين أعيش. استقبلْني عندك مع ثرواتي وسنغدو، نحن الاثنين، أقوى ملكين في العالم. وإذا كنت لا تصدّق أنني أملك مثل هذه الكنوز العظيمة فاندب مَنْ تشاء لكي يراها».

أرسلَ بوليقراط أحد خدّامه ليتأكد إن كان «أورواتيس» قد سافر ومعه مثل هذه الثروات العظيمة. وعندما وصل المبعوث ليفحصها خَدَعه «أوروايتس»؛ لقد عبأ سفناً كثيرة بالحجارة وغطّاها بالذهب حتى الغاطس.

عندما رأى مبعوث بوليقراط هذه السفن، ظنّها ملأى بالذهب حتى حافتها، وأخبر بذلك سيده.

حينئذٍ أراد بوليقراط أن يتوجه بنفسه إلى «أورواتيس»، لكي يرى ثرواته. لكن إبنته حلمت حلماً، أثناء الليل: رأت أباها معلّقاً في الفضاء. فرجته إلاّ يذهب إلى أورواتيس. لكن بوليقراط غضبَ وأعلن أنه لن يبحث لها عن زوج إن لم يَسكتْ؛ قالت له ابنته على الفور:

ــ سأكون سعيدة ألا أتزوّج أبداً إن عَدَلْت عن الذهاب إلى «أورواتيس» إني أخاف أن تصيبك مصيبة.

لم يُصغِ الأبُ إلى ابنته؛ وذهب. عند وصوله، قبض أورواتيس عليه وعلّقه بغصن حتى مات. وتحقق حلم ابنة بوليقراط.

وقع إذن، ما تنبأ به أمازيس: إن رخاء بوليقراط أعقبته شدة أكبر.

فولغا البطل

(أقصوصة شعرية)

ليس هذا وميض النجوم العديدة، المبعثرة في السماء، ليس هذا ضياء القمر المنير الذي يضيء الأعالي السماوية: إنه شمسٌ جميلة تنير أرضنا الأم، روسيا المقدّسة. ففيها، عند أمنا، ولد محاربٌ مقدام: فولغا، الأمير النور، ابن بوسلاييف. وعند ولادة هذا البطل إرتجفت الأمُّ المرضع، وثار البحر الأزرق، واضطربت الأسماك في أعماق المياه، واختبأت الحيوانات المتوحشة في أدغالها، واهتزّت الامبراطورية التركية بأسرها.

طوال سبع سنوات، نما فولغا قامة، واغتنى حكمةً، ولزم مدرسة الحكماء، ومدرسة العلماء الأحبار أيضاً؛ واطّلع على جميع درجات السحر؛ واجتاز الدرجةَ الأولى بينها جميعاً: تعلّم كيف يتحول إلى طائر، واجتاز الثانية: تعلم كيف يتحوّل إلى سمكة؛ واجتاز الثالثة تعلّم كيف يتحوّل إلى ذئب رمادي.

عندما بلغ فولغا عامه الخامس عشر،

إختار أصحابه:

أحاط نفسه بناسٍ من طينته،

بفتيانٍ كرام النفوس وبواسل،

من أسرة فيها ثلاثون أخاً، ثلاثون أخاً إلاّ واحداً؛

فإذاً عُدَّ هو صار العدد ثلاثين.

وصل فولغا وجماعته إلى صخور كييف.

قال فولغا بوسلاييفيتش لرجاله:

يا أصحابي البواسل، ها أنتم ثلاثون فارساً إلاّ فارساً، والفارس الثلاثون أنا، أخوكم الأكبر الذي ينبغي لكم أن تطيعوا أوامره وتنفذوها، إصنعوا شباكاً من الحرير وضعوها في البحر الأزرق.

إمتثل أصحابُ فولغا له، وعملوا شباكاً من الحرير، ووضعوها في البحر الأزرق. وتحول فولغا إلى سمكة، إلى زنجور حادة الأسنان، ونزل إلى أغوار البحر العميقة فطرد منها الأسماك الجميلة، ودفعها إلى الشباك المشدودة.

وعندما بلغ فولغا ورهطُه أعالي كييف، مرة أخرى، قال فولغا بوسلاييفتش لرجاله:

«يا أصحابي البواسل،

ها أنتم أولاء ثلاثون أخاً إلاّ واحداً، أنا الفارس الثلاثون، أخوكم الأكبر الذي ينبغي لكم أن تطيعوه وتنفّذوا أوامره. إنسجوا شباكاً من الحرير، وضعوها في الغابات، على آثار الحيوانات».

أطاعه رفاقُ السلاح، على الفور، فعملوا حبالاً رفيعة من الحرير، ووضعوها في الغابة. وتحوّل فولغا إلى حيوان بري، إلى ذئب أجرد هزيل. واجتاز عَدْواً الغابات المظلمة ذات الجذوع المقطوعة، والأدغال الكثيفة. أثار السمامير ولاحقها، ودفع بالحيوانات إلى البحيرات.

وعندما بلغ فولغا ورهطه شاطىء كييف الصخري، قال فولغا بن بوسلاييف لرهطه:

«يا أصحابي البواسل، قد أخذنا كل ما في البحر الأزرق العميق من سمك، أخذنا سمّور الغابات المظلمة التي لا يدلف اليها أحد، والآن مَنْ البطل الذي سينحدر إلى الإمبراطورية التركية، إلى قصر السلطان سلطان بن بيكيت ليسبر غور أفكاره الإمبراطورية؟ فاختبأ الفتيان بعضهم وراء بعض: الطويل القامة وراء من هو أقل طولاً، وهذا وراء من هو أقصر، وأصغرُ الجميع لزمَ الصمت. حينئذٍ قال فولغا بن بوسلاييف: «أنا فولغا، أنا نفسي سأذهب!».

وتحوّل فولغا إلى طائر، وطار عالياً بين السُحب، طار حتى بلغ الإمبراطورية التركية، وحطّ على حافة نافذة مزخرفة الخشب. كان سلطان

بيكيت جالساً هنا، مع الإمبراطورة ابنة داود. وكان السلطان يكلّمها قائلاً: «يا امرأتي، أنت! يا حبيبتي، يانسل داود الشاب والمجيد، سأستولي، وتلك مشيئتي، على روسيا المقدّسة؛ أريد أن أستولي على كييف البديعة، وسأهبُ كلاً من أولادي التسعة، وتلك مشيئتي، مدينةً روسية؛ وأريد أيضاً أن أجلب فرواً غالي الثمن، فرو الزبلين». حينئذٍ قالت له ابنةُ داود: «آه! يا سلطان ابن بيكيت، عبثاً تتجّهز لاحتلال الأرض الروسية. ألم تسمعْ أن في روسيا شيئاً جديداً؟ هو الشمس الجميلة التي تُنير روسيا المقدّسة المجيدة: ففيها وُلدَ محاربٌ مقدامٌ، بطلٌ، فولغا بن بوسلاييف. وفولغا بن بوسلاييف هذا، حاضرٌ هنا على النافذة؛ إنه يصيخ السمع لأخفى أحاديثنا. لن تستولي على كييف البديعة، ولن تهب كلاً من أولادك التسعة مدينة روسية، لكنك ستفقدُ حياتك على يد فولغا بن بوسلاييف!» لدى سماع «سلطان» هذه الكلمات التي لم يصدّقها، غضب على الإمبراطورة، وضرب وجهها الأبيض، وطردها من حضرته.

رتّب فولغا بن بوسلاييف كل شيء، فتحوّل إلى حشرة، واختبأ في سراديب عميقة، وقرض أوتار القسيّ المشدودة، أوتار الحرير؛ ونزَعَ رؤوس السهام، رؤوسها الفولاذية، ودفنها في الأرض. ثم تحول إلى طائر، و عاد إلى كييف على جناح السرعة، وجمع أصحابه، وزحف على الإمبراطورية التركية، وهي إمبراطورية محصّنة بسور من الحجر، سور عالٍ، ثُقب فيه بابٌ متين من الفولاذ المحلّى بالذهب، أقفاله كلّاباتٌ من النحاس، أما الدفّة، عند العتبة، من الخلف فكانت سناً ثمينة، سن سمكة متقنة الصنع، مخرّمة بثقوب صغيرة إنتظمت بحذق، لا تكاد النملة تمرّ منها. أمام هذا المنظر، تجهّم أصحاب فولغا: «كيف سنعبر هذه الأسوار الحجرية؟ ولماذا نفقد حياتنا؟ أهذا هو قدرنا، أهذا هو القدر الذي ينتظر شبابنا المتوّثب؟»

عَثَرَ فولغا بن بوسلاييف على ما ينبغي فعله: تحوَّلَ إلى نملةٍ، وكذلك أصحابه البواسل؛ وعَبرَ هو ورهطه من تلك الثقوب المتّخذة في سن السمكة.

وبعد أن عبر فولغا بن بوسلاييف السور حوّل أصحابه من نملٍ إلى محاربين شباب بواسل مجّهزين ومسلحين. وقال لهم فولغا بن بوسلاييف: أطيعوا أخاكم الأكبر، ونفّذوا أوامرة: في هذه الإمبراطورية البديعة، الإمبراطورية التركية، أقتلوا الشيوخ وحتى الأطفال، إستأصلوا هذا العرق من جذوره؛ استَبْقوا فقط من بين الجميلات ثلاثين فتاة جميلة». أطاع الأصحاب فولغا وقتلوا الشيوخ والأطفال، واستأصلوا العرق من جذوره، دون أن يتركوا بذاراً منه، واستبْقوا فقط ثلاثين فتاة لطيفة وجميلة، من بين أجمل الفتيات. ثم إن فولغا هو الذي إكتشف السلطان في قصره الحجري. كانت الأبوابُ الحجرية مغلقة، والأقفال محكمةً. فصرخ فولغا بن بوسلاييف: «سأكسرُ ساقي لكني سأدّمر الباب، وخلّع الأبواب الحديدية، وحطّم الأقفال الضخمة، وأمسك بيد السلطان التركي المجيد، يده البيضاء، وصاح: «من يمنعني من قتلك أيها السلطان، من يمنعني من أن أسقيك كأسَ الموت؟».

وصَرعَ السلطانَ على البلاط، وقطّعه إرباً إرباً.

عندئذٍ كافأ فولغا أصحابه. وأعطاهم حصصاً متساوية: أعطى كلاًّ منهم مائة جواد، وبرميلاً مملوءاً بالذهب، وفتاةً فوق ذلك.

الملك والقميص

(أقصوصة)

قال ملك عليلٌ ذات يوم:

ـ مَنْ شفاني أعطيتُه نصف مملكتي.

إجتمع جميعُ حكماء البلاد وبحثوا عن وسيلة لشفاء الملك. لم يدر أحد

ما العمل، حتى صرّح أحدُهم قائلاً: إذا وُجد رجلٌ سعيدٌ حقاً، فينبغي أن يُؤخَذ منه قميصه، وإذا ما لبس الملكَ هذا القميصَ فسيشفى.

بحث الملك في مملكته كلها عن رجل سعيد؛ لكن المبعوثين الذين أرسلهم ليطوفوا بالمملكة لم يعثروا عليه. كانت طريقهم طويلةً ولم يلاقوا إنساناً راضياً عن قدره كلَّ الرضا. كان الواحد غنياً، لكنه كان مريضاً في الغالب؛ وكان الآخر غنياً، معافىً، لكنّ امرأته سيئة. وأطفاله شريرون؛ ما من إنسان لم يكن يشكو من عذابٍ ما.

وحدث ذات يوم أن ابن الملك كان ماراً أمام كوخٍ فسمع كلاماً. وأصغى، كان أحدُهم يقول:

ـ تبارك الله! اليوم إشتغلتُ جيداً، وأشبعتُ جوعي، وسوف أنام. ماذا يلزمني أكثر من ذلك؟

أمرَ ابن الملك، وقد تملّكه الفرحُ، أن يُؤخَذ قميصُ هذا الرجل، وأن يُعطى من المال ما يَطلبُه، وأن يُحملَ القميصُ إلى الملك. وصل المبعوثون إلى بيت الرجل السعيد ليأخذوا منه قميصه... لكنه كان فقيراً جداً حتى إنه لم يكن لديه قميص.

القصبةُ وشجرة الزيتون(١)

(مثل)

تخاصمت شجرةُ الزيتون والقصبة، ذات يوم: مَنْ منهما أشدّ مقاومةً؟ مَنْ الأقوى؟ سخرتْ شجرةُ الزيتون من القصبة التي تنحني لهبوب الرياح جميعاً. لم تجب القصبةُ بشيء. وهبّت زوبعةٌ فانثنت القصبةُ، والتوتْ، ولامست الأرضَ: لقد خرجت سليمةً من الإعصار. أما شجرة الزيتون فتصلبت بكل أغصانها لمقاومة الرياح: لقد انكسرتْ.

---

(١) ايزوب: «القصب وشجرة الزيتون». لافونتين: «شجرة البلوط والقصب».

الذئب والفلاح[1]

(قصة)

طارد الصيادون ذئباً. صدم الذئب، في فراره، فلاحاً كان يخرج من مخزنة ومعه مدقّةٌ وكيس.

قال الذئب:

ــ أيها الرجل، خبّئني؛ فالصيادون يطاردونني.

أشفق الفلاحُ عليه وخبّأه في الكيس الذي ألقاه على كتفه. ووصل الصيادون عدواً، وسألوا:

ــ هل رأيتَ الذئب؟

أجاب الفلاح:

لم أر ذئباً.

وانصرف الصيادون، فوثب الذئب من الكيس وأراد أن يفترس الفلاحَ.

ــ يا ذئب، لا بدّ أن تكون بلا ضمير: لقد انقذتُكَ وتريد أن تفترسني.

فردّ عليه الذئبُ:

ــ معروف الآخرين سُرعان ما ينسى.

ــ كلا، اسأل الناس يقولون لك إن المعروف الذي أسدي إليك لا يُنسى.

اقترح الذئب:

ــ لنمضِ في طريقنا معاً، أتريد؟ وسنطرح على أول عابر طريق السؤال التالي: هل يُنسى بسرعةٍ المعروف الذي أُسدي إلينا أو لا يُنسى؟ فإذا كان

---

(١) يقول تولستوي: إن المصدر شعبي. ويبدو، في الحقيقة، أن المصدر بيدبا: «عن الرجل والحية».

الجواب: لا يُنسى، تركتُك وشأنك؛ لكن إذا كان الجواب: يُنسى بسرعة، التهمتُكَ.

صادفا فرساً مُسنَّةً لا تكاد ترى طريقها.

سألها الفلاح:

ـ قولي لنا، يا فرس، ما رأيُكِ: هل يُنسى المعروف الذي أسدي إلينا قديماً، أو لا يُنسى؟

أجاب الفرسُ:

ـ لقد عشت اثنتي عشرة سنة عند معلّمي، وأعطيتُه اثني عشر مهراً، دون أن أكفّ عن النقل والحراثة، وفي العام الماضي، فقدت بصري، لكنني تابعتُ عملي: كنتُ أطحن الحبوب، وفي ذات يوم لم أعد أحتمل الدوران ووقعتُ تحت العجلة. فكم لطمتُ، وكم ضربْت! سحبوني بذيلي إلى الوادي وقذفوني فيه. وجدتُ نفسي فجأة في هذا القاع، ولم أخرج منه إلاَّ بشقّ النفس، وإلى أين أذهب؟ لست أدري.

قال الذئب:

ـ أنت ترى، أيها الرجل! معروف الآخرين، سرعان ما يُنسى.

أجاب الفلاح:

ـ انتظرْ، ولنسألْ أيضاً.

وجدوا على طريقهم بعد ذلك كلباً مسناً يجر نفسه على مؤخرته جرًّا ويتقدّم ببطء. قال له الفلاح:

ـ قلْ لي ما رأيك، يا كلب، هلْ يُنسى بسُرعة المعروف الذي يُسدى، أو لا يُنسى.

ـ لقد عشتُ عند معلمي خمسة عشر عاماً، حرستُ فيها البيت، ونبحتُ في الوقت المناسب، وهجمتُ لأعضّ. لكنني كبرتُ، وفقدت أسناني،

فطردوني من المزرعة، ثم أوسعوني ضرباً بعريش مكسور. وها أنت ترى أنني أسير بقدر ما أستطيع، على غير هدى، وعلى كل حال سأتوقف في موضع هو أبعد ما يكون عن معلمي القديم.

قال الذئبُ إذ ذاك:

ـ سمعتَه؟

لكن الفلاح كرّر:

ـ انتظرْ أيضاً اللقاءَ الثالث:

لقيا ثعلباً. قال الفلاح له:

ـ يا ثعلب، ما رأيك بهذه القضية: هل يُنسى بسرعة المعروفُ الذي يُسدَى إلينا أو لايُنسى؟

ـ قال الثعلب....

ـ ماذا يهمّك من ذلك؟ لم هذا السؤال؟

ـ لماذا؟ الذئب الذي تراه كان هارباً من الصيادين. توسَّل إليّ فخبّأتُه في هذا الكيس. وهو يريد أن يأكلني، في هذه الساعة.

ـ ذئب كبير في هذا الكيس الصغير! قلْ هذا لغيري! هذا غير ممكن؛ لو رأيت ذلك، إذن لقلت لكما من المحقّ منكما.

أجاب الفلاح:

ـ إنه يدخل بكامله في الكيس: ما عليكَ إلاَّ أن تسأله.

قال الذئبُ:

ـ هذا صحيح.

قال الثعلب حينئذٍ:

ـ لن أصدق شيئاً من ذلك ما لم أره بعيني. أرني كيف فعلتَ لتدخل الكيس.

أدخلَ الذئبُ رأسه إلى الكيس. قال:

ـ هكذا فعلتُ.

قال الثعلب:

ـ قلتُ لك: ادخلْ بكاملك؛ لستُ أرى بعد كيف استطعتَ أن تفعل ذلك.

دخل الذئب بكامله في الكيس. حينئذٍ قال الثعلب للفلاح:

ـ الآن، اربط الكيس ربطة مُحكمة.

ربط الفلاحُ الكيس بحبل. فقال الثعلب:

ـ يا فلاح، آن الوقت لتُريَ إن كنت تعرف كيف يُدقُّ القمحُ على البيدر.

سُرَّ الفلاحُ كثيراً وأخذ مدقته ودق الذئب.

ولما كفَّ الذئب عن الحركة، التفت إلى الثعلب وقال له:

ـ يا ثعلب، أتريد أن تعلمَ كيف يُدقّ القمح على البيدر. وضربه الفلاح بالمدقة ضربة قاضية مات منها الثعلب. قال الفلاحُ في نفسه.

ـ من المؤكّد أن المعروف الذي يُسْدى سرعان ما ينسى.

الرفيقان[1]

(مثل)

كان يمشي في الغابة رفيقان. خرج فجأةً دبٌّ وهاجمهما. هرب أحدهما، وتسلق شجرة واختبأ، أما رفيقه فظل على الطريق. ولم يكن له سوى خيار واحد هو أن يلقي بنفسه ويتظاهر بالموت.

اقترب الدبُّ منه وأخذ يشمّه؛ قطع الرجل نفَسَه. شم الدب وجهه، فظنه ميتاً وانصرف. حينذاك نزل الآخر من الشجرة وسأل رفيقه بلهجة مازحة:

---

(١) ايزوب «المسافران والدب». لافونتين: «الدب والرفيقان».

ـ ما عسى أن يقول لك الدبُّ في أذنك؟

ـ قال لي: إن الذين يستعجلون الهربَ بعيداً عن رفيق وقع في الخطر هم ناسٌ سيّئون.

قفزةٌ في البحر

(قصة حقيقية)

كان المركب الذي طاف العالم عائداً إلى مرفأ القيد، والبحر هادىء الموج. كان الجميع على ظهر المركب، وكان قردٌ كبير يذهب ويجيء، مسلّياً رجال المركب. كان يكشّر، ويثب، ويقفز، ويتغنج بشكل مضحك، ويُقدم على ألف مشاكسة: كان يزداد اندفاعاً إذ يرى أنه يُلهي جمهوره.

وضعتهُ إحدى وثباته على مقربة من صبـي عمره اثنا عشر عاماً، هو ابن قائد المركب. انتزع منه قبّعته، وغطى بها رأسه، وتسلق السارية بعجلة. أضحك ذلك الجميع، ما عدا صاحب القبّعة الذي كان هنا، حاسر الرأس، لا يدري أيضحك أم يبكي.

استقرّ القردُ على عارضة الصاري الأولى، ورفع القبعة وأخذ يمزّقها بأظافره وأسنانه؛ فكأنما كان يهزأ من ابن قائد المركب؛ كان يُشير إليه بيده ويُوجّه إليه تكشيراته. وكان الصبـي يهدده بيده وبصوته فيستمر القردُ بشدة أكبر في تمزيق القبعة. ويُمعن البحارةُ في الضحك. ويحمرّ الطفل خجلاً، ويخلع سترته، ويندفع إلى السارية. ويصل في ظرف دقيقة، وهو يستعين بالحبل، إلى العارضة الأولى، لكن القرد يبدو أمهر وأرشق، وفي اللحظة التي يظن فيها الصبـي أنه سيلتقط قبعته يصعد القرد إلى الأعلى.

هتف الصبـيُّ: «لن تفلت مني هكذا!» وتسلّق بدوره في إثر القرد الذي كان يجرّه بحركاته إلى أن يلحق به مرة أخرى، وإلى أن يمضي في صعوده. أبـى

الصبيُّ وقد جُرح في كبريائه، أن يتخلف. ففي بضع دقائق، كان الاثنان في أعلى العارضة.

تمدد القرد على طوله، وتشبّث بالحبال بإحدى قائمتيه الخلفيتين، وعلّق القبعة بطرف عارضة الصاري الأخيرة، ثم تسلق إلى أعلى الشراع المربّع، وعاد إلى حركاته المضحكة، كاشفاً عن أسنانه، ظاهر الرضا.

وبين السارية ونهاية العارضة التي تدلّت منها القبعة مترٌ ونصف. وكان من المستحيل بلوغها دون أن يرخي الحبال والسارية.

لكن الصبي كان شديد الغضب، فأرخى السارية، ووضع قدمه على العارضة. وكان كل واحد من الحاضرين، على ظهر المركب تحت، يتابع بعين مستمتعةٍ سَعْدنات القرد وبراعة الصبي. ولكن عندما أرخى الصبيُّ الحبلَ ونقل قدمه إلى العارضة، ويداه في وضع التوازن جمد الجميع من الرعب. زلّة قدم واحدة تسبّب سقوطه وانسحاقه على ظهر المركب. وحتى لو لم يتعثر، ووصل إلى طرف العارضة، وأمسك بقبعته، فكيف سيفعل ليعود ويبلغ السارية؟ كان الجميع ينتظرون بصمت عظيم ما سيحدث، وعيونهم محدِّقة في الهواء، عندما انطلقت من ظهر المركب صرخة قلق. ولدى سماع الصبي هذه الصرخة، صحا ونظر إلى الأسفل، وترنّح جسده.

وفي اللحظة نفسها، خرج القائد ــ الأب ــ من حجرته ــ وبندقيته على ذراعه، لأنه كان ينوي أن يرمي بها النورس. فرأى ابنه.

ــ إلى الماء! اقفزْ إلى البحر! وإلاَّ أطلقتُ النار.

فقد الصبيُّ توازنه؛ لم يكن يفهم.

ــ اقفزْ وإلاَّ أطلقت النار!... واحد... اثنان.

عندما صرخ الأب «ثلاثة!». قفز الولدُ يتقدّمه رأسه. اصطفاف مُدوّ... صوت قنبلة تسقط على الماء... ابتلع البحرُ الجسدَ.

لم يتسنّ للأمواج أن تغمر الجسد حتى قفز إلى الماء، من فوق المركب عشرون من البحارة الأشداء. وفي مدى أربعين ثانية ــ بدت الثواني طويلةً ــ طفا جسدُ الطفل على سطح الماء. أمسك به البحارة ورفعوه إلى سطح المركب. وبعد بضع دقائق، استفرغ الصبيّ الماء من فمه ومن أنفه، ثم أخذ يتنفّس.

عندما رأى القائد أنه كان يتنفس، أرسل صرخة جشّاء، صرخة رجلٍ يُخنَق، وركض إلى حجرته؛ لم يشأ أن يُرى باكياً.

السنديانة وشجرة البندق

(حكاية)

أسقطت سنديانة عتيقة بلوطة تحت أفنان شجرة بندق، قالت شجرة البندق للسنديانة:

ــ هل يعوزكِ المكانُ، تحت أغصانك؟ أوْلى بك أن تسقِطي بلوطك في موضع مكشوف. أنا نفسي، وبي من الضيق ما بي بسبب براعمي، لا ألقي ببندقي أرضاً، بل أعطيه الناسَ.

أجابت السنديانة:

ــ عشتُ قرنين، والسنديانة التي ستخرج من هذه البلوطة ستعيش كما عشتُ.

قالت شجرة البندق وقد تملّكها الغضب:

ــ طيّب، سأخنق سنديانتك الصغيرة، ولن تعيش ثلاثة أيام.

لم تجب السنديانة بشيء، وأمرت بتلتها أن تخرج من البلوطة وتنمو. انتفخت البلوطة وانشقّت؛ تشبّثت بأحد براعم كمها بالأرض وأرسلت برعماً في الهواء.

حاولت شجرة البندق أن تخنقها، وحجبت عنها الشمس. لكن السنديانة الصغيرة بذلت جهدها لتكبر وقويت في ظل شجرة البندق. مرّت مائة عام، وكانت شجرة البندق قد جفّت وماتت منذ زمن بعيد، أما السنديانة التي خرجت من البلوطة فقد ارتفعت إلى السماء ومدت إلى جميع الجهات قبّتها الخضراء.

الهواء الفاسد

(أ ـ قصة حقيقية)

في «نيكولسكوي»، في يوم عيد القرية، ذهب السكانُ إلى القدّاس. خادمة المزرعة ووكيلها والسائس وحدهم بقوا في فناء المزرعة. ذهبت الخادمة لتأتي بالماء من البئر، وكانت البئر في الفناء، لم تستطع أن تمسك بالدلو الذي تسحبه، فأفلت منها، وصدمَ جدار البئر، وقطع الحبل. عادت الفتاة إلى البيت، وقالت للوكيل:

ـ الكسندر، يا صديقي، انزلْ إلى البئر، لقد أفلت مني الدلو.

أجاب الكسندر:

ـ أنتِ أوقعته وعليكِ أنت أن تحضريه.

قالت الخادمة: إذا كان الأمر كذلك فهي تقبل أن تنزل بنفسها، على أن يُمسك فقط بالحبل.

ابتسم الوكيل وقال:

ـ حسناً، هيا. أنتِ لم تأكلي بعد، فلن أرخيك. ولو كان ذلك بعد الغداء، لما قويتُ على ذلك.

وربط حبلاً بعصا؛ فرشحت الخادمة على العصا، وتعلّقت بالحبل، وأخذت تهبط في البئر؛ كان الوكيل ممسكاً بالطرف الآخر من الحبل الذي كان يمرّ من البكرة. لم يكن عمق البئر يتجاوز اثني عشر قدماً، وعمق الماء قدمين.

ترك الوكيلُ الحبل ينزلق برفق على البكرة وهو لا يني يسأل:

ـ أأزيدُ؟

وكانت الخادمة تصرخ من القاع:

ـ زدْ قليلاً.

أحسّ الوكيل فجأة أن الحبل ارتخى؛ نادى الفتاة فلم تجب؛ نظر إلى البئر فرأى الخادمة ورأسها في الماء وقدماها إلى الأعلى. فأخذ يصيح ويستنجد، لكن لم يكن في المكان أحد، السائس وحده وصل. قال له الوكيل أن يتولى تدوير البكرة؛ أما هو فقد سحب الحبل وجلس على العصا ونزل إلى البئر.

لكن ما كاد السائس يترك الوكيل ينزل إلى الماء، حتى حدث الشيء نفسه؛ فقد أفلت الحبلُ من الوكيل وسقط على الفتاة ورأسه إلى الأسفل أخذ السائسُ يصرخ، وركض إلى الكنيسة طلباً للنجدة. كان القداس منتهياً والناسُ يخرجون. ركض الفلاحون والفلاحات إلى البئر، وازدحموا من حوله، كل يصرخ برأيه، لكن لم يَدْر أحدٌ ما العمل. وشقَّ الجمعَ فلاحٌ، شاب يدعى إيفان، وأخذ الحبل، وفرشح على العصا، وطلب أن يُساعدَ على النزول. تعلّق بالحبل من زنّاره. أنزله رجلان، وكان الآخرون جمياً ينظرون إلى البئر ليروا ما الذي سيقع له. ما أن وصل إيفان إلى مستوى الماء حتى أرخى الحبل، وكان سيسقط على رأسه لو لم يكن مربوطاً بزناره. صرخ الجميع:

ـ اصْعِدوه!

شُدَّ إلى خارج البئر كان معلّقاً بالزنّار، وكأنه جثة هامدة. كان رأسه يتدلى ويصدم جدار البئر، وكان وجههُ ضارباً إلى البنفسجي. وأُخرجَ، وخلّص من الحبل، ومُدِّد على الأرض. ظنّه الناس ميأً، لكنه ما لبث أن تنهّد تنهداً عميقاً، وسعل، وصحا من غيبوبته.

أراد آخرون أن ينزلوا أيضاً، لكن فلاحاً عجوزاً أعلن أن ذلك مستحيل لأن

في البئر هواءً فاسداً، وأن هذا الهواء الفاسد هواء قاتل. حينئذٍ ركض الفلاحون ليحضروا عصياً وليحاولوا سحب الخادمة والوكيل. وكانت امرأة الوكيل وأم الخادمة تنوحان، قرب البئر، وهما تصرخان؛ حاول الناسُ تهدئتهما، وعَمدَ الفلاحون إلى التقاط الجثتين بعصيّهم المزودة بالكلاّبات، وانتشالهما من البئر. انتشلوا الوكيل مرتين حتى منتصف البئر، التقطوه من ثيابه. لكنه كان ثقيلاً، وتملّصت ثيابهُ وأفلت. وأخيراً التقطوه بخطّافين ونجحوا في إخراجه. ثم أخرجوا الخادمة. كانا كلاهما ميتين؛ ولم يمكن إنعاشهُما.

(ب ــ موضوع للمحادثة)

الهواء الفاسدُ هواء ثقيل جداً. بحيث لا يستطيع أن يعيش فيه لا الإنسان ولا الحيوان.

إن تحت الأرض مواضع يتراكم فيها هذا الهواء، ويموت الأنسان فيها، على الفور، إذا اتفق له وكان فيها. لذلك تُصْنع مصابيحُ خاصة تُستخْدم في المناجم؛ وقبل أن يسمح للإنسان بالمجازفة، يُنزَل بأحد هذه المصابيح إلى تلك الأماكن المحفوفة بالمخاطر. ومن المستحيل على المرء أن يمضي إلى حيث يَنْطفىء المصباح. وحينئذٍ يُسرَّب الهواء النقيُّ إلى هذه الأماكن المحظورة حتى يمكن للمصباح أن يشتعل.

في أرباض نابولي مغارة تكشف عن هذه الظاهرة: ففي أعماقها هواء فاسدٌ دائماً إلى ارتفاع قدمين فوق الأرض. والهواءُ نقيّ فوق ذلك فإذا دخل إنسانٌ هذه المغارةَ لم يُصبْه شيءٌ. أما إذا دخلها كلب فهو يختنق.

من أين يأتي هذا الهواء الفاسدُ؟ إنه يتشكل من هذا الهواء النقي الذي نتنفسه. إذا اجتمع كثيرٌ من الناس في غرفة واحدة، وكانت الأبوابُ والنوافذ مغلقةً، بحيث يتعذر على الهواء النقي أن يدخلها، يتشكّل هذا الهواء الفاسد الذي كان في بئر نيكولسكوي، ويموت أولئك الناس.

منذ مائة عام، أسر الهنودُ مائة وستة وأربعين انكليزياً. وحبسوهم تحت الأرض، في مغارة لا يمكن للهواء أن ينفذ إليها.

في مدى ساعات، أخذ الأسرى الانكليز يختنقون، وفي آخر الليل كان مائة وثلاثة وعشرون أسيراً قد ماتوا، أما الباقون فخرجوا من المغارة مرضى، لا يكادون يكونون أحياء. في البدء كان هواء المغارة نقيًّا. لكن عندما تنفّس الأسرى كل هذا الهواءَ النقي الذي لم يكن يتجدّد، تشكّل هواءٌ فاسد مثل هواء البئر، وماتوا.

كيف يحدث أن يتحوّل الهواء النقي إلى هواء فاسد حيث يجتمع كثيرٌ من الناس. يأتي ذلك من أن الانسان عندما يتنفس يأخذ الهواء النقيّ ويطرح الهواء الفاسد.

الذئب والحمل[1]

(مثل)

شاهد الذئب حملاً يشرب من الساقية. اشتهى الذئب أن يأكل الحمل فتحرّش به قال له:

ــ عكّرت مائي، ومنعتْني من الشرب.

أجاب الحمل:

ــ يا ذَئبُ! كيف يُمكنني أن أعكّر ماءَك؟ أنتَ ترى أنني تحتك على مجرى الساقية؛ ثم إني لا أشرب إلاّ بأطراف شفتيّ.

قال الذئب:

ــ اشرحْ لي إذن لماذا خاطبتَ أبي، في الصيف الماضي، بكلمات بذيئة.

---

(١) ايزوب: «الذئب والحمل». لافونتين: «الذئب والحمل».

ـ لكنني، يا ذئب، لم أكن قد وُلدت بعدُ، في الصيف الماضي!

قال الذئبُ، وقد استولى عليه الغضب:

ـ يجب أن يكون الحقّ معك دائماً. ولذلك، وبما أنني صائم، سآكلك!

الوزن النوعي

(حكاية تاريخية)

أَمر اليونانيُّ هيرون، ملكُ سيراقوس، صائغَه ديميتريوس، أن يصنع له تاجاً من الذهب لتمثال جوبيتير؛ وسلّمه اثنتي عشرة ليبرة من الذهب. صنع ديميتريوس التاج، وعندما وزنه الملك، كان وزنهُ اثنتي عشرة ليبرة تماماً. لكن الملك علم أن ديميتريوس سرق جزءاً كبيراً من الذهب، ومزج الذهب بالفضة، في التاج. وحرص الملكُ على أن يعلم إن كانت الفضةُ كثيرةً في التاج، فأمر بصهْره ليرى ما في داخله. وكان للملك إذ ذاك قريبٌ، عالمٌ وذكي، يدعى أرخميدس. قال للملك.

ـ لا تُتلف التاج؛ سيضيعُ ما كلِّف من عمل. وأنا أتكفل بمعرفة ما يحتويه من الذهب وما يحتويه من الفضة، دون أن أُتلفه.

قَبِلَ الملكُ اقتراح ارخميدس. وهذه هي الطريقة التي سلكها أرخميدس:

أخذ ليبرة من ذهب وليبرة من فضة، وزانهما بكل بساطة، على الميزان، ثم أجرى وزنةً أخرى في الماء، كانت ليبرة الذهب حينئذٍ تزن أوقيةً أقل من ذي قبل، وليبرةُ الفضة أوقيتين أقل.

ثم وزن أرخميدس كل التاج في الماء، وطلب الملكَ وقال له:

ـ إن ليبرة الذهب الخالص، في الماء، تزن أوقية أقل؛ وليبرة الفضة تزن أوقيتين أقل. ومن ثَمَّ، فلو كان التاج من الذهب الخالص لوجب أن نسحب من الميزان اثنتي عشرة أوقية، لأن التاج كان يزن اثنتي عشرة ليبرة. والآن، انظر!

وضع أرخميدس اثنتي عشرة ليبرة في الميزان ووضع كِفّةَ التاج في الماء. لم يَزِنْ اثنتي عشرة ليبرة إلاَّ اثنتي عشرة أوقية، بل أقلّ من ذلك. ورُفع المزيد من الأوقيات وقال أرخميدس:

كلُّ أوقيّة مرفوعة تُمثل ليبرة ذهبية[١] سرقها منك ديميتريوس.

وهكذا استطاع أرخميدس أن يُحدّد مقدار الفضة الذي مُزج بذهب التاج.

الأسد والذئب والثعلب[٢]

(مثل)

كان الأسد الذي أسَنّ عليلاً، مضطجعاً في عرينه. وكانت جميعُ الحيوانات تعودهُ ما عدا الثعلب. وانتهز الذئب بفرحٍ هذه الفرصة ليُسيءَ إلى الثعلب عند الأسد. قال:

ـ ليس لك عنده أيُّ اعتبار؛ لم يأت، ولو مرة واحدة، ليَعودَ مليكَه.

لم يكد ينتهي من كلامه حتى أقبل الثعلب، على حين غِرّةٍ، فسمع ما كان يقوله الذئبُ، وقال في نفسه: «انتظرْ قليلاً، وسأنتقم منك».

زمجر الأسدُ حين رأى الثعلبَ يدخل. قال له الثعلبُ:

ـ ليتك تسمعني قبل أن تعاقبني. وإذا كنتُ لم أُعذْكَ فلأنني لم أجد وقتاً أَفرغ فيه لذلك؛ وإذا كنتُ لم أجد وقتاً فذلك لأنني طفتُ الأرضَ لأرى الأطباء ولأسألهم دواءً لكَ. ومنذ فترة وجيزة فقط وجدتُ الدواءَ الذي يلزمك فهرعْتُ، في الحال، إليكَ.

سأل الأسدُ:

---

(١) في الحقيقة كل أوقية مرفوعة لا تمثل ليبرة ذهبية، لكنها تمثل الفرق بين وزني الذهب والفضة النوعيين.

(٢) ايزوب: «الأسد والذئب والثعلب». لافونتين: «الأسد والذئب والثعلب».

ـ ما ذلك الدواء؟

ـ هو ذا الدواء: تَسْلَخ ذئباً حيًّا وترتدي جلده وهو ساخن، و.

مدّ الأسد يده ليمسك بالذئب، فقال الثعلب وهو يضحك:

ـ هذه حال الدنيا، يا صاحبي. يجب أن نحث سادتنا على الخير، لا على الشر.

رداءُ الملك الجديدُ[1]

(أقصوصة)

كان هناك ملكٌ يحب الملابس الجديدة. كان همه الأكبر أن يرتدي أفضل الملابس. وذات يوم، جاءه خياطان ماهران وقالا له:

ـ نستطيع أن نصنع لك ثوباً فخماً للاحتفال لم يَرَ أحدٌ مثله.

ويمتاز هذا الثوب بأن الحمقى، والموظفين الذين ليسوا في مستوى وظائفهم لا يمكنهم أن يروه. أولو الفكر النابهون يرونه، أما الأحمق فليس بوسعه أن يرى رائعتنا الفنية، ولو كان الذي يرتديها بجنبه.

فرح الملكُ فرحاً عظيماً بعَرْض الخياطين، وأمرهما بأن يصنعا ذلك الثوب. أعْطيا مَشْغلاً في القصر. وقُدّم لهما المخملُ والحرير، الأشرطة الذهبية، وكل ما يلزم.

بعد أسبوع، أرسل الملك وزيره يستعلم: هل أصبح الثوبُ جاهزاً؟ ذهب الوزيرُ للقاء الخياطين وسألهما إن كانا قد انتهيا من عملهما. أجابا:

ـ الثوبُ جاهزٌ. وهذا هو.

---

(١) أشار تولستوي إلى اندرسون كمصدر له. واندرسون شاعر وروائي دانماركي، ولد سنة ١٨٠٥م ومات سنة ١٨٧٥م، وهو مؤلف حكايات أصبح الكثير منها شعبياً في أوروبا كلها.

ولم يُريا الوزيرَ شيئاً.

تظاهر الوزير ـ وكان قد سمع بأن الحمقى، والموظفين والذين ليسوا في مستوى وظائفهم لا يُمكنهم أن يروا الثوب ـ بأنه رآه وأثنى عليه ثناءً عظيماً. أمر الملكُ بحَمْله إليه، فحمل إليه: ما قدِّم إليه ليراه لم يكن شيئاً على الإطلاق. وتظاهر الملك بدوره كأنه قد رأى الثوبَ الجديد. فخلع الثوبَ الذي كان يرتديه وأمر أن يُلْبَسَ الثوب الجديد. ثم مضى يتنزه في المدينة.

رأى الجميع بأعينهم أن الملك يتنّزه بدون ثياب. لكن لم يجرؤ أحدٌ على أن يعلن له عن أنه لا يرى أثراً للثوب الجديد، لأنهم سمعوا جميعاً أن الحمقى وحدهم هم الذين لا يمكنهم أن يروه. وكان كل واحد يفكّر بينه وبين نفسه: «من جهتي، لستُ أرى شيئاً، أما الآخرون فهم يرون، بدون شك، ثوبَ الملك الجديد».

وهكذا كان الملكُ يطوف المدينة، عارياً، وسط شعب كان مذهولاً من جمال ثوبه الجديد. وفجأة شاهد الملكَ رجلٌ متخلّف عقلياً، فصاح.

ـ انظروا! انظروا! هو ذا الملك يسير في الشوارع بلا ثياب.

أحسّ الملك فجأة بالخجل من أنه عارٍ، واعترف كلٌّ واحد بأن الملك لم يكن يرتدي ثياباً.

ذنبُ الثعلب

(مثل)

أمسك رجل بثعلب وسأله:

ـ مَنْ علّم الثعالب أن تخدع الكلاب بأذنابها؟

سأل الثعلبُ:

ـ ماذا تَقْصد؟ نخدع الكلاب! لسنا نخدعها، وإنما نهرب منها بكل بساطة، وبأسرع ما نستطيع.

ـ كلا، بل أنتم تخدعونها بأذنابكم. فعندما تضع الكلاب أيديها عليكم لتمسك بكم، تحركون أذنابكم جانباً، فيندفع الكلب بغتةً في إثر الذنب، وتهربون حينئذٍ من الجهة الأخرى.

قال الثعلب وهو يبتسم:

ـ لسنا نفعل ذلك لنخدع الكلاب؛ وإنما نفعل ذلك لنغيّر إتجاهنا؛ فعندما يوشك الكلبُ أن يُدركنا، ونرى أننا لا نستطيع الإفلات منه إذا تابعنا جرينا على خط مستقيم، نندفع جانباً؛ لكن لكي نفعل ذلك بسرعة، لا بدّ لنا من أن نحرّك الذنب إلى الجهة الأخرى، كما تفعلون أنتم عندما تركضون وتريدون أن تدوروا. لسنا نحن الذين وجدوا ذلك الله نفسه هو الذي أوجد ذلك عندما خلقَنَا، لكي لا تتمكن الكلابُ من التقاط جميع الثعالب.

دودوة القز

(حكاية)

كان في بستاننا شجرات توت عتيقة. وكان جدي هو الذي غرسها. أعطوني، في الخريف، أربعة غرامات أو خمسة من بزور دودة القز، ودعوني إلى تربيتها وإلى صنع الحرير. وكانت هذه البزور رمادية داكنة، وكانت دقيقة جداً حتى إني عددتُ ألفاً وثمانمائة وخمساً وثلاثين بزرة في أربعة غرامات وربع. إنها أصغرُ من أصغر رأس دبوس، وهي جامدةٌ لا حراك فيها، على الإطلاق؛ لكننا إذا هرسنا واحدة منها، تحدثُ طقطقة صغيرة.

ظلت البزورُ على طاولتي، ويُخيّل إليّ أنني نسيتها قليلاً.

لكني ذهبت، ذات يوم، إلى البستان ولاحظتُ أن البراهم أخذت تتشكل على شجرات التوت، وأن هذه البراعم قد صارت ورقاً، في المواضع التي لحقتها الشمس، تذكرت بزوري، وعندما بلغت المنزل أخذت أنقّيها، صببتُها

على الطاولة بحيث تكون أكثر تباعداً بعضها عن بعض. لم تكن معظم البزور رمادية داكنة، كما كانت من قبل، لكنها كانت رمادية فاتحة، وكان بينها ما هو أفتح، وما له ظل لبنيّ.

في صباح اليوم التالي، ذهبتُ مبكراً لأراها فرأيتُ أنه قد خرجت من بعض البزور ديدان صغيرةٌ وأن بعض البزور الأخرى إنتفخت وحبّبت. لقد أحسّت الديدانُ الصغيرةُ، في أعماق شرانقها، أن طعامها قد نضج.

كانت هذه الديدان الصغيرة سوداء، وَبِرة، شديدة الصغر حتى لتصعب رؤيتها. كنتُ أنظر إليها بالمجهر، وأراها منكمشةً على شكل حلقة في شرانقها، وأرى كيف تستوي وتعتدل، عندما تخرج. وذهبت إلى البستان لأحضر شيئاً من ورق التوت، فقطعت ملء حفنتيّ ورقاً، وحملتُه إلى غرفتي، ووضعته على الطاولة، وتهيّأت لترتيب مكان للديدان، كما دلّوني.

وبينما كنت أهّيء ورقاً عادياً، أحسّتْ أن على الطاولة غذاءً لها؛ فأخذت تزحف نحوه. أبعدتُ أوراقَ التوت، واستخدمتُ إحداها كالطُعْم، وجذبتُ الديدان التي أخذت تتبع الورقة زاحفةً على غطاء الطاولة، متجاوزة الأقلام والمقصات والقُرطاس، كالكلاب التي تجتذبُها قطعةٌ من اللحم.

قصصت حينئذٍ قطعة من الورق العادي، وثقبتها ثقوباً كبيرة بالمدية، ووضعتُ أوراقاً من التوت على الورقة العادية، ووضعتُ ذلك كله على الديدان. زحفت الديدان عبر الثقوب، وصعدتْ جميعُها على أوراق التوت وبدأتْ تأكل، في الحال.

عندما خرجتْ الديدانُ الأخرى، فعلتُ الشيءَ نفسه؛ وضعتُ أوراق التوت على ورقة عادية، فتسلقتها جميعاً، وخرجتُ من الثقوب وأخذت تأكل. كانت الديدان تتجمّع على ورقة التوت وتَفْتكُ بها بادئةً من أطرافها. وعندما تلتهم كل شيء تزحف على الورقة العادية بحثاً عن غذاء آخر. وكنتُ أضع عليها

أوراقاً عادية مثقوبة، وعليها ورقة توت، فتزحف الديدان لتصل إلى الطعام الجديد.

كنتُ أرعاها في غرفتي على لوح خشبي، فإذا نفدت أوراق التوت. زحفت حتى أطراف اللوح، لكنها لم تكن تقع قط، مع أن الديدان عمياء. وما أن تصل الدودةُ إلى حافة الهوة حتى تُخرج من فمها، قبل أن تنزل، خيطاً كانت بفضله تلتصق بحافة اللوح الخشبي، فتنزل، وتتدلى، وتتّجه، وتنزل إلى الأسفل، على هواها، ثم تتسلق الخيط، إن شاءت أن تصعد.

لا تكفّ الديدان عن الأكل، وذلك أثناء ليالٍ وأيام كاملة. وكان ينبغي أن يُقدّم لها دائماً ورقُ التوت بكمياتٍ متزايدة أبداً. وعندما تقدّم لها أوراقُ التوت النضرة وتنتقل إليها، يُسمَعُ صوتٌ كصوت قطرات المطر ساقطةً على أوراق الأشجار؛ ذلك أنها بدأت تأكل.

إن الديدان التي خرجت من بزورها قبل غيرها عاشت على هذا النحو خمسة أيام. فكبرت كثيراً وأخذت تأكل أكثر من ذي قبل بعشر مرات. وكنت أعلم أنها ستنام في اليوم الخامس. وكنت أترقّب اللحظةَ التي سيحدثُ فيها ذلك. وبالفعل، إن إحدى هذه الديدان إلتصقت بالورق العادي، في اليوم الخامس مساء، وامتنعت عن الطعام والحركة.

في اليوم التالي راقبتُها طويلاً. كنتُ أعلم أن الديدان تنسلخ من جلدها عدة مرات، لأنها عندما تكبر تحسّ بالضيق في جلدها، فتلبس حينئذٍ جلداً جديداً.

كنا نرصدها، رفيقي وأنا، كل بدورره. وفي المساء، صاح بي:

ــ أخذتْ تنسلخُ، تعال.

جئتُ، وبالفعل، رأيتُ الدودةُ قد أَلصقت جلدها القديم بالورق العادي، وثقبت ثقباً حول الفم، وأخرجت رأسها، واضطربت في جميع الجهات، كأنها

تريد أن تخرج، وكأن جلدها القديم يَحْبسُها عن ذلك. راقبتُها طويلاً. رأيتُها تضطرب دون أن تنجح في التخلص منه. أردتُ أن أساعدها، فحككْتُها قليلاً بطرف ظفري؛ لكنني أدركت، على الفور، أنني إرتكبت حماقة. كان تحت ظفري شيءٌ سائل؛ وكفّتْ الدودةُ عن الحركة. أكان ذلك دمها؟ إعتقدت ذلك، في باديء الأمر؛ لكنني علمت أن للديدان تحت جلدها ضَرْباً من العصارة، من مادة دهنية تساعدها على الإنسلاخ من غشائها. ولا شك أنني أتلفتُ الغشاء الجديد، لأن هذه الدودة، وإن نجحت في الزحف خارجاً، إلاّ أنها لم تلبث أن ماتت.

لم أمسَّ دودةً بعد ذلك. جميعها خرجت من جلدها بالطريقة نفسها.. مات بعضها. لكن جميع الديدان تقريباً إنتهت، مع ذلك، بأن إنزلقت خارج غشائها القديم، بعد جهود طويلة ومؤلمة.

بعد أن إنسلخت الديدان من جلدها، على هذا النحو، إزداد أكلُها. وكان لا بد أيضاً من إستخدام كمية أكبر من أوراق التوت. وبعد أربعة أيام، نامت مرة أخرى، ثم أخذت تخرج من جلدها. وكان لا بد أيضاً من كمية أكبر من الورق. وقد بلغ طولُ الواحدة إذ ذاك حوالي ثلاثة سنتيمترات ونصف. وبعد ستة أيام، نامت مرة أخرى، وانسلخت من جلدها مرة أخرى؛ لقد غدت كبيرة جداً وضخمة، ولم نكن نهيء الأوراق الضرورية لها، في الوقت المناسب، إلاّ بشقّ النفس.

في اليوم التاسع، كفَّتْ عن الأكل أقدمُ الديدان تفتحاً، وتسلّقت زحفاً إلى أعلى الألواح والدعائم. جمعتُها ووضعتُ لها أوراقاً نضرةً، لكنها لوت رؤوسها وأعرضت عنها وهي تجرّ نفسها. عندما رأيتُ ذلك، تذكرتُ ما قيل لي: «حين تُشَرنِقُ الديدان، تكفّ عن الأكل وتأخذ في الصعود». تركتُها وشأنها وأخذتُ أراقب ما ستفعل.

الديدان المتفتحة قبل غيرها تسلّقت إلى السقف، وانفصل بعضها عن بعض، وجرّت نفسها، وأخذت كل دودة تمدّ خيطها في إتجاهات شتى. راقبت حركات إحدى الديدان، إنسلت إلى زاوية، ومدّت ستة خيوط، في كل الإتجاهات، على نحو أربع سنتيمترات ونصف منها، وتعلّقت بها وطوت نفسها طيتين على شكل حذوة الحصان، وأخذت تدير رأسها، مفرزة خيطاً حريرياً، بحيث أن الخيوط أخذت تلتفُ عليها. وحوالي المساء، كانت تبدو خلال نسيجها وكأنها خلال الضباب، فلا تكاد تُرى. وفي صباح اليوم التالي لم تكن ترى أبداً: كانت مُغشّاة بالحرير، دون أن تتوقف عن لف كبّتها. وبعد ثلاثة أيام توقفت وخَدِرتْ.

عرفتُ فيما بعد طولَ الخيط الذي تُفرزُه دودة القز في ثلاثة أيام. لو حللْنا الكبّة لوجدنا، على العموم، خيطاً يتجاوز أكثر من ألف متر، ونادراً ما يكون أقل من ذلك. وإذا حسبنا عدد دورات الرأس التي لا بد أن تكون قد دارتها الدودة، خلال هذه الأيام الثلاثة، لوجدنا أنها دارت حول نفسها، في هذه الأيام الثلاثة، ثلاثمائة ألف مرة. ومعنى ذلك أنها دارت دون توقف، دورة كاملة، كل ثانية.

ولذلك فلو أخذنا بعض الشرانق، عند إنتهاء العمل، وفتحناها، لوجدنا الديدان قد جفّت تماماً، وغدت بيضاء كالشمع، داخل شرانقها.

كنتُ أعلم حقّ العلم أن فراشات ستخرج من هذه الشرانق التي تحتوي على جثث شاحبة. كنت أعلم ذلك، لكني عندما نظرت إليها لم يكن بوسعي أن أصدّق ما رأيت. ومع ذلك فقد قضيت اليوم العشرين وهو اليوم الذي كنت أعلم أن التحوّل سيقع فيه، في مراقبة ما سيقع للشرانق التي إحتفظتُ بها.

لم يكن يُلاحظُ شيء، في الوقت الحاضر، وكنت أقول في نفسي: هناك اختلالٌ ما، عندما لاحظت أن طرف شرنقة غدت كامدة، رطبة. وتساءلت إن

كانت هذه الشرنقة لم تتلف، وأردت أن أرميها. لكنني قلت في نفسي: «أليست تبدأ الأمور على هذا النحو؟» وأخذت أرقبُ ما سيقع. وإذا بشيء ما ـ لم أدر ما هو ـ يتحرك خارج المكان الرطب. وظللتُ مدةً وأنا لا أميّز شيئاً. هذا الشيء الصغير بدا على شكل رأس صغير. فيه قَرْنا استشعار يتحركان. وبعد ذلك رأيت قائمة تخرج من الثقب الصغير، ثم رأيت قائمة ثانية؛ كانت تتشبث وتجهد للتخلص من الشرنقة. وكان شيء ما يخرج بمشقة متزايدة، وأخيراً تبيّنتُ أنها فراشة رطبةٌ. عندما تخلصت القوائمُ الستُ، خرجت المؤخرة بوثبة: لقد وُلدت الفراشة، وتوقفت دون أن تمضي. وعندما جفّت، غدت بيضاء، وفتحت جناحيها، وطارت، وحوّمت، وحطّت على النافذة، وبعد يومين وضعت بيوضها، كل بيضة بجنب الأخرى، على متّكأ النافذة وألصقتها فيها. ووضعت خمس وعشرون فراشة بيوضاً صغيرة صفراء، جمعت منها خمسة آلاف بيضة.

في السنة التالية، ربّيت ديدان القز بكمية أكبر؛ وحصلت على كمية أكبر من الحرير.

فِيلَةُ الملك

(مثل)

أمر ملكٌ هندي بجمع كل العُمْي، فلما حضروا أمر خادمه بأن يريهم فيلته. ذهب العمي إلى الإصطبل وأخذوا يجسّون الفيلة. جسّ أحدهم ساق الفيل؛ وجسّ الآخر ذيله؛ وجسّ رابعٌ بطنه، وجسَّ خامس ظهره؛ وجسّ سادسٌ أذنيه؛ وجسّ سابع نابه؛ وجسَّ ثامنٌ خرطومه. ثم دعا الملك العمي إليه وسألهم:

ــ ماذا تُشبه فيلتي؟

أجاب الأعمى الأول:

ـ فيلتُكَ تشبه الأعمدة.

كان هذا هو الذي جسّ الساقين. وأجاب الأعمى الثاني:

ـ إنها تشبه المكنسة.

وكان هذا هو الذي جسّ الذيل.

ـ إنها تشبه غصناً.

كان هذا هو الذي جسّ منشأ الذيل.

وقال الذي جسّ البطن:

ـ فيلتك تشبه كومة تراب.

وقال الذي جسّ الخاصرتين:

ـ إنها تشبه جداراً

وقال الذي جسّ الظهر:

ـ إنها تشبه خيلاً.

وقال الذي جسّ الأذنين:

ـ إنها تشبه المناديل.

وقال الذي جسّ الرأس:

ـ إنها تشبه كبشاً.

وقال الذي جسّ الناب:

ـ إنها تشبه القرون.

وقال الذي جسّ الخرطوم:

ـ إنها تشبه حبلاً غليظاً.

وأخذ هؤلاء العمي يتنازعون ويتخاصمون.

صيد الدب

(حكاية صياد)

كنا نصيدُ الدبَّ. كان رفيقي في الصيد محظوظاً لأنه رمى دباً فجرحه في لحمه: كان على الثلج شيء من الدم. وقد قال لي، حين إلتقينا في نقطة من الغابة: أفلت الدبُ مني، وتساءلنا: ما الرأي هل ينبغي أن نلاحقه، أو هل ينبغي أن ننتظر يومين أو ثلاثة أيام حتى يستريح؟ إستشرنا الفلاحين المختصين بهذا الصيد، والذين إستأجرناهم أمِنَ الممكن أم أن نطوق الطريدة؟ أعلن لنا رجل عجوز:

ـ لا سبيل إلى ذلك، في الوقت الحاضر. يجب أن يُعْطى الدب وقتاً كافياً ليهدأ. وبعد أربعة أيام أو خمسة تمكن محاصرته. أما إقتفاء أثره، في الساعة، فلا يعتدي تخويفه بلا نتيجة، لن يعود الآن إلى مقرّه.

أحد الفلاحين الشباب خالفه في الرأي: يمكننا منذ الآن تطويق الدب.

قال:

ـ في مثل هذا الثلج، وبسبب ضخامته. فهو لا يستطيع أن يذهب بعيداً. وسيتوقف اليوم بالذات. وإذا أخطأت فسألحق به مستخدماً نعل الثلج.

أما رفيقي فأشار بالإنتظار كما أشار الرجلُ العجوز.

قلت:

ـ ما الفائدة من هذا النقاش؟ أفعلاً ما تشاءان! «داميان» وأنا، سنتبعه. إن نجحنا فذلك شيء حسن، وإن لم ننجح فلا بأس؟ ولذلك فلن نفعل شيئاً اليوم، وما يزال النهار من أوله.

وكان رأيي هو الغالب.

رجع الآخرون بالزلاجة إلى القرية، وبقيت أنا وداميان في الغابة، وقد تزودنا بالخبز. وما إن ابتعد الجميع حتى فحصنا سلاحنا؛ ولكي تكون مشيتنا

أسهل دسّ كلٌّ منا أطراف معطفه المبطن بالفرو في زناره، ومضينا في أثر الحيوان.

كان الجو مناسباً: كان جليدياً بلا ريح. على أننا لم نكن نسير إلّا بصعوبة: كان الثلج سريع ألتفتت وعميقاً. لم يكن متكوّماً، في أية بقعة من الغابة، لكنه كان يرتخي تحت القدم. وقد سقط شيءٌ منه عشية البارحة؛ ولذلك كانت نعال الثلج تغوصُ خمسة عشر سنتيمتراً، بل وأكثر من ذلك في بعض المواضع.

كنا نلمح الأثرُ من بعيد، ونرى المكان الذي مرّ به الدبّ، وأين غاص حتى صدره، فتخلّص بأن قَلَبَ الثلجَ. مشيْنا أولاً تحت الأشجار الضخمة، دون أن تغيب آثارُه عنا.

حين وصلنا إلى حرجة صنوبر إنسلّ إليها الدب، توقّف داميان، وقال:

ــ الآن، يجب ألاّ نتعقب الأثر. هنا سيعود إلى جحره. هذا مؤكد. لقد إستراح عدة مرات، وهذا واضح على الثلج. لنبتعد عن الأثر، لندرْ حوله. لكن يجب ألا نصرخ، أو نسعل، أو نُحدث، ونحن نمشي، إلاّ أقل ما يمكن من الضجة. وإلاّ خاف وعجّل في الإنسحاب.

مِلْنا إلى اليسار. وبعد خمسمائة خطوة، ماذا رأينا؟ أثر الدب أمامنا! تبعناه مرة أخرى؛ فقادنا إلى طريق. توقفْنا لنتبيّن الإتجاه الذي سار فيه الدبّ. كانت على الطريق، في بعض المواضع، علاماتٌ جليّةٌ: لقد إنطبعت على الثلج خطواته، وميّزنا أصابعه؛ لكنّ مواضع أخرى كانت تبدو وكأن فلاحاً يحتذي حذاء خفيفاً قد مرّ بها. وكان الإتجاه فيها صوب القرية. تابعنا. قال داميان:

ــ ليس بنا حاجةٌ الآن للنظر عن كثب: فحيثما مال الدب عن الطريق يميناً أو شمالاً، ظهر ذلك على الثلج. ولا بد أنه إنحرف عن الطريق يميناً أو شمالاً؛ ومن المؤكد أنه لم يذهب إلى القرية.

بعد فرسخ، لاحظنا أن الأثر ترك الطريق. نظرنا عن كثب. ما معنى ذلك؟ هذا أثرٌ لكنه لا يتجه إلى الغابة، بل إنه آتٍ منها: فالبراثن متجهةٌ صوبَنا! قلتُ:

ـ هذا دبٌ آخر.

فحص داميان الأثر وفكّر لحظةً، وقال:

ـ لا، إنه الدبّ نفسه؛ لكنه رجعَ القهقري وهو يترك الطريق، لكي يَخدع مطارديه.

تبعْنا هذا الأثر الجديد. كان الأمرُ كما قال. لقد قطع الدب عشر خطوات وهو يسير ووجهه إلى الطريق، وانسل إلى خلف شجرة صنوبر، ودار على نفسه هناك، ثم تابع طريقه على خط مستقيم أمامه. وقف داميان:

ـ سننجح هذه المرة، ولن يفلت منا. لا خيار له. سنتوقف في هذا المستنقع. فلنطوّقْه.

وهذا ما فعلناه. كان لا بدّ لنا من إجتياز حرجة صنوبر ملتفّة. كنتُ مرهقاً؛ وازداد المشي، حتى بنعال الثلج، صعوبةً. وما كان أكثر العقبات! كانت تارة شجرة عرعر تنشب في قدمي؛ وتارة أخرى صنوبرة صغيرة تندسّ بين ساقيَّ، بغتةً. ولأني لم أتعود حذاءَ الثلج، فقد كان يلتوي، أو يصدم أرومة شجرة، أو جذع شجرة مقطوعة. كنتُ مُتْعباً، من غير شك. خلعتُ معطفي. كان عرق جبيني يسيل، بلا إنقطاع، في قطرات كبيرة. وداميان؟ داميان كان يمضي من غير أن يعوقه عائق، وكأن حذاء الثلج كأنما يمشي وحده، لم يَكن حذاؤه يلتوي ولم يكن يعلق في شيء. وكان يرتدي معطفه ولا يني يشجّعني.

درنا دائرةً من ثلاثة فراسخ لمحاصرة الدبّ في المستنقع. كنت متخلّفاً عنه وإذا بحذائي ينطوي وإذا بقدماي ترتبكان مرة أخرى. وكان داميان قد

سبقني. فوقف فجأة ونبّهني بإشارة منه. لحقتُ به. إنحنى علي وهمس في أذني، وإصبعه ممدودةٌ:

ــ أترى هذا العقعق الذي يصيح هناك، على ذلك الغصن المكسور. الدب هنا. لقد شمّ هذا الطائر ريح الحيوان من بعيد.

تراجعْنا قليلاً ووقعنا على الأثر القديم. وهذا دليل على أننا أحكمنا الدورة حوله، وأنه في مركز الدائرة. توقفنا، ورفعت قبّعتي، واسترحتُ. كنت كأنني خارج من الحمّام. كنتُ مبللاً بالعرق. داميان نفسه أحسّ بالحرارة؛ لقد إحمرّ وجهُه وأخذ يمسحه بكمّ معطفه.

قال:

ــ إيه! لقد نجحنا في مهمتنا! والآن، يجب أن نستريح.

إحمرّت الغابةُ إذ إخترقتها أشعةُ الشمس الغاربة. جلسنا على أحذيتنا، وأخرجنا من مزودينا خبزاً وملحاً. رويتُ عطشي بالثلج، ثم أكلتُ. ما كان أشهى ذلك الخبز! لم أذقْ في حياتي ما هو أشهى منه! بقينا هكذا مدةً من الزمن، أخذت العتمةُ تنتشر. سألتُ داميان إذا كانت القرية بعيدةً. قال:

ــ يجب أن نعدّ ثلاثة أميال كاملة. سنصلها في الليل. أما الآن فيجب أن نستريح. إلبسْ معطفك، ستُصاب بالزكام.

كسّر داميان حزمة من أغصان الصنوبر، وهزّها وصنع منها سريراً تمددّنا عليه الواحد بجنب الآخر، ويدا كل منا تحت رأسه. لا أدري كيف نمتُ. لكني أذكر أنني استيقظت بعد ساعتين. وتقصّفَ شيءٌ.

نمتُ نوماً عميقاً جداً حتى لم أعد أعرف أين أنا. نظرت حولي. أأنا في حلم؟ أين أنا؟ ما ذلك القصر ذو الأعمدة البيضاء التي تلتمع بشذرات الذهب؟ كنتُ أرى فوقي، إذا رفعتُ رأسي، قبة سوداء مفضّضة بأغصان فضّية، تنقّطها هنا وهناك أنوار متعددة الألوان نظرتُ طويلاً. قلتُ في نفسي: آه! إنما هذه هي

الغابة؛ وأعمدة القصر هي الأشجار المغطاة بالثلج والصَبَرُ، وأنوار القبة هي النجوم التي تلألأت بين الأغصان، في السماء.

تساقط الصبر أثناء الليل. تساقطَ على الأغصان، على معطفي. تغطّى به داميان. تساقطَ من الأشجار. أيقظتُ رفيقي واحتذينا أحذية الثلج وذهبنا. كان صرير نعالنا التي تصك الثلج المتفتّت، واصطفاق جاف في مكان بعيد، وتقصّفُ شجرة تحت الجليد، كان ذلك هو كل ما يعكّر صمتَ الموت في الغابة. على أن شيئاً حياً، نهضَ ذات مرة، على مقربة منا. لم أشك في أنه الدبّ. دنونا من الموضع الذي طلع منه الصوتُ. وجدنا آثار أرنب قرب شجرة حور فتيّة مقروضة. لم يكن ذاك الذي سمعناه سوى أرانب ترعى.

عند خروجنا من الغابة، وبعد أن عثرنا على الطريق، نزعنا حذاء الثلج، فتخفّفنا، وتابعنا سيرنا بالجزمة. كنا نتقدّم بسهولة، والثلج يطقطق تحت أقدامنا، ساحبين أحذية الثلج التي كانت تنطّ خلفنا بضجةٍ على الدرب المطروق. كان الثلج يُلصق بوجوهنا زَغَباً متجمّداً. وكانت النجوم تركض نحونا على طول الأغصان، فتلتمع لحظة ثم تنطفىء: فكأن السماء كلها كانت ترتجّ.

لقيتُ رفيقَ صيدي نائماً في القرية، فأيقظته. أخبرناه داميان وأنا كيف طوّقنا الدب. وأصدرنا أوامرنا لإخبار حائشي الطرائد أن يكونوا مستعدين في صباح الغد. وبعد أن تعشّينا نمنا.

لولا صديقي الذي أيقظني وأنا مذعورٌ، لنمتُ حتى الظهر، لفرط ما كنتُ متعباً، رأيته بغتةً أمامي مزداناً بعُدّة الصيد، يعالج بندقيته.

قلتُ:

ــ وداميان؟

ــ داميان ذهب إلى الغابة، منذ مدة طويلة. تحقّق بين مكمن الدب، ورجع بسرعة، ثم عاد مرة أخرى ومعه حائشو الطرائد ليعيّن لهم أماكنهم.

إغتسلت وارتديت ملابسي وعبّأت بندقيتيّ، وصعدنا إلى الزلّاجة، وذهبنا.

كان كل شيء هادئاً، وقد حجب الشمسَ ضبابُ السماء. كان النهار جليدياً وظلّ الصَبَرُ يتساقط.

قطعنا ثلاثة فراسخ بالزلاجة، ووصلنا إلى مكان قريب من الغابة، بمرأى من دخان خفيف كان يتصاعد من أعماق مكمن، وحول النار ازدحم الفلاحون والفلاحات وهم مسلّحون بهراواتهم.

نزلنا من الزلاجة، وذهبنا إليهم كان الرجال الجالسون يشوون البطاطا في رماد النار، وهم يثرثرون مع النساء. كان داميان بينهم. طلب إلى الجميع أن ينهضوا، ووضعهم في مواضع على الدائرة التي قطعتُها معه عشية البارحة: كانوا ثلاثين شخصاً يسيرون متتابعين ويتوارون في الثلج. لم تكن تُرى سوقُهم. وعندما دلفوا إلى الغابة، لحقْنا بهم أنا ورفيقي.

كنّا نتقدّم بمشقة مع أن الطريق قد شقّه الحائشون. وعلى كل حال، كان من غير الممكن أن نقع يميناً أو يساراً، إذ كان يكتنفنا جداران من الثلج.

قطعنا هكذا قرابةَ نصف فرسخ، فرأينا داميان يركض بحذاء الثلج. أومأ إلينا بأن نلحق به، وعيَّن لنا أماكننا.

ولما كمنتُ نظرتُ حولي. كانت على يساري غابةٌ من الصنوبر العالي. وكانت جذوعُها المتباعدة تُتيح لي أن أنظر بعيداً لألمح هناك بقعة سمراء: كان هذا أحد الحائشين. وأمامي دغل بعلوّ الإنسان؛ وكانت أغصان الصنوبر التي تثنّتْ تحت ثقل الثلج تشكل كتلةً واحدة. وأمامي مباشرة دربٌ من الثلج الذي داسته الأقدام، يقطع حرجةَ الصنوبر. وإلى يميني حرجةٌ أخرى من الصنوبر الشديدة الكثافة تنتهي بفرجة. وفيها حدّد داميان لرفيقي مكمنه.

فحصتُ بندقيتيّ وصلْيتُها، وأنا أتساءل أيّ المواضع خيرٌ لي. «لو وقفتُ

هنا ومعي البندقية الإحتياطية، مستندةً إلى جذع تلك الصنوبرة العظيمة، على ثلاث خطوات خلفي؟». في هذا الثلج الذي يبلغُ الزنار، كنت أرفع نفسي وأهّيء سطحاً لا تكاد مساحته تصل إلى المتر مُمّهداً الأرض بقدمّي. إتخذت موضعي فيه وبندقيتي بيدي، والبندقيّة الأخرى مصليّة أيضاً، ومستندة إلى جذع الشجرة، وهي في متناول يدي. وتأكّدت من أنني أستطيع، عند الحاجة، أن أستلّ بسهولة خنجري من غمده.

وأخيراً أتممتُ استعدادي عندما سمعتُ صوتَ داميان في الغابة:

ــ هيا، سيروا! سيروا!

فارتفعت مباشرةً، على دائرة الحائشين أصوات بنبراتٍ شتى: «سيروا! هو! هو! كان ذلك صوت الرجال. وأجابته أصوات النساء: آي! هي!.

كان الدبّ في الدائرة حقاً، وأخذ داميان يطارده. من حولنا علت الصرخاتُ. وكنّا وحدنا، رفيقي وأنا، متنبّهين، صامتين، بلا حراك، ننتظر الدب.

كنتُ واقفاً، مترصداً، متنّصتاً، خفّاق القلب، جاهزاً للرمي. وبين الحين والحين تنتابني رعشةٌ. كنتُ أقول في نفسي: «سيخرج، وسأصوّب، وسأطلق النار، وسيُصرَع...» وفجأة سمعت صوتاً على يساري، صوت ثلج يَنْهار، صوتاً ما يزال بعيداً. نظرتُ إلى ناحية الصنوبرات الكبيرة. رأيتُ على خمسين خطوةً تقريباً، خلف الأشجار كتلةً سوداء. أسندتُ بندقيتي إلى كتفي وانتظرتُ. ألن تتحرك الكتلة، ألن تركض نحوي؟ حرّك الحيوان أذنيه واستدار نصف دورة فعَرضَ لي جانبه. رأيته كله: كان حيواناً ضخماً. لم أستطع أن أَحْبِس الطلقة. باف! صوت رصاصة على شجرة. وخلال الدخان، رأيتُ الدبُ يسرع في الفرار. كان يركض بأقصى سرعته نحو الحائشين.

وغاب في الغابة، فلم أعد أراه. قلتُ في نفسي: «فشل المشروعُ. لن

يعود إليّ بعد الآن. سيرميه رفيقي، أو سيجتاز دائرة الحائشين. المؤكد أنه لن يعود نحوي بعد الآن. على أني لزمتُ مكاني، وعبّأتُ بندقيتي، وأصغيتُ إلى النداءات التي تعالت من كل مكان. كانت أصوات الفلاحين. ثم إني سمعتُ، إلى اليمين، من جهة رفيقي، صرخات غريبة. كان الصوتُ صوتَ امرأة. «هوذا! هوذا! هوذا! من هنا! أوه! آبي! آبي!

لا شك أن الدبُ كان بمرأى من هذه المرأة. أنا لم أعد أنتظر شيئاً يأتي صوبي، وكنت أنظر إلى اليمين، إلى ما كان يفعله رفيقي. وإذا بداميان، وعصان في يده، وبدون حذاء الثلج، يصل إليه من الطريق، راكضاً. ويجلس القرفصاء ويسدَّد عصاه. رأيت رفيقي يشدّ بندقيته إلى كتفه، ويصوّب في الاتجاه الذي سدَّد فيه داميان عصاه. قلتُ في نفسي: «النار! تمّ الأمرُ وقتله». لكن صاحبي لم يتحرك. لم أره يركض نحو الحيوان، لأنه أخطأه من غير شك، أو لأن الرصاصة لم تبلغ الهدف. انتهى الأمرُ الآن، سيعود الدب على أعقابه، ولن يكون على مرمى البندقية! ما هذا؟ رأيتُ فجأةً شيئاً أمامي يمرّ كالزوبعة.

هذا الشيء قد هدم الثلج بقربي، وهو ينفخ نفخاً شديداً. هو ذا الدب. إنه يسيرعلى الدرب ويتّجه مباشرةً إلي، وهو يزيح الأغصان؛ إنه هائجٌ. صار على خمس خطوات فقط، وأنا أراه بكامل جسمه؛ صدره أسود، ورأسه موشّى بالشقرة. إنه ينقضّ خافضاً رأسه، والثلج يتطاير من حوله. لم يلمحني؛ لم تَلْتقِ عيونُنا. إنه ينقض دون أن يرى شيئاً. لكن اندفاعته المجنونة تحمله إلى الصنوبرة التي أنتظر عندها واقفاً. فأرفع بندقيتي إلى كتفي، وأطلق النار. ها هو يزداد قرباً. مرّت الطلقة بقربه، ولم يَسمعْ شيئاً، وهو يجري نحوي. أكاد ألمس رأسه بفوهة بندقيتي. نار! لم أخطئهُ هذه المرة، لكني لم أقتلهُ.

ويرفع الدبُّ رأسه، ويضم أذنيه، ويكشف عن أسنانه، ويزحف نحوي. فأمسكُ ببندقيتي الأخرى. لم أكد أتناولها حتى علاني، وقَلَبني على الثلج وتجاوزني. قلت في نفسي: «من حسن الحظّ أنه تركني. كنتُ أنهض عندما رأيتني وقد سحقني شيءٌ يُمسك بـي ذلك إن الحيوان قد قفز من فوقي، محمولاً باندفاعته، لكنه عاد على أعقابه وارتمى عليّ بكل كتلته. ثقلٌ شديدٌ يضغط عليّ؛ أحسُّ بشيء ساخن على وجهي، أصبح رأسي بين فكي الدب، وأنفي في فمه. أحسست بالسخونة، وبرائحة الدم. لقد ثبّت كتفي بقوائمه فلست أستطيع حراكاً. على أني نجحتُ في ردّ رأسي إلى صدري، وحاولت تخليص أنفي وعيني. لكن ما يريد أن يقبض عليه بالضبط هو أنفي وعيني. فيغرز أسنانه العليا في جبهتي، تحت الشعر تماماً، وينشب أسنانه السفلى في وجنتيّ، ويقرّب الفكين أحدهما من الآخر، فيسحق اللحم، رأسي يُشطَب شطباً. فأقاوم وأتخبّط. ولا يُضيع الحيوان وقته؛ فيقرضني، ويلوكني بصوت عظيم. هل تخلّصت للحظة فقط: فهأنا ذا أؤخَذُ ثانيةً. قلتُ في نفسي: قضيَ علي، هذه المرة. وفجأة أحسست بأنني تخففتُ. وأنظرُ فلا أرى دباً لقد تركني وهرب.

عندما رآني رفيقي ودامیان منقلباً على الثلج مهاجماً ومعضوضاً، هرعاً إليّ، أخطأ رفيقي التقدير، في عجلته، فاختار أقصر خطّ مستقيم، بدلاً من أن يسلك الدرب المطروق، ووقع. وبينما كان يتخبط في الثلج، كان الحيوان ما يزال يقرض رأسي. ووصل داميان من الطريق، وهو يركض، ولا سلاح له إلاّ عصاه. وكان يصيح: «افترسَ الدبُّ معلّمنا! افترسَه!». وأوسَع الدبَّ سباً: «أيها الثقيل، الغليظ، الدنيء! ماذا تفعل! هلا تركتَه! هيّا اتركّه!

أطاعه الدبُّ، وتركني وهرب. وعندما نهضتُ، كان على الثلج دمٌ كثير: فكأنما ذبح خروف. وكانت مزقٌ من اللحم تتدلّى تحت عيني. ولم أكن أحسّ بشيء، إذ كنت ما أزال في حميا الاستنفار، وأحاب بـي صاحبـي، والحائشون

والنساء. وفحصت جروحي، ونظّفت بالثلج. أما أنا فنسيت أنني جريح. «أين الدب، إلى أين ذهب؟». وفجأة سمعنا صراخاً: «ها هو ذا!». والواقع أنه كان يجري عائداً. أمسكنها ببنادقنا، لكن لم يُتح لأحد أن يطلق النار. وبالرغم من هياجه، ومن رغبته في العض، فإن هذه الكثرة من الناس قد أخافته. كان يخلّف وراءه خطاً أحمر. كان جريحاً في رأسه. وكان بودّنا لو نتبعه، لكن رأسي بدأ يؤلمني ألماً شديداً، فذهبنا إلى المدينة بحثاً عن طبيب. وخاط لي الطبيبُ الجراح فالتأمت.

بعد شهر، ذهبنا مرة أخرى نبحث عن الدب نفسه، لكني لم أسعدْ بالإجهاز عليه. لم يكن ليبتعد عن مكمنه. كان يجول فيه وهو يرسل تضوّراً مرعباً. ولم نستطع أن نحمله على الخروج منه. وفي نهاية الأمر، أجهز عليه «داميان». كانت طلقتي قد طبّرتْ أحدَ أسنانه، وكسرت فكّه الأسفل.

كان حيواناً ضخماً وكان فروهُ الأسود جميلاً جداً حتى إني أرسلته ليجهّز، ولتُصنع منه سجادة، وهي ما تزال عندي. أما جراحي فقد التأمت، ولا تكاد الندوبُ ترى.

الدجاجة الحاضنة والفراخ

(مثل)

انتهت دجاجة من حضن كتاكيتها ولم تكن تعلم كيف تحرسها. قالت لها:

ــ عودي إلى قشرتك، فإذا عدتِ إليها حضنتكِ، كما كنت أحضنك من قبل، وستكونين في مأمن.

أطاعت الكتاكيتُ، وحاولت أن تعود إلى قشرتها، لكنها لم تُفلح في

ذلك؛ بل إنها خَدَشت أجنحتها. حينئذٍ قال كتكوت لأمه:

ـ إن كان المطلوب أن نبقى في قشرتنا فقد كان الأجدرُ بك ألاَّ تحضنينا!

الغازات

(موضوعٌ للمحادثة)

لا يظل الهواء على حاله، مع أنه شفّاف دائماً.

ينتشر الماءُ في الهواء، ويتبخّر؛ وعندما يحتوي الهواء على الكثير منه، فإنه يغدو رطباً؛ وإذا لم يكن فيه سوى القليل منه، فإنه يغدو جافاً. إذا تنشّق الناسُ الهواء في مكان مغلق، غدا الهواء نتناً ضارًّا بالصحة، في حين أنه صحي، في الأماكن المكشوفة أو في الغابة؛ أنه الهواء الطلق. ذلك ناجمٌ عن أن الهواء العادي، في غرفة مغلقة، قد انضاف إليه الهواءُ الفاسد الذي يبعثه الناسُ وجميعُ الحيوانات.

لا بدّ أن يكون الهواء إذن مزيجاً من عدة عناصر لا تستطيع عيوننا أن تميّزها؛ فجميعها تشبه الهواء. هذه العناصر المختلفة، هذه الغازات المتعددة، متمازجة في الهواء، شأنها شأن الماء إذا مُزج به الخل أو الكحول، فلو صببنا كحولاً في الماء لامتزج الماء والكحول إلى الحد الذي لا تتبين فهي العين إن كان في الماء كحول، وإن كان فيه الكثير أو القليل من الكحول. ولكي نتبين ذلك لا بد من أن نشمّ؛ والأمر كذلك، بالقياس إلى الهواء؛ فهو مزيجٌ لا يمكن تقديره بالنظر؛ ولا ينكشف نوعه إلاَّ بشرط أن تتنفسه طويلاً.

إنه لمن السار والصحي أن نتنفس في الهواء الطلق؛ أما في الهواء الحبيس فالتنفس شاق وغير صحي أحياناً. وأكثر العناصر ضرورة للتنفس، بين عناصر الهواء هو ما يُدعى الأوكسيجين. ولو فصلنا هذا الغاز وأدخلنا فيه عود ثقاب لم تبق فيه سوى نقطة حمراء لاشتعل رأساً. ولذلك فإن الخشب أو أي شيء آخر

يشتعل اشتعالاً أقوى، بسبب هذا الغاز. لكنا لو أدخلنا في الهواء الخالي من الأوكسجين شرارة لانطفأت.

الهواء ضروري للاحتراق لأنه يحتوي على الأوكسجين. لإشعال النار، تنفخ عليها، تهوّي. أتريد، على العكس من ذلك، أطفأ ما اشتعل، حاول ألا يكون حوله هواء، غَطه، سند الفتحات من جميع الجهات: سوف ينطفىء ما كان يشتعل.

العنصر الثاني في الهواء هو الآزوت. ولا يمكن تنفّسه، ولا إشعال أي شيء فيه، أياً كان ذلك الشيء.

العنصر الثالث هو حمض الفحم. وهو كالآزوت لا يصلح للتنفس والاحتراق. ولا يحتوي الهواء على الكثير من هذا الغاز؛ لكنه موجود في كل مكان. فإذا وُجد بكمية كبيرة هبط وكوّن في الأسفل، طبقة وذلك لأنه أثقل من الغازات الأخرى.

العنصر الرابع هو بخار الماء، الماء المتبخّر. عندما نتنفس، يمتص جسمنا الأوكسيجين، وفي الهواء الذي نزفره أوكسيجين أقل مما في الهواء العادي، وفيه، بالمقابل كمية أكبر من حمض الفحم. ولذلك يغدو الهواء فاسداً إذا كان متنفَّساً.

الأشجار والأعشاب وجميع النباتات تتنفس أيضاً. لكنها لا تتنفس الهواء كما نتنفّسه، بالصدر؛ بل أنها تجمعه بجميع أوراقها الصغيرة وبلحائها الفتي. وهذه الأوراق الصغيرة تزفر الهواء أيضاً دون أن نراه، وهو هواء غير الهواء العادي أيضاً: أنه يحتوي على كمية أقل من حمض الفحم، وعلى كمية أكبر من الأوكسجين. وأذن فالنباتات بحاجة إلى نفس هذا الحمض الذي هو مضرٌّ بالنسبة إلى الكائنات الحية الأخرى. ولذلك فإن الهواء، في الغابة، صحي جداً: ففي الغابة كميةٌ أقل من حمض الفحم وكمية أكبر من الأوكسجين.

[٢]

لو ألقينا في سطل ماء حجارة، وسدادات فلّين، وقشًّا، وخشباً يابساً، وخشباً رطباً، ولو أسقطنا فيه رملاً وفخاراً وملحاً، ولو سكبنا فيه زيتاً وكحولاً، وخلطنا ذلك كله ومزجناه، فسوف نرى أن الحجارة والفخار والرمل ترسب إلى القاع، وأن القش والخشب والفلّين والزيت ستطفو، وسوف يمتزج الزيت والكحول بالماء امتزجاً شديداً بحيث أننا لن نراهما. فكل ما ذكر سابقاً سيدور، في البداية، وسيتحرك، وستدفع القطع بعضها بعضاً، ثم يستقر كلٌّ شيء في مكانه، وسيكف عن الحركة: أثقلُ الأشياء أسرعها ذهاباً إلى القاع، وأخفّها أسرعها صعوداً إلى السطح.

وهذا ما يجري أيضاً في الهواء، فوق الأرض: إذ تتوزع الغازات فيه. فأثقلُ الغازات يهبط، وما هو أقلّ ثقلاً يتصاعد؛ أم الغازات التي يمكن أن تذوب، فهي تنتشر في كل مكان، في الفضاء.

لو أن الغازات لا تتجدد، ولا يمتزج بعضها ببعض، لظل الهواء بلا حراك فوق الأرض، شأنه شأن الماء عندما يكف عن الحركة في السطل. لكن غازات جديدة تتشكل، بلا انقطاع على الأرض، والغازات الموجودة تمتزج بعناصر أخرى.

كل إنسان، كل حيوان، عندما يتنفس يختار من الهواء الأوكسجين ويمزجه في ذاته بالعناصر التي يتكوّن منها جسده، والغاز الذي يرده من فمه غير الغاز الذي امتصه. أما النباتات والعشب والأشجار فتمتص ـ ما استمرّ النهارُ ـ حمض الكربون، وتطرح الأوكسجين. الماء هنا يتحوّل من سائل إلى بخار، غازاً مكوناً من الماء، بخاراً لا يرى، وفي مكان آخر، يغدو الماء المتبخر سائلاً. ومن هنا ينجمُ أن مختلف الغازات متحركة أبداً في الهواء: أخفها يصعد، وأثقلها يهبط، شأنها شأن مختلف الأشياء التي وضعناها في السطل المملوء ماء.

أكثر من ذلك أن الهواء بأكمله في حركة وذلك لأنه يصعد عندما يَسْخن في مكان، ويهبط عندما يبرد. فعندما تلقي الشمس، في يوم مشمس، أشعتها مائلة من النافذة، نرى الهباء يدوم، ويرقص ويصعد ويهبط. أنه الهواء البارد والساخن الذي يحوّم ويحمل الهباء الخفيف معه.

الأسد والحمار والثعلب[1]

(مثل)

ذهب الأسد والحمار والثعلب إلى الصيد. اصطاد الثلاثة كثيراً من الحيوانات الضخمة، وأمر الأسد الحمار أن يقوم بالقسمة. قسم الحمار الصيد إلى ثلاثة أقسام متساوية، وقال:

ــ هيا، الآن، تقدّموا إلى الطعام.

غضب الأسد وأكل الحمار، وأمر الثعلب أني شرع في قسمة جديدة جمع الثعلب كل الغنيمة في كومة واحدة، ولم يحتفظ لنفسه إلاَّ بالشيء الطفيف. نظر الأسد وقال:

ــ هيه، هيه، ليست تنقصك الفطنة! ومن علّمك أن تحسن القسمة؟ قال الثعلب:

ــ إيه! والحمار ؟ ماذا أصابه. . . ؟

الحورة العتيقة

(حكاية)

كان بستاننا مهجوراً، منذ خمس سنوات؛ استأجرت عمالاً، فجاؤوا بفؤوسهم ومجارفهم. أخذنا نشذب ونقلّم كل ما كان جافًّا، والأغصان البرية في الأشجار والأدغال.

---

(١) ايزوب: «الأسد والحمار والثعلب».

وكانت حورةٌ وشجرة كرز عنقودية[١] قد نمتا وخنقتا الأشجار الأخرى. والحور إنما يتكاثر من جذوره. ومن المستحيل التخلّص منه باقتلاعه: يجب قطع الجذور في الأرض. كانت هذه الحورة ضخمةٌ، تنتصبُ في الجهة الأخرى من الغدير ولا بد من أذرع رجلين للإحاطة بها. وكانت حولها فرجةٌ اجتاحتها فراخ الحور. أمرتُ بقطع هذه الشجيرات؛ أردت أن أجعل المكان أقل كثافةً وأن أخفّف عن الشجرة العتيقة... وكنت أقول في نفسي: «كل هذه الشجيرات المفرّخة تنطلق منها وتمتصّ نسغها».

بينما كنا نقطع هذه الفراخ، كانت تأخذني الشفقة أحياناً عندما كنّا نبذل قصارى جهدنا، ونحن نشدها من أسفلها فلا نتمكن من اقتلاع إحداهما بعد أن نكون قد قطعنا تحتها، بضربات فؤوسنا، جذورها الملأى بالنسغ. كانت الحورة الصغيرة تقاوم بكل قواها وتأبى أن تموت. وفكّرتُ: «لا بد أن الحياة ضرورية لها إذا كانت تتمسّك بالحياة إلى هذا الحد». لكن كان لا بدّ من القطع، وكنتُ أقطع. ولم أعلم إلاّ فيما بعد، وبعد فوات الأوان، أنه لم تكن هناك حاجة إلى اجتثاثها.

كنتُ أعتقد أن هذه الشجيرات الطالعة تنتزع من الحورة العتيقة نسغَها كله، وكانت الحقيقة بعكس ذلك تماماً. وفي الوقت الذي كنت أقطعها فيها، كانت الحورة العتيقة في سبيلها إلى الموت.. وعندما تغطت بالورق لاحظتُ أن أحد غصنيها الأساسيين ــ وكانت شجرة متشعبة ــ عارٍ من الورق، ثم جفّ منذ الصيف التالي. كانت تلك الحورة تموت منذ زمن بعيد، وكانت تعلم ذلك، ولذلك، كانت تسعى، قبل أن تموت، أن تهب تلك الشجيرات التي ستخلفها كل ما بقي لها من حياة.

ولذلك كانت تلك الشجيرات تنمو بسرعة شديدة، وأنا الذي أراد أن يخفّف عنها، لم أنجحْ إلاّ في قتل أولادها.

---

(١) هي شجرة كرز عظيمة، برية، أزهارها البيضاء تتفتح قبل أوراقها.

شجرة الكرز العنقودية

(حكاية)

نمتْ شجرة كرز عنقودية خارجة من بستان بندق على الدرب خانقة أشجار البندق. وطالما تساءلتُ إن كان يجب أن أقطعها أولاً: كان ذلك يملؤني بالغم. . لم تكن هذه الشجرة طالعة في منسغة، بل إنها كانت تكبر كما تكبر الشجرة؛ كان محيطها ثمانية عشر سنتمتراً وارتفاعها ثمانية عشر قدماً. كانت شجرةً متشعبة، ملتفّة الأغصان، منقّطة، في جميع جهاتها بالأزهار الأرجة الناصعة البياض. وكان أريجها يُشَم من بعيد.

كنتُ قد أمرتُ أحد العمال، قبل زمن، بقطعها. وما كنتُ لأقطعها، في هذا اليوم، لولا أنه بدأ بالقطع دون أن يخبرني. وحين وصلتُ إلى المكان، كان قد شقّها على عمق ستة سنتمترات. كان النسغ، ينبجس، كان ينبجس من الشقّ عندما تصيبها الفأس. قلتُ في نفسي: «قُضي الأمر، لا شك أنه القدر؛ وتناولتُ أنا نفسي فأساً، وشرعتُ في العمل مع الفلاح»!

لم أعد أفكّر في الكرزة، لم أعد أفكر إلاَّ في العمل، في قطع الشجرة بأسرع ما يمكن. فلما ضاق نَفَسي، ألقيت فأسي، ثم استندتُ إليها بكل ثقلي، وحاولتُ، بمساعدة الفلاح، أن أنيمها على الأرض. هززْنا الشجرة؛ كانت ترتجف بكل أوراقها وتنفض علينا، مع قطرات الندى، أوراق أزهارها البيضاء العطرة.

وفي الوقت نفسه، سمع، في وسط الشجرة، تقصف، صراخ؛ ودفعناها بقوة أكبر فكان منها ما يشبه الأنين ـ أخذت الشجرة تنشقّ من وسطها بضجة؛ وانهارت على العشب، في أغصانها وأوراقها، وهي راجفة. وارتجفت الأغصان والأزهار برهة بعد سقوط الشجرة، ثم استقرت بلا حراك.

قال الفلاح:

ــ ما أجملها من شجرة. النظر إليها مؤلمٌ.

وأنا آلمني ذلك إيلاماً شديداً حتى لقد أسرعت إلى اللحاق بالعمال الآخرين.

كيف تسير الأشجار

(حكاية)

كنا ننظّف ذات يوم، درباً اجتاحته الأعشاب، قرب الغدير، على تلّة صغيرة. قطعنا الكثير من النسرين والصفصاف والحور. وجاء دورُ كرزة عنقودية.

طلعت هذه الكرزة في وسط الطريق: كانت تبدو عتيقةً جداً، ضخمةً جداً بحيث لا يمكن أن يقل عمرها عن عشر سنوات. وكنت أعلم أن البستان نُظّف قبل خمس سنوات. فلم أستطع أن أفهم كيف استطاعت مثل هذه الكرزة العتيقة أن تنبت هنا. قطعناها وتابعنا تنظيفنا.

وجدنا، في منسغة أخرى، كرزةً عنقودية أخرى، وكانت أضخم من تلك، فحصتُ جذرها فاكتشفت أنه يسير تحت زيزفونة عتيقة كانت تخنق الكرزة بأغصانها؛ كانت الكرزةُ تزحف على الأرض على طول تسعة أقدام، دفعة واحدة: عندما بلغت الضوءَ رفعت رأسها وأخذت تزهر. قطعتُها من جذرها ودهشت، من أنها كانت غضةً إلى هذا الحدّ في حين كان الجذر متعفناً جداً. عندما قطعناها، العامل وأنا، أردنا أن نسحبها بعيداً عن الطريق، لكننا لم نستطع تحريكها، بالرغم من مجهودنا. فكأنما كانت ملتصقة بالأرض، قلتُ:

ــ انظرْ إن كانت ما تزال معلّقة بالأرض في موضع ما؟

انحنى الفلاح ليفحص الشجرة، وصاح:

ـ ذلك لأن لها جذراً آخر! انظرْ، هناك، على الطريق.

اقتربت من العامل فرأيت أن ما قاله صحيح..

إن الكرزة، قد مرّت بين أغصان الزيزفونة، لتبلغَ الدربَ على ستة أقدام من جذرها الأول، وذلك كيلا تخنقها تلك الزيزفونة. والجذر الذي كنتُ قطعتهُ كان متعفناً وجافاً، بينما كان هذا غضاً.

لقد أحست الكرزة، من غير شك، أن ليس لها من حياة ممكنة في ظل الزيزفونة. فتمدّدت، وتشبّثت بالأرض من أحد أغصانها، وأنشأ هذا الغصن له جذراً؛ أما الجذر الآخر فاستغنت عنه.

حينئذٍ فقط علمتُ كيف استطاعت الكرزة الأولى أن تنبت على الطريق. لقد أرادت هي أيضاً أن تفعل الشيء نفسه؛ لكنها نجحت كليًا في طَرْح الجذر القديم، الذي غدا بدون نفع؛ بحيث أني لم أستطع العثور عليه.

الصِفرد وأنثاه

(مثل)

بنى صفردٌ عشاً له في الحقل، في وقتٍ متأخر؛ كانت أنثاه ما تزال تحتضن البيض زمن حش الكلأ. وذات صباح، وصل الفلاحون، إلى الحقل، مبكّرين. فخلعوا سترهم، وشحذوا مناجلهم، وأخذوا يحصدون العشب، الواحد وراء الآخر، تاركين وراءهم حصيدَهم. خرج الصِفْرد طائراً ليرى ما يفعله الحَصَدة؛ رأى واحداً منهم يضربُ أفعى بمنجله فيشطرها شطرين، ففرح بذلك كثيراً، وعاد إلى أنثاه طائراً، وقال لها:

ـ لا تخافي من هؤلاء الفلاحين. لقد جاؤوا ليقطّعوا الأفاعي؛ فطالما سمّمت هذه الأفاعي حياتنا.

أجابت الأنثى:

ـ الفلاحون يقطعون العشب، وحين يقطعونه يقطعون كل ما يقع تحت مناجلهم، أكان أفعى أو عشاً أو رأس صفرد. قلبي لا يتوجّس خيراً، وأنا لا أستطيع أن أحمل البيض، ولا أستطيع أن أطير عن العش خوفاً من أن يبرد البيض.

عندما بلغ الحَصَدة عشّ الصفرد، قطع أحدهم بضربة منجل رأس الأنثى؛ أما البيض فوضعه في زنارة ووزّعه على الأولاد ليلعبوا به.

بناء المناطيد

(موضوع للمحادثة)

لو أخذنا بالوناً منفوخاً بالهواء، وغمسناه في الماء، ثم تركناه، لَطَفا ولَعامَ على الماء. وهذا ما يحدث تماماً عندما نغلي قدراً مملوءة بالماء؛ ففي القاع، يتبخّر الماءُ عند تعرّضه للنار، ويغدو غازاً يطفو على السطح بشكل فقّاعات. تظهر، في بادىء الأمر، فُقّاعةً، ثم تظهر ثانيةً، وعندما يسخن الماء كله تثبُ الفقاعاتُ بلا انقطاع: الماءُ يغلي.

وكما أن الفقاعات المنفوخة بالماء المتبخّر تثبُ خارج الماء لأنها أخف من الماء، فكذلك يثب بالونٌ منفوخ بالهيدروجين أو الهواء الساخن، لأن الهواء الساخن أخف من الهواء البارد، وأن الهيدروجين أخف الغازات جميعاً.

تنفخ المناطيد إما بالهيدرجين أو بالهواء الساخن.

وهذه هي طريقة صنع مناطيد الهيدروجين:

يَصنَع ما يشبه بالوناً كبيراً؛ ويربطُ بالحبال في أوتادٍ، ويُدْخَلُ الهيدروجين إليه. وما أن يُفَك الحبل حتى يطير البالون؛ وهو يطير طالما أنه لم يخرج من الهواء الذي هو أثقل من الهيدروجين. وإذا استمرّ في صعوده، وخرج من ذلك

الهواء وأصبح في طبقة الهواء الخفيف، أخذ يعوم في الهواء، مثل فقاعة على الماء.

وهذه هي طريقة صنع مناطيد الهواء الساخن:

تُصنَعُ كرة ضخمة فارغة، في أسفلها فتحةٌ تشبه عنق جرّة مقلوبة؛ توضع فيها قطعة قطن مبلّلة بالكحول، وتشعلُ. يصبح الهواء الذي في المنطاد، بعد أن سخِّن بالنار، أخفّ من الهواء البارد، ويميل المنطاد إلى الطيران كالفقاعة في الماء. وسيطير ويرتفع ما دام لم يبلغ طبقةً من الهواء أخف من الهواء الذي فيه.

منذ نحو مائة سنة، اخترع فرنسيان هما الأخوان «مونغولفييه»[1] المنطاد. عملا كرة من القماش مبطّنة بالورق، قذفا فيها هواءً ساخناً، فطارت الكرة. حينئذٍ صنعا كرة أخرى وعلقا بها خروفاً وديكاً وبطةً، وأطلقاها. طارت الكر وعادت إلى الهبوط، دون أي حادث. ثم أنشؤوا تحت الكرة ما يُشبه سفينة صغيرة جلس فهيا رجلٌ. طار المنطاد عالياً حتى توارى: حوّم ثم هبط. ثم خطر للأخوين «مونغولفييه» أن يملأ المنطاد بالهيدروجين، وأخذا يطيران أعلى وأسرع.

لكي يمكن الطيرانُ بمنطاد، تُربط سلة من تحت تتسع لشخصين أو ثلاثة وحتى ثمانية أشخاص. ويحمل الراكب معه ما يشربه وما يأكله.

ولكي يسهل النزولُ والصعود إلى المنطاد متى شاء الراكب يُجهّز المنطاد

(١) جوزف وايتيبين: ولد جوزيف سنة ١٧٤٠م ومات سنة ١٨١٠م وهو مخترع المنطاد، وإن كان أخوه ايتبين أشهر منه. وأول تجربة قام بها جوزيف كانت في حزيران سنة ١٧٨٣م، وبعد ثلاثة أشهر قام بتجربته، وفي فرساي بحضور لويس السادس عشر والبلاط، وفيها أطلق منطاداً معبأ بالهواء الساخن، وصعد إلى علو ٥٠٠ متر حاملاً بعض الحيوانات. وفي سنة ١٨٧٤م جازف هو ورجل آخر فصعدا في منطادهما.

بسدادة يستطيع الراكبُ أن يفتحها أو يغلقها بسحبه حبلاً. إذا أفرط المنطاد في الصعود وأراد الراكب إنزاله، فتح السدادة، فخرج الغاز منه ونفَّس وأخذ يهبط. وفضلاً عن ذلك، ففي المنطاد دائماً أكياسٌ من الرمل. لو رمينا كيساً تخفّف المنطاد وعلا. وإذا أراد الراكب الهبوط ورأى عقبة تحته ــ نهراً أو غابة ــ كبَّ رمل الأكياس، فيعود المنطاد، بعد أن تخفّف، إلى الصعود.

حكاية راكب منطاد

تجمع جمهور غفير ليراني أطير. كان المنطاد جاهزاً. كان يرتعش، ويحاول أن يتملص من حباله الأربعة، فيتجعد تارة، وينتفخ تارة أخرى. ودعت الأهل والأصحاب، وجلست في السلة، وتأكدت أن كل ما يلزمني في مكانه، وصحت:

ــ أرخو كلَّ شيء.

قطعت الحبالُ وارتفع المنطادَ برفق أول الأمر ــ مثل جواد يتلفّت حواليه، بعد أن يقطع حباله ــ ثم تملص من الأرض نحو الأعالي؛ ارتعشت السلة عندما طار، وترنّحت كالسفينة. وكان الناس، تحت، يصفقون ويصيحون ويلوّحون بمناديلهم وقبّعاتهم. رددت على تحياتهم برفع قبعتي، وقبل أن يتسنّى لي أعادتها إلى رأسي، كان المنطاد قد ارتفع عالياً حتى لم أستطع تمييز الناس إلاّ بمشقة.

في الدقيقة الأولى، انتابني الخوفُ وأحسستُ بالبرد في ظهري. لكني ما لبثت أن شعرتُ بالمرح حتى لقد نسيت أنني خفت. وصرت لا أكاد أسمع ضوضاء المدينة. وكانت الشوارعُ والنهر والحدائق في المدينة تبدو تحتي وكأنها لوحةٌ مصوَّرة، وخُيِّل إليَّ أنني سيد هذه المدينة وشعبها، لفرط ما استشعرتُ الفرحَ فوق. حبالُ السلة وحدها كانت تتحرك؛ لكن ريحاً هبّت عليّ مرتين وقلبتين عن موضعي. ثم أنه كان من غير الممكن أن أعلم إن كنتُ أطير

أو إن كنت ساكناً. كنتُ أعرف أنني أصعد، من الشيء التالي فقط: كان منظرُ المدينة، تحتي، يَصْغر، وكنت أستطيع أن أنظر إلى مدى أبعد.

كانت تبدو الأرضُ، تحتي، كأنها تكبر. كانت تعرض، وفجأة لاحظتُ أنها كانت تتخذ شكل كأسٍ جوانبها منحنية، والمدينة في القاع. ازددتُ بهجةً، وصرت أتنفس بفرح وسهولة، واشتهيت أن أغنّي. بدأتُ أغنية: لكن صوتي كان جد ضعيف حتى لقد أدهشني وأخافني.

كانت الشمس بعيدة عن المغيب، لكن سحابة امتدّت على الأفق، وحجبت الشمس. فجأة خفتُ من جديد، ولكي أشغل نفسي بشيء ما، أخرجت مقياس الضغط الجوي، ونظرت إليه، وعلمت منه أني على أكثر من أربعة آلاف متر.

في الوقت الذي أعدته فيه إلى مكانه، ارتعش شيءٌ بقربي، فرأيت حمامةً. تذكرت حينئذٍ أنني جئت بحمامة معي، بنية إرسالها مع بطاقة مني. كتبتُ على قصاصة ورق أنني حيٌّ، وفي صحة جيدة، على أكثر من أربعة آلاف متر؛ علقت الورقة بعنق الحمامة. كانت حاطة على حافة السلة تنظر إليّ بعينها الحمراوين. خُيِّل إليّ أنها تطلب إليّ ألا أدفعها إلى الخارج: فمنذ أن احتجبت السماء بالغيوم، لم يكن يُرى شيءٌ تحت، لكن ما حيلتي؟ كان لا بدّ من إرسال الحمامة إلى الأرض. كانت ترتجف بكل ريشها عندما أخذتها بين يديّ. أخرجت يدي وأطلقتها، وبعد أن خفقتْ بجناحيها، عدة مرات، سقطت على جانبها مثل حجر.

نظرتُ إلى ميزان الضغط: كنت على أكثر من خمسة آلاف متر فوق الأرض؛ أحسست بنقص الهواء، وتسارعت أنفاسي. سحبت الحبل لأُطلق شيئاً من الغاز وأهبط؛ أكان ذلك بسبب ضعفي، أم أن شيئاً قد تعطّل؟ لم تنفتح السدادة. أحسست أن قواي خارت. ولم أفطن إلى أنني كنت أصعد. لم يكن

يتحرك شيء، لكن تنفّسي ازداد صعوبة. فكرت: «إذا لم أوقف المنطاد، إنفجر وهلكت». ولكي أعرف إن كنت ما أزال أرتفع أو إن كنت ساكناً رميتُ قصاصات ورق خارج السلة: سقطت كأنها حجارة. ومن ثم، فقد كنت أصعد كالسهم. وتشبثت بالحبل، بكل قواي، وسحبتُ: الحمدُ لله، انفتحت السدادة، وصفر شيء. ثم رميت شيئاً من الورق فتطاير حولي، ثم صعد؛ ومن ثمّ فقد كنت أهبط.

لم أكن أرى شيئاً تحتي حتى الآن. لم يكن هناك سوى بحر من الضباب يمتدّ تحتي. وهبّتْ الريح، فحملتني إلى مكان آخر؛ ولم تلبث الشمس أن بزغت. فرأيتُ، مرة أخرى، تحتي، كأسَ الأرض. لكنها لم تكن مدينتي. كانت غابةً لا أعرفها وشريطان أزرقان، نهران. ومرة أخرى، إبتهجت نفسي، ولم تبق لي رغبة في الهبوط. وفجأة سمعتُ ضجة بقربي ورأيت نسراً بعينيه المدهوشتين. كان ينظر إليّ، وهن ساكنٌ، وقد إستقرّ على جناحيه. كنتُ أسقط مثل حجرٍ فبدأت أرمي بأثقالي لأوقف سقوطي..

ما لبثت الحقول أن غدت مرئيةً بالنسبة إلي، رأيت غابة، وقرب الغابة، قرية؛ ورأيت قطيعاً يسير نحو هذه القرية. وسمعت صوت الفلاحين وضوضاء القطيع. كان منطادي يهبط برفق؛ شاهدني الناس صرخت ورميتُ بالحبال إليهم. هُرع الناس؛ رأيت صبياً صغيراً يلتقط الحبل قبل غيره. وأمسك بالحبل آخرون بدورهم، وربطوا المنطاد بشجرة، وخرجتُ من السلة. لم أطر سوى ثلاث ساعات: كانت القريةُ على بعد مائتين وخمسين كيلو متراً من مدينتي.

البقرة والتيس

(أقصوصة)

كانت إمرأةٌ عجوز تملك بقرةً وتيساً. وقد إعتادت البقرة والتيس أن يذهبا معاً إلى الحقول مع قطيع القرية. كانت البقرة تتحرك دائماً كلما أرادت العجوز

أن تحلبها. وذات يوم، حملت العجوز خبزاً وملحاً، وأعطتهما البقرة، وهي تردد:

ـ إهدئي، ولا تتحركي، يا صديقتي! إهدئي، إهدئي؛ سآتيك بكمية أخرى، لكن إهدئي!

في مساء اليوم التالي، عاد التيس من الحقل قبل البقرة، وباعد بين قائمتيه وجمد أمام العجوز. أرادت أن تطرده وهي تلوّح بالمنشفة، لكن التيس لم يغادر مكانه، وظل بلا حراك. ولم ينس أنها وعدت البقرة بالخبز إن بقيت هادئة فقط. ولما رأت العجوز أن التيس لم يُطعْها. تناولت العصا وأهوت بها عليه. حتى إذا إنصرف التيس، عادت العجوز إلى إعطاء البقرة خبزاً، وهي تطلب إليها أن تكون عاقلة.

قال التيس في نفسه:

«يقيناً أن العدل مفقود بين البشر. كنتُ أهدأ من البقرة، وأنا الذي ضُرب».

تراجع قليلاً ليتحفّز، واندفع، وقلب السطل، وكبّ الحليب، ورمى بالعجوز.

الغراب وصغاره

(مثل)

بنى غرابٌ عشه في جزيرة. وعندما خرجت الصغار من البيض، أخذ يحملها من الجزيرة إلى الأرض. أخذ أولاً بين مخالبه أحد الغربان الصغار، وطار به ليعبر البحر. وعندما بلغ الغراب العجوز عرض البحر أحسّ بالتعب، تباطأ خفوقُ جناحيه. وفكر: أنا اليوم، قوي، وهو ضعيف؛ سأحمله عَبْر البحر؛ لكنه عندما يغدو كبيراً وقوياً، وأغدو ضعيفاً بسبب الشيخوخة، فهل

سيتذكر أتعابـي، وهل سيحملني من مكان إلى آخر؟» وسأل الغراب العجوز صغيره:

عندما أغدو ضعيفاً وتغدو قوياً، فهل ستحملني؟ قُلْ لي الحقيقة!

خاف الصغير أن يرميه أبوه في البحر، وقال:

ــ سأحملك.

لكن الغراب العجوز لم يصدّق إبنه، وفتح مخالبه، فسقط الغراب الصغير، مثل كرةٍ، وغرق في البحر.

بعد أن ظل الغراب العجوز وحده، فوق البحر، عاد طائراً إلى جزيرته. ثم أخذ غراباً آخر، وحمله هو أيضاً عبر البحر. ومرة أخرى، أحسّ بالتعب، في عرض البحر، وسأل ابنه: «إذا شخت فهل ستحملني من مكان إلى مكان؟» خاف الصغير أن يرميه فقال:

ــ سأحملك.

لم يصدّق الأبُ ابنه أيضاً، ورماه في البحر.

عندما عاد الغرابُ العجوز إلى عشه، بقي له صغير واحد. أخذ هذا الإبنَ الأخير وطار به ليعبر البحر. فلما وصل إلى عرض البحر أحسّ بالتعب، فسأله:

ــ هل ستطعمني في شيخوختي، وهل ستنقلني من مكان إلى آخر.

أجاب الغراب الصغير:

ــ لا، لن أفعل ذلك!

سأله الأبُ:

ــ لماذا؟

ــ عندما تصبح أنت عجوزاً، وأصبح أنا كبيراً، سيكون لي عشي وصغاري؛ وسأطعم أولادي وسأحملها.

حينئذٍ فكّر الغراب العجوز: «قد قال هذا الصغير الحقيقة ولذلك فسأبذل

جهدي، وسأنقله إلى ما وراء البحر».

لم يفتح مخالبه؛ وبذل جهداً كبير وخفق بجناحيه وحمل صغيره إلى الأرض ليبني عشاً له وليرزُق أولاداً.

الشمس هي الحرارة

(موضوع للمحادثة)

أخرجْ إلى الحقول، في الشتاء، في يوم هادىء وجليدي؛ أنظر حولك، وأصخْ السمعَ أيضاً: سترى حينما تطلعت، من حولك طبقة بيضاء؛ الأنهار متجمّدة، الأعشاب الجافة تبرز من فوق الثلج، الأشجار تنتصب عارية؛ لا شي يتحرك.

أنظرْ في الصيف: الأنهار تجري هادرةً؛ الضفادعُ تنقّ في كل مستنقع؛ الطيور تطير، في كل الإتجاهات، تصفر وتغرد؛ الذباب والبعوض يحوّم ويطنّ؛ الأشجار والنباتات تنمو وتتموّج في الريح.

عَرِّضْ للجمد قِدْراً من الحديد المصبوب مملوءةً ماءً. سيغدو الماءُ مثل الحجر ضَعْ على النار قدراً متجمّدةً:

سيبدأ الجليدُ بالطقطقَة، وبالذوبان، وبالتحرّك؛ وسيبدأ بالإهتزاز، وبإطلاق الفقاعات؛ ثم إذا غلى الماءُ أَخَذ يَخرُّ، ويدور.

هذا ما يجري في العالم بفعل الحرارة، فبدون الحرارة، كلُّ شيء ميت؛ وبالحرارة كل شيء يشرع في الحركة، كل شيء يحيا. وإذا قلّت الحرارة قلّت الحركة؛ وإذا إزدادت الحرارةُ إزدادت الحركة؛ وإذا كثرت الحرارة كثرت الحركة، وكلما تعاظمت الحرارة تعاظمت الحركة.

من أين تأتي حرارة العالم؟ تأتي الحرارة من الشمس. عندما تتابع الشمس، أثناء الشتاء، مسيرتها المنحرفة، وهي مائلة في السماء، فهي لا ترشق

أشعتها عمودية على الأرض؛ وحينئذٍ لا شيء يتحرك. لكن يكفي أن ترتفع الشمس اللطيفة فوق رؤوسنا لكي تبدأ قصف الأرض بنيرانها عن كثب: وحينئذٍ يسخن كل شيء ويتحرك كل شيء. تتهافت طبقة الثلج؛ يتهدم الجليد على النهر؛ تسيل المياهُ من الجبال، وتتصاعد الأبخرة من المياه نحو الغيوم، وتهطل الأمطار. مَنْ فعل ذلك كله؟ الشمس. تلين البزور وتنتش وتتشبث نباتاتها الطالعة بالأرض؛ وتنطلق فراخ الشجر من الجذور العتيقة، وتكبر الأشجارُ والأعشابُ. مَنْ فعل ذلك كله؟ الشمس.

يسخن الهواءُ في هذا الموضع، ويصعد، ويحلُّ محلّه هواءٌ أبرد: ويَهب نسيم الصَبا. من يفعل ذلك؟ الشمس.

الغيوم تتصاعد، وتتقارب، وتفترق، ويهبط البرقُ من السماء، مَنْ خلقَ هذه النار؟ الشمس.

الأعشاب، والحنطة، والثمارُ والأشجار تنمو، فتأكل الحيوانات كما تشتهي، ويُشبع الناس جوعهم؛ وهم يدخرون للشتاء مؤونته وحطبه. وهم يبنون لأنفسهم بيوتاً، ويقيمون سككاً حديدية ومدناً. كل ما يلزم لذلك، مَنْ هيّأه، الشمس.

يبني المرءُ لنفسه منزلاً. بمَ يبنيه؟ بجسور الخشب. وهذه الجسور مقطوعة من الأشجار. الشمس هي التي كبرّت هذه الأشجار، ويُسخّن الموقد بالحطب. من نمّى هذا الحطب؟ الشمس.

يتغذّى الإنسان بالقمح وبالبطاطا. مَنْ أنبتها؟ الشمس.

ويأكل اللحمَ: ممّ تتغذّى المواشي؟ من الأعشاب. والطيور؟ من الحبوب. لكن الأعشاب أنبتْها الشمس. والشمسُ هي التي أطلعت الحبوب.

يبني المرءَ لنفسه بيتاً من حجر، مستخدماً الآجر والكلس. الآجر والكلس شوياً على نار الحطب. الشمس هيّأت هذا الحطب.

كل ما هو ضروري إطلاقاً لحياة الناس، وكذلك كل ما هو مفيدٌ لهم فقط، كل ذلك، ممّا هيّأته الشمس، يحتوي على الكثير من الحرارة الشمسية. إذا كان جميع الناس بحاجة إلى القمح، فذلك لأن الشمس أنبتته وأن فيه الكثير من الحرارة الشمسية. الحبوبُ تُدفىء مَنْ يأكلها، ولأن في حطب التدفئة وفي جذوع الأشجار الكثير من الحرارة كان كل ذلك ضرورياً.

مَنْ اشترى حطباً للشتاء فإنما يشتري حرارة الشمس، وما عليه، في الشتاء، إلاّ أن يوقد الموقدَ متى شاء، ليبعث الحرارة الشمسية في غرفته، وله.

وعندما تكون هناك حرارة تكون هناك حركة أيضاً. ومهما تكن الحركة، فالحرارة هي التي أحدثتها، إما مباشرةً من الحرارة الشمسية، وإما من تلك الحرارة التي ضمّنتْها الشمسُ الفحمَ والحطبَ والحبوبَ والأعشابَ.

الخيل تجرّ، والناس يعملون: ما الذي حرّك الخيل والناس؟ الحرارة. من أين استمدّوا هذه الحرارة؟ من الطعام. لكن هذا الطعام إنما هيأته الشمس.

طواحين الماء والهواء تدور وتطحن الحبوب ما الذي يُحرّكها؟ الريحُ والهواء. والريح ما الذي يدفعه؟ الحرارة. والماء، ما الذي يَدْفعه؟ الحرارة أيضاً. الحرارةُ هي التي تُبخّر الماء، ولولا ذلك لما هطل المطرُ على الأرض. تدور آلةٌ، البخارُ يُحرّكها. وما الذي أَحدثَ البخار؟ حطبُ التدفئة، لكن في هذا الحطب حرارةً شمسية.

من الحرارة تولَّدُ الحركة، ومن الحركة الحرارة والحرارة والحركة تأتيان من الشمس.

من أين يأتي الشر

(مثل)

كان ناسكٌ يعيش في غابة. كان يعيش وحيداً تحيط به الحيوانات التي لم يكن يخافها.

كان يكلّمها وتكلّمه. وكانوا يتفاهمون.

وذات مساء كان هذا الناسك راقداً فيه تحت شجرة، إجتمع في هذا المكان نفسه غرابٌ وحمامة وأيّل وأفعى. كانت الحيوانات تتحدّث، كانت تتساءل لمَ وُجِدَ الشرُّ في العالم.

قال الغراب:

ـ كل الشرّ على الأرض ناجم عن الجوع، فعندنا أُشبع جوعي أرتاح على غصني، وأنعق، ويبدو لي كلُّ شيء بهجاً، حسناً، وأفرح بأتفه الأشياء. لكن مهما كان خفيفاً جوعي يوماً أو يومين فإني أنفر من كل شيء حتى أود ألا أرى غابةً ولا شمساً ولا سماءً زرقاء. ولا يستقرّ بي مكان. فأطير هنا وأطير إلى هناك. ولا أعرف طعماً للراحة. وإذا لمحتُ شيئاً يؤكل اشمأزت نفسي منه أكثر من ذي قبل، وإن كنت أندفع إليه لألتهمه، دون أن أعرف مقدار جودته. ولو قد رُميت بالحجارة، وجُلدت بالعصا، لما تحرّكتُ عنه قدر أنملة، وحتى لو جاءت الكلابُ والذئاب لتنتزع مني لُقَيتي. واأسفاه! ما أكثر الذين ماتوا منا بسبب جوعهم! الشرُّ كلُّ الشرّ ناجم عن الجوع.

قالت الحمامة:

ـ لا، برأيي أن الشر كله ناجمٌ عن الحُب. لو كنا نعيش منعزلين، لكانت همومُنا طفيفة: ليس مسكيناً مَنْ كان وحده، أو، على الأقل، سيكون هو وحده المسكين! لكن علينا أن نعيش أبداً زوجين زوجين، وحينئذٍ يُحبّ الزوجُ زوجه، ولا راحة له مع الحب. إنه لا يفكّر إلا فيها: أهي جائعة؟ أأصابها البرد؟ وإن فارقتكَ لحظةً إذا بك بائسٌ لعل البازي إختطفها؟ أو لعل القناص قد اصطادها؟ وإذا بك تنطلق للبحث عنها: وليس البازي ببعيد، والحبائل منصوبة. وإن أصابها مكروه فلن يحلو بعينك شيء بعدها، لا الطعامُ ولا الشراب وأنت لا تعيش بعدها إلاّ للبحث عنها والبكاء عليها. وما أكثر الذين إنتهوا هذه النهاية، من بيننا. الشرُّ كلُّ الشر ناجم عن الحب.

قالت الأفعى:

ــ الشر لا ينجم لا عن الجوع ولا عن الحب. الشر ناجم عن أننا نحن خبثاء. فلو كنا نعرف كيف نعيش بسلام، لما وقع الخصام، ولبدا لنا كلُّ شيء أحسنَ ما يكون. نحن على العكس من ذلك؛ فإذا حدث ما لا يُرضينا، غضبنا واحتدمْنا من أجل شيء تافه. وأصبحنا لا نفكر إلاَّ في الثأر من الآخرين بسبب الشر الذي لحق بنا. فنتميّز غيظاً ونزحف ونحن نصفر بحثاً عن الضحية، ونستعد للعضّ. في هذه اللحظات لن نرحم أباً ولا أماً. ولسبب طفيف نعضّ أذنابنا. ولا يهدأ هياجُنا إلاَّ إذا قادنا إلى الهلاك. كل ما في العالم من شر ناجم عن خبثنا.

قال الأيّلُ بدوره:

ــ لا، إن الشر لا ينجم عن الخبث، ولا عن الحب، ولا عن الجوع. كلّ الشرّ ناجمٌ عن الخوف. كل شيء حسن لمن لا خوف عليه؛ وما أسعده بدون خوف! إن لنا قوةً عظيمةً، وأرجلنا رشيقة. الحيوانات الصغيرة. . .، نطحة قرن تخلصنا منها؛ أما الحيوانات الضخمة فليس لنا معها إلا الفرار. ومع ذلك فنحن لا نستطيع تمالك أنفسنا من الخوف. ليتقصّف غصنٌ في الغابة، ولتخشّ الأوراق، فإذا بك ترتجف إرتجافاً، وإذا بقلبك يخفق حتى ليكاد يتمزّق، وأنت تفِرّ وتَفر حتى يضيق نفسك. ويكفي أن تقطع جريَكَ أرنب، أو عصفورٌ يطير حتى تقولُ في نفسك: «هو ذا الوحش!» فتَثبُ وقد خُبلتَ، وإذا بك تصطدم بالوحش الحقيقي، الوحش الشديد الخطر. وتتحاشى الكلابَ فتقع على الصيّاد. وإن الخوف ليستولي عليك فتركض وتركض دون أن تعلم أين تذهب، وفي إندفاعتك تزلّ قدمك فتسقط في الفراغ، ويتحطم ظهرك في أعماق الوهدة. وإذا نمتَ فبعينٍ واحدة، والأذنُ منتصبةٌ، يحرّكها الخوف. لا راحة. كلُّ الشر ناجم عن الخوف.

حينئذٍ قال الناسك:

ـ لا الجوع ولا الحب ولا الخبث ولا الخوف هي التي تخلق آلامنا.

كلُّ الشر الموجود في العالم ناجمٌ عن جسدنا. فعنه ينجم الجوع والحُبُّ والخبثُ، والخوف أيضاً.

الغالفانية[1]

(موضوع للمحادثة)

كان هناك، فيما مضى، عالمٌ إيطالي يُدعى غالفاني. كان يملك آلة كهربائية، ويُري تلاميذه ما الكهرباء. كان يفرك صفيحة زجاجية بقطعة حريرية مُشربة بالدهن، وبعد ذلك كان يقرّب من الصفيحة كرةً صغيرةً من النحاس تُثْبَتُ عليها: كانت تنبعث من الزجاج شرارةٌ تثب على كرة النحاس. وكان يقول لتلاميذه أن الشمع أو العنبر يُحدث الشرارةَ نفسها. وكان يُريهم كيف أن الريشَ الصغير أو الورق تجذبها الكهرباء تارةً وتنبذها تارةً أخرى، وكان يشرح لهم لماذا. وكان يُجري الكثير من التجارب ومن كل نوع على الكهرباء، وكان يكررها أمام تلاميذه.

ذات يوم، مرضت زوجةُ كالفاني. فأحضر طبيباً وسأله عن الدواء الذي يجب أن تتناوله. وصف الطبيبُ للمريضة حساءَ الضفادع. فأمر غالفاني بإحضار الضفادع الصالحة للأكل[2]. وذهب مَن يصيدها له من الماء، وذُبحت، ووضعت على الطاولة.

كان غالفاني ينتظر الطاهية لتأتي وتأخذ الضفادع، متابعاً، في أثناء ذلك، براهينه، مُطلقاً الشرارات من الآلة الكهربائية.

(١) غالفاني: عالم إيطالي ١٧٣٧ ـ ١٧٩٨م.

(٢) كان لا بد من هذا الإيضاح لأن الروس كانوا يجهلون أن الضفادع من المآكل الفاخرة في أوروبا. =

وفجأة، رأى الضفادعَ الميتة التي تُركت على الطاولة تُحرّك أيديها وأرجلها بحركة تشنجية. وراقب عن كثب فلاحظ أنه كلما أحدث شرارة حرّكت الضفادعُ أطرافها. وجاء غالفاني بضفادع أخرى وأجرى عليها تجارب. وتكررت الظاهرةُ نفسها: كان كلما فجّر شرارةً، بدت الضفادعُ كأنها عادت إلى الحياة، مع أنها ميتةٌ، وحركت أطرافها. كان غالفاني يعلم أن الكهرباء في الهواء، أكثر خفاءً من كهرباء الشمع والعنبر أو الزجاج، لكنها موجودة، مع ذلك، وأنها هي سبب العواصف والبروق. وتساءل إن كانت الضفادع الحيّة لا تحرك أطرافها لأن التيار الكهربائي يمرّ فيها.

وأراد أن يرى إن كانت الضفادع الميتة لا تحرّك أيضاً أطرافها بفعل كهرباء الهواء. ولكي يتحقّق من ذلك، أخذ ضفادع، وسلخ جلودها، وقطع رؤوسها وأطرافها الأمامية، وعلّقها بأسلاك من النحاس تحت الميزاب. وقال في نفسه: «عندما تثور العاصفة، وتتكاثر الكهرباء في الهواء، تصل الكهرباء إلى الضفادع بالسلك النحاسي وتبدأ الحركة». لكن العاصفة هبّتْ عدة مرات ولم تتحرك الضفادع. كان غالفاني، يرفعها، فلمس أحد أطراف الضفدع الميزاب وتقلّص. فك غالفاني الضفدع وعمل التجربة التالية: علّق بكلاب نحاسي صغير سلكاً من الحديد، ولامس، عدة مرات، رجلَ الضفدع بهذا السلك؛ في كل مرة، كانت الرجل تصاب بهزّات.

إستنتج غالفاني أن جميع الحيوانات لا تنطوي على ظواهر الحياة إلاّ لأن فيها كهرباء؛ وأن هذه الكهرباء تنبعث من الدماغ إلى الجسد، ولذلك تحرّكتْ، في إعتقاده، الحيوانات. في تلك الفترة، لم يكن أحدٌ قد قام بتجارب في هذا المجال، ولم يكن أحدٌ يعرف المسألة؛ واعتقد الجميع ما قاله غالفاني. لكن عالماً آخر، هو فولتا[١]، أعاد، في الوقت نفسه، التجارب على طريقته، وبرهن أن غالفاني كان مخطئاً. وحاول أن يضع ضفدعاً على تماس، لا كما فعل

(١) فيزيائي إيطالي ١٧٤٥ ــ ١٨٢٧م.

غافاني، مع كلاب صغير من النحاس وسلك حديدي، بل، مع سلك نحاسي وكلاب صغير من النحاس، أو مع سلك حديدي وكلاب صغير من الحديد. ولم تتحرك الضفادع. لم تكن تتحرك إلاَّ عندما كان يلمسها بسلك من الحديد مربوط بسلك من النحاس.

إعتقد فولتا أن الكهرباء لا توجد في الضفدع الميت، بل في الحديد والنحاس. وقام بالتجربة، وتوصّل بدقة إلى أنه ما إن يضع الحديد والنحاس على تماسّ حتى تحدث الكهرباء، والكهرباء الناتجة هكذا كانت تُحدث الهزات في أطراف الضفدع. حينئذٍ حاول فولتا أن يُحدث الكهرباء بوسائل أخرى غير التي استُخدمت حتى الآن. كانت تُحدَث من قبل بأن يُحك الزجاج أو الشمع؛ أما فولتا فقد وضع الحديد بتماسٍ مع النحاس. وحاول بهذه الطريقة، ثم بمعادن أخرى، وتوصّل إلى إحداث شرارات عندما جعل التماسّ مع الفضة والبلاتين والزنك والقصدير، والحديد.

وخطرَ للذين تابعوا فولتا أن يزيدوا من إنتاج الكهرباء بصب مختلف السوائل كالماء والحوامض، بين المعادن. فزادت قوة الكهرباء إلى الحد الذي لم يعد معه الفرك ضرورياً لإنتاجها، كما كان يجري من قبل. إذ يكفي أن توضَع في إناء قطعٌ من مختلف المعادن وأن يُصَبَّ عليها السائل، سيحوي الإناء الكهرباء وستخرج من السلك شرارة.

عندما اختُرعت هذه الكهرباءُ فكّر الناس في إستخدامها: فعمدوا إلى الطلاء بالذهب والفضة بواسطة الكهرباء؛ واختُرع النورُ الكهربائي وطريقة نقل الإشارات، بواسطة الكهرباء، إلى مكان بعيد.

من أجل ذلك توضَعُ قطعٌ من مختلف المعادن في آنية من الزجاج؛ ويُصَبُّ عليها سائل، فتتجمّع الكهرباءُ في الزجاج، وتنقل هذه الكهرباء، بالأسلاك، إلى حيثُ يشاء. وإذا غرزْنا، في هذا الموضع، السلكُ في الأرض،

جرت الكهرباء في الأرض حتى الآنية الزجاجية التي إنطلقت منها، وارتفعت من الأرض بسلك آخر؛ وهكذا فالكهرباء بين موضعين تسير على شكل دائري، وكأنها في حلقة: من السلك إلى الأرض، والعودة بالأرض، ثم بالسلك، ومرة أخرى، بالأرض. وإذا مرّرنا الكهرباء في سلك ولففْنا بهذا السلك قطعة من حديد، أصبحت قطعةُ الحديد مغناطيساً وجذبت الحديد.

وإليك كيف تُعْمل البرقيةُ: تُمرّر الكهرباء في سلك يُلَف على قضيب حديدي صغير. على هذا القضيب تثبّت ثقالة هي مطرقةٌ صغيرة من الحديد. وما دامت الكهرباء في الأرض فإن القضيب يجذب المغناطيس. وما أن يُفصل طرفا السلكين في الطرف الآخر من السلك، ولو على مائة كيلو متر، فإن الكهرباء تكف عن أن تتمّ دارتها، ويَكَف القضيب عن فعله كمغناطيس، وتنفصل المطرقة الصغيرة عنه. وما أن نجمع الطرفين حتى تنجذب المطرقة الصغيرة. وتستطيع، من مركز إلى آخر، أن نجعل المطرقة تدق؛ ودقات المطرقة تقابل إشارات متّفق عليها سلفاً.

الفلاح وروح المياه[1]

(مثل)

أَسْقط فلاحٌ فأسه في النهر؛ ومن ألمه، جلس على ضفة النهر وأخذ يبكي.

سمعت روحُ المياه بكاءه؛ فأشفقت عليه وحملت إليه من النهر فأساً ذهبية، وقالت له:

ـ أهذه هي فأسك؟

قال الفلاح

ـ لا، هذه ليست فأسي.

(١) ايزوب: «الحطاب وهرمس». لافونتين «الحطاب ومركور».

وجاءت روحُ المياه بفأس أخرى: بفأسٍ فضيّة.
فكرر الفلاح:
ـ وهذه ليست فأسي.
حينئذٍ حملت إليه روحُ المياه فأسه الحقيقية.
قال الفلاح:
ـ أنها فأسي، هذه المرة.
فأهذته روح المياه الفؤوس الثلاث بسبب صدقه.
عندما عاد الفلاح إلى منزله، أرى رفاقه الفؤوس وروى لهم ما وقع له.
وإليك كيف خطر لفلاح أن يفعل مثله.
قصد النهرَ، ورمى عن عمدٍ فأسه في الماء، وجلس على ضفة النهر وأخذ يبكي.
حملت روحُ المياه فأساً ذهبية وسألته:
ـ أهذه فأسك؟
ـ هذه فأسي، هذه فأسي.
لم تعطه روحُ المياه الفأسَ الذهبية، ولم يُعَدّ له فأسه بسبب سوء نيته.

الغراب والثعلب[1]

(مثل)

لقي الغراب قطعة لحم وحطّ على شجرة. اشتهى ثعلب اللحم. دنا وقال:

---

(١) ايزوب «الغراب والثعلب». فيدر: «الغراب والثعلب». لافونتين: «الغراب والثعلب». سمعتُ تولستوي يلوم لافونتين وكيرلوف الذي تابعه، لأنهما وضعا قطعة جبن في منقار الغراب. والمسؤول الحقيقي، في الواقع هو فيدر. وهذا بعزّز ظني أن تولستوي لم يكن يعرف صاحب الأمثال اللاتيني إلاّ قليلاً أو معرفة سيئة. وقد عالج ليسنغ الموضوع نفسه، وظن من الخير أن يسمّم قطعة اللحم التي يمسكها الغرابُ في منقاره. =

ـ أيها الغراب، انظر إليك، وأنت في هذه القامة وهذا الجمال، يُخيَّل إليّ أنك يجب أن تكون ملكاً! والحق أنك جديرٌ بأن تصبح ملكاً لو كان صوتك جميلاً.

فَتحَ الغراب منقاره ونعق بأقصى قوته. سقطت قطعة اللحم؛ تلقفها الثعلب وقال:

ـ آه! أيها الثعلب، لو كان لك عقلٌ فقط، لصرت ملكاً.

سجين في القوقاز[1]

(قصة حقيقية)

[١]

الأسر

تلقى ضابطٌ يُدعى جيلين، وكان شاباً من منزل كريم يؤدي خدمته في القوقاز، رسالة من أمه ذات يوم، تقول له فيها:

هأنذا عجوز. أود لو أراك، قبل أن أموت، يا ولدي الحبيب. تعال ودّعني. فإذا وسدتني الثرى، عُدْ والتحقْ بمركزك، واخدم بلادك برعاية الله. وبالمناسبةَ عثرت لك على خطيبة. وهي ذكية وجميلة وثرية فإن أعجبتك أمكنك الزواج منها، وحينئذٍ لن تسافر مرة أخرى».

قال جيلين في نفسه. «لم تعد أمي قوية، هذا مؤكد. ولعلي لن أراها.

(١) مع أن للفصل الأول وحده طابع الترجمة الذاتية، لكن من الملاحظ أن العنوان الأصغر هو «قصة حقيقية». وقد مر معنا من قبل أمثلة من هذا النوع. ويمتاز هذا المثال بأنه يتيح لنا أن نحدد المعنى الذي أراده تولستوي من «قصة حقيقية» ففي حزيران ١٨٥٣م أوشك تولستوي وصديقه التتاري الحميم «سعدو». أن يقعا بين أيدي الشاشان أثناء هجوم رواه بولتوراتسكي في حكاية مفصّلة.

الأجدر بـي أن أذهـب إلـى بلـدي. وإذا كـانـت الفتـاة صـالحـةً وجميلـة فلـمَ لا أتزوّجها؟». لقي عقيده، وحصل على إجازة، وودّع ورفاقه، ونقد رجاله ثمن شرابهم، وأتم استعداده للسفر.

كانت القوفاز في غمرة الحرب. ولم تكن الدروب مأمونة لا ليلاً ولا نهاراً. كل روسي يبتعد عن الحصون ولو كان على جواده، يعرّض نفسه لأن يقتَل أو لأن يُساق إلى الجبال على أيدي التتار. ولذلك نظّمت القوافل العسكرية لترافق المسافرين من حصن صغير إلى حصن آخر. وكانت هذه القوافل تذهب مرتين في الأسبوع: كان الجنود في المقدمة، وفي المؤخرة، وفي الوسط، يحيطون المدنيين.

في فجر يومٍ من أيام الصيف، تجمّعت العرباتُ خلف الحصن الصغير خرج منه الجنود المرافقون وتحركت القافلة. كان «جيلين» على جواده وكانت عربته وحقائب سفره مع معظم المتاع.

كان عليهم أن يقطعوا خمسة وعشرين فرسخاً، وكانت القافلة تسير ببطء: كان الجنود يتأخرون، كان لا بد من تبديل عجلةً، وكان أحد الجياد يأبـى أن يسير، فيقف الرتل كله. وحتى بعد الظهر، لم تكن القافلة قد قطعت سوى نصف الطريق. ولا ملجأ من الغبار ومن الحر الخانق ومن لذع الشمس، غير هذا السهل الأجرد الذي لا دغل فيه ولا شجيرة.

وكان جيلين الذي سبق القافلة، قد أوقف جواده وأخذ ينتظرها عندما سمع وراءه نداء بوق التفقد.. هذه مرة أخرى تتوقف فيها القافلة. فقال في نفسه: «لمَ لا أتابع طريقي بدون حرس؟ إن تحتي جواداً أصيلاً، وإذا ما لقيت التتار وجهاً لوجه. فالقليل من عَدْوه كفيلٌ بإنقاذي. أم هل الأفضل أن أصبر وأنتظر؟». وظل مكانه، جامداً، دون أن يتخذ قراراً. وإذا بضابط آخر يدعى كوستيلين، مسلّحاً (كان يتقلّد بندقيته)، يلحق به ويقول له:

ـ لنتابعْ طريقنا وحدنا، يا جيلين. أنا مرهق. وقد مت من الجوع. يا لهذا الفرن! أنا مبلّل.

كان كوستيلين ذا وجه أحمر، وكان ضخماً ثقيل الجسم، وكان بالفعل، يرشح عرقاً.

ـ هل بندقيتك معبّأة؟

ـ نعم.

ـ إذن، هيا! لكن، يجب ألا نفترق. موافق؟

ومضيا. كان الطريق الذي يسلكانه يجتاز السهل. كانا يتحدثان وهما ينظران حواليهما. لم يكن هناك ما يحجب النظر، كانا يريان بعيداً لكنهما ما لبثا أن بلغا نهاية السهل، وبدأ الطريق يغوص في شعبٍ بين جبلين.

قال «جيلين»:

ـ يجب أن نصعد قليلاً إلى الأعلى ونراقب ما حولنا. «أنهم» قد ينقضّون علينا، من هناك، من وراء هذه الأعالي، دون أن نحس بذلك.

قال كوستيلين:

ـ ايه! التسلق إلى فوق؟ وماذا سنرى؟ هيّا، لنتابع تقدمنا.

فرد «جيلين» عليه:

ـ لا، انتظرني تحت؛ سألقي نظرة خاطفة وأعود.

وأدار جواده نصف دورة، وساقه نحو الجبل. كان جواداً أصيلاً، وقد حصل عليه من مربط الخيل، وهو مهر بمائة روبل، وربّاه هو نفسه. وبدون مشقة، حمل الجواد جيلين، في بضع وثبات، إلى قمة منحدر وعر. فماذا رأى أمامه بالضبط، على نحو ثلاثمائة خطوة؟ قرابة ثلاثين تتارياً على خيولهم. أراد أن يلوي عنان جواده ويعود لكن التتار لمحوه هم أيضاً. فأطلقوا خيولهم وأخرجوا بنادقهم من غلفها دون أن يكفوا عن ملاحقتهم له. فيهبط «جيلين»

المنحدر بأقصى سرعته وهو يصيح بكوستيلين: «هيء بندقيتك». وفكّر بينه وبين نفسه: «لو وصلتُ إلى البندقية فلن يظفروا بي». وهو يحث جواده: «أسرع يا صديقي، لا تتعثر وإلاّ هلكت».

لكن كوستيلين، بدلاً من أن ينتظر رفيقه، ولّى هارباً منذ أن رأى العدو. كان يوسع جواده ضرباً، على هذا الجنب تارة، وعلى ذاك تارة أخرى. وكان الناظر لا يتبين في الغبار الذي يثيره عدوه المحموم نحو الحصن سوى خفوت ذيل الجواد.

أدرك «جيلين» أن الأمور سيئة. فبندقيته ليست في متناول يده، وكل ما معه من سلاح حسامُه. ماذا بوسعه أن يفعل دفاعاً عن نفسه؟ اللحاق بجنود القافلة هو الخلاص الوحيد: لا بد من الفرار.

انحدر بسرعة ستة فرسان ليقطعوا عليه الطريق. إن جواده أصيل، حقاً، لكنّ للذين سيسدون عليه خط الرجعة جياداً أفضل. أراد جيلين أن يثني جواده، لكنه لم يفلح في كبح جواده الذي كان مندفعاً والذي كان يجري، بالرغم منه، صوب العدو، وبرز أمام عينيه فارسٌ أشقر اللحية، يمتطي جواداً رمادياً. أطلق التتاري صراخاً وهو يكشف عن أسنانه، ويسدد بندقيته.

تسنّى لجيلين أن يقول في نفسه: «نعرفهم، هؤلاء الوحوش. إذا أسروا أسيراً رموه في قاع حفرة، وخرّقوه بسياطهم. لا، لا، لم تظفروا بي...».

لم يكن جيلين طويل القامة، لكنه كان باسلاً. استلّ سيفه وأغار بجواده رأساً على الرجل ذي اللحية الشقراء. وفكّر في نفسه: «أما أن أصرعه بالصدمة، وأما أن أقتله بضربة سيف». لكن جيلين لم يصل إلى خصمه. لقد أطلقت عليه النار من خلف وأصيب جواده. هشم في اندفاعته، فانهار على ساق صاحبه مثل حتلة واحدة. حاول جيلين أن يخلّص نفسه: أحدق به تتاريان نتنان وحاولا أن يربطا يديه خلف ظهره. فرماهما بضربة من خاصرتيه، وإذا بثلاثة آخرين يصلون

عدواً، ويقفزون عن جيادهم وينهالون عليه بأخامص البنادق، فغامت عيناه، وترنّح. أمسكه التتار بقوة، وأخذوا الحبال الاحتياطية من سروج الخيل، وأوثقوا يديه خلف ظهره بواسطة الكثير من العقد التي يتقنونها وحدهم دون غيرهم. وجرّوه إلى أحد الجياد، ورفعوا قبّعته عن رأسه؛ ونُزع حذاؤه؛ وفتشت جيوبه، وأخذ ماله وساعته، ومُزّقت ثيابه.

نظر جيلين إلى جواده. كان الحيوان المسكين مضطجعاً دائماً على جنبه، كما كان عند سقوطه. وكان يحاول أن يطول الأرض بقدميه فلا ينجح في بلوغها. وكان يُرى في رأسه ثقبٌ يخرج منه دمٌ أسود وهو يصفر، وقد بلّل التراب في دائرة توزيد على قدمين.

دنا أحد التتار ليرفع سرج الجواد الذي ظل يتخبّط. واستلّ خنجراً طويلاً وقطع عنقه، فانبجس الدم يرافقه صفير. ارتجف الجواد بجسمه كله ولفظ أنفاسه.

أخذ التتار السرج واللجام والعنان. اعتلى الأشقر جواده، ورُفع جيلين إلى جنبه، وربط بزنار الفارس ربطاً محكماً لكي لا يسقط. وهكذا نقل جيلين الأسير نحو الجبال.

كان «جيلين» مقيّداً هكذا، يتهادى يميناً وشمالاً، ويضرب بأنفه ظهر التتاري، وهو ظهرٌ قوي العضلات تفوح منه رائحةٌ حادة. لم يكن يُرى سوى هذا الظهر، ورقبة تحدّدها العروق، وتحت القبعة، بقعةٌ زرقاء لقذال حليق. ومن رأسه المشقوق، كان الدم يسيل، ويتخثر على الجبين. لم يكن يستطيع أن يعتدل في جلسته، ولا أن يمسح وجهه المدمّى؛ وكانت يداه مشدودتين شدًّا آلم جسمه كله.

خبّ التتارُ وأسيرهم على ظهور الخيل، زمناً طويلاً، مارّين من جبل إلى جبل. وبعد أن عبروا مخاضة على نهر، بلغوا طريقاً، ودلفوا إلى وادٍ. أراد

جيلين أن يثبت في ذاكرته الطريق الذي سلكوه به؛ لكن الدم التصق بعينيه ولم يستطع أن يدير رأسه.

بدأ الظلام ينتشر. وما يزال هنا نهرٌ يجب أن يُعبر، وهناك جبل صخري يجب أن يتَسلَّق. شمّ جيلين رائحة الدخان، وسمع نُباحَ الكلاب؛ كانت هذه قرية التتار. ترجّل التتار؛ وأحاط الأطفال بجيلين وقد غمرهم الفرحُ. كانوا يضجّون من حوله ويرمونه بالحجارة. طردهم الأشقر، وأنزل جيلين عن الجواد، ودعا خادماً. دنا منه خادمٌ من «النوغاي»[1] بارز الوجنتين، لا يرتدي سوى قميص ممزّق مفتوح على صدره العاري، فألقى إليه معلّمه أمراً. حمل الخادمُ قيداً للقدمين: كان القيدُ مصنوعاً من قطعتين من خشب السنديان يجمعهما حلقٌ جهزت إحداها بقفل.

عندما قيّدت رجلاً «جيلين»، فكتْ يداه، واقتيد إلى حظيرة دُفعَ إليها بخشونة، وأغلق البابُ بالرتاج. سقط جيلين على كومةٍ من الحطام. تمدّد وهو يجسّ، في الظلمة، الموضع الأقل قسوة، ورقد فيه.

[٢]

التتار يتشاورون

لم يكد «جيلين» ينام في الليلة الأولى، هذه الليلة الصيفية القصيرة. وما لبث شقّ في الجدار أن سمح بمرور شيء من الضوء؛ فنهض، وكبَّر الشق، وأخذ ينظر.

---

(١) النوغاي: شعبٌ من أصل تتاري أسس في أواخر القرن الثالث عشر امبراطورية عظيمة على ضفاف البحر الأسود. وقد خضع التتار لروسيا منذ ١٧٨٣م؛ وكان مسكنهم في آسيا، وفي سهوب الفولغا، وفي القرم والقوقاز. وكان النوغاي الوسطاء، في معظم الأحيان، بين الروس والسكان المحليين.

ماذا رأى؟ طريقاً ينحدر من الجبل؛ إلى اليمين، بيت تتاري ترتفع فيه شجرتان؛ كلبٌ راقدٌ على درج المدخل؛ عنزٌ تعدو يحيط بها جداءٌ ترتعش أذنابُها الصغيرة. ثم رأى فتاة صغيرة تصعد إلى القرية. وهي ترتدي وزرة ملوّنة بلا زنار، وسروالاً وجزمة، وعلى رأسها الذي تحجبه بردائها، جرة كبيرة من التنك مملوءة بالماء، حافظت الفتاة على توازنها. إنها تمشي بخطوات مرنة وموقّعة؛ وهي تمسك بيدها صبياً صغيراً، حليق الرأس، بالقميص وحده، تدخل الفتاة إلى البيت، ويخرج تتاريّ البارحة، التتاري ذو اللحية الشقراء. إنه يلبس عباءة من الحرير. ومن حزامه الذي اتخذه زناراً له يتدلّى خنجرٌ طويل يدهُ من فضة. ورجلاه حافيتان في الخفّ، ورأسه مغطى بطاقيّة عالية من الفرو الأسود قد رُدَّت إلى الخلف بلا مبالاة. إنه يقف على درج المدخل، ويتمطّى، ويداعب لحيته الشقراء، ويلقي إلى الخدام بأمرٍ، وينصرف.

ثم يمرّ صبيان عائدين من الورد؛ الجوادان اللذان يركبانهما ما تزال جحفلتاهما مبللتين. ثم يمر صبية رؤوسهم حليقةٌ، وهم أيضاً لا ثياب لهم سوى قمصانهم! إنهم يركضون، ويتجمّعون، ويقتربون من الحظيرة، ويدخلون عصا في الثقب. وما كاد «جيلين» يقول «هو» حتى بادروا إلى الفرار وهم يصرخون. ولم يعد «جيلين» يرى منهم شيئاً سوى البقع البيضاء لربلات سيقانهم العارية التي كانت تلمع في الشمس.

ود «جيلين» لو يشرب، فقد جفّ حلقه. فكّر في نفسه: «ليت أحدهم يمرّ فقط ليرى ما الذي حلّ بي». ويصيخ السمعَ: فإذا بباب الحظيرة يُفتح. إنه الرجل الأشقر.

معه رجل أسمر، قصير. عيناه السوداوان مليئتان بالضوء. ووجهه الوردي بهجٌ. وهو لا يكفّ عن الضحك بلحيته القصيرة المقصوصة. القادمُ الجديد أكثر أناقةً من رفيقه. عباءته الحريرية الزرقاء مزركشة بشريط. وكان يخمل في

زناره، كالآخر، خنجراً طويلاً مرصعاً. وكحان بابوشه الذي من السختيان الأحمر، والمحلّى بالفضة مستوراً بحذاء أكثر خشونة. وكان يضع على رأسه طاقية عالية من الفرو، مثل رفيقه، لكن فروها أبيض.

يدخل الأشقرَ، ويهمس بشيء، وهو ممتعضٌ، كما يبدو. كان مستنداً إلى مصراع الباب، يلاعب سيفه، خافض الرأس، دون أن يحوّل نظرته عن «جيلين»، وهي كنظرة الذئب. أما الأسمر فهو يمشي رأساً نحو جيلين، بخطواته الحَرِكة، السريعة، المرنة، ويجلس القرفصاء، ويبتسم كاشفاً عن أسنانه جميعاً، ويضرب بيده على كتفه، ويأخذ في الكلام. ويقول عدة مرات، وهو يغمز بعينه، ويصفق بلسانه: «بوتوروس! بوتوروس!».

لم يفهم جيلين شيئاً فقال: «اسقوني! اسقوني!».

ابتسم الأسمر وهو يكرر برطانته: «روسي طيّب».

أوحى إليه جيلين بشفتيه وبيديه أنه يريد أن يشرب.

ويفهم الأسمر، في نهاية الأمر، ويبتسم، ويلتفت إلى الباب، وينادي: «ديناً!» فتسارع صبيةٌ ابنة ثلاثة عشر عاماً، رقيقة الجسم، هزيلة؛ إنها ابنته من غير شك، فهي تشبهه؛ العينان السوداوان المضيئتان ذاتهما تنيران وجهها الجميل، كانت ترتدي وزرةً طويلة زرقاء، بلا زنار، عريضة الكمين، تزينها شرائط حمراء من تحت، وعلى الصدر والذراعين، وهي تحتذي زوجين من الأحذية الواحد على الآخر. والذي هو فوق الآخر عالي الكعبين، مزدان بطوق مصنوع من العملة الفضية الروسية الصغيرة. ومن رأسها المكشوف يَنْسدل شعرُها الأسود المجدول بشريط تتدلى منه رصائع لامعة وريال فضي.

ذهبت دينا راكضة، بناءً على أمر من أبيها، وعادت بإبريق من التنك مدّته إلى جيلين. جلست القرفصاء، وطوت رجليها حتى إن ركبتيها تجاوزتا كتفيها، وشخصت إلى جيلين تحدّق فيه؛ نظرت إليه وهو يشرب كما تنظر إلى الحيوان

الوحشي وهو يشرب. ويعيد إليها جيلين الإبريق، فتنهض بوثبةٍ، وثبة الظبي الخائف، وثبة حملتْ أباها على الابتسام. وها هي ذي ترجع، بناءً على أمر أبيها، وإبريقها في يديها، ثم لا تلبث أن تعود مرةً أخرى، حاملة هذه المرة ظلميةً على لويحة مدوّرة، وجلست القرفصاء مرة أخرى، وعيناها محدقتان في «جيلين».

وانصرف الزائرون بعد أن قفلوا الباب. وبعد ذلك بقليل، أقبل الخادم «النوغاي»، واكتفى بالقول: «آي ـ دا! آي دا!» هيّا! يا معلم! هيا!

هو لا يَعْرف أيضاً كلمة روسية. وفهم جيلين فقط أنه يجب أن يتبعه، فنهض ومشى بمشقة خلف دليله. وكان قيد رجليه يعوق سيره: كان من المتعذّر عليه أن يذهب في خط مستقيم، كان ينحرف إلى اليمين تارة، وإلى الشمال تارة أخرى. وها هو ذا في قريتهم: كنيسة، كنيسة من كنائسهم، بدون قبة الجرس، ولها برج؛ عشرة بيوت، أمام أحدها ثلاثة جياد مسروجة يُمسك الصبية بأعنّتها. خرج الأسمر من هذا البيت، مبتسماً أبداً، راطناً أبداً. أومأ إلى جيلين بالدخول؛ وعَبرَ العتبة قبله، فتبعه جيلين. وألقى نفسه في غرفة دهنت جدرانها بطبقة من الغضار وأحسن دهنُها. وفي مقابل المدخل وسائد مبرقشة، برّاقة الألوان؛ وعلى الجدران سجّادٌ ثمين ارتسمت عليه مجموعاتٌ من الأسلحة: البنادق والمسدسات والسيوف العريضة المعقوفة المحلاّة بالفضة؛ وعلى أحد الجدران، في مستوى الأرض تقريباً، موقدٌ منخفض. وعلى الأرض الممهّدة، النظيفة كالبيدر، والتي تقوم مقام الأرضية الخشبية، في إحدى الزوايا، قطعٌ كبيرة من اللباد المغطّى بالسجاد وبالوسائد المحشوّة بالريش. كان يجلس في هذه الزاوية خمسة من التتار ببابوشاتهم، الأسمر والأشقر وثلاثة آخرون، وقد اتكأ كل منهم على وسادة. وأمامهم، في متناول أيديهم، أطباقٌ خشبية مدوّرة وضعت فوقها طلميّاتٌ من الذرة البيضاء، وكؤوس من الزبدة، وضفت عليها

أباريق من الجعة التتارية[1]. كانوا يأكلون بأصابعهم، وكانت أيديهم دسمةٌ.

نهض الأسمرُ فجأة، وأمر أن يُجلسَ «جيلين» في الركن الآخر، وهو موضع أقلّ قَدْراً، على الأرض الممهّدة، لا على السجّادة، ثم جلَس هو على السجادة، وقام بواجبات الضيافة فدعا ضيوفه إلى تلك الوجبة الخفيفة التي أعدّت لهم. ما أن جلس «جيلين» حتى جاء الخادمُ ونزع حذاءه وصفَّه بجانب الأحذية الأخرى، عند الباب؛ واتخذ له موضعاً أقرب إلى معلمه من جيلين إليه، لا على الأرض العارية، بل على قطعة من اللباد؛ كان ينظر إليهم وهم يأكلون، دون أن يأكل هو، بالعاً لعابه الذي كان يتحلّب في فمه. عندما انتهى التتارُ من طعامهم دخلت امرأة ترتدي ثياباً كثياب دينا، وإن كان رأسُها مكشوفاً، على عادة النساء المتزوّجات، ورفعتْ الخبزَ والزبدة، وجاءت بطست ثمين وإبريق طويل الفم، فغسلوا أيديهم، وبعد ذلك ركعوا، وأيديهم متصالبة، وبعد أن أرسلوا تنهدات عميقة، وهم يلتفتون إلي كل الجهات، تلواً صلواتهم ثم استأنفوا حديثهم بلهجتهم. وأخيراً قال أحدهم مخاطباً جيلين بالروسية:

ـ الذي أسركَ هو قاضي ـ محمد.

وأشار إلى الأشقر، ثم وجه إصبعه إلى الأسمر وأضاف:

ـ ومحمد وهبكَ لِـ «عبدول مراد» عبدول مراد أصبح سيدك.

لم يجب «جيلين» بشيء.

ضحك عبدول مراد وهو يشير إلى «جيلين»، وقال:

ـ جندي أوروس، بوتوروس.

قال الترجمان:

ـ يأمرك عبدول أن تكتب إلى ذويك ليرسلوا فذيتكَ مالاً. فإذا وصل المالُ أخلى سبيلك.

---

(١) مشروب مخمّر مصنوع من الذرة البيضاء، وهو على الإجمال حامض الطعم.

فكّر «جيلين» لحظة وقال:

ـ أتطلبُ مبلغاً كبيراً.

أخذ التتار يتناقشون من جديد.

أوضح الترجمان:

ـ يُريد ثلاثة آلاف روبل.

ـ لا، لا أستطيع دفع مثل هذا المبلغ.

انتصب عبدول كالنابض واستجوب «جيلين» وهو يلوّح بيديه، وكأنه كان واثقاً من أن «جيلين» سيفهمهُ.

وترجم الترجمان:

ـ يسأل كم تريد أن تدفع.

أجاب جيلين بعد أن فكّر:

ـ خمسمائة روبل.

أخذ التتار يتكلّمون معاً، بسيلٍ من الكلمات. سبَّ عبدول، والزبدُ على فمه، الأشقر الذي اكتفى، وهو مقطّب الحاجبين، بأن يجمجم ببعض الأصوات جمجمةً ردًّا عليه. وأخيراً صمت الجميع.

قال المترجم:

ـ أنه يرى المبلغ قليلاً. لقد كلفته حتى الآن مائتي روبل كان قاضي محمد مديناً بها له. وقد قبلكَ في مقابل ذلك الدين. يجب عليك أن تعطي ثلاثة آلاف. لن يُخلي سبيلك بأقل من هذا. وإذا أبيتَ أن تكتب الرسالةُ فستُوضَعُ في حفرة وستُجلد عقاباً لك.

قال جيلين في نفسه: «أقل تراخٍ، مع هؤلاء الأشدّاء، ستُفاقمُ من الخطر على مصيره».

انتصب بحدة وقال للترجمان:

ـ قل لهذا الكلب الخبيث أنه إذا شاء أن يبتزّ مالي بالتهديد، فلن يستفيد فلساً واحداً ولن أكتب. لم تخوّفوني بتهديداتكم، ولن تخوفوني، أيها الكلاب!

ترجم الترجمانُ، وأخذ التتارُ مرة أخرى يتكلمون جميعاً في آن واحد ويسهبون في الكلام. وثَبَ الأسمر فجأة على قدميه، ووقف أمام جيلين وهتَفَ:

ـ أوروس، الفارس الجسور!

وهذا ثناءٌ عظيم، في هذه البلاد. كان يُقال عندنا: أنتَ باسل! كان عبدول يبتسم بملء فمه. أضاف شيئاً للترجمان.

حينئذٍ قال الترجمان:

ـ هيّا، أعطِ ألف روبل.

لكن جيلين لم يتزعزع:

ـ خمسمائة، لا أكثر. اقتلوني: لن تحصلوا على فلس.

عاد التتار إلى المناقشة. وألقوا على الخادم بأمر. وكانت عيونُهم تتجه تارةً إلى الباب الذي خرج منه، وتارةً أخرى إلى جيلين. رجع الخادم يتبعه رجلٌ ضخم في أسمالٍ بالية، قدماه حافيتان، ومقيّدتان مثل قدمي جيلين.

أطلق جيلين صرخةً عندما عرف كوستيلين. أُسِرَ هو أيضاف! وُضع السجينان أحدهما بجنب الآخر. وبينما كانا يرويان مغامريتهما، كان التتار يراقبونهما بصمت. روى «جيلين» كيف جرت الأمور، و«كوستيلين» كيف توقّف جواده، وكيف كَبَتْ بندقيّته، وكيف طارده عبدول وأسره.

وقف عبدول، مرة أخرى، وأشار بإصبعه إلى كوستيلين، وقال بضع كلمات ترجمها الترجمان:

ـ أنتما الآن مملوكان لسيّد واحد، ومَنْ يدفع فديته أولاً يُحرَّرْ أولاً. أما أنت، يا جيلين، فلا تعرف غير الغضب. رفيقك ليس سَيِء الطبع مثلك.

لقد كتب إلى أسرته وسترسل خمسة آلاف روبل، وسوف يُطعَمُ طعاماً حسناً، ويُعتنى به عنايةً حسنة.

قال جيلين:

ـ رفيقي حرٌّ أن يتصرّف كما يشاء. ربما كان غنياً؛ أما أنا فلستُ غنياً، لن أُغيّر كلامي. اقتلوني، إذا شئتم. لن يفيدكم ذلك كثيراً. لن أكتب لأطلب أكثر من خمسمائة روبل.

ساد صمتٌ. ثم وثب عبدول مرة أخرى، وفتّش في صندوق، وأخرج ريشةً، وقصاصةً من ورق، وحبراً. وضع ذلك كله في يد جيلين، وأراه إياه، وقال له: وهو يضربُ على كتفه: «اكتبْ»؛ لقد قبل بخمسمائة روبل.

قال جيلين للترجمان:

ـ لحظةً. قُلْ له أن يُطعمنا طعاماً حسناً، وأن يُعطينا لباساً لائقاً نلبسه وأحذيةً مناسبةً نحتذيها، وأن يتركنا معاً ـ سيكون ذلك أبهج لنا ـ وليأمرْ بفك قيودنا.

كان جيلين يبتسم لسيّده بدوره، وهو يصغي إليه.

ـ سأعطيهم ألبسةً جميلةً جداً، وأحذيةً، وسأزينهما كأنهما في عرس. وسأطعمهما كما يُطعَم الأمراء. وإذا طابَ لهما أن يعيشا معاً فما عليهماإلاَّ أن يقيما في الحظيرة. أما فك القيدين فذلك غير ممكن سوف يَلوذان بالفرار. لن أفك القيدين إلاَّ ليلاً.

وأضاف مع ضربة من يده على كتفه:

ـ إذا كان إيفان فتى لطيفاً، فليس عبدول سيئاً[(١)].

كتب جيلين رسالته. أما العنوان فكتبه ناقصاً عن عمدٍ لكي تضيع الرسالة. وقال في نفسه: «سأعرف كيف أهرب».

---

(١) في البلاد الشرقية الخاضعة لروسيا، كل روسيّ يُسمّى «ايفان».

اقتيد «جيلين» وكوستيلين إلى الحظيرة. حُمِلَ اليهما قشٌّ الذرة وإبريق ماء، وخبزٌ وثياب بالية، وأحذية مهترّئة، نُهبت، بالطبع، من جنود موتى. عندما جاء الليل فُكَّ قيداهما، وحبسا في الحظيرة التي أستخدمتْ سجناً لهما.

[٣]

في الأسر

هكذا كانت حياةُ «جيلين» ورفيقه طوال شهر. كان سيِّدهما دائم الإبتسام. وكان يُردّد تلقائياً: «إذا كنتَ فتى لطيفاً فلستُ فتى سيئاً». لكنه كان يُسيء إطعامَ أسيريه: طلمّيات من خبز الذرة الناضجة أحياناً، وغير المخبوزة إطلاقاً في أحيانٍ أخرى، ولا شيء غير ذلك.

كتب كوستيلين إلى أهله رسالة أخرى. أضناه المللُ، فكان يقضي وقته في الحظيرة ينتظر المال، عاداً أيامه، إلاَّ إذا نام. أما جيلين فكان يعلم أن رسالته لن تصل، ولم يكتب رسالة ثانية.

كان يفكر بينه وبين نفسه: «من أين ستأتي أمي بمال الفدية؟ لم تكن تعيش تقريباً إلاَّ ممّا كنتُ أرسله. العثور على مثل هذا المبلغ دمار نهائي لها. إن شاءَ الله سأتخلص من هذا المأزق وحدي».

لم يكف عن مراقبة كل ما يحيط به، وعن دراسة وسائل الهرب. كان يتنزه في القرية وهو طلق المحيا يصفر؛ أو يصنع أشياء بمهارة: كان يصوغُ لعباً بالغضار أو يضفر سلالاً من القصب. كان جيلين يجيد عَملَ كل شيء.

وذات يوم، صنع لعبةً، وعمل لها أنفاً وساقين وذراعين، وألبسها وزرةَ بزيّ البلد، ووضعها على السطح، بمرأى من الناس.

مـرت نسـاء تتـاريـات، وبينهـن ابنـة عبـدول. رأيـت دينـا اللعبـةَ ونـادت صديقاتها. فوضعن جرارهن بسرعة، ووقفن يتطلعن إلى السطح، ويضحكْن. أنزل جيلين اللعبة عن السطح وقدّمها لهن، فازداد ضحكهن، دون أن يجرؤن على لمسها. ترك جيلين اللعبة معهن، وتوارى في الحظيرة وأخذ ينظر من الشق، حرصاً منه على معرفة ما سيجري.

إعتقدت دينا إن لا أحد ينظر إليها فأمسكت باللعبة وحملتها. وهي تركض.

ما كاد الفجر يطلع، في اليوم التالي، حتى شاهدها جيلين. على درج المدخل، واللعبة بين يديها. لقد تسنّى لها أن تزيّنها بخرق حمراء، فأخذت تهدهدها بصوت خفيض. خرجت من البيت امرأةٌ عجوز، وانتزعتها منها، وحطمتها، ووبّخت دينا، وأرسلتها تعمل. فعمل لها جيلين لعبة أجمل من تلك.

ذات يوم، حملت إليه الصغيرة إبريقاً، وضعتْه على الأرض، وأَرَتْه إياه، ونظرت إليه وهي تضحك.

فكّرر «جيلين»: «مالها تضحك». رفع الإبريق ليشرب. كان ما شَربَه حليباً لا ماءً!

قال:

ــ ما ألذّه!

كم كانت دينا تبدو سعيدة!

ــ هذا لذيذ، يا إيفان، حقاً هذا لذيذ؟

نهضت بوثبة، صفقت بيديها، أمسكت بالإبريق وفرّت.

منذ هذا اليوم أخذت تأتيه بالحليب سراً. وكانت، إذا وضع التتارُ جبنَ العنز على السطوح ليجف، أخذت شيئاً منه لتعطيه إياه. بل إنها إختلست قطعة

من خروف ذبحه عبدول، وخبّأتها في كمها، ألقت إليه بعطيتها وهربت.

هبّت عاصفةٌ ذات يوم. وهطل المطرُ مدراراً، طوال ساعة. واختفت مخاضات الأنهار تحت ستة أقدام من الماء الوَحِل الذي كان يحمل أحجاراً. كانت السيولُ تنحدرُ من الجبال، من كل جانب منها، وهي تهدر هديراً أصمّ. فلما هدأت العاصفة، تراكضت السواقي من كل مكان لتجتاز القرية. استعار «جيلين» سكيناً من عبدول. هيّأ قطعةً من خشب، وركّب عليها لوحين صغيرين ثبّتهما بدولاب ذي مراوح، ثم فصّل لعبتين، وألْبس إحدى اللعبتين لباسَ فلاحة، وألبس الأخرى لباسَ فلاح، بقطعٍ من قماش عتيق قدّمته البناتُ، وثبّت اللعبتين بالدولاب الذي وضعه في الساقية. يا للأعجوبة! أخذ الدولاب يدور واللعبتان ترقصان!.

القريةُ بأسرها ـ الصبيان والبناتُ والنساء ـ هرعت لتتأمل هذا المشهد العجيب؛ وأبدى الرجال إستحسانهم وهو يصرخون:

ـ عاش أوروس! عاش إيفان!

كان عبدول يملك ساعة معطّلة، من صنع روسي. دعا جيلين وأراه إياها، ولفظ بعض الأصوات على سبيل التشجيع. قال له جيلين:

ـ أعطني إياها، وسوف أصلحها.

أخذها، وفحصها، وفكّها بالسكين، ثم أعاد القطع إلى مواضعها. نجاح آخر: دارت الساعة! فرح عبدول وأهداه عباءةً، أقدم عباءاته، في الحقيقة، اضطُرّ جيلين إلى قبولها، ثم إن العباءة، ولو كانت بالية، يمكن أن تفيد دائماً.

بدءاً من هذا اليوم اشتُهر جيلين بأنه الرجل الماهر في كل شيء. كانوا يأتون إليه من بعيد، وهم يحملون ساعات بحاجة إلى إصلاح، وبنادق ومسدّسات ديوكها مخربة. وقدم له عبدول الأدوات الضرورية لهذه الأعمال الصغيرة، كالملاقط والمثاقب والمبارد.

مرض تتاري فلجأ ذووه إلى أنوار جيلين: «هيا واشفه». لم يكن جيلين يفهم شيئاً في الطب. ومع ذلك توجّه إلى المريض، وفحصه وقال في نفسه: «على كل حال، قد يشفى وحده». وخرج من بيت المريض، ورجع إلى حظيرته، وأخذ ماء وأحضر رملاً، ومزجهما. وعندما عاد إلى التتاري المريض تمتم أمام الجميع بضع كلمات وهو ينحني على الشراب قبل أن يَسْقيه المريض الذي شفي، لحسن الحظ.

أخذ جيلين يفهم قليلاً لغة البلد. وقد ألفه الناسُ، فإذا احتاجوا شيئاً سموه باسمه: «إيفان، إيفان! تعال». على أن آخرين كانوا ينظرون إليه شزراً، ويحيدون عنه كأنه حيوان شديد الخطر. ولم يكن الأشقر يحب جيلين. كان كلما رآه قطّب بين حاجبيه، أو أشاح بوجهه عنه، أو شتمه.

لم يكن هذا هو عدوه الوحيد. كان ثمة شيخ لا يسكن القرية، وإنما يصعد إليها أحياناً من سفح الجبل. وكان قصير القامة، يلف على قلنسوته عصابة من القماش الأبيض، أبيض اللحية والشاربين بياض الثلج، وكان ذا وجه قرميدي خددته التجاعيد، وأنف معقوف كأنف العقاب، وعينين رماديتين ماكرتين، وفم أدرد برزت فيه سنان معوجان. كذلك كان هذا الشيخ. كان يقصد المسجد، معتمّاً بعمامته مستنداً إلى عصاه، سائراً بخطاً بطيئة، ملقياً نظراته الساخطة يميناً وشمالاً، فإذا لمح جيلين أدار له ظهره وهو يهمهم.

نزل جيلين من الجبل ذات يوم، ليرى أين يعيش هذا الشيخ. سلك درباً يُفضي إلى بستان صغير مزروع بأشجار الكرز والمشمش، مسوّر بجدار منخفض يحيط بمنزل صغير ذي سطح منخفض. دنا فسمع دويَّ النحل. ورأى الشيخ جالساً القرفصاء أمام خلية نحل مشغولاً بمعالجة شيء ما. إنتصب جيلين ليرى بوضوح أكبر. أطلق الشيخُ صرخةً، لدى سماعه الصوت الذي أصدره القيد،

وأمسك بمسدسه الذي كان يضعه في زناره، وأطلق النار. تسنى لجيلين أن يختبىء خلف صخرة.

ذهب الشيخ واشتكى لعبدول الذي أمر بإحضار جيلين وسأله ضاحكاً:

ــ لمَ ذهبت إلى رؤية الشيخ.

ــ لم أرد به شراً. أردت أن أعرف أين يعيش وكيف يعيش.

أطلع عبدول الشيخ على هذا الجواب دون أن ينجح في تهدئة خاطره. كان هائجاً أبداً، يدمدم وهو يكشف عن سنيه المعوجتين ويتمتم مهدداً بجمع يده. وفهم جيلين أن الشيخ يأخذ على عبدول أنه يحافظ على الروسيين في القرية، ويُنذره بوجوب قتلهما.

بعد أن انصرف الشيخ سأل «جيلين» عبدول: من ذلك الشيخ.

قال عبدول:

هذه شخصية عظيمة! فارس لامع: في شبابه كثيراً من الروس، وكان غنياً. وكان له من نسائه الثلاث ثمانية أولاد. وكانوا جميعاً يعيشون أسرة واحدة، في القرية نفسها. ولقد جاء الروس، فدمّروا القرية، وقتلوا الأولاد جميعاً ما عدا واحداً ظل حيّاً: لكنه ذهب واستسلم للروس. وانتقل هو أيضاً إلى الخطوط الروسية، وعاش فيها ثلاثة أشهر، ولقي ابنه، فقتله وفرّ. ومنذ هذا اليوم، أقلع عن الحرب، وحجّ إلى مكة وأراد أن يعبد الله. ولذلك تراه يلبس العمامة. ومَنْ حجّ إلى مكة سُمي «الحاج» ولبس العمامة، إنه لا يحبكم، أنتم الروس. وقد أمرني بقتلك. وكيف يمكنني أن أقتلك؟ إني اشتريتك بدراهم حقيقية، ثم إنني أشعر بالمودة نحوك، يا إيفان، قتلُك غير وارد ولو لم أعدك بإخلاء سبيلك لما تركتك تنصرف!

أخذ عبدول يضحك وأضاف بلغة روسية رديئة:

ــ إذا كان إيفان فتى لطيفاً فليس عبدول سيئاً!

[٤]

إستمرار الأسر

مرّ شهر هكذا. في النهار، كان جيلين يتجول في القرية أو يشتغل بعملٍ من الأعمال. لكن ما أن يخيّم الظلام، وتسكت كل نأمة في القرية، حتى يأخذ بحفر الأرض تحت الحظيرة، وهو عمل صعب بسبب الأحجار الكبيرة التي كان عليه أن يحتها بالمبرد. على أنه ثقب تحت الجدار ثقباً كافياً لأن يمر منه ذات يوم. «ليتني أعرف البلاد فقط، وأعلم من أية جهة يحب أن أهرب. والتتار لن يدلّوني على ذلك».

إستغل جيلين يوماً غياب عبدول عن القرية، في سفرٍ له، ليتسلق الجبل: أراد أن يعرف كيف يتوجه. وكان عبدول قد نبّه ابنه الصغير أن يتبع جيلين وأن يظلّ نظرُه عليه. جرى الصبـي خلف جيلين:

ـ لا تذهبْ إلى هناك! مَنَعَ أبـي ذلك، لا تُبْعِدْ وإلاَّ استغثت!

حاول جيلين إقناعه، فقال له:

ـ لن أذهب بعيداً، لن أذهب إلى ما وراء تلك القمة على الجبل، سأبحث عن عشبة أشفيكم بها. تعالى معي، ليس بوسعي أن أهرب، وأنا مقيّد هكذا. إذا جئتَ عملت لك قوساً وسهاماً. إقتنع الصبيُّ وذهبا معاً.

لم يكن ذلكَ الجبلُ يبدو نائياً، لكن كم أحس جيلين، بالمشقة وهو يتسلّقه بقيده! كان يجرُّ نفسَه جراً! يجرّ نفسه جرّاً! وأخيراً ها هو فوق؛ فجلس ونظر إلى المنطقة.

في الجنوب، فيما وراء الحظائر، وفيما وراء وادٍ فيه خيول مزروبة، وفي قاع منخفض، شاهد قريةً مُتكئةً على جبل أشدّ وعورة من الجبل الذي تسلّقه قبل قليل، ووراءه ترتفع سَنَمات أخرى. وبين السلسلتين أزرقّت بقعة غابة تحت الضوء. وفيما وراء ذلك، قممٌ تعلو أكثر فأكثر وتصعد إلى السماء حتى

تبلغ خطاً أبيض أكثر إرتفاعاً، تكلّله قبعة بيضاء تُشرف على كل ما سواها. وفوق القرى التي انتثرت هنا وهناك واحتمت بشعاب الجبال، تصاعد الدخانُ إلى السماء... قال جيلين في نفسه: «كل هذا، كل هذه البلاد الجبلية، مناطق لهم».

وإذ نَقَل إنتباهه إلى الجهة الأخرى، إلى الجهة الروسية، رأى أولاً عند قدميه، القرية التي يسكنها، تحيط بها البساتين، على مقربة من ساقية. وعلى الساقية نساءٌ يغسلن غسيلهن، وكأنهن دمى. وفيما وراء القرية جبلٌ، وأبعد منه قمتان تعلوهما غابةٌ. وفي الوسط، بعيداً على بعد شاسع يمتدّ سهل أزرق تحت غشاء من الضباب. قال «جيلين» في نفسه: «عندما كنت أعيش في الحصن، من أين كانت تشرق الشمس، يا ترى، وأين كانت تغيب؟ لا شك أن حصننا في ذلك الوادي، لا شك في ذلك! إلى هناك، في هذا الإتجاه بين هاتين الغمتين، ينبغي أن أهرب». كانت الشمس تغيب. وغدت الجبالُ المغطاة بالثلج حمراء بعد أن كانت بيضاء، والجبالُ السوداء أشدَّ سواداً. وصعدت من الوديان أبخرةٌ والتهب الوادي الذي لا بد أن يكون فيه الحصن، بنيران الغروب. ركّز جيلين في هذه النقطة كل قوة عينيه: إن ما يتصاعد هناك على خط مستقيم في السماء يُشبه حقاً دخان مدفأة. نعم، إنه واثقٌ من ذلك، إنه الحصن، الحصن الروسي.

كان الوقت متأخراً، وكان صوتُ «الملاّ» يدعو إلى الصلاة، وعاد قطيع القرية يسوقه الرعاة وهو يخور. وكان الصبي الصغير لايني يُردد: «هيا إلى البيت». أما جيلين فود لو يبقى هنا.

رَجَعا إلى البيت. فكّر جيلين: «الآن عرفتُ المنطقة. وقد آن أوان الهرب». قرر أن يسافر في هذا المساء بالذات ليغتنم الليالي التي ما تزال مظلمة.

كان القمر في محاقه، لكن التتار عادوا في تلك الأمسية، لسوء الحظ.

وعودتهم فَرِحةٌ، في العادة، مع الغنيمة الثمينة! بيد أن التتار لم يكونوا يسوقون معهم أي حيوان أمامهم: جاؤوا بجسد رفيقٍ لهم رُبِطَ بسرج جواد، هو جسد أخي الأشقر. كانوا يتلظّون غيظاً.

إجتمعت القريةُ كلها للدفن. خرج جيلين من حظيرته ليرى المأتم.

جيء بالجثمان ملفوفاً بكفن، دون تابوت، وأُرقد تحت شجرة حور، على العشب. وعندما حَضَر الملاّ، اصطفّ الحاضرون قدّام الميت، والملاّ أمامهم؛ ومن خلفه الشيوخُ الثلاثة الذين حجّوا إلى مكة، كلهم في صف واحد، وخلفهم سائر التتار، وقد صمتوا وخفضوا عيونهم، وبعد صمت طويل، رَفَعَ الإمامُ رأسه وقال:

ـ الله!

إنحنى الجميعُ مرةً أخرى وعادوا إلى سكونهم الصامت حتى اللحظة التي رفع فيها الإمام رأسه وكرّر: «الله!» فردد الجميع بعده: «الله» وصمتوا مرة أخرى. كانوا يَبْدون وكأنهم يشاركون الجثمان الممدّد أمامهم على العشب صمتَه ويبوسته، وكأن الموت قد مدّ يده فوقهم: لا حركة ولا نأمة إلاّ على شجرة الحور: صوت الأوراق الخفيفة التي كانت تنقلب تحت نغمات الهواء.

عندما إنتهت الصلوات، إنتصب الجميع. أُعِدّ ما يشبه الحجرة الصغيرة، لا مجرّد حفرة. تناول حاملو النعش الجسدَ من إبطيه وساقيه وثَنَوْه وأنزلوه بحذر، وأجلسوه في الحجرة، وأراحو يديه على صدره. وسُنِدَت فتحة القبر بقصب قُطِع حديثاً ثم غُطّي بالتراب. ونُصِبَ حجر في الموضع الذي كان يستريح فيه رأسُ الميت. عندما سُوّي الترابُ جيداً، جلس كلٌّ منهم القرفصاء أمام القبر، في النظام الذي وقفوا فيه من قبل. وبعد صمت طويل لفظ الحضور ثلاث مرات أيضاً اسم الله، وتنهدوا، ونهضوا. وزّع أخو الميت مالاً على الشيوخ، ثم تناول سوطه وهو واقف، ولسع جبينه ثلاث مرات بالجلد وعاد إلى بيته.

في صباح اليوم التالي، رآه جيلين يتبعه ثلاثة من التتار وهو يقود فرساً إلى ما وراء القرية. ولما خرجوا من القرية، خلع قاضي ـ محمد عباءته، وشمّر كميه، كاشفاً عن ذراعيه العبلتين، وأخرج سكيناً طويلاً وشحذه، شد التتار رأسَ الفرس إلى الوراء، ودنا منها الأشقر وقطعَ عنقها، ومدّدها على الأرض وأخذ يقطّعها. نظف النساء والبنات الصمارين بعناية. ثم قطع الرجال الحيوانَ قطعاً وحملوه إلى بيت قاضي محمد حيث إجتمع سكانُ القرية. دامت الوليمة لإحياء ذكرى الميت ثلاثة أيام. وأكل الناسُ كثيراً من اللحم، وشربوا كثيراً من جعتهم، في ذكرى المرحوم.

كان التتار قد عادوا جميعاً، بعد مغامرتهم المشؤومة. وفي اليوم التالي لحفلة التأبين، نحو الظهر، لاحظ جيلين أنهم كانوا يتجمّعون من أجل سفر جديد. جيء بالجياد وسُرجت وأُلجِمتْ، ومضى عليها عشرة رجال، من بينهم محمد. وبقي عبدول في القرية. كان ذلك والقمر هلال، والليل ما يزال مظلماً.

قال جيلين في نفسه:

«يجب أن أفرّ، في هذا المساء». وأسر إلى كوستيلين بمشروعه. لكن كوستيلين خاف.

ـ أنهْرب؟ وكيف نفعل! وقبل كل شيء، نحن لا نعرف الطرقات.

ـ أعرف طريقنا.

ـ لن نقطع الطريق، في ليلة واحدة.

ـ طيب، إذا لم نصل في ليلة واحدة إختبأنا في الغابة. وقد هيأتُ الزادَ، الطلميّات والبسكويت. ولمَ تبقى؟ أتنتظر الفدية؟ هذا حسن، لو أرسلوا المال. لكن إذا لم يجدوا المال اللازم؟ التتار هائجون لأن رجالنا قتلوا واحداً منهم.

ولا همّ لهم إلا الهمسَ فيما بينهم؛ ذلك أنهم قرّروا قتلنا. فكّر كوستيلين، وانتهى إلى القول:

ـ حسناً! فلنذهب!

[٥]

الفرارُ والمطاردة

زحف جيلين في الممر الذي حَفَره، ووسّعه بحيث يستطيع أن يمر فيه كوستيلين. ثم انتظرا، وهما جالسان، أن تنام القرية.

عندما سكتَ كلُّ صوت، مرّ جيلين من الثقب، ودعا كوستيلين بصوت منخفض: «دورُكَ». أَسقط كوستيلين حجراً وهو يزحف.

كان لعبدول كلبُ حراسة، كلبٌ ضخمٌ مبقّع، شديد الشراسة يُدعى «أولياك». كان جيلين يُطعم هذا الكلب بقايا طعامه، إن بقي شيء، منذ زمن طويل. عندما سمع أولياك الحجرَ يسقط نَبح واندفعَ إلى الحظيرة تتبعه كلابٌ أخرى. صَفَر «جيلين» برفق، ورمى للكلب الذي عرفه بقطعة طلميّة، فحرّك الكلبُ ذيله وهدأ.

لكن عبدول الذي أيقظته الضوضاءُ أخذ يحرّض الكلبَ بصوته، دون أن ينهض ليرى ما يجري: «هيّا! أولياك، هيّا!» حكّ جيلين الكلبَ خلفَ أذنيه. ظل أولياك يحرك ذيله، ويتمسّح بساقي الذي أطعمه.

إختبأ الفاران خلف زاوية الحظيرة. لا صوت سوى سعال خفيف لنعجةٍ في زريبتها، وخرير المياه على الحصى، في قاعٍ. كان الظلام مخيّماً، والنجومُ تتلألأ، في الأعالي، وقرنا الهلال الأحمران يتواريان خلف الجبل، والوديان ترقد تحت غشاء الضباب الأبيض.

نهض جيلين وقال لرفيقه: «حسناً! هيا!» ولم يكادا يخطوان بضع

خطوات حتى سمعا أذان الملاّ يرتفع من أعلى المسجد. «الله! بسم الله! الرحمن!» سيخرج الناس، من غير شك، إلى المسجد لأداء الصلاة. فوقف الرفيقان واختبأا خلف شقّة جدار. وانتظرا، وهما مختبئان، مرور المؤمنين. وعندما خيّم الصمتُ مرة أخرى، نهضا، ورسما إشارة الصليب، ومضيا.

ــ سر، برعاية الله.

إجتازا فناءً، وانحدرا إلى النهر فقَطعاه، ودَلفا إلى واد مغطّى بضباب كثيف، لكنْ بطبقة رقيقةٍ جداً حتى أنه لم يكد يبلغ وسطهما، وكانا يريان النجوم تلمع فوق رأسيهما. وبعد أن لاحظ «جيلين» السماء إختار الإتجاه. كان السيرُ ممتعاً، في هذه النداوة، مع ان حذاءيهما المهترئين منذ زمن طويل كانا يضايقانهما. نزع جيلين حذاءه، وتابع سيره حافي القدمين، قافزاً من حجر إلى حجر، دون أن تغيب عن نظره كوكباتُ السماء. كان يسبق كوستيلين، فصاح به هذا:

ــ لِنمْشِ بسرعةً أقل، هذا الحذاء القذر رضّ قدميَّ.

ــ ما عليك إلاّ أن تنزعه، سيخفف ذلك من وجعك.

عمل كوستيلين بهذه النصيحة، لكن السير والقدمان حافيتان أسوأ. كانت الحجارة المسننة تجرحه، وكان متخلّفاً دائماً. قال له جيلين:

ــ إن جرحتَ قدميك فالأمر سهل! الجرح يندمل. لكنهم إن أدركونا فالأمر خطير: سيقتلوننا.

تابع كوستيلين سيره وهو يئنّ، دون أن يفوه بكلمة. سار الفاران طويلاً في الوادي. وفجأة سمعا، على يمينهما نباحاً. وقف جيلين، وحاول أن يرى، وخرج من القاع الذي لم يتركاه، صعد نحو الجبل جاسًّا الأرض بيديه. قال:

ــ آه! لقد ضللنا الطريق، وملنا إلى اليمين أكثر مما ينبغي! ولا شك أن في هذه الجهة قرية. رأيتها في ذلك المساء، من القمة. يجب أن نعود أدراجنا

وأن ننحرف إلى اليسار بطريق الجبال. يجب أن نقع على غابة هنا.

لكن كوستيلين كان مُرهقاً:

ـ انتظرني قليلاً، أعطني الوقت لأستردّ أنفاسي؛ دميتُ قدماي.

ـ قدماك! ستشفى قدماك. حاولْ أن تقفز من حجر إلى حجر قفزاً أقل ثقلاً. انظرْ، هكذا، افعلْ مثلي.

كان جيلين يستعجل العودة إلى الوراء، والانحراف إلى اليسار، والعثور على الجبل والغابة. ژوكان كوستيلين متأخراً دائماً عن رفيقه، يتبعه بصعوبة متعاظمة، وهو يشكو، وجيلين يحاول أن يُسكته وهو متابعٌ طريقه.

ها هما الآن يتسلّقان جبلاً. إنما على الطريق الصحيحة: ها هما في الغابة، في الأدغال التي تمزّق ما بقي لهم من ثياب. ويقعان أخيراً على درب يقطع الغابة؛ فيمضيان فيه إلى الأمام!

ـ قفْ! كأنّ على الطريق وقعَ حوافر.

توقفا وأصاخا السمع. كان الصوتُ ينقطع كلما وقفا، ويستأنف كلما سارا. وكأن هناك جواداً يطرق الأرض بحوافره. زحف جيلين نحو الطريق. رأى حيواناً يشبه الحصان وليس بحصان، لأنه كان يحمل شيئاً غريباً. ومن المؤكد أنه ليس إنساناً. سمع جيلين ضرباً من الحمحمة. قال في نفسه: «يا للسر الغريب!». صفر برفق: وثب الحيوانُ، وارتعشت الغابة، وسط تقصّف شديد للأغصان المكسورة، وكأن الريح قد عصفتْ بها. تهالك كوستيلين على الأرض من الرعب.

قال جيلين ضاحكاً:

ـ ليس سوى أيّل. أتسمع صوت الأغصان التي يكسرها بقرينه؟ لقد أخافنا، لكننا أخفْناه أيضاً.

تابعا سيرهما. أخذت الشِعْرى تنحدر: كان النهار قريباً. أكانا على

الطريق الصحيحة؟ لم يكونا يعلمان شيئاً. خُيِّل إلى «جيلين» أن هذه الطريق هي الطريق التي اقتيد فيها عندما أسره التتار. ومن النظر إلى الأشياء، لا بد أن يكون المركز الروسي قريباً. لكنه لم يكن على يقين.

لم يستطعْ، فيما مضى، أن يرى شيئاً يمكن أن يصلح كمعلمٍ من المعالم. لا يكاد يرى شيئاً. وصلا إلى فرجةٍ في الغابة. جلس كوستيلين وقال:

ـ فكّرْ كما تشاء، لن أصل، فساقاي لم تعودا تحملاني.

حاول «جيلين» أن يشجّعه، لكن رفيقه كان يردّد.

ـ كلا، لن أصل إلى النهاية، لقد أعياني التعب.

استولى الغضبُ على جيلين، فبصق احتقاراً، وأوسع كوستيلين شتماً.

ـ ليكنْ! سأذهب وحدي، وداعاً!

وثب كوستيلين واقفاً. وقطعاً فرسخاً في الغابة دون أن يريا شيئاً أمامهما لفَرْط ما كان الضباب كثيفاً. كانت النجومُ لا تكاد تُرى. وفجأةً، سُمِعَ أمامهم صوتٌ يتكرر؛ وكأنه كَشْط الحديد الذي علق بحجر. انبطع جيلين على طوله، وألصقَ أذنه بالأرض. قال:

ـ من المؤكد، هذه المرة، أن الصوت صوت رجل على جواده، وهو يمشي صوبنا، الأمرُ كذلك حقاً. يجب علينا أن نَدَعَ الطريق الذي سيسير عليه، وأن نختبىء بين الأدغال وننتظر. اختبأا، وزحف جيلين على بطنه ودنا دنواً كافياً فرأى أحد التتار على جواده يسوق أمامه بقرةً ويمرّ على الطريق وهو يدندن. فلما توارى، ذهب جيلين إلى كوستيلين وقال له:

ـ زال الخطر. انهضْ، وإلى الأمام سر!

حاول كوستيلين أن ينتصب، لكنه وقع.

ـ أنا مرهق، قسماً أنا مرهق. لم تبق في قوةٌ.

كان كوستيلين، هذا المنتفخ، الثقيل الجسم، مبللاً بالعرق.

أضرَّ به ضباب الغابة الجليدي، وتسلّخت قدماه، وخارت قواه. وكان جيلين يحاول أن يوقفه على رجليه، أن يجبره على النهوض. صرخ كوستيلين.

ــ آي! آي! ما أشد وجعي!

قال له جيلين، وقد ذهل من غفلته:

ــ ماذا أصابك؟ التتاري هنا؛ إن صرختَ هكذا سمعك.

كان جيلين مدركاً لحالة صديقه. قال في نفسه: «لا شك أنه ضعيف جداً. ماذا سأفعل به؟ لا يترك المرءُ رفيقه». قال له:

ــ هيّا، اركبْ على ظهري، سأحملك ما دمتَ لا تستطيع المشي.

حمل كوستيلين على كتفيه، وثبّته من ساقيه. استأنفا الطريق، حاول جيلين أن يتقدم:

ــ بجاه الله عليك، لا تشبَّث بعنقي. امسكني من كتفي.

كان الحمل ثقيلاً. جيلين أيضاً كانت قدماه داميتين، وقد أعياه التعبُ. كان يقف ليحني ظهره ويعدل وضعه بهزّة كتف، محاولاً أن يغير موضع الثقل الذي يسحقه وأن يرفعه إلى الأعلى. ثم يجر نفسه جرًّا وهو يمضي.

سمع التتارُ، من غير شك، الصراخ الذي أرسله كوستيلين. فأقبلت خطواتُ جواد، ودوّت نداءاتٌ في الليل. ألقى جيلين بنفسه جانباً في قلب الدغل. كان التتاري هنا. أسند بندقيته إلى كتفه، وأطلق النار، فأخطأ هدفه، وأرسل صرخة، وساتدار ومضى عدواً قال جيلين:

ــ لقد هلكْنا، يا صاحبي. هذا التتاري الكلب سيُحضر نجدة قبل أن يتعقّبنا. ما يزال علينا ثلاثة فراسخ، وإلاّ قبضَ علينا.

وقال في نفسه: «ما كان أسخفها من فكرة أنني اصطحبت معي هذا الثقيل. لو كنتُ وحدي، لكنتُ قد وصلتُ منذ زمن بعيد».

حينئذٍ قال كوستيلين:

تابعْ طريقك بدوني، لمَ تضحّي بحياتك من أجلي!

ــ لا، لن أتابع بدونك. لا يترك المرءُ رفيقه».

عاد جيلين وحمل كوستيلين على كتفيه وقطعَ فرسخاً وهو يجرّ نفسه. وليس سوى الغابة، لا نهاية لها. تبدّد الضبابُ وتعالى مشكلاً سحباً حجبت النجوم. فقد جيلين قواه. ووصل وهو يحمل رفيقه إلى نبع ماء ينبجس من بين الحجارة. وقف جيلين وحطّ حمله.

ــ دعْني لأستريحَ وأروي عطشي من هذا الماء. وسنتناول شيئاً من الطعام. لا بدّ أننا غيرُ بعيدين كثيراً.

تمدّد ليعبّ الماءَ، عندما رنَت، مرة أخرى، خلفه، خطوات جواد. لم يكادا يجدان متّسعاً من الوقت ليُلقيا بنفسيهما في الدغل على يمين الطريق، وليكمنا فيه؛ وإذا بهما يسمعان، في المكان الذي اختاراه ليستريحا فيه، كلاماً وحثاً للكلاب. وتقصّفت أغصانٌ وانقض كلبٌ مجهولٌ عليهما ونبح.

قبض عليهما تتارٌ لم يرياهم قط واصعدوهما على جوادين، وربطوهما، وعادوا بهما.

على ثلاثة فراسخ من هذا المكان، لاقوا عبدول، سيّدهما، يصحبه رجلان. تشاور التتارُ فيما بينهم. وُضع الأسيران على جوادين آخرين، واقتاد عبدول ذلك الضاحك المهذار كما كان من قبل ــ الفارّين إلى القرية دون أني فوه بكلمة. عرضا في الشارع لإهانات الصبية الذين هُرعوا من كل مكان ليرجموهما بالحجارة، وليجلدوهما بالسياط وهم يصرخون صراخاً حاداً.

اجتمع التتارُ للتشاور بحضور الشيخ الذي في قاع الوادي. وأدرك جيلين أن مصيرهما كان يتقرّر.

رأى بعضهُم أن يُقتادا إلى مكان أبعد، في الجبال. وعندما جاء دورُ الشيخ ليبدي رأيه، قال:

ـ يجب أن نقتلهما.

احتجّ عبدول:

ـ دفعتُ مالاً، وأريد أن أقبض الفدية.

ردّ الشيخ:

ـ لن يدفعا فدية. لن يكونا صوء مصدر لمصائب جديدة. ثم إن العار أن نطعم روساً! يجب أن نقتلهم، هذا كل ما في الأمر.

انتهى المجلس، وانفضّ جمعهُم. دنا عبدول من جيلين وقال له:

ـ إذا لم أتلقَّ الفدية من الآن وإلى خمسة عشر يوماً فسوف أجلدكما. وإذا خطر لك أن تهرب مرة ثانية قتلتُك كما تُقتَل الكلاب. أكتب إلى ذويك وحاول أن تُقنعهم.

جيءَ بالورق. وكتبَ كل واحدٍ رسالته. وأعيدَ القَيْدان إلى أقدام الأسيرين واقتيدا إلى خلف الجامع إلى حفرة عمقها بين عشرة أقدام واثنتي عشرة قدماً، وأنزلا إليها.

[٦]

النجاة

ما كان أقصى حياة جيلين وكوستيلين في قاع هذه الحفرة! لم يكن قيداهما ليُفكّا، لم يكونا ليُخرجَا من هذا القاع. وكانت تُرمى إليهما، كما تُرمى إلى الكلاب، قطعٌ من العجين الذي لم يُخبز جيداً، ويُدلّى إليهم بالماءُ في جرّة. في أعماق هذه الحفرة الرطبة، كان الهواءُ ثقيلاً. وقد مرض كوستيلين مرضاً شديداً. تورّم جسمه وبرحت به الآلام، فكان لا يكفّ عن التوجّع ما لم ينم. وجيلين نفسه فقد شجاعته؛ لقد أيقن أن المغامرة قد دارت دوائرها عليهما. ولم يكن يدري كيف المخرج.

أخذ يحفر الأرض وبنيته أن يشقّ ممراً له. لكن لا سبيل إلى إخفاء الردم. شاهد عبدول الردم فهدّده بالقتل.

وذات يوم كان جيلين مقرفصاً فيه على عقبيه في قاع الحفرة، حزيناً يفكّر في حريته الضائعة، سقطت طلمية على ركبتيه، ثم سقطت طلمية أخرى، وثالثة، ثم سيلٌ من الكرز. رفع بصره فرأى «دينا» فوقه. نظرت إليه لحظة، وتبسمت وهربت. قال جيلين في نفسه: «ربما ساعدتني دينا؟». نظف جانباً من الحفرة، وحفره، وأخرج منه غضاراً عنمل منه بشراً وخيولاً وكلاباً: «إذا عادت دينا رميتُ إليها بذلك كله». لكن دينا لم تعد في اليوم التالي. في هذا اليوم، سمع جيلين فرساناً يمرّون. كان هناك سباق للتتار حول المسجد. كان الجميع يصيحون، ويتناقشون، ويرددون: «الروس، الروس». عرف جيلين صوت الشيخ ذي العمامة. وأدرك أن الجنود الروس لم يكونوا بعيدين عن القرية، وأن أهلها كانوا يخشون أن يدخلوها وأن التتار لا يعرفون كيف يتخلّصون من أسيريهما. وبعد أن اشتد النزاع بينهم، انفضّ جمعهُم وحينئذٍ سمع «جيلين» حفيفاً فوقه. هذه المرة، كانت دينا جالسة القرفصاء، ورأسها أدنى من ركبتيها، وقد انحنت على الحفرة إلى الحدّ الذي كانت فيه عقودها تتمايل في الفراغ، وبرقتْ عيناها كما تبرق النجوم. أخرجت من كمها طلميتين بالجبن ورمتهما إليه، التقطهما «جيلين» في الهواء، وقال:

ــ لم بقيتِ هذا الوقت الطويل قبل أن تأتي؟ انظري إلى اللعب التي صنعتُها لك. خذي.

قذفها إليها الواحدة تلوَ الأخرى.

هزّت رأسها دون أن تنظر إليها وقالت:

ــ وماذا أفعل بها؟

وأضافت بعد صمت:

ــ إيفان، قرّروا أن يقتلوك.

وأشارت بيدها إشارة تصور من يُقْطع رأسه.

ــ ومَنْ يريد قتلي؟

ــ أبـي، الشيوخ أمروه بذلك. وأنا، أشفق عليك!

قال جيلين لها:

ــ إن كنتِ تشفقين علي فأتيني بعصا!

قالت:

ــ مستحيل؛ سيرونني، وهم جميعاً هنا.

وانصرفت. في هذا المساء، كان جيلين جالساً، ساكناً ينتظر: هل تأتي؟ كان لا يني يرفع رأسه، ولم يكن القمر قد طلع بعد، كانت النجوم تلمع. وارتفع صوت الملاّ في الليل ثم غرق كل شيء في الصمت، من جديد. قال جيلين: «خافت الصغيرة»، كان يغفو عندما سقطت على رأسه قطعةٌ من غضار أخرجته من خموله. نظر إلى الأعلى فرأى فوقه طرف قضيب يتجاوز حافة الحفرة، وينزل في الحفرة برفق ويبلغ قاعها. غمر الفرحُ جيلين، ومدّ يده إليه بحرارة وسحبه إليه. كان من الخشب الصلب. وتعرّف القضيب الذي طالما شاهده على سطح عبدول.

رفع رأسه، ولم ير، في أول الأمر، سوى النجوم التي تتلألأ في الأعالي. لكن شيئاً آخر كان يلمع أيضاً، شيئاً أقرب، شيئاً قريباً، عند فوهة الحفرة. مثل عيني هر تبرقان في الظلام: عينا دينا! دينا منحنية نحوه، ويدها على فمها (وكأنها تقول أخفض صوتك، أخفض صوتك)، همست.

ــ إيفان! إيفان!

ــ ما بكِ؟

ـ ذهبوا جميعاً، ولم يبق سوى اثنين.

قال جيلين:

ـ هيّا، كوستيلين، لنذهب، لنجرّب حظّنا مرةً أخيرة؛ سأساعدك لكن كوستيلين أصمَّ أذنيه:

ـ لا، لقد تحدد مصيري، لن أخرج من هنا. أذهَب؟ وإلى أين؟ ليس بي حتى القوة على الالتفات إلى الخلف!

ـ طيّب! الوداع، إذن، ولنتصاف!

وتعانق الرفيقان.

تعلّق «جيلين» بالقضيب الذي ثبتته دينا، بناء على أمره، وأخذ يتسلّقه. وقع مرتين؛ كان قيد رجليه يعوقه عن الحركة. وأخيراً أفلح في الخروج من الحفرة، بعد أن سنده كوستيلين، وساعدته دينا التي أخذت تشده، وهي ضاحكة، من قميصه الذي تشبثت به، بكل قوة ذراعيها النحيلين.

سحب جيلين القضيب:

ـ أعيديه إلى مكانه، يا دينا، إن وجدوه هنا، ضربوك.

ذهبت وهي تسحب القضيب خلفها، وهبط جولين منحدر الجبل. توقّف ليلتقط حجراً مسنناً وليكسر القفل الذي يثبت القيد. لكن القفل كان مكيناً، وكان جيلين متضايقاً في حركاته. سمع وقع خطوات سريعة وخفيفة. لقد تبعه أحدهم. قال في نفسه: «لا شك أنها دينا». وسرعان ما كانت بقربه. أخذت منه الحجر بيديها، وقالت:

ـ دعني أجرّب.

جثت وحاولت كسر القفل. لكن يديها بأصابعهما النحيفة لم تقويا على ذلك. تركت الحجر وانهمرت دموعها. عاد جيلين إلى ضرب القفل، ودينا مقرفصة قربه، وقد أمرَّتْ ذراعها من حول كتفه.

أبصر «جيلين» فجأة ضياء أحمر فوق الجبل. قال في نفسه: «لا بد أنني اجتزت الوادي. ويجب أن أكون في الغابة قبل أن يطلع القمر من خلف تلك الذروة». فنهض ورمى الحجر. كان ينبغي له أن يذهب مهما كلّف الأمر، وحتى لو كان القيد في رجليه.

ــ وداعاً، يا دينا، يا صغيرتي. لن أنساك أبداً!

طوقته دينا، وأخذت تحبس ثيابه، وتبحث عن جيوبه لتضع فيها طليمات. أخذها جيلين من يديها.

قال لها وهو يداعب شعرها:

شكراً، أنتِ تفكّرين في كل شيء. والآن مَنْ سيصنع لك لعبك.

انهمرت دموع دينا. وخبأة عينيها في يديها. ثم تسلقت السفحَ بوثبات قصيرة، خفيفة كالعنز. وما لبثت أن توارث في الليل؛ لكن خشخشة زخارف الأقراص المعلقة بجدائلها استمرت طويلاً بعدها.

رسم جيلين علامة الصليب، وانحنى، وتناول بيده قفل القيد ليتفادى الصدمات والضجيج، وتابع طريقه وهو يجر قدميه، وعيناه محدّقتان في البقعة الحمراء. وهو يعرف الطريق جيداً، هذه المرة، وعليه أن يقطع ثمانية فراسخ، على خط مستقيم.

آه! ليته فقط يصل إلى الغابة قبل أن يطلع القمر بكامله! لقد قطع النهر. لكن الضياء الأحمر ابيضّ، على الجبل، كان ينظر إليه، بين الحين والحين: أليس هذا هو قرص القمر؟ ساير الوادي. إحدى صفحتي الوادي استضاءت بسرعة. ودقّ خطّ ظل الجبل. كان جيلين يسير وهو يبذل جهده كي لا يخرج منه. وعبثاً أسرع، فقد كانت أشعة القمر الذي يصعد في السماء تتقدمه، وقد وصلت، عن يمينه إلى ذر الأشجار العالية. أوشك جيلين أن يدلف إلى الغابة عندما غمر القمر الذي برز كاملاً، الوادي بنوره الفضيّ، وجعل كل ورقة تلمع

تحت أشعته، وأظهر الوادي أمام عينيه وكأنه في وضح النهار. وارتفعت الجبال، هادئة، غارقة في الضياء، في صمت الموت، وفي أعماق الوادي علا خرير ساقية.

لم ير أحدٌ جيلين يدخلُ الغابة. واختار اغْتم ركن ليتوقف.

استراح، وأكل طلميّةً، واختار حجراً آخر، وبدأ مرة أخرى، جهوده ليكسر القفل. ذهبت جهوده سدى: لقد كسر بالحجر يده. فنهض واستأنف سيره. بعد فرسخ، توجّعت ساقاه، وخارت قواه. مشى عشر خطوات وتوقف. قال في نفسه: «لا خيار لي، سأجر نفسي جرًّا ما دام فيَّ قوة. إن توقفت فلن أنهض بعد ذلك. لن أصل إلى الحصن، هذه الليلة. إذا جاء النهار نمت في الغابة، وعندما يعود الليل سأتابع طريقي».

مشى الليل كله دون أن يصادف شخصاً ما عدا اثنين من التتار، سمع خطو جواديهما من بعيد فتسنى له أن يختبىء خلف شجرة. بدأ القمر يشحب والندى يتساقط: لم يكن النهار بعيداً، وجيلين لم يخرج من الغابة بعد. وفكّر في نفسه: سأخطو أيضاً ثلاثين خطوة، وسأحيد عن الطريق، وسأوغل في الغابة وأجلس. بعد ثلاثين خطوة، كانت أطراف الغابة! وعندما بلغها، كان الصبح قد انبلج.

رأى جيلين أمامه سهلاً فسيحاً، يشرف عليه حصنٌ، وأبصر، عند سفح الجبل، قريباً منه، نيراناً واضحة اللهب، وأخرى كانت تنطفىء، ومن حولها ناسٌ، تحت غطاء من الدخان. حدّق فيها: هؤلاء الناس مسلّحون، وبنادقهم تلمع، هم جنودٌ، إنهم القوزاق.

امتلأ جيلين فرحاً، واستنجد بكل ما بقي له من طاقة، وأخذ ينحدر نحو الجنود. «إذا كان أحد فرسان التتار كامناً هنا فسوف يراني في هذا الموضع المكشوف، ولن أفلت مهما يكن رفاقي قريبين».

وكما توقّع بالضبط، إذاً بثلاثة فرسان، على ستمائة خطوة، فوق هضبة إلى اليسار. لقد رأوا جيلين، وأغاروا بخيلهم عليه. فيخفق قلبه حتى ليكاد يتمزّق. ويستغيث، ويلوح بيده، ويصرخ، «يا رفاق! النجدة! يا رفاق!».

ويسمعه القوزاق فيَصلون عدواً ليقطعوا الطريق على التتار. لكنهم ما يزالون بعيدين والتتار أقرب. حينئذٍ يبذل جيلين جهده الأخير، فيمسك القيدَ بيد، ويرسم باليد الأخرى علامة الصليب، ويستند إلى بقيةٍ من قوة، وهو مضطرب أشد اضطراب، فيعدو نحو منقذيه صارخاً: «يا رفاق! يا رفاق! يا رفاق!».

كان القوزاق أكثر بخمس مرات من التتار الذي استولى عليهم الخوف، فأوقفوا خيولهم. لقد نجا جيلين.

أحاط به منقذوه.

ـ من أنتَ؟ من أين أنتَ؟ من أين تأتي؟

لم يجد جيلين جواباً. لم يكن يفهم شيئاً، ولم يكن بوسعه إلاّ أن يردّد:

ـ آه! يا أصحابي! يا إخواني!

وهرُع جنودٌ آخرون. هذا يعطيه خبزاً، وذاك عصيدة، وثالث ماء الحياة، ورابع معطفاً، والتفوا حوله ليكسروا قيده.

ثم جاء ضابط فاصطحبوه إلى الحصن. فرح الجنود بلقاء رئيسهم. ورحّب الضباط بجيلين زميلهم.

روى جيلين مغامراته وأنهى قصته بهذه الكلمات:

ـ تصوروا أنني كنتُ عائداً إلى بيتي ولكي أتزوج! لا! لا! ما خُلِقتُ، من غير شك، لأكون زوجاً.

استأنف «جيلين» خدمته في القوقاز. أما كوستيلين فقد أعيدَ وهو نصف ميت بعد شهر، وبعد أن دُفعت خمسة آلاف روبل فديةً له.

ميكولوشكا سيليانينوفيتش

(أقصوصة شعرية)

خرج «فولغا»[1] الأميرُ المتألّق مع رجاله؛ طاف بالقرى وطاف بالمدن ليجبي الضرائب، ليقتطع الأعشار: كان هذا السيدُ الرفيعُ ممتطياً جواده، وها هو ذا يمضي في السهل العاري، وها هو ذا يسمع صوتاً في السهل الفسيح.

كان الصوتُ صوتَ فلاح يحرثُ، يحرثُ وهو يَصْفر؛ كل شيء هناك يُسمع، سكة تصكّ الحجارة، محراثٌ يصرّ بعيداً. لكن ليس في الحقل المقفر حرّاثٌ. ودفع فولغا جواده؛ أراد أن يلحق بالرجل. جال على جواده طوال النهار، من الصباح إلى المساء، فلم يستطع أن يعثر عليه. ثم جال على جواده يوماً آخر من الصباح إلى المساء، بدون جدوى.

إنه حقاً فلاحٌ يحرث، يحرث وهو يصفر؛ كل شيء هناك يُسمع، سكة تصك الحجارة، محراثٌ يصر بعيداً، لكن ليس في الحقل المقفر حرّاث.

في اليوم الثالث، عند الظهر، أدرك «فولغا» الفلاحَ في السهل: إنه حقاً فلاح يحث حيوانه، وهو يشقّ ثلمه من طرف الأفق إلى طرفه الآخر، ومحراثه يطرح الأرض جانباً وهو يقتلع الحجارة والجذور، وعندما يبلغ الحرّاث نهاية مطافه يغيب عن الأبصار. المحراث من شجر القبقب،

---

(١) يظهر فولغا هنا في دوره كممثل لهؤلاء «الفاريج» الذين دعاهم السلاف قائلين لهم: «بلادنا واسعة وغنية، لكن ليس عندنا نظامٌ؛ تعالوا وأديروا شؤننا واحكمونا».

والسكة من الفولاذ؛ المحراث يجره فرسٌ، على جلدها الأغبس تتدلى أعنةٌ من الحرير.

قال فولغا للحراث: السلام عليك، أيها الفلاح، أيها الحراث اللطيف، ليكن الله في عونك، ولتساعدك يده على الحراثة، على القيام بعمل الفلاح، على شق ثلم عريض، وعلى اقتلاع الحجارة والجذور! فأجاب الفلاح:

«شكراً جزيلاً لكَ، يا فولغا ــ نحن نشكرك ــ إن عون الله ضروري لنا، من غير شك، لنقوم بحراثتنا وبعمل الفلاح. لكن، أتذهب أنت وصحبك بعيداً؟ وهل يقود الله خطاك بعيداً؟ من هنا؛ وأين تذهب هكذا؟».

«أنا ماضٍ، أيها الفلاح، مع رجالي، أطوفُ القرى والمدن لجباية الضريبة، لاقتطاع الأعشار التي أنتم مدينون بها. هيّا، تعال معي، ولنكنْ صاحبين!».

في الحال غرز الفلاحُ محراثه في الثلم الذي بدأه، ونزع أعنة الحرير، وفكّ الفرس، ودار بها نصف دورة، واعتلى صهوتها وهي عارية، ومضى مع «فولغا» ورجاله.

قال:

«أخطأت، يا فولغا، باتّباعك وتَرْكِ محراثي هناك، في الثلم، دون أن أرتّبه في موضعه. كيف العمل لسحبه إلى خارج الثلم، ولإزالة المدَر من السكة، ولوضعه في ظل غيضه الصفصاف؟».

أرسل فولغا، على الفور، عشرة رجال أشداء إلى هناك، وأمرهم أن يخرجوا المحراثَ من الأرض، وأن يزيلوا المدر من السكة، وأن يضعوه في ظل غيضة الصفصاف. ومضى الرجال الأشداء يبحثون عن المحراث، ووثبوا عن جيادهم إلى الثلم. وشدّوا جميعاً بقوة أذرعهم لسحب المحراث. تعذّر

عليهم انتزاعهُ من الأرض. قلّبوا المحراث وهم يشدُّون العريش، لكنهم عجزوا عن انتزاعه من الأرض وتخليص السكة من المدر، ووضعه في ظل غيضة الصفصاف.

حينئذٍ أرسل فولغا جميع رجاله، وأمرهم أن يخرجوا المحراث من الأرض، وأن يُزيلوا المدرَ من السكة، وأن يضعوه في ظل غيضة الصفصاف.

شدّ الرفاقُ بكل أذرعهم محراثَ القبقب فلم يُفْلحوا إلاَّ في تقليب المحراث، ولم ينجحوا في انتزاعه من الأرض، وفي إزالة المدر عن السكة وفي وضعه في ظل غيضة الصفصاص.

لكن ها هو ذا الفلاحُ الخشِنُ يُهرَع على فرسه الغبساء، ويترجل عنها، ويمشي إلى محراث القبقب، ويمسكه بيد واحدة، ويدفعه، ويخرجه من الثلم، ويزيل التراب عن السكة، وينظفها، ويسقط المدر عنها بطرف عصاه، ويضع المحراث في ظل غيضة الصفصاف. ويمتطي الجميعُ خيولهم ويتابعون سيرهم!

بعد أن خرجوا من الحقل إلى الطريق، سارت فرسُ الفلاح الهوينا؛ ولكي تلحق بها فرس فولغا، فرس القتال، أخذت تعدو عدواً؛ فإذا خبّت خبًّا سبقتها فرس الفلاح. كان الفلاح في المقدمة، على ظهر جواده، لا تعترضه عقبة. وكان فولغا يسعى جهده إلى اللحاق به، وانتهى بأن ناداه قائلاً، وهو يلوّح بقبعته العالية: «يا أيها الفلاح، أيها الحراث اللطيف! قفْ قليلاً، انتظر؛ أيها الفلاح، لا سبيل إلى اللحاق بك».

أدار الفلاحُ رأسه، فرأى فولغا: كبح فرسه، وسار الجميع الهوينا في طريقهم. قال فولغا حينئذٍ: «أيها الفلاح، فرسكَ حيوان سريع الجري، ولو كانت حصاناً أصيلاً لساوت خمسمائة روبل. أجاب الفلاح: «فولغا، ما أنتَ سوى أحمق، وأقوالك غباءٌ؛ فرسي اشتريتُها وهي مهرة مع أمها، ودفعت ثمن هذه المهرة خمسمائة روبل؛ ولو كانت حصاناً أصيلاً لما قُدّرتْ بثمن.

أجاب فولغا:

ـ والآن، أيها الفلاح! ما اسمك؟ وما اسم أبيك، حتى اسميك باسم أبيك تكريماً لك؟

قال الفلاح: «دونك الجواب: سأمضي لأحرث حقلي، وسأحصدُ منه شيلما، وسأكوّم الشيلم، وسأنقله إلى البيت، وسأدرسه، وسأصنع الجعة، وسأدعو الجيران، وسيهتف لي الجيران: «عاش عزيزنا ميكولا! عزيزنا ميكولا الطيّب، ميكولوشكا بن سليانيين!».

• • •

ملحق (١)

[١]

الذئب والصيادون

إفترس ذئبٌ نعجةً. أمسك الصيادون به وأرادوا قتله. قال الذئب:

ـ تريدون قتلي، أنتم مخطئون. وإذا كنتُ صعلوكاً حقيراً، فالذنب ليس ذنبي: الله هو الذي كونني على ما أنا عليه.

أجابه الصيادون:

ـ عندما نقتل ذئباً، فنحن لا نقتله لصعلكته، وإنما نقتله لأنه إفترس نعجةً.

[٢]

كان صبيٌّ صغير يحبّ الفروج، ويَرْهب الذئاب.

وذات مساء، وكان نائماً في سريره، حلمَ هذا الحلمَ: حلم أنه في الغابة

(١) ليس بين نصوص الملحق أي نصّ مأخوذ من كتب القراءة الأربعة. وقد نشرت الكونتيسة تولستوي النصّ الأول في طبعاتها، والثاني في طبعتها الأخيرة. أما النصوص السبعة الأخيرة فمأخوذة من «المختارات».

وحده يبحث عن الفطور. وفجأةً، وثب الذئبُ من حَرْجة، وانقضّ عليه. إرتعبَ الصبيُّ فأخذ يصرخَ:

ــ آي! آي! سيأكلني.

قال له الذئب:

ــ إنتظرْ قبل أن تصرخ؛ لن آكلك، أريد فقط أن أحدّثك.

وأخذ الذئب يتّحدث كأنه إنسان. وقال:

ــ أنت تخاف أن آكلك. لكنك أنت نفسك، ألا تحب الفراريج؟

ــ بلى.

ــ ومع ذلك فأنت تأكلها، لماذا؟ إنها تحيا مثلك، تلك الفراريج الصغيرة. إذهبْ وانظر قليلاً في الصباح، كيف يُقبَضُ عليها، وكيف يحملها الطاهي إلى المطبخ، ويقطعُ رقبتها؛ وأَصْغ إلى أمها وهي تَنقّ لأن صغارها قد أُخذتْ منها. ألم تلاحظ ذلك من قبل؟

أجاب الصبـي:

ــ لا.

ــ لا، حقّاً؛ حسناً! أَمْعِنْ النظر. على كل حال، أنا الذي سيأكلك، في الوقت الحاضر. فلستَ شيئاً آخر سوى فروج صغير، على طريقتك: لقد قلتُ كلمتي، سآكلك.

وانقضّ الذئبُ على الطفل الذي صرخ وهو مذعورٌ: آي! آي! صرخَ واستيقظ.

منذئذٍ كفّ عن كل اللحم، أكان لحم البقر أو الخروف أو الفروج[1].

---

(١) لم يهتم تولستوي بالمذهب النباتي إلا بعد ١٨٨٥م بتأثير «فري». وإذن فإن هذا المثل قد كتب بعد هذا التاريخ.

[٣]

الياس[1]

في مقاطعة «أوفا»، كان يعيش «بشكيريّ» يدعى الياس. كان يتيماً لأب مات بعد سنة من تزوجه له. كان كل ما يملكه سبع أفراس وبقرتين وعشرين خروفاً فقط. لكن الياس نجح في إدارة مزرعة وزاد ثروته. كان يعمل مع امرأته من الصباح حتى المساء. كان أول من ينهض وآخر من ينام، وكانت ثرواتُه لاتني تتزايد من سنة إلى سنة. عاش الياس خمسة وثلاثين عاماً يعمل وحصل على خيرات كثيرة.

وهكذا أضحى مالكاً لمائتي جواد، ومائتين وخمسين رأساً من الماشية، وألف ومائتين خروفاً. كان العمال المأجورون يحرسون خيله وقطعانه، والخادمات يحلبن أفراسه وبقراته، ويصنعن اللبن المخمّر، ويُعددن الزبدة والجبن. كان كل شيء موفوراً عنده، وكان أبناء المنطقة يحسدونه على الحياة التي يحياها. كانوا يقولون: «إن الياس رجل سعيد، كل شيء موفور عنده، ولا حاجة به إلى الموت». وتعرّف عليه رجال مرموقون وأقاموا معه علاقات، وكان الناس يأتون من بعيد ليروه. وكان يستقبل الزوّار جميعاً ويقدم لهم الطعام، والشراب. وأياً كان القادم عليه فهو يجد اللبن والشاي وحساء السمك ولحم الضأن. فإذا جاء الضيوف ذبح لهم خروفٌ أو خروفان، وإذا كان عددهم كبيراً ذبحت لهم فرس.

كان لالياس ولدان وبنت، فزوّج ولديه وزوّج بنته. وعندما كان الياس فقيراً اشتغل ولداه معه، وراقبا قطعان الخيل والخراف. لكنهما عندما أثريا استسلما للملذات. وأخذ أحدهما يشرب، وقُتل الأكبر في شجار. أما الصغير

---

(١) أول طبعة لالياس كانت في سنة ١٨٨٦م. وهذه الحكاية التي أدرجت في الطبعة الأولى من المختارات، لا توجد في الطبعات التالية.

فوقع في حب امرأة متعجرفة، وأبى أن يطيع أباه. فاضطر الياس أن يعطيه حصته.

كانت حصته بيتاً وماشية، فنقصت ثروة الياس من جراء ذلك. وبعد قليل، أصيبت الخراف بداء، فهلك منها الكثير. ثم جاءت سنة قحطٍ قلّ فيها الكلأ: فنفقت رؤوس كثيرة من الماشية، أثناء الشتاء، ثم سطا القرغيز على خيوله، وأخذت ثرواته تتناقص. أخذ الياس ينحدر إلى الحضيض شيئاً فشيئاً، وأخذت قواه تتناقص. حتى أنه لما بلغ السبعين، اضطر إلى بيع الفراء والسجاد والسروج والخيام، ثم باع آخر رأس من ماشيته، وأصبح معدماً. لم يتبيّن هو ما أصابه، وقد صار شيخاً، فاضطر مع زوجته أن يعيش عند الآخرين. لم يبق له من كل ما ملكه سوى الثياب التي يرتديها، وفراء، وقبعة، وحذاء من الجلد الطري مع خفّ، وزوجته العجوز «شام ــ شيماجي».

وكان الإبن الذي نال حصته قد سافر إلى بلاد نائية؛ وماتت البنت. ولم يبق أحدٌ يُعين هذين الشيخين.

عطف عليه جاره محمد شاه. كان محمد لا هو بالغني ولا هو بالفقير وكان خليّ البال، كريم النفس، وقد تذكر حسن ضيافة الياس له فيما مضى من الزمن، فأخذته الشفقة عليه، وقال له:

ــ تعال عشْ في بيتي، يا الياس، أنت والعجوز. إشتغل صيفاً في السهب، في زراعة البطيخ والشمام والخيار والثمار، على قدر قواك؛ وأطعم الماشية شتاءً؛ أما «شامي ــ شيماجي» فستحلب الأفراس وتحضّر اللبن، سوف أكسوكما، وما عليكما إلاّ أن تقولا لي ما الذي تحتاجان إليه، وسأعطيكما إياه.

شكر الياس جاره، وعاش هو وامرأته في منزل محمد شاه، في خدمته. بدا لهما ذلك، في البداية، قاسياً، لكنهما ما لبثا أن تعودا هذه الحياة وألفاها، واشتغلا على قدر قواهما.

إن وجود مثل هذين الشخصين، في بيت محمد شاه، مربح له، لأنهما كانا من ذوي النعمة، وهما يتقنان مختلف الأعمال، ولم يكونا خاملين، وكانا يعملان قدر ما يستطيعان، لكن ذلك كان يؤلم محمد شاه، كان يؤلمه أن يرى ناساً أنزلوا إلى الحضيض بعد أن كانوا في الأعالي.

ذات يوم، وصل إلى بيت محمد شاه، ضيوفٌ، أقرباء شباب، جاؤوا من مكان ناءٍ. وحضر الملاّ أيضاً. أمر محمد شاه الياس أن يأخذ خروفاً ويذبحه. ذبح الياس الخروف وطهاه وأرسله إلى الضيوف. أكل هؤلاء من لحم الخروف، وشربوا شاياً، ثم شربوا لبناً. كانوا جالسين على وسائد الريش، وعلى السجاد مع صاحب البيت، وهم يشربون ويتحدّثون. أما الياس فبعد أن أعاد كل شيء إلى موضعه، مر أمام الباب. شاهده محمد شاه فخاطب ضيفه قائلاً:

ــ أرأيت هذا العجوز الذي مرّ أمام الباب؟

ــ رأيته؛ ما الغريب فيه؟

ــ آه! الغريب أنه كان أغنانا. إسمه الياس. لعلك سمعت بأسمه.

قال الضيف:

ــ وكيف لم أسمع به. لا أقول أني رأيته، لكن شهرته سارت بعيداً.

ــ وهو لا يملك شيئاً، في هذه الساعة؛ إنه يعيش عندي، في خدمتي وامرأته أيضاً؛ هي التي تحلب الأفراس».

دهش الضيف؛ تمطّق بلسانه، وهز رأسه، وقال:

ــ لا شك أن السعادة كالدولاب: الدولاب يرفع هذا إلى الذروة، ويخفض ذاك إلى الحضيض.

وأضاف:

ــ لكن، هل هو مغموم؟

ـ ما أدرانا؟ إنه يعيش بلا ضوضاء، بهدوء، إنه يعمل جيداً.

قال الضيف:

ـ أنستطيع أن نحدّثه؟ أن نسأله عن حياته؟

أجاب محمد شاه:

ـ ولم لا.

وناداه من وراء الخيمة: «باباي» (هكذا ينادي الجد في اللغة البشكيرية)، تعال قليلاً إلى هنا، تعال إشربْ شيئاً من اللبن، وناد العجوز.

دخل الياس مع زوجه. حيّا الضيوف وصاحب البيت، ودعا دُعاءً، وجلس القرفصاء قرب الباب. أما امرأته، فمضت إلى خلف الستار وجلست مع سيدتها، قُدِّم لالياس طاسٌ من اللبن؛ وبعد أن حيّا الضيوف وسيّده وانحنى، شرب جرعة ثم عاد ووضعه بجنبه. قال له الضيف: «يا جدّي»، أعتقد أنك لا بد أن تحزن وأنت ترانا، وتتذكر أيامك الخوالي، وتفكر في سعادتك الماضية وبلواك الحاضرة؟

إبتسم الياس وقال: «لو أجبتك عن السعادة والشقاء لما صدقتني. الأوْلى أن توجّه السؤال إلى امرأتي. فهي امرأةٌ لا تقول إلاَّ ما في قلبها. حينئذٍ تكلم الضيفُ وهو ينظر إلى الستار، وقال: «حسناً! يا امرأة! ما رأيك في سعادة الماضي وشقاء الحاضر؟» فأجابت «شامي ـ شيماجي» من وراء الستار: «رأيي هو التالي: لقد قضينا، عجوزي وأنا خمسين عاماً نبحث عن السعادة فلم نجدها، ومنذ سنتين فقط منذ أن أعدمنا وعشنا في خدمة السيّد، عثرنا على السعادة الحقيقية، ولا يلزمنا غيرُ ذلك.

تعجّب الحاضرون، صاحب البيت نفسه، وقف، من دهشته، وأزاح الستار ليرى العجوز.

كانت هنا، متصالبة اليدين، تنظر إلى عجوزها وهي تبتسم، وكان

عجوزها يبتسم أيضاً. وكرّرت العجوز: «إني أقول الحقيقة، ولا أمزح: لقد فتشنا عن السعادة طوال خمسين عاماً، وعبثاً كنا نفتش عنها إذ كنا أغنياء. لم نكن نعثر عليها: ونحن الآن لا نملك شيئاً وجئنا نعيش عند الآخرين، وعثرنا على السعادة، وهي سعادة عظيمة لا نحتاج معها إلى ما هو أفضل.

ــ لكن، علامَ تقوم سعادتك الآن؟

ــ على ما يلي: كنا أغنياء؛ ولم نكن نجد، عجوزي وأنا، ساعةً للراحة. لم يكن يتسنى لنا أن نفكر في روحنا، ولا أن نعبد الله، وكم لقينا من هموم! كان الضيوفُ يفدون؛ ماذا نقدّم لهم، ماذا نعطيهم حتى يحسن ظنهم بنا؟ كل ذلك كان هماً.

كانت تجب مراقبة العمال الذين ينتهزون الفرصة لكي لا يعملوا شيئاً ولكي يأكلوا لقمةً زائدة. كنا حريصين على المحافظة على جيراننا وهذا إثمٌ وهمٌ آخر: وإذا جاء الذئب فقتل المهر أو العجل وإذا سرق اللصوص الجياد! لا سبيل إلى النوم، على السرير. الخراف يمكن أن تخنق الحملان؛ وحينئذٍ نخرج ونتنقل هنا وهنا، وذلك في الليل. ولا نكاد نطمئن حتى يأتينا وسواسٌ جديد: لا بد من تحضير مؤونة الشتاء من العلف. وكأن ذلك لم يكن كافياً، فلم نكن أنا وعجوزي على وفاق. كان يقول: هكذا يجب أن نعمل». فأجيب أنا: «لا، لا ينبغي أن نعمل هكذا». وحينئذٍ يقوم النزاع بيننا. وذلك إثم جديد. هكذا كنا نعيش، من هم إلى آخر، ومن إثم إلى آخر، دون أن نعلم ما الحياة السعيدة.

ــ حسناً، والآن؟

ــ أوه! الآن، عندما ننهض زوجي وأنا، نتحدث ونحن مغمورون بالمحبة والإنسجام؛ ليس بيننا ما يدعو إلى الخصام وإلى الهم.

ــ لا هم لنا إلاّ أن نخدم معلّمنا. نحن نعمل على قدر إستطاعتنا،

بسرور، حتى لا يخسر المعلم، بل لكي يربح. وإذا عُدْنا من العمل وجدنا غداء الظهر جاهزاً. وفي المساء العشاء، واللبن. وإذا برد الجوّ تدفّأنا على الجِلّة اليابسة، ومعنا معطف فرو. ثم نقضي الوقتَ في الحديث والتفكير في روحنا، والصلاة. لقد فتّشنا عن السعادة خمسين عاماً، ولم نعثرْ عليها إلا الآن.

إبتسم الضيوف.

قال لهم الياس:

ـ لا تبتسموا، يا إخوتي، فليس ذلك كله مزحة. إنها الحياة. كنا غبيّيْن، عجوزي وأنا، كنا نبكي لأننا فقدنا ثرواتنا، أما الآن فقد أظهر اللهُ لنا الحقيقة، وإذا كنا نكشفُها لكم فليس ذلك لتزْجية الوقت بالحديث، بل لخَيْركم.

قال الملاّ:

ـ هذا هو الكلام المليء بالحكمة؛ ما قاله الياس هو الحقيقة الخالصة، وهو مكتوبٌ في الكتب.

كفّ الضيوفُ عن الضحك، وأخذوا يفكرّون: لقد استغرقوا في تأملهم.

[٤]

يوحنا الرسول وقاطع الطريق

بعد موت يسوع المسيح، تفرّق التلاميذُ في شتى البلدان، مبشرين بالعقيدة، بأفعالهم وأقوالهم. وكان يوحنا الذي أحبّه يسوع يبشر بالإنجيل في مدن اليونان التجارية الغنية.

وذات يوم، لاحظ، وهو يبشر، في إحدى المدن، شاباً، في الجمهور، يُصغي إليه ولا يرفع نظره عنه. فلما إنتهى يوحنا من كلامه، ناداه وكلّمه طويلاً. وعلم أن هذا الشاب لم يكن وطيد الإيمان، وإن كان مستعداً بكل نفسه، بكل نفسه المتلهّبة، لقبول عقيدة السيّد.

فكّر يوحنا: «إنه بحاجة إلى صديق موثوق وإلى نصيح، وإلا إنحرف عن الطريق المستقيم وتبع الأشرار».

وقبل أن يسافر الرسول ليتابع مواعظه في أماكن أخرى، إقتاد الشاب إلى الأسقف وقال له:

ـ أنا ذاهبٌ. فاسهرْ، أنت، عليه. تبّت إيمانه بيسوع واحفظه من كل مكروه.

تعهّد الأسقف بذلك. فضمّه إلى مسكنه وعلّمه وعمده. حتى إذا عمَّد هذا الطالبَ كفَّ عن الإهتمام به كما كان يفعل من قبل. وكان يرى أنه قد نجا من كل مكروه بفعل العماد.

لكنْ إذا بالشاب يرتبط بصحبة أشرار؛ فيشرب معهم ويعيش حياةً متهتكة. وبين الحين والحين كان يتملكه ضربٌ من الندم، لكنه لم يكن يجد في نفسه الإيمان الكافي ليُقلع عن حياته الشريرة.

كان بحاجة إلى المال من أجل ملذاته؛ وقد حصل عليه بكل أنواع النهب والسلب؛ ثم هجر المدينة، وذهب يعيش من قطع الطرق.

وسرعان ما شهرتْه جسارتُه فاختاره بعضُ قطاع الطرق رئيساً لهم.

وذات يوم، كان الرسولُ عائداً بعد أن بشّر بالإنجيل، وعرّج على الأسقف، وسأله:

ـ أين الكنز الذي أخذتَه على عاتقك؟

لم يفهم الأسقفُ رأساً ما قصده الرسولُ. وظنّ أن يوحنا يسأله عن هِباتِ المؤمنين لمصلحة المرضى والفقراء.

قال يوحنا:

ـ لستُ أكلمكَ عن المال، بل عن روح أخيك. تركتُ عندك شاباً: فأين هو؟

أجاب الأسقفُ بألم:

ـ لقد مات.

سأل الرسول:

ـ متى مات؟ وبأية ميتةٍ مات؟

ـ لقد غدا، بعد أن عمي قلبُه، شريراً، نهّاباً، قاتلاً.

لم يكن الرسولُ يتوقّع هذا النبأ الجديد، فقال وقد حزن حتى طفر الدمعُ من عينيه:

ـ ويلٌ له، وويلٌ لنا جميعاً: لا بدّ أنك لم تكن صديقاً أميناً له، ونصيحاً نصوحاً، وإلا لما تركك: فأنا أعرف نفسه الشابة المتحمّسة. وماذا فعلتَ أنتَ لخلاصه؟

لزمَ الأسقفُ الصمتَ.

حينئذٍ قال يوحنا للحاضرين:

ـ ائتوني بجواد، وأروني الطريقَ الذي يُفضي إلى الجبال.

حاول الحاضرون ثَنْيَهُ عن قصده:

ـ لا تذهبْ، فقطاع الطرق لا يدعون راجلاً أو فارساً يمرّ من هناك. لا تَسْعَ إلى حَتْفِكَ، يا معلم!

لكن يوحنا أبى أن يُصغي إليهم، ومضى في طريقه. وخجلَ بعضهم من أن يتركوا الشيخ يذهب وحده، فعرضوا أنفسهم ليصحبوه. سافروا؛ ودخلوا غابةً؛ وتسلّقوا الجبل؛ كانت الطلعةُ وعرةً وصعبة على الخيل.

ساروا على الخيل هكذا طويلاً، وإذا بهم يرون أمامهم بعض قطّاع الطرق.

ذُعر أتباعُ يوحنا وهربوا. أما هو فترجّل، ومشى نحو قطّاع الطرق،

فقبضوا عليه؛ وقد ذُهلوا حين رأوه لا يدافع عن نفسه، ولا يطلب منهم الرحمة. قال يوحنا:

ــ خُذوني إلى رئيسكم.

إقتاد قُطّاعُ الطريق الشيخ إلى مخيّمهم. وعندما رأى الرئيس رفاقه يعودون، خَرجَ إلى لقائهم.

وما كاد يرى الرجل الذي يقودونه مُوثقاً حتى تعرّف يوحنا.

شحب وارتجف وهرب.

دهش قطاعُ الطرق وأرخَوا يوحنا الذي نادى رئيسهم صارخاً:

ــ قفْ، يا بني، إصغ إليّ.

لكنه لم يلتفت وتوغّل في الغابة، تخلّى قُطاع الطرق عن يوحنا وتركوه يذهب.

لم يستطيعوا أن يفهموا كيف أن هذا الشيخ الضعيف الأعزل يستطيع أن يُدخل مثل هذا الرعب إلى نفس رئيسهم.

لحق يوحنا بقاطع الطريق.

كان الرسولُ الشيخُ مرهقاً، بعد هذا السير الطويل، حتى إنه لم يكد يَقْدر على المشي، ولم يكن الشابُ ليقف.

كانت ساقا الرسول تنثنيان تحته لفرط ما كان إنفعاله وتعبُه عظيمين. توقف؛ واستنجد بكل ما بقي له من قوى، وصاح بقاطع الطريق، للمرة الأخيرة، بصوت متهدّج:

ــ إرحمْني، يا بني، فلست أستطيع اللحاق بك إلى أبعد من ذلك؛ تعال، أنتَ، إليّ؛ لَمَ تخافني، لم كففتَ عن الإيمان بي؟ أنا هو يوحنا. تذكّر كيف كان حبُّك وطاعتُكَ لي فيما مضى.

توقّف قاطعُ الطريق، واستدار، وقابل يوحنا وجهاً لوجه، وانتظر.

ظل يوحنا يمشي نحوه، يجرّ قدميه بجهد شاق، وقاطعُ الطريق واقفٌ ينتظره، وعيناه شاخصتان إلى الأرض. وها هو ذا الرسول يصل إلى قاطع الطريق وهو ما يزال واقفاً مُطرقاً رأسه.

وضع الرسولُ يده على كتفه، دون أن يفوه بكلمة، فارتجف قاطعُ الطريق، وأوقع سلاحه، وعانق معلّمه وهو ينتحب ويخبّىء رأسه في صدره.

قال له يوحنا، بصوت خافت:

ـ أنا آتٍ إليك، يا بني، فاتبعْني، ولنذهب إلى المدينة للقاءِ إخوتنا.

أجاب قاطعُ الطريق.

ـ لن أذهب، دعْني؛ أنا رجل هالكٌ. أنا ملعونٌ من الله ومن البشر. ليس لي مكان أذهبُ إليه. أما أن أستمرّ في العيش على هذا المنوال، فذلك مالا أستطيعه. ولم يبقَ لي إلاَّ أن أقتل نفسي.

ـ يا بني، لا تفعلْ ذلك؛ ولا تتكلّم هكذا، إذا كنا نعيش في جسدٍ من لحم ودم فالله أراد ذلك؛ وتدميرُ هذا الجسد معارضةٌ لمشيئة الله، وتعريض النفس للهلاك. انظرْ إلى قاطع الطريق الذي حدثتك عن قصته، ذاك الذي تاب على الصليب، أتذكر ذلك؟ إنما وجد السعادة القصوى في آخر ساعة من حياته.

ـ لن يغفر لي الناسُ؛ لن يصدقوا توبتي، ولن يقبلوني بينهم.

ـ لا تخشَ شيئاً، يا بني، سيغفر لك الناسُ إذا غفر الله لك. سأتوسّل إليهم ألا يسيئوا إليك. وستبدأ حياةً جديدة من الإستقامة والعمل، ولفرط حبّك لهم ستكفّر عن ذنوب ماضيك. لا تتردّدْ، واحزمْ أمرك، في الحال!

هكذا كان يوحنا يحث تلميذه؛ آمن قاطعُ الطريق بهذه الكلمات ورقّ قلبه، فهتف:

ـ لنذهبْ، يا معلم. إذا كنتُ معك فلن يُرهبني عقابٌ مهما عظمَ. خُذني إلى حيث تشاء. أُدخلْ السكينةَ إلى نفسي المعذّبة.

إتكأ الشيخُ المتعبُ على ذراع قاطع الطريق، وعادا إلى المخيّم، إستأذن الرئيسُ رفاقه. وقصّ عليهم قصته، وقال لهم: مَنْ هو يوحنا، وحاول أن يقنعهم بأن يتركوا هم أيضاً حياةَ قطع الطرق.

عندما وصلا المدينة، إقتاد يوحنا قاطعَ الطريق إلى الكنيسة، ووضعه بجنبه، وقال:

ـ أيها الإخوة! هذا الذي كنتم تظنونّه ضالاً. افرحوا! عاد إلينا أخونا.

وأخذ يوحنا يرجو الجماعة أن يستقبلوا بينهم هذا الذي تاب. وأنهى خطبته بكلمات المثل الذي ضَرَبه المخلّص: «وقدِّموا العجلَ المسمَّنَ واذبحوه فنأكل ونفرح. لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجدَ».

[٥]

الينبوع

إلتقى ثلاثة مسافرين في يوم قائظٍ، قرب ينبوع ماء صاف وبارد. وكان هذا الينبوع ينبجس من الأرض على حافة الطريقِ الرئيسية. وقد أحاطت به الأشجارُ واكتنفه العشبُ الكثيف. وكانت مياهه الصافية، مثل دموع العين، تتجمّع في حوض محفورٍ في الأرض يذهب فائضُه ليكوّن جدولاً ينساب مسرعاً عبر المَرْج.

إستراح المسافرون، في الظل، قربَ الينبوع الذي شربوا من مائه. وفوق الينبوع بالضبط نُصبَ حجرٌ كتبَ عليه:

«ليكنْ هذا الينبوعُ مثالاً لك».

قرأ المسافرون هذه الكتابة المحفورة على الحجر وتساءلوا ما عسى أن يكون معناها.

قال أحدهم وكان تاجراً، من غير شك:

ــ هذه نصيحة غالية. الينبوع يجري بلا توقف، وهو يمضي بعيداً، ويستقبل مياهَ ينابيع أخرى، ويغدو نهراً عظيماً. وعلى الإنسان مثله أن يهتم أبداً بأعماله. أن فعل ذلك فلن يعرف سوى النجاح، وسيجمع كثيراً من الثروات.

وكان المسافر الثاني شاباً، فقال:

ــ لا. برأيي أن هذا النقش يعني أن على الإنسان أن يصون قلبه من الأفكار الشريرة ومن الرغبات الشريرة، لكي يحتفظ بقلبه نقياً مثل ماء هذا النبع. إن ماءه، بصفائه، يَهبُ الذين يستريحون قربه مثلنا، الفرحَ، ويُعطيهم القوة. ولو أن هذه الساقية قطعت الأرضَ كلها وكانت مياهها عكرة ووسخة فما الخدمة التي ستؤديها، ومَنْ ذا الذي سيروي ظمأه منها؟

إبتسم المسافرُ الثالث، وكان شيخاً، وقال:

ــ لقد نطقَ هذا الشابُ بالحق. وإليكما المثلَ الذي نجده هنا: إن النبع يهبُ ماءه للعطاش مجّاناً؛ وهو يقول للإنسان: اصنع الخير للجميع، لتكن هباتُك مجانية، ولا تنتظر، في مقابل ذلك، جزاءً ولا شكوراً.

[٦]

العذراء الحكيمـة(١)

كان هناك ملكٌ لا يُحالفُه النجاح في شيء. بعث يسأل الحكماء ما أسبابُ فشله.

أجاب الأول:

ـ ذلك ناجمٌ عن أنك لا تُحسن اختيار الساعة المناسبة.

أجاب الثاني:

ـ ذلك ناجمٌ عن أنك لا تعرف الرجل الضروريّ لك أكثر من غيره.

أجاب الثالث:

ـ ذلك ناجم عن أنك لا تعرف أي أمورك أعظم أهميةً من غيره.

وأرسل الملكُ يسأل حكماء آخرين: أيُّ الساعات أنسب للعمل، وكيف نعرف الرجلَ الضروري، وكيف نعرف أعظم الشؤون أهميّة.

لم يستطع أحدٌ أن يجد الجواب.

وكان الملك يفكّر أبداً في ذلك ويطرح السؤال على الناس جميعاً.

وكانت التي وجدت الحلَّ عذراء. أجابته:

ـ أنسب الساعات هي اللحظة الحاضرة، لأنها لن تعود ثانيةً، أما الرجل الضروري أكثر من غيره فهو الذي نتعامل معه في اللحظة الحاضرة، لأنه هو وحده الرجل الذي نعرفه؛ أما أعظم الأمور أهميةً فهو أن تُحسن إلى هذا الرجل لأنه وحده هو الذي سيكون ذا نفعٍ محقّقٍ لك.

---

(١) في رسالة موجهة إلى تشيرتكوف يقول تولستوي: «أشتهي أن أكتب أقصوصة من هذا النوع...» ويتلو ذلك نص: العذراء الحكيمة حرفياً كما ظهر سنة ١٨٨٨.

[٧]

مُجمل الشريعة

لم يكن شماي وهيليل، وهما من علماء الدين، يتّفقان في شيء. كان الأول قاسياً ونزقاً، بينما كان الثاني طيباً ووديعاً.

وذات يوم، جاء إلى شماي وثنيٌّ وله قاله:

إني أرغب أن أتحوّل إلى الإيمان الحقيقي. ولستُ أضعُ سوى شرط واحدٍ: هو أن تعلّمني الشريعة كلها في لحظة واحدة، الوقت الذي أدور فيه على نفسي دورةً واحدة.

غضب شماي وطرد الوثني.

وذهب الوثني ليلقي هيليل وعرض عليه العرضَ نفسه، فأجابه: «أفعل بالآخرين ما تريده أن يفعلوه بك». تلك هي وصيتنا الكبرى؛ وكل ما سواها فإنما يتفرّع عنها.

[٨]

مجرى الماء[١]

وجد تلاميذُ كونفوشيوس، الحكيم الصيني، معلّمهم، ذات يوم، على ضفاف النهر. كان المعلمُ جالساً يتأمّل مجرى الماء. دهش التلاميذ وسألوه:

ــ أيها المعلم، ما جَدْوى النظر إلى الماء وهو يجري؟ لا شيء أكثر إبتذالاً من هذا؛ كان ذلك منذ الأزل وسيظل إلى الأبد.

أجاب كونفوشيوس:

ــ نطقتَ بالحق. لا شيء، في الواقع، أشد إبتذالاً. كان ذلك منذ الأزل

(١) لا يبدو أن تولستوي قد إهتم بالأدب الصيني قبل ١٨٨٤م. ويمكن أن نحدد هذا التاريخ بدايةً لمرحلته الصينية.

وسيظلّ إلى الأبد؛ هذا ما يعرفُه كلٌّ واحد. لكن مالا يفهمه كلٌّ واحد هو: كم يُشبه الماءُ الجاري تعليم الحقيقة. لقد كنتُ أفكر في ذلك وأنا أنظر إلى الماء. المياه تجري؛ وتظلُّ تجري إلى أن تتلاشى في رحاب البحار. وكذلك العقيدة الحقيقية قد جَرَتْ إلينا، منذ بدء العالم، دون توقّف. فلنعملْ إذن بحيث ننقلها إلى الذين سيعيشون بعدنا لكي يقتدوا بنا وينقلوها هم أيضاً إلى ذريتهم، وذلك إلى إنتهاء الدهور.

[٩]

مقدمة لمجموعة «المختارات»

«يا نسلَ الأفاعي، كيف تَقْدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار. فإنه من فضلة القلب يتكلم الفمُ. الإنسانُ الصالح، من الكنز الصالح الذي في القلب، يُخرج الصالحات. والإنسان الشرير، من الكنز الشرير، يُخرج الشرور. ولكن أقولُ لكم: إن كل كلمة بطّالة يتكلم بها الناسُ سوف يؤدون عنها حساباً يوم الدين. لأنك بكلامك تتبرّر وبكلامك تُدان».

[متى ١٢، ٣٤ ــ ٣٧]

(ترجمة الراهب «كرامبون» كاهن «آميان»).

تحتوي المجموعةُ، إلى جانب الحكايات التي تُروى فيها أشياء وقعت فعلاً، على قطعٍ ــ قصص، تقاليد، مسرودات أساطير، أمثال، أقاصيص ــ أُلّفتْ وحُرّرت لتنوير القرّاء.

وقد وقع إختيارنا على ما رأيناه صالحاً وما رأيناه يعبّر عن الحقيقة.

إن كثيراً من قراء القصة والأقصوصة والأسطورة والمثل ــ ولا سيّما بين الأطفال ــ يسألون قبل كل شيء: «هل ما يُروى حقيقي؟». ويقولون، في الغالب، إذا رأوا أن ما رُويَ لا يمكن أن يقع: «هذا محضُ اختراع وليس حقيقياً».

وهم حين يحاكمون مثل هذه المحاكمة يسيئون الحكم.

سيعرف الحقيقة لا مَنْ لن يعرف إلاّ ما كان، وما هو كائن، وما من عادته أن يكون، ولكن سيعرفها ذاك الذي سيعلم ما ينبغي أن يكون بحسب مشيئة الله.

مَنْ يقتصر على وصف ما جرى، على ما فعله هذا أو ذاك، لا يكتبُ الحقيقةَ ــ أما من يُري أن هذه الأفعال صالحةٌ، أي مطابقة لمشيئة الله وأن تلك شريرةٌ، أي مضادة لهذه لمشيئة، فهو الذي يكتب الحقيقة.

وبالتالي فليس الذي ينظر أين يضع قدميه هو الذي يعلم الحقيقة، بل هو الذي يراقب الشمسَ فيعلم في أية جهةٍ ينبغي أن يسير.

جميع الحكايات، المكتوبة أو المحكية، صالحة ومفيدة، عندما تفهمنا ما كان ينبغي أن يكون، لا عندما تصف ما وقع؛ عندما تميّز ما هو خير ممّا هو شر، عندما تدلّ على الطريق الضيّقة، الطريق الوحيدة، طريق مشيئة الله التي تقود إلى الحياة، لا عندما تروي أخلاق الناس وتصرّفاتهم.

وليس ضرورياً، لكي نُرِيَ هذه الطريق، ألاّ نَصف سوى الحياة اليومية على أرضنا. إن العالم غارقٌ في الشر وفي الغواية. أنبغي أن نصفه كما هو، سوف نصوّر كثيراً من الأكاذيب، ولن تتضمن تلك الأقوال حقائق. ولكي تحتوي هذه اللوحة على الحقائق، ينبغي ألا نكتب ما هو كائن، لكن ما ينبغي أن يكون؛ يجب أن نصف حقيقة مالا يوجد، حقيقة ملكوت الله التي اقتربت أزمنتُها، لا أن نصف حقيقة ما هو موجود. ومن أجل ذلك نجد أكواماً من الكتب المكرّسة لوقائع حقيقة، أو ما يمكن أن يكون وقائع حقيقية، ليست سوى أكاذيب إذا عجز مؤلّفوها عن تمييز الخير من الشر، وإذا لم يستطيعوا أن يضعوا الناس على الطريق التي تقود الناس إلى ملكوت الله لجهلهم تلك الطريق.

في حين أن الأقاصيص والأمثال الرامزة والحكايات والأساطير التي تفتح صدرها للعجيب، والتي تُوصَفُ فيها أشياء لم تكن قط، ولم يمكن أن تكون،

هي الحقيقة لأنها تصوّر ما قد كان دائماً، وما هو كائن، وما سيكون أبداً: المشيئة الإلـٰهية: لأنها تُظهر حقيقة ملكوت الله.

يمكن أن نتصوّر عملاً ـ وهذا النمط من الروايات والقصص كثير ـ تُوصَفُ فيه حياة إنسانٍ لا يعيش إلاَّ لأهوائه، إنسان يتعذّب ويعذّب غيره، ويتعرض للمخاطر، ويَخْبرُ الضيقَ والحيلة والصراع، وتتكلّل بالنجاح جهودُه للخروج من الشقاء، وينتهي بأن يتزوج من المحبوبة، وبأن يغدو شخصية، إنساناً غنياً، إنساناً سعيداً. مثل هذا الكتاب، وإن كان كلُّ ما يحتويه نقلاً دقيقاً للوقائع، وإن لم يحتو على مالا يمكن تصديقه، لا يعدو أن يكون أكذوبة وضداً للحقيقة، لأن إنساناً يعيش لذاته ولأهوائه، لا يمكن أن يكون سعيداً، مهما تكن جميلةً امرأتُه، ومهما يكن هو نفسه واسع الجاه، واسع الثراء.

ونستطيع أن نتصور، بالمقابل، أسطورة تُظهر المسيح وتلميذه يجوبون الأرض، ويريدون أن يدخلوا منزل رجل غني فلا يستقبلهم، ويقصدون أرملة مسكينة فتحسن إستقبالهم. فيأمرُ برميلاً مليئاً بالذهب أن يتدحرج إلى منزل الرجل الغني، ويرسلُ ذئباً إلى منزل العجوز ليفترس عجلها الأخير. وإذا بعقبى الأمور حسنة بالنسبة إلى الأرملة، وسيئة بالنسبة إلى الرجل الغني.

مثل هذه القصة لا تُصدَّق كلها، إذ لا شيء مما روي فيها قد وقع أو أمكن أن يقع، إلاَّ أنها، مع ذلك، حقيقةٌ كلها، لأنها تُظهر ما ينبغي أن يكون، وتميز ما هو خير مما هو شر، وتشير إلى ما ينبغي أن ينزع إليه الإنسانُ ليحقّق مشيئة الله.

الأساطير والأمثال الرامزة والأقاصيص ـ مهما كانت العجائب التي ترويها، ومهما بدتْ ماهرةً الحيوانات في الكلام كالبشر، ومهما بدت سريعة البسط السحرية التي تنقل البشر ـ هي التعبير عن الحقيقة إذا كانت هذه الأساطير والأمثال الرامزة والأقاصيص تتضمن حقيقة ملكوت الله، فإذا لم تتضمن هذه الحقيقة، لم تكن سوى أكاذيب لأنها لم تحتوِ على شيء من حقيقة

ملكوت الله، حتى لو كان كل ما روي فيها قد أيّدته المراجع الموثّقة. المسيح نفسه كان يبشر بواسطة الأمثال، وظلت أمثاله حقيقةً أبديةً. وكان يكتفي بأن يضيف «والآن طبقوا ما سمعتموه».

[١٠]

صلاة الراعي[١]

(أقصوصة عربية)

كان موسى تائهاً في الصحراء، لقي قطيعاً وسمع صلاة الراعي. وإليك هذه الصلاة:

«إلهي! كيف العملُ للوصول إليك؟ كيف أغدو خادمك؟ بأي فرح سأنزعُ حذاءك، وسأغسل قدميك، وأقبلهما، وسأنظف ثيابك، وسأنظّم مسكنك، وسأقدم إليك حليب قطيعي! قلبي يهفو إليك».

غضب موسى غضباً عظيماً حين سمع هذا الكلام. فقال له:

«ما أنت سوى كافر: الله روحٌ. ولا حاجةً به إلى الملابس، ولا حاجة به إلى المسكن، ولا حاجة به إلى خادم. أقوالك سيئة».

خالطَ الحزن قلب الراعي. لم يكن يستطيع أن يتصوّر كائناً بدون جسد وبدون حاجات. لم يعد بوسعه أن يصلي أن يخدم الله، وأصابه اليأس. حينئذٍ قال الله لموسى:

«لمَ أبعدت عني خادمي الأمين؟ لكل إنسان جسدٌ وكل واحد يتكلم بالكلام الذي يناسبه. وما هو سيّء بالنسبة إليك حسن بالنسبة إلى غيرك».

• • •

(١) هذه الأقصوصة مأخوذة عن رسالة موجهة إلى الكاهن «س»، أي «سولوفيوق» كما أعتقد، وهو أستاذ الدين في معهد «نيقولا».

حكايات شعبية

ممّ يعيش الناس

(١٨٨١م ــ ١٨٨٥م)

«نحن نعلم أننا قد إنتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الأخوة. مَنْ لا يحب أخاه يَبْقَ في الموت».

[١ ــ يوحنا ٣: ١٤]

«وأما من كانت له خيرات العالم، ورأى أخاه محتاجاً، وأغلق أحشاءه عنه، فكيف تثبت محبة الله فيه؟».

[١ ــ يوحنا ٣: ١٧]

«يا أولادي لا نحبّ بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق».

[١ ــ يوحنا ٣: ١٨]

«أيها الأحبّاء، لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة هي من الله، وكل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله».

[١ ــ يوحنا ٤: ٧]

«ومن لا يحبّ لم يعرف الله لأن الله محبّة».

[١ ــ يوحنا ٤: ٨]

«الله لم ينظره أحدٌ قط. أن أحب بعضُنا بعضاً فالله يثبت فينا، ومحبته قد تكمّلت فينا».

[١ ــ يوحنا ٤: ١٢]

«ونحن قد عرفنا وصدّقنا المحبة التي لله فينا. الله محبة ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه».

[١ ــ يوحنا ٤ : ١٦]

«أن قال أحد أني أحب الله، وأبْغضَ أخاه فهو كاذبٌ. لأن من لا يحبُّ أخاه الذي أبصره كيف يَقْدر أن يحب الله الذي لم يبصره؟».

[١ ــ يوحنا ٤ : ٢٠]

[١]

كان إسكاف يعيش مع امرأته وأولاده في غرفة إستأجرها من فلاحٍ، لأنه لم يكن يملك بيتاً ولا أرضاً، وكان يكسب ما يعول به أسرته من مهنته كاسكاف. كان الخبزُ غالياً وكان العمل قليل الأجْر؛ كان يأكل كل ما يكسب. ولم يكن له ولامرأته سوى فرويّة[١] واحدة، في طريقها إلى البلى. ومنذ سنتين، والإسكاف يحاول أن يشتري بعض جلود الخراف ليصنع منها فرويّةً جديدة.

في حوالي الخريف، ألفى نفسه مالكاً لقليل من المال: كان معه في صندوق امرأته ثلاثة روبلات ورقية. وكان له في ذمّة فلاحي القرية خمسة روبلات وعشرون كوبيكاً.

ذات صباح، صمّم الإسكافُ أن يذهب إلى البلدة ليشتري فرويته. إرتدى سترة امرأته المبطّنة بالقُطن، ولبس فوقها قفطاناً من الجوخ، ووضع الروبلات الثلاثة في جيبه، وتناول عصاه، وذهب بعد الإفطار.

فكّر الإسكاف: «سأستوفي روبلات الفلاحين الخمسة؛ وبهذا المبلغ والروبلات الثلاثة التي معي، سأصبح قادراً على شراء جلود الخراف لأصنع منها فرويةً.

(١) عباءة مبطنة بالفرو.

عندما وصل القرية، قصد بيت الفلاح، لم يكن الفلاح في بيته. فوعدته امرأته أن ترسل إليه المال خلال هذا الأسبوع، لكنها لم تعطه شيئاً. وأقسم له فلاحٌ آخر أنه لا يملك شيئاً يدفعه له؛ وأُعطي عشرين كوبيكاً فقط لإصلاح النعل. فكّر الإسكاف أن يشتري الجلود بالدَّينْ؛ لكن التاجر أبى أن يقبل، وقال له:

ـ هات المال، وحينئذٍ تختار السلعة التي ترغب فيها، لأننا نعلمْ كلّ العلم كم هو صعبٌ أن يسدد لنا الناس ديوننا.

لم يجمع الإسكاف شيئاً، وفيما عدا العشرين كوبيكاً لإصلاح النعل، لم يتلق سوى حذاءٍ بالٍ لإصلاح نعله.

تملّك الحزن الإسكاف، فذهب إلى الحانة، وشرب بالعشرين كوبيكاً وعاد أدراجه بدون جلود الخراف. لقد أحسّ بالبرد في الصباح طول الطريق، لكنه أحسَّ بالدفء عند عودته، مع أنه بلا فروية، وذلك لأنه شرب. مشى بخفّه، ضارباً بعصاه الأرض المتجلدة، بينما كان يدوِّر بيده الأخرى الحذاء. وقال في نفسه:

أنا دفآن بدون فروية، لقد شربتُ كأساً صغيرةً، وماء الحياة يملأ عروقي، فما جدوى الفروية؟ أنا ذاهبٌ وقد نسيت بؤسي، كذلك أنا! وماذا يهمّني من ذلك؟ أستطيع العيش بدون فروية، سأستغني عنها طوال حياتي. لكن امرأتي لن تكون مسرورةً! والحقيقة أن هناك ما يدعو إلى ذلك. نشتغل لهم ويضطرونني إلى الركض وراءهم... انتظر قليلاً تأبى أن تُعطيني مالي... سأخرج عن الأدب! أقسم لك أني سأفعل ذلك!... إنها لأساليب سخيفة أن يدفعوا حسابهم بالعشرين كوبيكاً!.. ماذا نستطيع أن نفعل بعشرين كوبيكاً؟ أن نشرب بها في الحانة، هذا كل شيء!....».

واستمرّ في مناجاته لنفسه:

«البؤس! البؤس! . . . وبؤسي أنا! أنت لك بيتٌ وماشيةٌ وغير ذلك، أما أنا فليس لي سواي. أنت تأكل الخبز الذي يأتي من حقلك، أما أنا فأشتري خبزي، والخبز وحده يكلفني، في الأسبوع، ثلاثة روبلات وأعود إلى بيتي فأجدُ الخبزَ مأكولاً، ويلزمني إنفاق روبل ونصف أيضاً. أعطِني إذن ما أنتَ مدينٌ لي به!».

ويصل الإسكاف هكذا إلى مقربةٍ من الكنيسة عند منعطف الطريق. ويرى خلف الكنيسة شيئاً أبيض. كان النهار يوشك أن ينقضي، فلم يميّز الإسكاف جيداً.

«ماذا هنالك؟ ليس هاهنا حجرٌ أبيض. أهي بقرة؟ لا، لا يبدو انها بقرة. كأنه إنسانٌ من جهة الرأس. لكنْ لم كان أبيض؟ ولم وُجدَ هنا؟.

ويقترب، فيميز الأشياء تمييزاً أفضل. يا للأعجوبة! إنه إنسان حقاً! أهو حي أم ميت؟ إنه يجلس، عارياً، مستنداً إلى جدار الكنيسة بلا حراك، وفكّر الإسكاف وقد استولى عليه الخوف: «قُتِلَ إنسانٌ؛ ثم عرِّي وألقي هنا. وإذا ما دنوتُ منه فوسف أجلب لنفسي طائفة من المتاعب.

ويمرّ، ويدور حول الكنيسة، فيغيب ذلك الإنسانُ عن بصره. وبعد بضع لحظات يلتفت فيرى أن ذلك الإنسان تنحّى عن الجدار، وأنه يتحرك ويبدو كأنه يحدّد النظر فيه. ويرتعبُ الإسكاف رعباً أشدّ، ويفكّر: «هل ينبغي أن أعود أدراجي أو أهرب؟ إذا ذهبتُ إليه فقد يصيبني مكروه. أيمكن أن نعرف أيّ نوع من الناس هذا؟ إن حضوره هنا يبدو لي مشبوهاً. سيثب إلى عنقي ولعلي لن أنجو منه. ولنفرضْ أنه لن يخنقني فسوف نتنازع من أجل أتفه الأشياء؟ وماذا أفعل بإنسان عارٍ؟ وأنا لا أستطيع، مع ذلك، أن أنزع ثيابي لألبسه، أن أُعطيه ثوبي الوحيد. ليخلّصني الله من هذا المأزق».

تجاوز الكنيسة، لكن ضميره أخذ يعذّبه، فوقف في وسط الطريق وخاطب نفسه قائلاً: «ماذا تفعل، يا سيمون، ماذا تفعل؟ إنسان يموت بدون مُعين، وأنت تخافُ وتهب. أأنت ثري، يا ترى؟ هل تخشى أن تُسلَبَ منك أموالُك؟ آه! سيمون، ليس هذا حسناً!».

ويعود سيمون ويدنو من الإنسان.

[٢]

ويقترب سيمون وينظر فيرى شاباً قوياً، ليس على جسده أثرٌ للعنف أو الضرب، لكنه يرتعدُ من البرد وقد تجلّى عليه الرعبُ. كان جالساً، مستنداً إلى الجدار، لا ينظر إلى سيمون، والإعياءُ بادٍ عليه؛ لم يكن يستطيع أن يرفع جفنيه.

تقدم سيمون أكثر، وانحنى على الرجل الذي إنتعش فجأةً وأدار رأسه، وفتح عينيه ونظر إليه. ما أن رأى سيمون هذه النظرة حتى شرع يحب الرجل فنزع حذاءه، وفكّ زناره ورماه فوق الحذاء، وخلع قفطانه، وقال:

ـ لا حاجة إلى اللغوِ. خذْ، والبسْ بسرعة.

وأمسك سيمون بالرجل من تحت ذراعه، وأنْهضه، وأوْقفه على رجليه؛ رأى جسمه الرقيق، النحيف، النظيف، وذراعيه وساقيه السليمة، ووجهه الوديع. وضع القفطانَ على ظهره، لكن الرجل لم يستطع أن يُدخل يديه في الكمّين. ففعل سيمون ذلك، وزرّ القفطان، وربطَ الزنّار. وأراد أن يرفع قبّعته الممزّقة ليضعها على رأس الرجل، لكنه أحسّ بالبرد في رأسه. وفكّر:

«أنا أصلع تماماً، في حين أن له شعراً طويلاً مجعّداً» فاحتفظَ بقبّعته. وقال في نفسه: «الأَوْلى أن أضع الحذاءَ في رجليه».

جثا سيمون أمام الرجل، ووضع الجزمة في رجليه، ثم قال له:

ـ أيها الأخ، هيا، إنتفضْ قليلاً، دفّيء نفسك، لم يبق لدينا هنا ما نفعله. أتستطيع المشي؟

ظلّ الرجلُ واقفاً دون أن يتكلم، ناظراً إلى سيمون برفق.

ـ ولمَ لا تتكلّم؟ لا نستطيع أن نقضي الشتاءَ هنا. يجب أن نعود. هيّا، خذْ عصاي: اتّكىءْ عليها إن كنتُ فاقداً قواك. هيا سرْ إلى الأمام!

مشى الرجلُ، وبسهولة كبيرة، ولم يتخلّف. إنهما يمضيان جنباً إلى جنب، فيسأله سيمون:

ـ من أين أنتَ؟

ـ لستُ من هنا.

ـ إني أعرف أهلَ المنطقة، فكيف إنتهيتَ إلى هذا المكان، خلف الكنيسة.

ـ لا يمكنني أن أقول لك ذلك.

ـ لعل أحداً قد أساءَ إليك.

ـ لا، لم يسىءْ إليّ أحدٌ. الله عاقَبني.

ـ لا شك أن كل شيء بيد الله... لكن، على كل حال، إنما يذهبُ المرءُ إلى مكان ما. فإلى أين تذهبْ؟

ـ سيّان عندي.

ويدهشُ سيمون. لا يبدو على الرجل أنه ثقيل المزاج؛ صوته عذب، لكنه لا يقول شيئاً عن نفسه. ويَخْطرُ لسيمون أن كل ذلك غريب جداً، فيقول للرجل:

ـ حسناً، تعال إلى منزلي، وستَدْفأ قليلاً عندي.

يقترب سيمون من فناء بيته، وصاحبه يسير بجنبه. وتهبّ الريحُ فتخترق قميص سيمون.

ويأخذَ السُكرُ بالتلاشي، ويرتعد من البرد، فينخر، ويصرّ نفسه في سترته، ويفكّر: «ما أسوأ حالي! إنه لمأزقٌ حقاً! ذهبتُ لأشتري فروية فعدتُ بغير قفطان، وفوق ذلك، جئتُ برجل عارٍ. لن تمدحني «ماتريونا» على ذلك.

عندما فكّر سيمون فيها حزنَ؛ لكنه تطلّع إلى الرجل، وتذكّر النظرةَ التي رماه بها وراء الكنيسة، فاهتزّ قلبُه فرحاً.

[٣]

أنهت امرأةُ سيمون عملها المنزلي في وقت مبكّر. قطّعت الحطب، وجاءت بالماء، واعتنت بالأولاد، وأكلت؛ ثم أخذت تفكّر. فكّرت في الخبز، إن كان ينبغي أن تخبز اليوم أو غداً. فما زال في المعجن رغيفٌ كبير.

فكرت في نفسها: «سيمون تغدّى في القرية؛ إن لم يتعشّ هذا المساء فسيبقى ما يكفي من الخبز لنهار غد».

وقلّبت الرغيف مرّات.

«لن أخبز اليوم؛ لم يبق من الطحين إلاّ ما يكفي لخبزة واحدة؛ سوف نجرجر أنفسنا حتى الجمعة».

خبّأتْ ماتريونا الرغيفَ، وجلست قرب النافذة، لتُصلح ثوبَ زوجها. إنها تخيط وتفكّر في زوجها الذي ذهب ليشتري جلود الخراف كي يصنع منها فرويّةً.

«على شرط ألا يكون التاجر قد غشّه، فزوجي بسيط!... هو لا يخدع أحداً والطفل قد يخدعه عامداً... ثمانية روبلات مبلغ كبير، ويمكنُ شراء فرويّة حسنة بها، فروية بسيطة، من غير شك، لكنها فرويّة على كل حال. الشتاءُ الماضي كان قاسياً جداً؛ بدون فرويّة يتعذّر الذهاب إلى النهر أو إلى أي مكان آخر. وهكذا ذهب وقد إرتدى كل شيء ولم يبق لي ما أضعُه على

ظهري... كم تأخر! كان يجب أن يكون قد عاد... لعله قد توقّف في إحدى الحانات، زوجي؟.

لم تكد «ماتريونا» تفكّر في ذلك حتى صرّتْ درجاتُ المدخل، ودخل أحدُهم. تركتْ شغلها ومضتْ إلى البهو، فرأت رجلين يدخلان: سيمون وفلاحاً آخر، حاسر الرأس، وهو يحتذي جزمةً من اللبّاد.

لاحظت ماتريونا من نَفَس سيمون أنه قد شرب. قالت في نفسها: «كنتُ واثقةً من ذلك، لقد شرب». وحين رأتْهُ بلا قفطان، فارغ اليدين، صامتاً، متضايقاً، إنهارت المسكينة.

«لقد شرب بالمال، ذهب إلى الحانة مع هذا الوقح، وهو يصطحبه معه».

تركتْهما ماتريونا يدخلان إلى الكوخ الخشبي، وتبعتهما بصمت. رأت الغريب شاباً، هزيلاً، يرتدي قفطان زوجها بدون قميص تحته، وبدون قبّعة. فلما دخل، وقف جامداً، خافضاً عينيه. قالت ماتريونا في نفسها: «هذا ولدٌ فاسدٌ، وهو خائف».

إتّجهت إلى الموقد، وهي مقطّبة حاجبيها، تنتظر ما سوف يجري.

نزع سيمون قبّعته، وجلس على المقعد كما يجلس الزوجُ الصالح الخدومُ، وقال:

ــ ماتريونا، هلا قدّمتِ لنا العشاء.

أخذتْ ماتريونا تدمدم بين أسنانها. ووقفت قرب الموقد، ساكنة، تنظر إلى هذا حيناً، وإلى ذاك حيناً آخر. عندما رأى سيمون امرأته هائجة ــ وما حيلتُه في ذلك ــ تكلّف عدمَ المبالاة، وأمسك بالغريب من يده: وقال له:

ــ اجلسْ ولنتعشَّ.

جلس الآخر على المقعد.

ــ ألم تخبزي هذا المساء؟

إستبدّ الغضبُ بماتريونا.

ـ خبزتُ لكن ليس لكَ. شربتَ وفقدتَ رشدك. يذهبُ ليشتري فرويّةً فيعود بلا قفطان. ويصطحب معه فوق ذلك، متشرداً عارياً. ليس عندي عشاء لسكيّرين مثلكما.

ـ كفى، ماتريونا! لا فائدة من تحريك اللسان لكي لا ينطق بغير الحماقات. الأجدر بك أن تسأليني أولاً من هذا الرجل.

إستأنفت المرأة:

ـ قلْ لي، قبل كل شيء، ما الذي فعلتَه بالمال!

مدَّ سيمون يده إلى جيبه وأخرج منها الروبلات.

ـ هذا هو المال. تريفونوف لم يدفع. وعَدَ أن يدفع غداً.

إشتدّ غضبُ ماتريونا. لا فرويّة، والقفطان الوحيد قد وضعه على ظهر هذا المتشرد العادي الذي إصطحبه معه، فوق ذلك! أخذت المال وذهبت لتصرّه، وهي تقول:

ـ لا عشاء عندي، ولسنا نستطيع أن نطعم جميع السكيرين العراة.

ـ دعْك من هذا، ماتريونا، أمسكي لسانك واصغي إلى ما سأقوله لك.

ـ أنا! أُصغي إلى حماقات غبيّ شربَ! آه! كم كنتُ مُحقّةً عندما أبيتُ أن أتزوجكَ، أيها السكير. أعطتني أمي متاعاً فشربتَ به؛ وذهبتَ لتشتري فرويّةً فشربت بها.

عبثاً حاول سيمون أن يُفهمها أنه لم ينفق في الحانة سوى عشرين كوبيكاً، وأراد أن يقول لامرأته كيف وجد هذا الرجل، لكن ماتريونا لم تتركه يُضيف كلمة، وردّت على كل كلمة بكلمتين، وقذفت في وجهه ما جرى منذ عشر سنوات، تكلّمت، وتكلّمت، ثم أمسكت بسيمون من كمّه:

ـ أعدْ إليَّ سترتي؟ ليس لي غيرها، وقد أخذتَها مني؛ ها هي ذي على ظهرك، أيها الكلب القذر! لا ردّكَ الله!.

وينوي سيمون أن يخلع السترة، فتشدّ المرأة، وتنفرطُ القطب. وأخيراً تحصل على السترة، وتضعها على رأسها، وتتّجه إلى الباب. أرادت أن تنصرف، لكنها تتوقّف فجأة وقد تملكها غضبٌ مسعور. أرادت أن تُفرِغ غضبها على أحد الناس، وفي الوقت نفسه تحرّقت لتعرف مَنْ هذا الرجل.

[٤]

قالت «ماتريونا» وهي واقفةٌ على العتبة:

ـ لو كان رجلاً شريفاً لما كان عارياً؛ انظرْ، ليس له قميص. لو كنتَ عملت خيراً لكنت قلتَ لي من أين جئتَ بهذا الأنيق.

ـ لكني أقول لكِ ذلك: كنتُ ماراً قرب الكنيسة، فوجدتُ هذا الفتى عارياً، يكاد يتجمّد، لسنا في الصيف... الله هو الذي قادني إليه، وإلاَّ لمات تلك الليلة. ما العمل؟ ثمة أشياء تقع. أنهضته وألبستُه، وجئتَ به إلى هنا. هدّئي روعَك، فهذه خطيئة، يا ماتريونا، سنموت ذات يوم.

أرادت ماتريونا أن تردّ عليه، لكنها ألقت بنظرها على الغريب، وصمتتْ. كان جالساً على المقعد، بلا حراك، ويداه متصالبتان على ركبتيه، ورأسه مُكبٌّ على صدره؛ كان يختنق وكأن شيئاً كان يخنقه. صمتت ماتريونا. قال لها سيمون:

ـ هل فارقَ الله قلبَك؟

عند هذه الكلمات، تأملّت ماتريونا الغريبَ، مرة أخرى، فرقّ قلبُها. وتركت العتبةَ، واتجهت نحو الموقد لتحضير العشاء، ووضعت القصعة على المائدة، وصبّت شراباً، وحملت آخر رغيف ومعه سكين وملعقتان، قالت:

ـ هيال، كلا.

دفع سيمون الرجلَ نحو الطاولة. قال:

ـ إدن، أيها الشاب.

قطع الخبز، وبلّه، وأخذا يأكلان. جلست ماتريونا في جانبٍ من المائدة، ونظرت إلى الغريب، وذقنُها مستندةٌ إلى قبضتيها.

أخذتْها شفقةٌ عظيمة. ومال قلبها، بدوره، إليه. وسرعان ما ابتهج الغريب، ورفع رأسه، وابتسم لماتريونا.

إنتهى العشاء، فرتّبت ماتريونا الصحون، وقالت:

ـ من أين أنت آتٍ؟

ـ لستُ من هنا.

ـ وكيف إنتهيت إلى هذا المكان؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك ذلك.

ـ من سلبكَ ثيابَكَ؟

ـ الله هو الذي عاقبني.

ـ ومن أجل ذلك بقيتَ عارياً.

ـ نعم، بقيت هكذا، عارياً. كنتُ أتجمدُ. رآني سيمون فأخذتْه الشفقةُ علي. وضع قفطانه علي، وطلبَ إلي أن أتبعه. وأنتِ رأفتِ ببؤسي، فأطعمتني وسقيتني. ليُخلْصك الله!

نهضت ماتريونا، وتناولت من النافذة قميصاً لسيمون رقعتُه وأعطتْه الغريبَ، كما أعطته سروالاً. قالت له:

ـ خذ. أرى أنْ ليس عليكَ قميص. إلبس ونمْ حيثُ تشاء، على المقعد أو على الموقد.

خلع الغريبُ القفطان، ولبس القميص والسروال وتمدّد على المقعد.

أطفأت ماتريونا المصباح، وتناولت القفطان وصعدت إلى الموقد، إلى قرب زوجها. ورقدتْ متغطّيةً بجانبٍ من القفطان.

لكنها لم تستطع أن تنام: شغلَ الغريبُ بالها.

وفكّرت أيضاً في أنهم أكلوا كل ما بقي من الخبز، وأن الخبز سيعوزهم غداً، وأنها أعطت الضيف قميص سيمون وسرواله. فأحست بالحزن، لكنها تذكرت بسمة الغريب فاهتزت فرحاً.

ظلّت ماتريونا مستيقظةً. كما أن سيمون لم ينم أيضاً، وظل يسحب القفطان صوبه.

ــ سيمون!

ــ ماذا؟

ــ أكلْنا الخبزَ كله؛ ولم أخبز اليوم. ماذا أفعل غداً؟ هل ينبغي أن أطلب من ميلانيا أن تقرضني شيئاً من الخبز غداً؟

ــ إن عشْنا فسنجد ما نأكله.

صمتا برهةً.

ــ تبدو الطيبةُ على هذا الرجل، فلمَ لا يقول شيئاً عن نفسه؟

ــ لا شك أنه لا يستطيع ذلك.

ــ سيمون!

ــ ماذا؟

ــ نحن نعطي الآخرين، فلم، يا ترى، لا يعطينا نحن أحدٌ؟

لم يعرف سيمون كيف يجب. وقال وهو يدير ظهره:

ــ كفانا حديثاً.

ونام.

[٥]

إستيقظ سيمون مبكّراً: كان الأولادُ ما يزالون نائمين؛ وخرجت امرأتُه لتطلب خبزاً من الجيران. وكان غريبُ الأمس، في قميصه وسرواله الباليين، جالساً على المقعد، رافعاً عينيه؛ وقد غدا وجهُه أكثر صفاء.

قال له سيمون:

ـ يا صاحبي! المعدةُ تطلبُ الخبز، والجسم الملابس. وعلى المرء أن يكفي نفسه بنفسه، أن يُطعم نفسه، أتستطيع العمل؟

ـ لستُ أعرف شيئاً.

حملق سيمون إليه وقال:

ـ سيعلمك الناسُ كل شيء، إذا توافر حسنُ النيّة.

ـ كلُ الناس يعملون، وسأفعل كما يفعل الآخرون.

ـ ما اسمك؟

ـ ميشيل.

ـ حسناً! يا ميشيل، أنت لا تريد أن تقول شيئاً عن نفسك، هذا شأنُكَ؛ لكن يجب أن تأكل؛ وإذا فعلتَ ما آمرك به، فسوف أطعمكَ..

ـ بارك بك الله! علِّمْني، أرني ما الذي ينبغي فعلُه.

أخذ سيمون خيطاً وشرع يحضّر طرفه.

ـ ليس هذا العمل صعباً. أنظرْ...

وينظر ميشيل، ويأخذ الخيط بدوره ويحضّر طرفه. وسرعان ما يعلّمه سيمون كيف يشمّع الخيط، وكيف يبرمه بشعر الخنزير الغليظ. فيفهم ميشل من النظرة الأولى. ثم يريه المعلمُ كيف يخيط، وسرعان ما يفهم ميشيل ذلك.

منذ اليوم الثالث، كان ميشيل يحسن العمل، على الفور، أياً كان العمل الذي يُريه إياه سيمون. كان يعمل بدقة كبيرة حتى ليُخيِّل إلى الناظر أنه قد

اشتغل بصنع الأحذية طوال حياته. لم يكن يُضيع دقيقة، وكان قليل الأكل؛ حتى إذا إنتهى من عمله، قَبع في زاوية، وعيناه مرفوعتان، دون أن يقول شيئاً. ولم يكن يخرج أو يمزح أو يضحك قط. ولم يُرَ مبتسماً سوى مرة واحدة: وذلك في أول مساء، عندما قدّمت له امرأةُ سيمون العشاءَ.

[٦]

إنقضتْ سنةٌ، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، ظل ميشيل يعمل ويعيش عند سيمون، وغدا العامل مشهوراً: ما من أحد كان يصنعَ أحذية متقنةً ومتينةً إلى هذا الحدّ، مثل ميشيل، عامل سيمون؛ وجاء الناس من جميع أرجاء الناحية يوصون على الأحذية التي يصنعها سيمون. وأخذ سيمون يعيش ميسوراً.

في أحد أيام الشتاء، كان سيمون وميشيل يعملان معاً، عندما سمعا عربةً تجرها ثلاثة جياد ذات جلاجل. نظرا من النافذة؛ توقفت العربة أمام الكوخ الخشبي. وثب خادمٌ من مقعده، وفتح بابها. نزل من العربة سيدٌ متدثّر بفرويّةٍ، واتجه نحو منزل سيمون، وصعد درجَ المدخل. فتحت ماتريونا البابَ على مصراعيه. إنحنى السيّد ودخل البيت، واعتدل؛ كاد رأسه يلامسُ السقفَ، وملأ وحده ركناً من أركان الغرفة.

نهض سيمون، وسلّم على الرجل بدهشة. لم ير قط رجلاً كهذا الرجل. سيمون نفسه كان قصيراً وسميناً، وميشيل هزيلاً، وكانت ماتريونا تبدو مثل حطبة يابسة. كان هذا الرجل يبدو وكأنه جاء من عالم آخر: كان يبدو، بوجهه الأحمر الممتلىء، وبعنقه الذي كعنق الثور، كأنه مبنيّ من البرنز.

بعد أن نفخ بقوة، رمى فراءه، وجلس على المقعد، وقال:

ــ من منكما الإسكافُ المعلم.

تقدّم سيمون، وقال:

أنا، يا صاحب السيادة.

نادى السيّدُ خادمه:

ـ فيدكا! هات الجلدَ.

سارع الخادمُ ومعه سفط. أخذ السيد السفط ووضعه على الطاولة. وقال:

ـ حلّ هذا السفط.

فحله الخادمَ.

عرضَ السيدُ الجلدَ على سيمون، وقال:

ـ اسمعْ، يا اسكافُ، أرأيتَ هذا الجلد؟

ـ نعم، يا صاحب السيادة.

ـ هل عرفتَ ما نوع هذه البضاعة.

جسّ سيمون الجلد وأجاب:

ـ البضاعة جيدة.

ـ نعم، هي جيدة، يا غبي؛ أنت لم تر قطّ مثلها، فهي من الجلد الألماني، أتسمع؟ هذا الجلد يساوي عشرين روبلاً.

أجاب سيمون خائفاً:

ـ وأين نستطيع أن نرى ذلك كله، نحن؟

ـ لا شك أنك تستطيع أن تصنع لي حذاءً بهذا الجلد؟

ـ بالتأكيد، يا صاحب السيادة.

فهتف السيد:

ـ بالتأكيد! إفهمْ جيداً لمن ستشتغل وبأية بضاعة؛ إصنع لي جزمة يمكن أن تدوم سنة، وأستطيع أن أحتذيها سنة دون أن ألويها أو أمزّقها. إن كنت تستطيع أن تفعل ذلك فخذ هذا الجلد وفصله، وإلاّ فارفض، وأنا أحذّرك: إذا

تمزق الحذاء قبل سنة فسوف أدخلك السجن، وإذا بقي الحذاءُ سنة فستحصل على عشرة روبلات.

ويرتعب سيمون فيتردد ولا يدري كيف يجيب. وينظر إلى ميشيل ويدفعه بمرفقه، ويهمس إليه:

ــ هل ينبغي أن أقبل؟

قال له ميشيل:

ــ أقبلْ العملَ.

ويسمع سيمون كلام ميشيل فيقبل ويتعهد أن يسلّمه جزمة لا تلتوي ولا تتمزق في سنة كاملة.

دعا السيد خادمه وأمره بنزع حذاء قدمه اليسرى، ومدّ رجله وقال لسيمون:

ــ حسناً خُذ القياس.

تناول سيمون ورقة وطواها طيات، وجثا، ومسح يديه بوزرته لكي لا يوسخ جوربي السيد، وبدأ بأخذ القياس. قياس النعل والرسغ، وأخذ يقيس ربلة الساق؛ لكن الورقة لم تكن كافية لتلفّ عليها؛ لقد كانت ضخمة كجسر من خشب.

ــ خذْ حذَرك؛ لا تجعلها أضيق من ربلة الساق.

يضيف سيمون ورقاً، والسيد الجالس يحرك أصابع قدمه في جوربه، وينظر إلى الناس الحاضرين.

شاهدَ ميشيل فسأل:

ــ من هذا؟

أجاب سيمون:

ــ هذا خادمي، وهو الذي سيصنع الجزمة.

قال السيدُ مخاطباً ميشيل:

ـ إنتبه، يجب أن تبقى سنة كاملة.

ويرفع سيمون بصره إلى ميشيل، ويلاحظ أنه لا ينظر إلى السيد؛ إنه ينظر فوقه وما وراءه، وكأنه قد رأى أحداً. وينظر وينظر، وفجأة يبتسم بسكينة:

ـ لم تضحك، يا غبـي؟ الأوْلى أن تحرص على أن يكون الحذاء جاهزاً في الوقت المحدد.

أجاب ميشيل:

ـ سيكون حذاؤك جاهزاً في الوقت المطلوب.

ـ حسنٌ.

إحتذى السيد حذاءه، وتدثّر بفرويته، واتجه إلى الباب؛ لكنه نسي أن ينحني فصدم بجبينه العارضة الخشبية. أخذ يجدّف، وفرك رأسه، ثم صعد إلى عربته وانصرف.

قال سيمون، عندما انصرف السيّدُ:

ـ إن هذا لقويٌّ كالصخرة، لقد كسر العارضة فلم يبال.

أبدتْ ماتريونا رأيها:

ـ كيف لا يكون رجلاً وسيماً، وهو يحيا مثل هذه الحياة؟ لن تمتدّ إليه يد الموت في وقت قريب، وقد صُبَّ من البرونز كما نرى.

[٧]

خاطب سيمون ميشيل:

ـ لقد قبلنا هذا الطلبَ؛ بشرط ألا يسبّب لنا متاعب. الجلد غال، والسيد عنيف؛ بشرط ألا نخطىء! عيناك أصحّ من عيني، ويدك أوثق من يدي، خذْ، هذا هو القياس؛ فصّلْ لي هذا الحذاء، وسأقوم أنا بخياطته.

أطاعه ميشيل؛ أخذ الجلد، وبسطه على منضدة العمل، وطواه وتناول سكّينه، وأخذ يُفصّل.

دنت ماتريونا، وتطلّعت إلى عمل ميشيل ودهشت مما فعل. رأت أنه لا يفصِّل جزمة وإنما يفصل خفّاً.

أرادت أن تتكلم لكنها فكّرت «لا شك أني لم أفهم أي نوع من الأحذية يلزم السيد. ميشيل يعرف خيراً مني ما يفعله؛ لن أتدخل في ذلك».

فصل ميشيل الحذاء، وأمسك بالقطع وأخذ يخيطها، لا من جهتين، بل من جهة واحدة، كما يخيط الخفّ. دهشت ماتريونا من ذلك، لكنها لم تشأ أن تتدخل. ظل ميشيل يخيط. وحانت ساعةُ الطعام. فترك سيمون عمله ورأى أن ميشيل صنع من الجلد خفاً لا جزمةً. فيرسل آهةً ويفكر: «كيف، ميشيل الذي لم يخطىء طوال سنة كاملة!... ما هذه البلية التي ابتلانا بها الآن! تلفت البضاعة؛ ماذا سأقول للسيد؟ أين نعثر على مثل هذه البضاعة؟».

قال لميشيل:

ــ ماذا فعلتَ، يا صاحبي؟ لقد سبّبتَ خرابي. أوصى السيد على جزمة، فماذا فعلت أنت؟

في اللحظة نفسها يُقرع البابُ قرعاً شديداً. فينظران من النافذة وإذا برجل يربط جواده. ويُفتحُ البابُ، فيدخل خادم السيد:

ــ مساء الخير، يا معلم.

ــ مساء الخير، ماذا تريد منا؟

ــ أرسلتني السيدةُ بشأن الجزمة.

ــ الجزمة؟ ماذا؟

ــ نعم، فالسيد لم يعدْ بحاجة إلى الجزمة. لقد مات.

ــ كيف!

بل إنه لم يصلْ حياً؛ مات في العربة. وصلنا، وفتحت الباب، فوجدته راقداً في صدر العربة، متصلّباً. ولم نخرجه إلاَّ بعد جهد شديد. وأرسلتني السيدة إليك قائلةً: «إذهب وقل للاسكافي أن يصنع خفاً للميت بدلاً من الجزمة التي أوصى عليها معلمك حين ترك الجلد. فمن أجل هذا حضرتُ».

أخذ ميشيل الخف وما بقي من الجلد، ولف الكل بعناية، وسلّم السفط للخادم الذي كان ينتظر.

ـ وداعاً، يا صاحبـي لتظلوا في العافية!

[٨]

مرت سنةٌ وسنتان، وها أن ست سنوات تنقضي وميشيل ما يزال يعيش عند سيمون. وهو لم يتغير في شيء: إنه لا يخرج أبداً، وقلّما يتكلم، ولم يبتسم، خلال هذا الزمن كله، سوى مرتين: المرة الأولى عندما قدّمت له ماتريونا الطعام، والثانية عند زيارة السيّد.

سيمون مأخوذٌ دائماً بعامله، لم يعد يسأله من أين جاء، وليس يخشى سوى شيء واحد هو ألا يتكلم.

ـ ذات يوم، كانوا جميعاً في المنزل. كانت صاحبة المنزل تضع الإناء في الموقد، والأولاد يتسلقون المقاعد وينظرون حول النوافذ. قرب نافذة، كان سيمون يخرز مخرزه، وقرب أخرى كان ميشيل ينهي كعباً.

جاء أحدُ الأولاد واتكأ على كتف ميشيل، ونظر إلى النافذة وقال:

ـ تطلّعْ، يا عم ميشيل، إلى هذه البائعة مع ابنتيها الصغيرتين. كأنهن آتياتٌ صوبنا. إحدى البنتين عرجاء.

عندما سمع ميشيل هذه الكلمات ترك عمله، والتفت إلى النافذة، وتطلّع إلى الخارج.

دهش سيمون. فميشيل لم ينظر قط إلى الخارج، وها هو يلتصقُ بالزجاج، ويتفحص شيئاً ما. وينظر سيمون بدوره من النافذة. فيرى، بالفعل، امرأة نظيفة الثياب، تقود بنتين صغيرتين، متدثّرتين بفرويتين صفيرتين، وعلى رأس كل منهما خمارٌ من الصوف وهنّ يتّجهن نحو مسكنه. البنتان متشابهتان، ومن المستحيل تمييز الواحدة عن أختها، لكن إحداهما تعرج من رجلها اليسرى.

تقف المرأة عند الباب، وترفع المزلاج وتدخل البيت، وهي تدفع البنتين أمامها.

ــ طاب يومكم، يا أصحاب.

ــ أهلاً بكِ، فيمَ ترغبين؟

جلست المرأة قرب الطاولة، رصّتْ البنتان نفسيهما بأمهما، فالرجال يخيفونهما.

ــ أنا بحاجة إلى حذاءين لبنتيّ، لفصل الربيع.

ــ باه! هذا سهل. لم نصنع قط أحذية صغيرة إلى هذا الحد، لكن يمكن أن نفعل ذلك، سنحاول. أتريدينهما بحافة أم مبطنتين بالقماش؟ ميشيل، عاملي، ماهرٌ جداً.

ويلتفت سيمون فيرى أن ميشيل يلتهم البنتين بعينيه. ويدهش سيمون. فلا شك أن البنتين جميلتان، بعيونهما السود، وخدودهما المورّدة، الممتلئة؛ ولا شك أن فرويتيهما وخماريهما لطيفة المنظر؛ لكنه لم يستطع أن يفهم لم يتفحّصهما ميشيل باهتمام كبير، وكأنه يعرفهما من قبل، وتتزايد دهشةُ سيمون وهو يتحدث مع المرأة ويأخذ القياس.

أركعت المرأة البنتَ العرجاء على ركبتيها وهي تقول:

ــ خذْ قياسين لهذه؛ أصنع حذاء للقدم العرجاء، وثلاثة للقدم الأخرى.

فأرجلهما واحدة؛ وهما توأمان.

بعد أن أخذ سيمون القياس، قال، وهو يشير إلى العرجاء:

ـ لم وُلدت هكذا؟ مثل هذه البنت الجميلة!

ـ أمُّها هي التي سوّهتها.

تدخّلتْ ماتريونا في الحديث، وقد حفزها الفضول لتعرف مَنْ هذه المرأة، ومَنْ هذان البنتان، وقالت:

ـ ألستِ أمهما.

ـ لا أنا أمهما ولا قريبتهما، يا صاحبتي؛ البنتان بنتاي بالتبني.

ـ ليستا من دمك وتدلّلينهما هكذا!

ـ وكيف لا أدلّلهما؟ لقد غذيتهما كليتهما من حليبي. رزقتُ ولداً أيضاً، لكن الله استردّه مني؛ ما كنتُ أغنّجه مثلهما.

ـ وابنتا مَنْ هما؟

[٩]

أخذت المرأة التي أصبحت مُفرطةً في الكلام، تروي:

ـ هما يتيمتان منذ ست سنوات: دُفِنَ الأب نهار الثلاثاء؛ وماتت الأمُ نهار الجمعة. لقد فقدتا أباهما قبل أن تولدا، ولم تعش الأم بعد ولادتهما ولو يوماً واحداً. في هذه الحقبة، كنت أعيش في القرية، مع زوجي؛ كنا جيراناً، باباً لباب. أبوهما هرسته شجرة، بينما كان يعمل وحده في الغابات؛ أُصيبت أحشاؤه فمات عند عودته إلى البيت. وبعد ثلاثة أيام، وضعت امرأتُه هاتين البنتين؛ ولما كانت فقيرةً ووحيدة، فإنها لم تجد مَنْ يعينها، لا قابلة ولا خادمة. وضَعتْ وحدها وماتت وحدها.

ذهبتُ في الصباح لأراها. دخلتُ فوجدتُ البائسة قد برد جسمُها تماماً. وقد وقَعتْ، وهي تموت، على الصغيرة فشوّهتها. تجمّع الناسُ، وغُسلتْ

الميتة، وكُفّنت، ووُضعت في تابوت، وأُودعت الترابَ.

كان الجيران جميعاً أناساً طيبين. ظلت الصغيرتان وحدهما. أين ينبغي أن تُوضعا؟ كنتُ إذ ذاك المرضعَ الوحيدة في القرية؛ كنتُ أرضع إبني البكر المولود منذ ثمانية أسابيع؛ أَخَذتهما، في أثناء ذلك إلى بيتي.

إجتمع الفلاحون؛ تحدّثوا وتساءلوا عمّا يفعلون بهما، وإليكم ما قالوه لي:

ـ ماري، حافظي على الأولاد، في هذه الأثناء، أرضعيهما من حليبك، واصبري علينا حتى نتفق على رأي.

منحتُ ثديي إحداهما، لكني لم أرضع الأخرى، المشوّهة. لم أكن أحسَبُ أنها ستعيش لكنني لمتُ نفسي. كانت تتأوه تأوهاً يثير الشفقة. لمَ كُتب على هذا الملاك الصغير أن يتألم؟ أرضعتُها، أرضعتُ الأولاد الثلاثة، إبني واليتيمتين.

كنتُ شابة، قوية، آكل كثيراً، فكان حليبي وافراً. والله ساعدني. كنت أُرضع ولدين، والثالث ينتظر؛ فإذا شبع أحدُهما أرضعتُ الثالث؛ وقد منحني الله نعمته لتربيتهم. مات إبني بعد سنتين، ولم يرزقْني الله أولاداً بعده. وفي هذه الأثناء، حصلنا على بعض الخيرات وصرنا نعيش في المطحنة، عند تاجر. لنا أجرتنا، والحياة ميسورة، لكن ليس لديّ أولاد. ماذا كنتُ سأفعل وحدي لو لم تكن لي هاتان البنيّتان؟ وكيف لا أحبّهما، وأدلّلهما؟ هما فرحةُ حياتي.

ضمّت المرأةُ البنتين إلى قلبها، وقبّلت العرجاء، وجفّفت عينيها الممتلئتين بالدمع.

تنّهدت ماتريونا وقالت:

ـ يعيش الإنسان بلا أم ولا أب، ولكنه لا يعيشُ بلا رب.

كانوا يتحدّثون هكذا، وإذا بالبيت كله يستنير، وكأنه يستنير ببرق آتٍ من الزاوية التي جلس فيها ميشيل. ويلتفت الجميع إلى جهته، فيرون ميشيل جالساً، مصالباً يديه على ركبتيه، رافعاً عينيه: لقد كان يبتسم.

[١٠]

إنصرفت المرأةُ مع البنيتين. نهض ميشيل عن مقعده، ووضع شغله، ووزرته، وحيّا صاحبَ البيت وصاحبته، وقال لهما:

ــ أعذراني، يا معلميَّ؛ لقد عفا الله عني، فاعفوَا عني أيضاً.

ورأى معلّماه نوراً ينبعث من ميشيل فينهض سيمون، ويُحيّيه، ويقول له:

ــ أرى، يا ميشيل، أنك لستَ إنساناً كسائر الناس، وأنني لا أستطيع أن أحتفظ بك ولا أن أسألك سؤالاً. قلْ لي فقط لماذا تجهّمْتَ وتخوّفتَ عندما لقيتُكَ وجئتُ بك إلى بيتي؟ ولمَ سكنتْ نفسُك عندما قدّمتْ لك امرأتي الطعام؟ حينئذٍ ابتسمتَ وأصبحت أكثر إطمئناناً. وعندما جاء السيّدُ النبيل، فيما بعد، يُوصي على جزمة، إبتسمتَ مرةً أخرى، واطمأنّتْ نفسُك أكثر من ذي قبل. واليوم، عندما جاءت هذه المرأة بالبنيّتين، إبتسمت مرة ثالثة، وأشْرقتَ. قلْ لي، يا ميشيل، لمَ يصدرُ النورُ عنك، ولم إبتسمتَ ثلاث مرات؟

قال ميشيل:

ــ ينبعث النور مني لأنني عوقبتُ وأن الله قد غفر لي الآن. وابتسمتُ ثلاث مرات، لأنه كان ينبغي لي أن أعرف ثلاث كلمات إلٰهية. وهأنذا أعرف هذه الكلمات: الكلمة الأولى عرفتها عندما أشفقت المرأةُ علي؛ والثانية عندما جاء الشخصُ الغنيُّ ليوصي على جزمة، وابتسمت مرة ثانية.

والآن، عند مرأى البنيّتين، عرفتُ الكلمة الثالثة والأخيرة، وللمرة الثالثة ابتسمتُ.

فقال سيمون:

ـ قل لي يا ميشيل، لم عاقبك الله، وما هي كلماته لكي أعرفها.

ـ أجاب ميشيل:

ـ عاقبني الله لأنني عصيتُ طاعته. كنتُ ملاكاً في السماء، وعصيتُ. كنتُ ملاكاً في السماء، وأرسلني الربُ إلى الأرض لأبحث عن نفس، نفسِ امرأةٍ. هبطتُ إلى الأرض، ورأيت امرأةً راقدةً، مريضةً، وضعت لتوّها بنيتين كانتا تتأوهان بجنب أمهما التي كانت أضعف من أن ترضعهما.

عندما رأتني أدركت أن الله يطلب نفسها؛ فبكتْ وتضرعتْ ـ «يا ملاك الله، لقد قُتل زوجي، منذ ثلاثة أيام، من جراء شجرة سقطت عليه في الغابة؛ ليس لي أختٌ، ولا خالةٌ، ولا جدّة؛ ليس لليتيمين سواي! لا تأخذ نَفْسي المسكينةَ! دعْني أربِّي ولديّ، حتى يمشيا؛ الأولادُ لا يستطيعون أن يعيشوا بلا أبٍ ولا أم».

أصغيت الى المرأة، ووضعتُ بنتاً على ثديها، وبنتاً أخرى بين ذراعيها. وعدتُ إلى السماء، ومثلتُ أمام الله، وقلت له:

ـ لم يكن بوسعي أن أحمل نفس المرأة النَفْساء. فالأب قتلتْهُ شجرة؛ ولها توأمان، وقد تضرّعت إليّ كيلا اختطف روحها، أن أدعها.

أجابني الرب:

ـ «أذهب واحملْ إليّ نفسَ هذه الأم، وسوف تَعْرف، ذات يوم، ثلاث كلمات إلـهية: ستَعْلَمُ ما في النفس، وما لم يُتَحْ للإنسان معرفتُه، وما يُحيي الناسَ. فإذا تعلّمتُ هذه الكلمات الثلاث عدت إلى السماء».

عُدتُ إلى الأرض، وحملتُ نفسَ الأم المسكينة. تركَتْ البنتان صدرَ الأم، فسقطت الجثةُ وهرستْ قدم إحدى البنتين.

وبينما كنتُ أرتفع فوق القرية لأحمل نفسها إلى الله، عصفَ بي إعصارٌ فثَقُلَ جناحاي، وسقطا؛ صعدت الروحُ وحدها إلى الرب. وبقيتَ راقداً على الأرض، على حافة الطريق.

[١١]

أدرك سيمون وماتريونا حينئذٍ مَنْ الذي ألبساه وأطعماه؛ ومن الذي عاش تحت سقفهما؛ بكيا من الخوف والفرح.

أردف الملاكُ قائلاً:

ـ بقيتُ وحدي على الطريق، وحيداً وعارياً. لم أكن قد عرفتُ حتى تلك اللحظة شيئاً من صنوف الشقاء الإنساني، لا البردُ ولا الجوعُ. صرتُ إنساناً. جعتُ وبَرَدْتُ. لم أدرِ ما الذي كان سيحلّ بي. رأيتُ كنيسة مكرّسة للرب. أردتُ أن التجىءَ إليها؛ كان الباب مقفلاً، ولا سبيل إلى دخولها. حينئذٍ جلست على العتبة، محاولاً أن أحتمي من الريح. جاء المساء؛ جعتُ وبردتُ، وكنتُ أتألم. وفجأةً سمعتُ خطوات على الطريق.. جاء رجلٌ يحمل جزمةً؛ كان يكلّم نفسه. رأيتُ وول مرة وجهَ الإنسان الفانيَ، منذ أن صرتُ، أنا نفسي، إنساناً، فخفت من هذا الوجه، وأشختُ بوجهي عنه. سمعتُه يسأل نفسه: «كيف أُطعم زوجتي وأولادي؟ كيف نحتمي من البرد، أثناء الشتاء؟».

وفكّرت: «إني أموت من الجوع والبرد، وها إن هذا الرجل الذي يمرّ لا يفكّر إلا في أن يكسو نفسه وذويه بالفرويّات، وفي أن يحصل على الخبز. إنه لا يستطيع أن يُطعمني إذن».

رآني الرجل، فقطّب حاجبيه، وغدا أشدّ هولاً ومضى... فانتابني اليأسَ.

وفجأةً، سمعتُه يعود، ونظرتُ إليه فلم أعرفه؛ إختفى الموتُ الذي كان على وجهه، وعاد حيّاً، ورأيتُ صورة الله على وجهه. دنا مني، وألبسني، وأخذني من يدي، وقادني إلى بيته. وعندما وصلْنا بيته؛ أقبلت علينا امرأةٌ، وتكلمت. كانت المرأةُ أشد هولاً من الرجل، كان نَفَسُ الموت يخرج من فمها؛ نفحةُ الموت في كلماتها قطعتْ عليّ التنفّس؛ وخارت قواي. أرادت أن تطردني إلى الخارج، في البرد، وأدركت أنها ستموت هي أيضاً وهي تطردني.

فجأة، كلّمها زوجُها عن الله. وسرعان ما تغيرت المرأة. كانت تنظر إلي، وهي تقدّم الطعام لنا. رفعتُ بصري إليها: لقد عادت الميتةُ حيّةً، وعرفتُ الله على وجهها. حينئذٍ تذكرت كلمة الله الأولى: «سوف تعرف ما في الناس». وهكذا عرفت ما في الناس: الحب. وفي غمرة فرحي بانكشاف إحدى الكلمات الإلهية لي، ابتسمتُ حينئذٍ للمرة الأولى. لكن لم ينكشفْ لي كلُ شيء دفعةً واحدة؛ لم أكن أفهم بعد مالم يُتَحْ للإنسان أن يعرفه، وما يُحيي الناسَ.

عشتُ عندكم سنة؛ جاء الرجل يُوصي على جزمة، جزمة تبقى سنة ولا تلتوي ولا تتمزّق. نظرت إليه فرأيتُ بجنبه أحد أصحابـي، ملاك الموت. لم يره أحدٌ غيري. كنتُ أعرفه، وكنتُ أعلم أن نفس الثريّ ستُخْتطفْ قبل مغيب الشمس. وفكرتُ: «الرجل يحتاط لسنةٍ سلفاً، ولا يعلم أنه سيموت قبل الليل. وتذكّرتُ كلمة الله الثانية: ستعلم مالم يُتَح للناس أن يعرفوه».

كنتُ قد عرفتُ ما في الإنسان، وعرفتُ الآن مالم يُتَحْ للإنسان أن يعرفه. لم يُتَحْ للإنسان أن يعرف جاجات جسده. فتبسمتُ للمرة الثانية. كنت سعيداً لأنني شاهدتُ صاحبـي الملاك وأن الله قد كشف لي الكلمة الثانية.

لكني كنتُ ما أزال أجهل، لم أكن أعرف ما به يحيا الناس. وعشتُ هكذا منتظراً كشف الكلمة الإلـهية الأخيرة. وفي السنة السادسة، جاءت المرأة بالتوأمين؛ عرفتُهما وعلمتُ كل شيء وفكّرتُ: «كانت المرأةُ تتضرّع من أجل

بنتيها؛ كنت قد حسبتُ أن البنتين بدون أب ولا أم تموتان، وها إن امرأةً، غريبة تُؤويهما وتطعمهما».

«وعندما بكت هذه المرأةُ من التحنّن وهي تتحدّث عن هاتين البنتين الغريبتين اللتين كانت تدلّلهما وترثي لهما، رأيتُ فيها صورة الله. وأدركتُ ما يُحيي الناس. وأدركتُ أن الله قد كشف لي الكلمة الثالثة، وأنه غفر لي، فابتسمتُ للمرة الثالثة».

[١٢]

تعرّى جسدُ الملاك واكتسى بالنور الذي كانت العيون البشرية عاجزة عن تحمل بريقه. وارتفع صوته الذي بدا وكأنه آت من السماء، لا منه. وقال الملاك:

ـ وأدركتُ أن الإنسان لا يحيا بحاجاته الخاصة به، لكنه يحيا بالحب. لم يُتَح للأم أن تعلم ما يحيي بنتيها؛ لم يُتَح للشخص الثري أن يعلم ما يحتاج إليه، لم يُتَح لإنسان أن يعلم إن كان ما يحتاج إليه مساءً جزمة له وهو حي أم خفاً له وهو ميته.

«بعد أن صرتُ إنساناً، بقيت حياً لا لأنني إستطعت أن أرضي حاجاتي البشرية، بل لأنه قد كان هناك عابرُ سبيل وامرأته متشبعان بالحب، أشفقا علي وأحبّاني. وقد عاشت اليتيمتان لا لأن الناس فكروا فيهما، بل لأن امرأة غريبة إمتلأ قلبها بالحب قد رثت لهما وأحبتهما. كل الذين يحبون لا يحبون لأنهم يكْفون أنفسهم بأنفسهم، بل لأن الحب في الإنسان».

كنتُ أعلم من قبل أن الله وهب الناسَ الحياةَ وأراد أن يحيوا. أما الآن فأنا أدرك شيئاً آخر. أدرك أن الله لا يريد أن يعيش الإنسان منعزلاً، ولذلك فهو لا يكشف لأحد عما يحتاج إليه. إنه يريد أنم يعيش كل واحد للآخرين، ولذلك يكشف لكل واحد عما هو مفيذ له وللآخرين في آن واحد. وأُدركُ الآن أن

الناس الذين يظنون أنهم يحيون فقط بهمومهم الخاصة، لا يحيون، في الواقع، إلاَّ بالحب. من يحبا في الحب يحيا في الله، والله يحيا فيه؛ لأن الله هو المحبة.

ورتل الملاك مدائح للربّ.

هزّ صوته الكوخ الخشبي؛ إنفتح السقفُ، واندفع عمود نار من الأرض إلى السماء. جثا سيمون وامرأته على الأرض. فتح الملاك جناحيه العظيمين وصعد إلى السماء ثانيةً.

عندما صحا سيمون، إستعاد الكوخ مظهره، فألفى نفسه وحيداً بين ذويه.

• • •

الشيخان

(١٨٨٥م)

استعدّ شيخان للحجّ كان أحدهما فلاحاً غنياً يدعى «ايفيم تاراسيتش شيفيليوف»؛ أما الآخر الذي لم يكن غنياً فكان يدعى «ايليزيه بودروف».

[١]

كان ايفيم فلاحاً حسن السلوك، لا يشربُ ماء الحياة، ولا يدخن التبغ ولا يستنشق العطوس، كان رجلاً رصيناً وصارماً. وقد كان مرتين رئيساً للقرية وترك هذه الوظيفة دون أن يتحمل غرامة. كانت أسرته كثيرة العدد، ولدين وحفيداً، وكلهم كانوا متزوجين، يسكنون معاً. كان فلاحاً قوياً، منتصب القامة، ملتحياً: لم يكد يدب الشيب إلى لحيته وهو في السبعين.

وكان «اليزيه» شيخاً قصيراً، لا هو بالغني ولا هو بالفقير. كان يشتغل قديماً بالنجارة؛ فلما تقدمت به السن لزم بيته وأخذ يربّـي النحل. وكان أحد ولديه يشتغل في الخارج والآخر في البيت. كان رجلاً مرحاً يشرب ماء الحياة ويستنشق العطوس، ويحب أن يغني، لكنه كان سَمْحَ النفس، حسن العلاقة مع ذويه وجيرانه. كان فلاحاً شديد القصر. داكن السمرة، له لحية صغيرة جعدة، وكان رأسه كرأس شفيعه النبـي[١] الذي سمّي باسمه، أصلع.

---

(١) اليشع.

اتفق الشيخان على السفر معاً منذ زمن بعيد. لكن «ايفيم» كان يؤجل دائماً، لأن أعماله كان تمنعه من السفر: لا ينتهي له عمل حتى يبدأ عملٌ آخر. فهو حيناً مشغول بزواج حفيده، وهو حيناً آخر يريد أن ينتظر عودة ابنه الأصغر من الجيش، وهو في أحيان أخرى منهمكٌ في بناء بيتٍ جديد.

في يوم عيدٍ، التقى الشيخان، فجلسا على جسر خشبـي قال «اليزيه»:

ــ حسناً! يا صاحبـي، متى الوفاء بنذرنا؟

أحسَّ ايفيم بالارتباك:

ــ لكن لا بد من الانتظار قليلاً: هذه السنة بالضبط من أكثر السنين أعمالاً بالنسبة إليّ. فقد بدأت ببناء هذا البيت. وكنت أحسب أني سأنفق عليه مائة روبل، وها أني أبدأ بالمائة الثالثة. ولم أنتهِ! ــ لنؤجِّل السفر إلى الصيف؛ وفي الصيف سوف نسافر، لا محالة، إن شاء الله.

أجاب اليزيه:

ــ برأيـي أنه لا يليق بنا أن نتأخّر أكثر من ذلك: يجب أن نحج منذ الآن. هذا الوقت هو المناسب: لقد جاء الربيع.

ــ هذا الوقت هو المناسب، نعم، هو المناسب، لكن مشروعاً بدأناه كيف نتركه؟

ــ أليس عندك أحدٌ؟ ابنُك يقوم مقامك.

ــ لكن كيف سيتصرف؟ ليس لي كبير ثقة بابني البكر: أنا واثقٌ من أنه سوف يفسدُ كل شيء.

ــ سوف نموت، يا صاحبـي، وسوف يعيشون بدوننا. لا بد لولديك من أن يتعوّدا.

ــ نعم، هذا صحيح. لكني أود أن يعمل كل شيء تحت نظري.

ــ إيه! يا صديقي العزيز، إنك لا تستطيع أن تفعل كل شيء بكل شيء

ولكل شيء. وهكذا كانت النساء عندي ينظفن، أمس، للعيد. ينظفن هذا الشيء تارة، وذاك تارة أخرى. ما كان بوسعي أن أفعل ذلك كله. قالت كبرى كنّاتي، وهي امرأة ذكية: «حسنٌ أن يأتي العيدُ في يوم محدد. دون انتظار؛ وإلاّ لما انتهينا، بكل تأكيد، على الرغم من جهودنا كلها».

ــ أنفقتُ كثيراً من المال على هذا البناء، ولكي نقدم على الحج يجب ألا نذهب وأيدينا فارغة: فمائة الروبل التي أنفقتها ليست قليلة.

أخذ «اليزيه» يضحك، وقال:

ــ لا تأثَمْ، يا صاحبي. ما تملكه أكثر بعشر مرات مما أملك، وأنت الذي يتوقّف عند مسألة المال! أعلن فقط عن السفر، وسأعرف، أنا الذي لا يملك مالاً، كيف أجد المال.

ابتسم إيفيم أيضاً، وقال:

ــ أرأيتم هذا الثري! لكن أين ستجد المال.

ــ سأفتش في البيت: سأجمع بعض المال، ولكي أكمّل المبلغ سأبيع نحو عشر خلايا نحل لجاري الذي طالما سألني ذلك.

ــ لكن افراق النحل سيكون مثمراً، وستندم.

ــ أندمُ. لم أندمْ على شيء طوال حياتي، ألا على خطاياي لا شيء أغلى من الروح.

ــ صحيح؛ لكنْ ليس حسناً أن تعم الفوضى البيت.

ــ أسوأ من ذلك أن تعم الفوضى الروح. وبما أننا نذرنا نذراً فلنذهب إذنْ!

[٢]

أقنع اليزيه صديقه. فكّر إيفيم، وفكّر، وفي صباح اليوم التالي، جاء إلى «اليزيه». وقال:

ـ حسناً! فليكنْ، لنذهب. قلت الحق. الله بيده حياتنا وموتنا وبما أننا ما زلنا حيّين، وبنا قوةٌ، فيجب أن نذهب.

في الأسبوع الذي تلا، أتمَّ الشيخان استعدادهما. كان عند إيفيم مالٌ، فأخذ لنفسه مائة وتسعين روبلاً، وأعطى «عجوزه» مائتين.

أما «اليزيه» فقد باع لجاره عشر خلايا نحل مع فرق النحل التي ستولد. وجمع من ذلك سبعين روبلاً. وقد حصل على الثلاثين روبلاً الباقية من جميع أفراد أسرته، بمبالغ صغيرة. وأعطته عجوزه آخر نقودها التي احتفظت بها للدفن، كما أعطته كنّته نقودها.

رسم ايفيم تاراسيتش لابنه البكر سلفاً كل ما ينبغي أن يفعله: أين ينبغي أن يبذر، أين يضع السماد، كيف ينهي البيت ويسقفه. فكّر في كل شيء، ونظّم كل شيء سلفاً.

أما «اليزيه» فأكتفى بأن أوصى عجوزه أن تَضَعَ جانباً النحل الفتي في الخلايا المبيعة، لتسلمه إلى الجار بأمانة. ولم يذكر شيئاً عن سائر شؤون المنزل. «كل قضية فهي تحمل حلّها معها. قد كبرتم إلى الحد الكافي؛ تستطيعون أن تتصرفوا كأحسن ما يكون التصرف».

استعدّ الشيخان. خبزت طلميات، وخيطت الأكياس، وقصّت لهما عصابات جديدة، واحتذيا أحذية جديدة، وأخذا معهما زوجين من الأحذية المصنوعة من لحاء الشجر، وسافرا.

شيّعهما أهلهما إلى مدخل القرية، وودّعوهما، ومضى الشيخان. حافظ اليزيه، على بشاشته، فلم يكادا يخرجان من القرية حتى نسي كل ما له من أعمال.

كان له همٌّ واحد أن يسر صديقه، ألاّ يجازف بكلمة قد تجرحه، أن يذهبا ويعودا بسلام ووفاق تام. كان يتمتم، وهو يمشي، ببعض الأدعية أو بما يتذكره

من حياة القديسين. وإذا صادف عابر سبيل في طريقه، أو إذا وصل إلى مكان ما في الليل، سعى إلى أن يكون لطيفاً مع الجميع، وأن يقول لكل واحد الكلمة التي تسرّ. إنه يسير ويبتهج. شيء واحد لم يستطعه: أن يكف عن استنشاق السعوط؛ لقد ترك علبة السعوط في البيت، لكن ذلك كان يزعجه؛ وفي الطريق، يقدّم إليه رجلٌ شيئاً منه، فيقاوم ويقاوم، لكنه يقف فجأة، ويدع رفيقه يمر لكي لا يكون قدوة في الاثم، ويستنشق شيئاً منه.

كان «ايفيم تاراسيتش» يمشي بخطا ثابتة، ولا ينطق باللغو؛ لكنه لا يشعر بالراحة في قلبه؛ ولم تغادر شؤون المنزل رأسه. أنه لا يكف عن التفكير فيما يجري عنده: ألم ينس أن يقول شيئاً لابنه؟ أيفعل ابنه مثلما أمر؟

ويرى، في طريقه، الناس يزرعون البطاطا وينقلون السماد فيفكّر «أيفعل مثلما قلتُ له؟».

ودّ لو يعود ليُريَه بنفسه.

[٣]

سار الشيخان مدة خمسة أسابيع، بليتُ الأحذية التي تزوّدا بها؛ فأخذا يشتريان غيرها؛ ووصلا إلى موطن «ذوي الناصية»[١] منذ سفرهما كانا يدفعان بدل المطعم والمسكن: فلما وصلا إلى ـ موطن ذوي الناصية، تراكض الناسُ إلى دعوتهما، وقدّموا لهما الطعام والمنامة، وملؤوا لهما مزوديهما بالخبز أو بالطلميّات، دون أن يقبلوا مالاً. وقطعا هكذا سبعمائة فرسخ[٢].

---

(١) لقب أطلقه الروس الأصليون على الروس غير الأصليين منذ القرن السابع عشر، لأن القوزاق في هذه الفترة كانوا يتركون على رؤوسهم الحليقة خصلة من الشعر، على الطريقة الشرقية.

(٢) أي: ما يساوي سبعمائة وثلاثين كيلو متراً.

وبعد أن اجتازا مقاطعة أخرى، وصلا إلى بلدٍ مجدب. وهنا كان الناس يقدّمون لهما المنامة مجاناً، لكن لم يكونوا يقدّمون لهما الطعام. بل لم يكونا يجدان كسرة الخبز دائماً، وفي بعض الأحيان لم يكونا يجدانها بالمال.

كان الناس يقولون لهما:

ــ في السنة الفائتة، لم ينبتْ شيء، فمَنْ كانوا أغنياء خربت بيوتهم وباعوا كلَّ شيء؛ ومَنْ كانوا يملكون الكفاية أصبحوا فقراء، أما الفقراء فقد هاجروا، أو أخذوا يتسوّلون أو يذبلون في بيوتهم. وفي الشتاء كانوا يأكلون النخالة والحبوب السوداء.

في قرية قضى فيها الشيخان ليلتهما، اشتريا نحو خمس عشرة ليبرة من الخبز؛ ثم سافرا في فجر اليوم التالي، ليسيرا طويلاً قبل اشتداد الحرّ. قطعا ما يقرب من عشرة فراسخ، واقتربا من ساقية. وهنا جلسا، واستقيا ماء بطاسيهما، وبلّلا خبزهما، وأكلا وغيّرا حذاءيهما.

بقيا هكذا بضع لحظات يستريحان. أخرج «اليزيه» علبة السعوط المصنوعة من قرن. هزّ ايفيم تاراسيتش رأسه، وقال له:

ــ كيف لا تُقلع عن هذه العادة السيئة؟

ندّت عن اليزيه حركة تنمّ على الإذعان.

ــ تغلّبت عليّ الخطيئة. ما حيلتي في ذلك؟

نهضا وتابعا طريقهما. وقطعا حوالي عشرة فراسخ وتجاوزا بلدة كبيرة. كان الجوُّ حاراً؛ أحسّ «اليزيه» بأنه متعب: أراد أن يستريح و يشرب قليلاً؛ لكن «أيفيم» لم يتوقف. كان أقدر على المشي من رفيقه الذي كان يتبعه بمشقة.

قال اليزيه:

ــ أودّ لو أشرب.

أجاب الآخر:

ــ حسناً! اشربْ؛ أنا لستُ عطشان.

توقّف اليزيه، وقال:

ــ لا تنتظرني، سأسرعُ إلى هذا البيت، سأشرب جرعة ماء، وسألحق بك.

ــ طيّب.

ومضى تاراسيتش وحده على الطريق، بينما اتّجه اليزيه إلى ذلك البيت.

دنا اليزيه من البيت. كان بيتاً صغيراً من الغضار المدهون باللون الأسود من تحت، وباللون الأبيض من فوق. وقد أخذ الغضار يتفتت، في بعض المواضع؛ من الواضح أنه لم يُدهَنْ مرةً ثانية، منذ زمن بعيد، كان السقف مثقوباً في جانب منه، وكان مدخل البيت يُطلُّ على الفناء.

دخل اليزيه الفناء: رأى رجلاً بلا لحية، هزيلاً، قميصهُ في بنطاله على طريقة ذوي الناصية، رآه متمدّداً على الردم، لا شك أن الرجل قد رقد في الظل، لكن الشمس أصابته الآن. كان متمدّداً، من غير أن ينام. ناداه «اليزيه» وطلب منه ماءً ليشرب. لم يجبه الرجل. قال «اليزيه» في نفسه: «ربما كان مريضاً، أو قليل البشاشة». اتّجه نحو الباب. سمع صوتي طفلين يبكيان في البيت. طرق الباب بالحلقة.

ــ إيه! أيها المسيحيون!

لم يتحرك أحدٌ.

ــ يا خدّام الله.

فلم يتلقَّ جواباً. وكان على وشك أن ينسحب، عندما سمع وراء الباب أنيناً. «ربما كانت، خلف الباب، مصيبة؛ يجب أن أعود».

عاد اليزيه نحو البيت.

[٤]

أدار الحلقة، وفتح الباب ودخل الرواق. كان باب الغرفة مفتوحاً. إلى اليسار كان الموقد؛ وفي صدر الغرفة الركنُ الأساسي الذي فيه رفّ الأيقونات ـ الطاولة ـ ووراء الطاولة مقعد، وعلى المقعد امرأة عجوز لا ترتدي سوى قميص، وقد حلّت شعرها. وأسندت رأسها إلى الطاولة. وبجنبها صبيٌّ صغير، هزيل الجسم، كأنه من الشمع، وبطنه منفوخ. كان يسحب العجوز بكمها وهو يصرخ صراخاً شديداً؛ كان يطلبُ منها شيئاً.

دخلَ «اليزيه» الغرفة. كانت تنبعث منها روائح خبيثة. ووراء الموقد، في حجرة السلم، شاهد امرأة راقدة. كانت مستلقيةً على بطنها، لا تنظر إلى شيء، وتحشرج. وكانت التشنّجات تباعد بين ساقيها طوراً وتضمها طوراً آخر، وتهزها هزًّا. كانت رائحتها كريهة، وكان واضحاً أن ليس عندها من ينظفها.

رفعت العجوزُ رأسها فرأت الرجل، قالت بلهجتها الجنوبية:

ـ ما حاجتك؟ ماذا تريد؟ ليس ها هنا شيء.

فهم «اليزيه» ودنا منها: وقال:

ـ دخلت، يا خادمة الله؛ أطلب ماء أشربه.

ـ ليس ها هنا أحدٌ يسقيك. وليس ههنا ما تأخذه. انصرف.

سأل «اليزيه»:

ـ ماذا! أليس عندك أحدٌ غير مريض لكي ينظّف هذه المرأة؟

ـ لا أحد. زوجي يموت في الفناء، ونحن هنا.

سكت الصبيُّ الصغير لمرأى الغريب. لكن عندما أخذت العجوز تتكلم شدّها، مرة أخرى، بكمها:

ـ أعطيني خبزاً، يا جدتي، أعطيني خبزاً!

وعاد إلى البكاء.

لم يكد يجد اليزيه الوقت ليسأل العجوز حتى جاء الفلاح وانهار في الغرفة. جرّ نفسه بمحاذاة الجدار، وأراد أن يجلس على المقعد، لكنه لم يُفلحْ وسقط أرضاً. حاول أن يتكلم دون أن ينهض. كان يتلفّظ بكلماته، وكأنه تُنْتزَع واحدة واحدة، متوقفاً عند كل كلمة ليستريح.

قال الفلاح وهو يومىء برأسه نحو الصبي الصغير:

ــ اجتاحنا الجوعُ. انظرْ، إنه يموت من الجوع.

وبكى.

هزّ «اليزيه» مزودة خلف كتفه، ورفعه، ووضعه على الأرض، ثم رفعه على المقعد، وعجّل في فك ربطته. فكّها، وتناول رغيفاً وسكيناً، وقطع قطعة وناولها الفلاحَ. أبى الفلاحُ أن يأخذها وأشار إلى الصبي والبنت، كأنه يريد أن يقول: «أعطهما هذا الخبز». أعطى اليزيه الصبيَّ خبزةً.

عندما شمّ الصبيّ رائحة الخبز، أخذ الكسرة بيديه الصغيرتين، وغمس فيها أنفه. خرجت طفلةٌ صغيرة من خلف الموقد، وحدّقت في الخبزة. فأعطاها «اليزيه» خبزاً. وقطع أيضاً قطعة ومدّها إلى العجوز. أخذتها العجوز وبدأت تلوكها. قال اليزيه:

ــ يجب أن آتيهم بالماء. أفواههم كلهم جافة.

قالت:

ــ أردت، أمس أو اليوم، لم أعدْ أذكرُ، أردتُ أن آتي بالماء. من جهة سحب الماء من البئر سحبتهُ، لكني لم أقْوَ على حمله، فكببتهُ ووقعتُ أنا نفسي. وقد جررتُ نفسي إلى البيت جرًّا. وبقي الدلو هناك، إن لم يكن أخذ.

سأل «اليزيه» أين البئر، فدلّته العجوزُ عليه. خرج، ووجد الدلو، وحمل ماءً وسقى الجميع. وأكل الولدان أيضاً خبزاً مع الماء، وأكلت العجوزُ أيضاً؛ لكن الفلاح لم يأكل. قال:

ـ لا أستطيع الأكل.

أما المرأة فلم تكن غير قادرة على النهوض فحسب، بل كانت غائبة عن الوعي، لا تني تتململُ على فراشها.

قصد اليزيه بقّال القرية، واشترى برغلاً، وملحاً وطحيناً وسمناً، ووجد فأساً صغيرة، قطَعَ بها حطباً وأشعل الموقد. وكانت الطفلة الصغيرة تساعده. عملَ ضرباً من الحساء، وحضر البرغل، وأطعم الجميع.

[٥]

استطاع الفلاح أن يأكل قليلاً، وكذلك العجوزَ. لعق الصبي والبنت الصحن كله، ثم ناما متعانقين.

قصّ الفلاح والعجوز قصتهما.

قالا:

ـ كنا نعيش قبلاً كما يعيش سائر الناس، وإن كنا غير موفوري الغنى، وإذا بالسنة تُمحل فلا ينبت شيء. في الخريف كنا قد أكلنا كل ما عندنا. وبعد أن أكلنا كل شيء سألنا الجيران، ثم سألنا المحسنين. وقد أعطانا الناس، في بداية الأمر، ثم أبوا أن يعطوا شيئاً. كان هناك مَنْ يودّ لو يعطينا، لو استطاع العطاء. ثم إننا صرنا نخجل من الطلب المستمر. كنا مدينين لجميع الناس بالمال وبالطحين وبالخبز.

قال الفلاح:

ـ بحثتُ عن عمل: ولا عمل. لا يشتغل المرءُ إلاّ ليأكل. وكل يوم عمل يحتاج إلى يومين للبحث عن عمل. حينئذٍ أخذتُ العجوزُ والبنتُ الصغيرة تتسوّلان. كانت الصدقة طفيفةً لأن الناس لم يكونوا يملكون خبزاً. ومع ذلك كنا نأكل. وكنتا نقدّر أننا سنجرجر أنفسنا هكذا حتى موسم الحصاد المقبل. لكن، منذ الربيع لم يُعطنا أحدٌ شيئاً. وإذا بالمرض يمد يده.

«كان كل شيء يسوءُ. كنا نأكل يوماً، ولا نجد ما نأكله يومين. وأخذنا جميعاً نأكل العشب. لكن بسبب العشب أو لسبب آخر أصاب المرضُ المرأة، فلزمت الفراش، ولم يبق فيَّ قوة. لا أدري كيف أتخلص من ذلك».

قالت العجوز:

ـ بقيتُ وحدي. فعلتُ ما بوسعي أن أفعله، لكن من غير أن آكل فاستنفدت قواي. وذبلت الصغيرة، وصارت كثيرة الخوف؛ كنا نرسلها إلى بيت الجار فترفض الذهاب. كانت تقبع في ركن من المنزل ولا تغادره. أول من أمس، دخلت الجارة، فلما رأتنا جوعى ومرضى أدارت ظهرها ومضت مسرعة. فزوجها نفسه سافر بعد أن لم يجد ما يُطعم به أولاده. وفي هذه الحالة رقدنا منتظرين الموت.

حين سمع «اليزيه» حديثهما، صمّم ألا يلحق بصديقه في اليوم نفسه، ونام في البيت. وفي اليوم التالي نهض، واهتم بكل شيء في المنزل، وكأنه صاحبه. هيّأ مع العجوز العجين للخبز، وأشعل الموقد. وذهب مع الصغيرة إلى الجيران بحثاً عمّا يحتاج إليه. لكنه لم يجد شيئاً طلبه، أياً كان ذلك الشيء، ماعوناً أو لباساً، كان كل شيء قد نفذ، حينئذٍ اشترى «اليزيه» هذا الشيءَ، واخترع ذاك، فحصل على كل ما كان ينقصه. وأقام هكذا يوماً، ويوماً، وثالثاً. أبَلَّ الصغيرُ؛ صار يمشي على المقعد، ويأتي إلى «اليزيه» ليحتكّ به بحنان. وأخذت الصبية تساعده في كل شيء، وقد ابتهجتْ، وتركض خلفه صارخة: «يا جَدّي اللطيف! وتعافت العجوز وذهبت إلى جارتها. وأخذ الفلاح يقف بمحاذاة الجدار. امرأته وحدها ظلّت تلازم الفراش؛ لكنها صحت هي أيضاً في اليوم الثالث، وطلبت طعاماً.

فكر اليزيه:

«ما كنتُ أظن أنني سأبقى هنا طويلاً. وقد آن أوان السفر، الآن».

في اليوم الرابع بدأ عيدُ الفصح. قال اليزيه في نفسه. «سأشتري لهم ما يصنعون به وليمةً، سأُعيّد معهم، وفي المساء سأسافر.

عاد إلى القرية واشترى حليباً وطحيناً أبيض وسمناً. وطها وصنع الحلوى مع العجوز؛ في الصباح ذهب إلى القدّاس، وعند عودته، أقبلوا على الطعام والشراب. في هذا اليوم بدأت المرأة تمشي. حلق الفلاح ذقنه، ولبس قميصاً نظيفاً غسله هو البارحة، وقصدَ فلاحاً غنياً في القرية رهن عنده مَرْجَه وحقله. ذهب يرجوه لكي يُعيد إليه أراضيه قبل العمل. عاد الفلاح، في المساء، حزيناً جداً وأخذ يبكي. رفض الفلاح الغنيُّ. لقد طلب ماله أولاً.

عمد «اليزيه» إلى التفكير مرة أخرى:

«كيف سيعيشون الآن؟ سوف يحصدُ الآخرون، أما هم فلا، لأن أرضهم مرهونة. إن سافرتُ عادوا كما كانوا.

وعَزمَ ألا يسافر هذا المساء، وأجّل سفره إلى صباح اليوم التالي. ذهبَ لينام في الفناء؛ صلّى، واستلقى، لكن النومَ جفاه.

«يجب علي أن أسافر، بقي لي القليل النَزْر من المال، والقليل جداً من الوقت! ومع ذلك فهؤلاء المساكين يثيرون الشفقة... لكن هل يستطيع الإنسان أن يساعد الناس جميعاً؟ كنتُ لا أبغي إلاّ أن أحمل إليهم الماءَ، وأعطي كلاًّ منهم شيئاً من الخبز، وها إن الأمور تصل إلى هذا الحد! هناك المرجُ والحقل اللذان يجب فكّ رهنهما. فإذا فكَّ رهنُ الحقل وَجَبَ شراء بقرة للولدين، وحصان للفلاح كيما ينقل حصاده... لقد مضيت أبعد مما ينبغي لك، يا صاحبي «اليزيه بودروف»! أضعتَ بوصلتك ولن تستطيع أن تَعْرف اتجاهك!».

نهض اليزيه وسحب قفطانه من وراء رأسه، وفتح علبة السعوط واستنشق

قليلاً منه، وحاول أن يرى أفكاره بوضوح. تفكّر وتفكّر فلم يصل إلى شيء. يجب عليه أن يسافر؛ لكن ترك هؤلاء المساكين، شيء لا يغتفر! ولم يعرف علامَ يعزم. لمَّ قفطانَه مرة أخرى ووضعه تحت رأسه وعاد إلى الرقاد.. ظل طويلاً هكذا: كانت الديكة تصيح عندما بدأ ينام.

وفجأة أحسّ كأنه قد استيقظ. ورأى نفسه مرتدياً ثيابه، ومعه مزوده وعصاه؛ وعليه أن يجتاز بابَ المدخل. وكان الباب مشقوقاً يسمح بمرور رجل واحد. مشى نحو الباب، لكنه كان عالقاً بمزوده في جانب منه، وإذا أراد أن يفكّ نفسه إذا به يعلق بحذائه في جانب آخر. وما كاد يتخلّص حتى أحسّ أنه يُسْتَوْقَفُ مرة أخرى، لا بالسياج بل بالبنت الصغيرة التي كانت تمسك به صارخة: «يا جدي اللطيف! يا جدي اللطيف. أعطني خبزاً» وينظر إلى قدمه، وإذا بالصبي يتشبّث بعصابته؛ ومن النافذة ينظر إليه الفلاح والعجوز.

استيقظ «اليزيه»، وقال في نفسه:

«سوف أفكّ الحقل والمرج، وسأشتري حصاناً فوق ذلك للفلاح وبقرةً للولدين. وإلاّ فسوف أذهب باحثاً عن المسيح فيما وراء البحار وسوف أضيعه في داخل ذاتي. يجب أن تسعف الآخرين».

نام حتى الصباح، ونهض مبكّراً، وقصد الفلاح الغنيّ، واستعاد الحقل والمرج. واستعاد المناجل الكبيرة لأنها بيعت هي أيضاً، وحملها إلى البيت. وأرسل الفلاحَ يحصد، وذهب هو نفسه إلى صاحب الحانة بحثاً عن حصان وعربة للبيع. ساوم واشترى، وذهب بعد ذلك يشتري بقرةً. وبينما كان يمشي في الطريق، رأى أمامه امرأتين من بلده. كانت المرأتان تسيران وهما تتحدثان، وسمعهما «اليزيه» تتحدّثان عنه قالت إحداهما:

ــ في البداية، لم يُعْرَفْ مَنْ هذا الرجل. حسبوه مجرد حاج.. دخل، على ما قيل، ليطلب ماء يشربه. ثم بقي حيث دخل وعاش هناك.

قيل إنه اشترى لهم كلَّ شيء. أنا نفسي رأيته اليوم يشتري من عند صاحب الحانة حصاناً ومعه عربة. مثل هؤلاء الناس موجودون إذن! يجب أن نذهب لنرى.

سمع اليزيه ذلك، وأدرك أنهما تمدحانه. وحينئذٍ عاد إلى صاحب الحانة، ولم يذهب ليشتري البقرة، فدفع له ثمن الحصان، وربطه، ويمّم شطرَ البيت. وعندما وصل إلى باب المدخل، توقّف ونزل من عربته. شاهد سكان المنزل الحصانَ ودهشوا. قدّروا أن الحصان قد ابتيع من أجلهم، لكنهم لم يجسروا أن يقولوا ذلك، وفتح صاحبُ المنزل البابَ؛ قال:

ــ أين حصلتَ على هذا الحيوان، يا شيخي العزيز؟

أجاب اليزيه:

ــ لكني اشتريتهُ. فرصة انتهزتها. حشَّ له قليلاً من العشب لليل.

فك الفلاح الحصان، وحشّ له عشباً، وملأ المعلفَ. ونام الجميع. نام اليزيه في الفناء الذي نقل إليه مزوده منذ المساء. فلما أغفى الجميع، نهض اليزيه، وصرّ صرّته، واحتذى حذاءه، وارتدى قفطانه، ومضى يبحث عن «ايفيم».

[٧]

سار «اليزيه خمسة فراسخ. بدأ الصبح ينبلج. جلس تحت شجرة، وفكّ صرّته، وعدّ ماله. بقي معه سبعة عشر روبلاً وعشرون كوبيكا.

فكّر في نفسه: «لايمكن عبور البحر بهذا المبلغ؛ والتسوّل من أجل سفري باسم المسيح قد يكون إثماً أيضاً. يستطيع صاحبي ايفيم أن يذهب وحده، ولا شك أنه سيشعل شمعةً لي. وسيُلغى نذري حتى مماتي. الرب رحيم: سيحلّني من نذري».

نهض «اليزيه» وهزّ مزوده خلف كتفيه ورجع أدراجه. لكنه دار حول القرية كيلا يُرى. وسرعان ما وصل إلى بيته. في الذهاب، بدا له صعباً بل وشاقًا أن يجرّ نفسه وراء ايفيم. أما في العودة فقد آتاه الله القدرة على المشي بلا تعب. كان يمشي دون أن ينتبه لذلك، عابثاً بعصاه، قاطعاً سبعين فرسخاً في اليوم.

عندما وصل بيته، كانت أعمالُ الحقل قد تمّمت لحسن الحظ، وسُرَّ أهله بلقاء شيخهم. وبدؤوا بسؤاله كيف أضاع صاحبه، ولماذا عاد إلى بيته بدلاً من أن يمضي إلى النهاية.

أجاب:

ــ ذلك أن الله لم يرد ذلك. أنفقتُ المالَ في الطريق، وتركتُ صاحبي يسبقني. وأنتم ترون أني لم أذهب. اغفروا لي لمجد المسيح.

وأعاد بقية المال إلى عجوزه. استفهم اليزيه عن شؤون المنزل. تمّت الأمور على أحسن ما يرام، كل شيء يسير سيراً حسناً؛ المنزل لا ينقصه شيءٌ، والجميعُ يعيشون في سلام ووفاق.

عندما علم أفراد أسرة ايفيم، في النهار، بعودة اليزيه، جاؤوا يستفسرون عن أخبار شيخهم، فقال لهم اليزيه الشيءَ نفسه. قال لهم:

ــ شيخكم في صحّة جيدة. افترقنا قبل عيد القديس بطرس[١] بثلاثة أيام. أردتُ أن ألحق به، لكن أحداثاً طرأتْ عليّ حينئذٍ؛ ولم يبق معي ما أتابع به طريقي. وهأنذا أعود. . .

دهش الناس من أن رجلاً فطنا مثله يرتكب مثل هذه الحماقة. «لقد سافر، ولم يبلغ هدفه، وأنفق ماله عبثاً». كان الناس يدهشون ويضحكون.

---

(١) أي: في ٢٩ حزيران.

إنتهى «اليزيه» بأن نسي ذلك كله. إستأنف مشاغله، وقطع مع أولاده حطباً للشتاء، ودرسَ القمح مع النساء، وسقف الحظيرة، واعتنى بخلايا النحل. وحضّرها ليسلِّم جاره عشر فرق من النحل الفتيّ. وأرادت «عجوزه» أن تخفي عنه حساب النحل الجديد؛ لكن «اليزيه» كان يعلم أيّ النحل كان مليئاً، وأيها لم يكن مليئاً. وأعطى جاره سبع عشرة فرقةً بدلاً من عشر.

رتّب اليزيه أموره، وأرسل ابنه ليعمل في الخارج، وأخذ هو يضفر أحذية من لحاء الشجر، ويفصّل قباقيب لفصل الشتاء.

[٨]

في ذلك اليوم الأول الذي قضاه «اليزيه» في بيت المرضى، إنتظر «ايفيم» صاحبه، توقّف قرب القرية وانتظر، وانتظر، ونام قليلاً، واستيقظ، وظل جالساً قليلاً ولم ير أحداً يأتي. أتعب عينيه من النظر. غابت الشمسُ وراء الشجرة، «واليزيه» لم يظهر بعد.

«لعله مرّ، فلم يلحظني لأنني كنت نائماً. كلا، لا يمكن ألاّ يراني: فالمرء يرى بعيداً في السهوب. . . سأعود أدراجي؛ لكن يمكن أن يُفوّت أحدنا الآخر، وسيكون هذا أسوأ. . سأسبقه أنا وسوف نلتقي عند أول مَبيتٍ لنا».

وصل إلى قريةٍ ورجا الناطور أنه إذا جاء شيخ قصير بهذه الطريقة أو تلك فليأتِ به إلى البيت الذي كان فيه. ولم يأت «اليزيه» للمبيت.

أَبْعَدَ ايفيم، وهو يسأل كلَّ واحد إذا كان لم يكن قد رأى شيخاً قصيراً أصلع: لم يره أحد. تابع ايفيم طريقه وحده.

وفكر «سنلتقي في مكان ما، في أوديسا أو على الباخرة». ثم لم يفكر فيه بعد ذلك.

في الطريق لقي حاجّاً. كان هذا الحاجَ ذاهباً، بثوبه الخشن وشعره

الطويل، إلى جبل «آثوس»[1] حاجاً للمرة الثانية إلى القدس. إلتقيا في نزلٍ، وشرعا في الحديث، وسارا في طريقهما معاً.

وصلا سالمين إلى أوديسا، حيث انتظرا الباخرة ثلاثة أيام، بصحبة جمهورٍ غفيرٍ من الحجاج؛ كانوا يفدون من كل الجهات ومرة أخرى، إستفسر ايفيم عن اليزيه؛ لكنْ لم يره أحدٌ.

دلّ الحاجُ ايفيم على الوسيلة للقيام بالرحالة دون أن يدفع شيئاً؛ لكن ايفيم لم يُصغ إليه، وقال:

ـ أنا أفضّل أن أدفع الأجرة. فمن أجل ذلك جئتُ بالمال.

تسلّم ايفيم جواز سفر للخارج كلفه خمسة روبلات، ودفع أربعين روبلاً أجرة الذهاب والإياب، واشترى خبزاً وسمكاً للطريق.

حُملت الباخرة، وصعد المؤمنون، وصعد ايفيم مع الحاج إلى ظهر السفينة. رُفعتْ المرساة وأقلعت السفينة. كان الجو لطيفاً؛ لكن ريحاً عاصفة هبّت عند المساء؛ هطلَ المطرُ وأخذت الأمواج تغسل السفينة وتغمرها. بكت النساء وذُعِرَ الرجال؛ وأخذ بعض المسافرين يركضون إلى هذه الجهة أو تلك بحثاً عن ملجأ. وأحس ايفيم أيضاً أن الخوف إنتابه؛ لكنه لم يُرِ شيئاً من ذلك، وظل ساكناً في مكانه، قرب شيوخ تامبوف[2] طوال الليل ونهار اليوم التالي. في اليوم الثالث هدأ البحر؛ في اليوم الخامس وصلوا إلى القسطنطينية، نزل بعضهم وزاروا كنيسة «القديسة صوفيا ــ الحكمة الإلـٰهية»[3] حيث الترك الآن.

---

(١) كان جبل آتوس الذي كانت تملكه تركيا آنذاك، يحتوي على نحو عشرين ديراً ارثوذكسيا، من بينها دير القديس بانتيلموف؛ وكان هذا الدير الروسي مزاراً للحجاج المتّجهين إلى فلسطين.

(٢) مركز مقاطعة في الجنوب الغربي من موكسو.

(٣) الكنيسة الفخمة التي بناها جوستينيان في عام ٥٣٦م والتي صارتْ إلى مسجد عام ١٤٥٣م.

لم ينزل ايفيم. وبعد توقّف دام أربعاً وعشرين ساعة أبحرت السفينة وبلغت «سميرن المدينة»، ثم الإسكندرية، ثم بلغت بدون حوادث يافا. وفي يافا كان على الحجاج أن ينزلوا، ويقطعوا سبعين فرسخاً مشياً على الأقدام إلى القدس. أثناء النزول خاف المؤمنون لحظة. كانت السفينة عالية، وكان المسافرون يُلقَوْن في زوارق جاثمة تحت، وكانت الزوارق تترجح، ويوشك المسافرون أن يقعوا، لا داخلها، بل على جوانبها. وقد تبلل إثنان منهم تقريباً. لكنهم وصلوا إلى البر جميعاً، في نهاية الأمر، سالمين، معافين.

سرعان ما ساروا إلى القدس، فوصلوها في اليوم الرابع. توقّف ايفيم خارج المدينة، في النزل الروسي، وأشّر على جواز سفره، وتغدى وذهب مع الحجاج لزيارة الأماكن المقدّسة. لم يكن الدخول مسموحاً بعد إلى قبر السيد المسيح. فاتجه أولاً إلى القدّاس، في دير البطريرك كان جميع الحجاج مجتمعين، النساء من جهة والرجال من جهة أخرى. أمروا أن ينزعوا أحذيتهم وأن يجلسوا على شكل دائرة. حينئذٍ ظهر راهب ومعه فوطةٌ، أخذ يَغْسل أرجل الجميع. غسل الأرجل، ونشفّها، وقبّلها أيضاً. تليت الصلوات. أقيم قدّاس كبير، وقداس غير مرتل، وأُوقدت الشموع، وصُلِّي من أجل الأهل. وقدم لهم الطعام والنبيذ. في الصباح زاروا الصومعة التي نالت فيها مريم المصرية(١) خلاصها. فأوقِدت الشموع ورتل قداس. وأراد أن يرى قدّاس المساء في القبر، لكنه وصل متأخراً. ذهب لزيارة دير إبراهيم، ورأى فيه حديقة «سافك» حيث نوى إبراهيم أن يضحّي بابنه لله. ورأى بعد ذلك الموضع الذي ظهر فيه المسيح لمريم المجدلية، وكنيسة يعقوب أخي السيد المسيح. وكان الحاج يدلّه على

(١) كانت مريم مومساً في الإسكندرية، وقد أصبحت بعد أن حجت إلى القدس، في السابعة عشرة من عمرها، مسيحية ورعة، قضت سبعة وأربعين عاماً من حياتها للتوبة عن ذنوبها، في صحراء الأردن. وكان الشعب الروسي يقرأ كثيراً قصة حياتها المؤثرة.

كل شيء، ويقول له حيثما ذهب أين يعطي وكم يعطي، أين يجب أن يوقد الشموع. وعادا مرة أخرى إلى النزل لتناول العشاء.

عند النوم، تشكّى الحاج فجأة وهو يفتش جيوبه، وقال:

ــ لقد سُرقتْ محفظتي والمال الذي فيها، كان فيها ثلاثة وعشرون روبلاً. ورقتان كل واحدة بعشرة روبلات، وثلاثة روبلات عملة نقدية.

تشكى الحاج، وتشكى، لكن ما العمل؟ ونام.

[٩]

عندما أوى «ايفيم» إلى فراشه، ساورته فكرةٌ شريرة: لم يُسرق مالُ هذا الحاج؛ وأعتقد أنه لم يكن يملك مالاً. لم يكن يعطي شيئاً أينما ذهب. كان يحثني على العطاء، لكنه هو لم يكن يعطي شيئاً. بل إنه إقترض مني روبلاً».

هكذا كان ايفيم يفكر. ثم أنحى باللوم على نفسه: لم أصدر أحكاماً لا سنَدَ لها على هذا الرجل؟ هذا إثمٌ لا أريد أن أرتكبه بعد الآن.

لكنه لم يكن يراوده النوم حتى يتذكر مرة أخرى، إن هذا الحاج نظر إلى ماله بعين ماكرة، وكم بدا قليل الصدق وهو يزعم أنه سُرِق لم يكن معه مال: هذا اختلاق».

نهضا، في اليوم التالي، مبكّرين، وقصدا قداس الصباح، في كنيسة القيامة الكبرى. عند قبر السيد المسيح. لم يكن الحاج يترك ايفيم، وكان يتبعه حيثما ذهب.

كان في الكنيسة عدد لا يحصى من الحجاج الروس واليونان والأرمن والترك. بلغ ايفيم مع الجمهور الباب المقدس ومرّ بين الحراس الأتراك إلى الموضع الذي أنزل فيه المسيح عن الصليب، حيث مسح بالزيت؛ كانت تشتعل هنا ثماني ثريات كبيرة. وضع ايفيم فيها شمعته. ثم قاده الحاج إلى اليمين، إلى الأعلى، بالدرج، إلى الجلجثة حيث كان الصليب. وهنا صلى ايفيم؛ ثم أراه

التشقق الذي مزق الأرض حتى الجحيم. ثم أراه بعد ذلك الموضع الذي سُمِّرت فيه يدا المسيح وقدماه على الصليب، ثم قبر آدم الذي بُلّلت عظامه بدم المسيح، ثم رأى الحجر الذي جلس عليه يسوع عندما وضع على رأسه إكليل الشوك، والعمود الذي رُبط به يسوع ليجلد. وكان ايفيم سيرى أشياء أخرى، لكن حدث تدافع في الجمهور: كان الجميع يستعجلون ليروا مغارة القبر المقدّس. وكان القداسر الأورثوذكسي يوشك أن يتلوا قداساً غير اورثوذكسي تبع ايفيم الجمهور إلى المغارة.

أراد أن يتخلص من الحاج؛ لقد كان ايفيم يأثم بالفكر نحوه، لكن الحاج تعلّق فيه، وتبعه إلى قداس مغارة القبر المقدس. أراد ايفيم أن يكون مكانه أقرب، لكنهما جاءا متأخرين. كان الازدحام شديداً حتى لم يمكن التقدّمُ أو التراجع. ظل ايفيم أذن في مكانه، ناظراً أمامه، تالياً أدعيته. وكان يجس جيبه، بين الفينة والفينة، ليرى إن كانت محفظته ما تزال معه. وتتابعت أفكاره: «لا شك أن هذا الحاج يخدعني... وإذا كان لم يخدعني، وإذا كانت محفظته قد سُرِقت بالفعل!... لكن بشرط ألا يقع لي أنا هذا الشيء أيضاً!».

[١٠]

ويرمي ايفيم، وهو ساكنٌ يُصلّي، بنظره نحو الكنيسة الصغيرة التي فيها القبرُ المقدّس الذي عُلِّق أمامه ستة وثلاثون مصباحاً. إنه ينظر من فوق الرؤوس، وإذا به يشاهد، يا للأعجوبة! شيخاً قصيراً في قفطان خشن، ورأسُه الأصلع تماماً يلمع مثل رأس «اليزيه بودروف».

فكّر: «إنه يشبه اليزيه، لا يمكن أن يكون هنا قبلي، السفينة الأخرى أبحرت قبلنا بثمانية أيام، ولا يمكن أن يكون قد سبقني؛ أما سفينتنا فلم يكن فيها؛ لقد تفرست في المؤمنين جميعاً».

وفيما هو يفكر كذلك، كان الشيخ القيصر يصلي وقد ألقى السلام ثلاث

مرات: السلام الأول أمامه، لله؛ والآخران على يمينه ويساره للمؤمنين. وعندما أدار الشيخ القيصر رأسه إلى اليمين، عرفه ايفيم على الفور. «هذا هو بعينه، بودروف، وهذه هي لحيته المائلة إلى السواد، الجعدة، وشعره الأبيض على الخدين، وحاجباه، وعيناه وأنفه، ووجهه كله؛ هذا هو، هذا «اليزيه بودروف» بعينه.

إغتبط ايفيم لأنه لقي رفيق دربه، ودهش من أن يكون قد وصل مثله. وفكّر. «ايه! ايه! بودروف»، كيف إستطاع أن ينسل ويتقدّم المؤمنين؟ لا بد أنه تعرّف على مَنْ جاءَ به إلى هنا. سألقاه عند الخروج، وأرجع معه، بعد أن أترك هذا الحاج هنا. ولعله يستطيع أن يقودني، أنا أيضاً، إلى المحلّ الأول».

وظل ايفيم ينظر لكي لا يغيب اليزيه عن نظره. فلما إنتهى القدّاس تحرّك الجمهورُ. وكان الناس يتزاحمون تسابقاً إلى الركوع. فحشرت الزحمة ايفيم في إحدى الزوايا.

ومرة أخرى، إستولى عليه الخوف من أن تُسرَق محفظتُه. رفع إليها يده، وحاول أن يشقّ طريقاً لنفسه ليصل إلى مكان خالٍ. تخلّص من الزحام، ومشى، وفتّش عن اليزيه في كل مكان، وخرج من الكنيسة، دون أن يتمكن من لقائه. وبعد القداس جرى ايفيم من نزل إلى نزل، بحثاً عن «اليزيه». فلم يعثر له على أثرٍ. وفي هذا المساء، لم يأت الحاجُ أيضاً؛ لقد إختفى دون أن يردّ له روبله. وظل ايفيم وحده.

عاد، في اليوم التالي، إلى قبر السيد المسيح، مع شيخٍ من «تامبوف» جاء إلى السفينة نفسها. أراد أن يتقدّم لكنه حُشِرَ، مرة أخرى، وظلّ قرب عمودٍ يصلي. ونظر مثل البارحة، أمامه، فرأى، مثل البارحة «اليزيه» واقفاً، تحت المصابيح، على مقربة من قبر السيد المسيح، ويداه ممدودتان كالكاهن في المذبح؛ وكان رأسُه الأصلع يلمع. فكّر ايفيم: «في هذه المرة، سأعرف كيف

ألقاه». وانسلّ حتى الصف الأول: فلم يجد اليزيه. لا بد أنه خرج.

وفي اليوم الثالث، قصد القدّاس أيضاً، ونظر أيضاً فشاهد، في المكان المقدّس، اليزيه في متناول النظر، ممدود اليدين، وعيناه إلى الأعلى، كأنما كان يتأمّل شيئاً فوقه، ورأسه الأصلع يلمع. «حسناً! هذه المرة لن يفوتني اللحاق به. سأقف عند باب الخروج وسألقاه بكل تأكيد». كان يفكّر.

خرج وانتظر، وانتظر. وانصرف الجمهور وليس فيه «اليزيه».

قضى ايفيم، على هذا النحو، ستة أسابيع في القدس، يزور فيها الأماكن المقدّسة وبيت لحم والأردن. وختم بختم قبر السيد المسيح قميصاً له معداً لتكفينه؛ وأخذ شيئاً من ماء الأردن في قارورة صغيرة، وشمعاً من المكان المقدّس.

وعندما أنفق كل ماله، ولم يبقَ معه سوى مال العودة، قفل راجعاً إلى أهله.

بلغ يافا، وركب سفينة، ووصل إلى أوديسا، ومضى مشياً على قدميه إلى بلده.

[١١]

عاد ايفيم بالطريق نفسه. وكان كلما إقترب من بيته عادت إليه همومه. كيف كانوا يعيشون في البيت بدونه؟

وفكّر بينه وبين نفسه: «في سنة واحدة، تحدث أحداثٌ جسام، إن بيتاً، عُملَ في قرن، قد تَهْدمه لحظة واحدة... كيف أدار إبني شؤون البيت؟ كيف بدأ الربيع؟ كيف قضت الماشية فصل الشتاء؟ هل إنتهى البيت بسلام؟».

بلغَ ايفيم المكان الذي إفترق فيه، في السنة الماضية، عن «اليزيه». من المستحيل تعرّف سكان البلد. فحيث كانوا يعيشون بؤساء، في السنة الماضية، كانوا يعيشون ميسورين اليوم. كانت المحاصيل ممتازة، ونسي الفلاحون

بؤسهم، بعد أن إنتعشوا. وفي المساء، وصل ايفيم إلى القرية التي تركه فيها «اليزيه». لم يكد يدخلها حتى خرجت من أحد البيوت طفلةٌ صغيرة تلبس قميصاً أبيض وركضت نحوه.

ــ أيها الشيخ اللطيف! أيها الشيخ اللطيف! تعال إلى بيتنا!

أراد ايفيم أن يتجاوزها، لكنها أعادت الكرّة، وأمسكت بكّمه، وجرّته إلى البيت، وهي تضحك.

ظهر عند العتبة صبي صغير وامرأة فدعواه باليد، قائلين:

ــ تعالَ، أيها الشيخ اللطيف، تعالى وتعشّ واقضِ الليل.

قبل ايفيم هذه الدعوة. وفكر:

«بهذه المناسبة، سأستعلم عن «اليزيه»، أظن أن هذا هو بالذات البيت الذي ذهب إليه، في السنة الماضية، ليطلب ماءً للشرب».

دخل ايفيم. أنزلت عنه المرأةُ مزوده، وقادته ليغتسل، وأجلسته إلى المائدة، فقُدِّم له الحليب والبرغل. شكر «ايفيم» أهل البيت وأثنى على حسن ضيافتهم للحجاج.

هزّت المرأة رأسها، وقالت:

ــ وكيف لا نستقبلهم إستقبالاً حسناً؟ إنما نحن مدينون ببقائنا أحياء لأحد الحجاج. كنا نشرب، ونسينا الله، فعاقبنا الله، وأشرفْنا على الموت. نعم، في الربيع الماضي، كنا جميعاً نياماً، لا نجد ما نأكله، مرضى. وكنا سنموت لو لم يرسل لنا الله شيخاً لطيفاً مثلك. دخل في وسط النهار ليشرب. وحين رأى حالتنا، أخذته الشفقة علينا وبقي معنا. فسقانا وأطعمنا، وأَنهضنا على قدمينا، واشترى لنا حصاناً ومعه عربة، وتركه لنا.

دخلت العجوزُ وقطعت حديثَ المرأة:

ــ أكان رجلاً؟ أكان ملاكاً؟ نحن أنفسنا نجهل ذلك. كان يحب الناس

جميعاً، ويرثي لهم جميعاً، وسافر دون أن ينبىء أحداً. حتى أننا لا نعلم لِمَنْ ندعو الله. ما زلتُ أراه: أنا نائمة أنتظر الموت، وفجأة أرى شيخاً قصيراً، تافه المظهر، أصلع، يدخل علينا ويطلب ماءً. أتصدّق ما الذي خطَرَ ببالي، أنا الخاطئة: «ماذا يريد منا، هذا؟» لكن أنظر ما فعله هو. ما إن رآنا حتى رفع مزوده ووضعه في هذا الموضع، وفكّه.

تدخّلت البنتُ في الحديث، وقالت:

ــ لا، يا جدتي. هاهنا، في وسط الغرفة، إنما وضَعَ مزوده أولاً، ثم على المقعد.

وأَخذْن يتناقشن ويتذكّرن أقواله وأفعاله جميعاً، أين كان يجلس، وأين كان ينام، ما كان يقوله لهذه أو هذه.

عند هبوط الظلام، جاء الفلاحُ على حصانه. فأخذ هو أيضاً يتحدث عن حياة «اليزيه» عندهم.

ــ لو لم يجيءْ إلينا لمُتنا ومعنا ذنوبنا، لمتنا في اليأس، مجدّفين على الله، ولا عنين النوع البشري. وهو الذي أوقفنا على أرجلنا، وبفضله عرفنا الله من جديد، وآمنا بطيبة البشر. كنا نعيش، من قبلُ، كالحيوانات؛ وصَنعَ منا بشراً.

أَطْعَموا ايفيم، وسقوه، وهيؤوا له منامة، وناموا هم أيضاً.

لم يستطع ايفيم أن ينام، تسلّطت عليه فكرةُ «اليزيه»، كما رآه في القدس، ثلاث مرات، في الصف الأول.

وفكّر: «هكذا يكون قد سبقني. هل بوركتْ جهودي؟ لا أدري؛ أما جهودُه فقد باركها الله.

في اليوم التالي، ترك أهل البيت «ايفيم» يسافر، بعد أن غمروه بالحلوى للطريق، وانصرفوا إلى العمل. وتابع ايفيم طريقه.

[١٢]

عندما عاد ايفيم إلى بيته، كان قد مضى على غيابه عنه عامٌ كامل. وصل إلى منزله، حوالي المساء، ولم يكن ابنُه في البيت كان في الحانة. وعاد منها سكران. إستفسر ايفيم منه؛ وسرعان ما رأى أن ابنه لم يقُمْ بواجبه. لقد بذّر المال وتهاون بشؤون البيت، فأنحى عليه أبوه باللائمة، لكن الابن أجابه بلهجة فظة قال:

ــ كان الأَوْلى بك أن تهتمّ أنتَ نفسك بالبيت، وألاّ تسافر حاملاً معك المال كله. وها أنت توبّخني الآن.

غضب الأبُ وضرب ابنه.

خرج ايفيم تاراسيتش ليذهب إلى رئيس القرية كي يؤشّر على جواز سفره؛ مرّ أمام منزل «اليزيه»؛ كانت «العجوز» أمام المنزل، فسلّم عليها. قالت:

ــ مرحباً، يا اشبيني! هل كانت سفرتك موفقةً؟

توقف ايفيم:

ــ وصلتُ إلى هدفي، بفضل الله. أضعت عجوزَك، لكنني علمت أنه قد عاد إلى البيت.

أخذت العجوزُ تقصّ عليه ما جرى، وكانت تحب الثرثرة، قالت:

ــ عاد معيُلنا؛ عاد منذ زمن طويل؛ كان ذلك في عيد الصعود. كم كان فرحُنا عندما أعاده الله إلينا، كنا منزعجين بدونه! ليس عمله كبيراً، فهو لم يعد في ريعان الشباب؛ لكنه هو رأس البيت دائماً، ولسنا نُسرُّ إلاَّ معه. وكم فرح ابنُه به! لقد قال: «البيتُ، بدونه، كالعين بلا نور. ننزعج عندما لا يكون بيننا. كم نحبُّه وكم ندلّله!

حسناً! أهو الآن في البيت؟

ــ نعم، يا أشبيني، هو عند خلايا النحل، يُعنى بالنحل. فالعسل وافرٌ. وقد منح الله النحل قوةً عظيمة حتى إن عجوزي لا يتذكّر أنه رأى مثل ذلك من قبل. إن رحمة الله لا تُقاس إلى خطايانا.. أدخلْ، يا أشبيني، سيرتاح إلى رؤيتك.

إجتاز ايفيم الرواقَ والفناء وذهب يبحث عن «اليزيه» في المنحلة. دخل ورأى «اليزيه» مرتدياً قفطاناً رمادياً، يقف تحت شجرة بتولة صغيرة، بدون شك، ولا قفاز، ممدود اليدين، رافعاً بصره إلى الأعلى، ورأسه الأصلع يلمع، كما ظهر في القدس، قرب قبر السيد المسيح؛ وفوقه، تتراقص أشعة الشمس، خلال البتولة الصغيرة، مثل ضياء المصابيح، في القدس، ومن حول رأسه، كان النحل المذّهب يطير دون أن يلسعه مكوناً ما يشبه الإكليل. توقّف ايفيم. نادت عجوزُ اليزيه زوجها، قالت:

ــ هنا! يا أشبيني!.

إلتفت «اليزيه» وأطلق صرخةَ الفرح، وبادر إلى لقاء أشبينه، نازعاً بحذر النحلَ من لحيته.

ــ مرحباً، يا أشبيني! مرحباً، يا صديقي! هل كانت سفرتك موّفقة؟

ــ أوه! أبليتُ ساقيَّ. حملت إليك شيئاً من ماء نهر الأردن. تعالي إلى بيتي لأخذه. لكني لا أدري إذا كان الله قد بارك جهودي.

ــ تبارك الله! وليخلّصك يسوع!

قال «ايفيم» بعد لحظة صمت:

ــ كنتُ هناك بساقي، لكني لا أدري إن كنت هناك بروحي، لعله شخصٌ آخر...

ــ الأمرُ بيد الله، يا أشبيني! الأمرُ بيد الله!

ــ زرت أيضاً، وأنا راجع، البيتَ الذي دخلتَه...

ذُعر «اليزيه» وقطع عليه كلامه:

ـ الأمرُ بيد الله، يا أشبيني، الأمرُ بيد الله!... ألا تأتي إلى البيت لتشرب قليلاً من العسل؟

ورغبةً من «اليزيه» في تغيير مجرى الحديث، تحدّث عن شؤون المنزل.

تنّهد ايفيم. وأمسك عن تذكير «اليزيه» بأهل ذلك البيت، وبما رآه في القدس. وأدرك أن الله لا يطلب منا في هذه الدنيا سوى شيء واحد: المحبّة والإحسان.

• • •

النار الموقدة لن تنطفىء

(١٨٨٥م)

كان يعيش في الريف فلاحٌ يُدعى ايفان شتير باكوف. كان ما يزال في مقتبل العمر، ولم يكن، في القرية، مَنْ هو أفضل عملاً منه. كان يعيش سعيداً مع أولاده الثلاثة الذين أخذوا يساعدونه: الأول في المنزل، والثاني خاطبٌ، والثالث الذي ما يزال ولداً تقريباً، صار يحرث الأرض.

كانت امرأة ايفان ربة منزل خبيرة ومقتصدة، وأراد حسن الحظّ أن تكون كنتها كذلك وديعة ومُجدّة، الشخص الوحيد الذي كان يأكل ولا ينفع شيئاً، في منزل ايفان، كان أباه: وهو شيخ مصابٌ بالربو لا يفارق الموقد.

كانت الأسرةُ تعيشُ في بحبوحة. كان لإيفان ثلاثة جياد ومهرٌ، وبقرةٌ وعجلها، وخمسة عشر خروفاً. وكانت النساء يقضين وقتهن في العمل، في المنزل، جادلات الأحذية، خائطات ثياب الفلاحين. وكان الخبزَ يملأ المعجن: كانت فيه دائماً مؤنة تزيد عن الحاجة بين الخَبْزة والخبزة. وكانت غلّة الشوفان كافية لتسديد الضرائب ومواجهة حاجات المنزل.

لم يكن على ايفان شتير باكوف إذن إلاَّ أن يعيش سعيداً مع أهله؛ ولسوء الحظ، كان له جارٌ يُدعى غافريلو الأعرج، ابن غوري ايفانوف، وكانت تفصل بينهما كراهية عميقة.

طوال المدة التي عاشها «غوري» العجوز، وأدار فيها والد ايفان شؤون المنزل، ظلت علاقات حسن الجوار قائمة بين الجارين. فإذا احتاجت النساء إلى دلوٍ أو إلى منخل، أو إذا احتاج الرجال إلى عجلة احتياطية، تقارضوا ذلك كله، وتعايشوا جيراناً متصافين وهم يتبادلون الخدمات. وإذا شرد عجلُ أحد الجارين إلى بيدر الآخر، اكتفى هذا بالقول عند طرده:

ـ لا تَدعْهُ يشرد إلى بيدرنا، لأن قمحنا لم يُدرس بعد.

لكنه كان لا نظير له فلا يخفيه ولا يخزنه لا على البيدر ولا في الحظيرة.

هكذا كان يتعامل الشيخان. لكن عندما آلت إدارة المنزلين إلى أيدي ابنيهما، تغيّرت كليًا.

ولقد أثار الخصامَ بينهما شيءٌ تافه. كان لكنه ايفان دجاجة تبيض في الصباح الباكر، وكانت تخبىء البيض لأسبوع الآلام. كانت الدجاجة تبيض كل يوم بيضة، في الحظيرة، في صندوق العربة. وذات يوم، طارت الدجاجة من فوق السياج، وقد خافت، بدون شك، من صراخ الأطفال، وباضت في منزل الجيران.

وعندما سمعت المرأة الشابة فوقأة الدجاجة، فكّرت: «أنا الآن أرتّب البيت للعيد، وليس عندي وقت لأجيء بالبيضة. سأذهب بعد قليل».

ولم تذهب إلى الحظيرة إلاّ عند المساء. ومدّت يدها إلى صندوق العربة، فلم تجد بيضاً. سألت حماتها وأخا زوجها:

ـ لعلكما أخذتما البيضة؟

ـ فأجابا:

ـ لا، لم نأخذها.

حينئذٍ سألت تاراسكا، الأخ الأصغر، فقال لها:

ـ دجاجتك باضت عند الجيران؛ قوقأت في فنائهم، ومنه رَجَعتْ.

ألقت المرأة نظرها على الدجاجة التي كانت لابدةً قرب ديكها، وعيناها في نصف إغماضة، وكأنها توشك أن تغفو. كان بودّها لو سألتها أين باضت؛ لكن الدجاجة ما كانت لتجيب.

وذهبت المرأة إلى جارتها.

سألتها العجوز وقد أقبلت عليها:

ـ ماذا تريدين؟

ـ القضية، أيتها الجدة العزيزة، أن دجاجتي طارت إلى فنائكم اليوم. فلعلها باضت بيضتها عندكم.

ـ لم نجد بيضاً. وعندما دجاجتنا التي تبيض منذ زمن بعيد، بحمد الله. إنما لممنا بيض دجاجنا؛ ولسنا بحاجة إلى ما للجيران. لسنا، يا بنتي، من الناس الذين يجمعون البيض من فناء الآخرين.

ويَخْدش هذا الحديث المرأة الشابة، فتفرِّط بكلمة، فترد عليها الأخرى بكلمتين، فيقع الخصام. ويجذب الصياح زوجة ايفان التي خرجت لتستقي ماءً من البئر، وزوجة غافريلو. فتُشار كان في الشجار، وترمي كل واحدة الأخرى بحماقاتها، وتُنحي عليها باللوم إنْ حقاً وإن باطلاً، ويحتدّ الصراع، ويصرخْن كلهن في آن واحد، وكل واحدة تريد أن تقول كلمتين دفعةً واحدة، وكل كلمة شتيمة.

ـ أنتِ كذا... وأنتِ كذا... سرّاقة... حقيرة... تحرمين حماكِ العجوز من الخبز، وتتركينه عارياً...

ـ أنتِ السرّاقة... أخذت منخلي لتبيعيه. وحمّالتي ما تزال عندك. أعيديها إليَّ.

وتمسك بحمّالة الدلاء، فيُكبّ الماءُ، وتتطاير القبعات في الهواء، ويتشاددْن بالشعر.

ويصل غافريلو من الحقل، فيبادرُ إلى مساعدة امرأته. ويراه إيفان، فيهبّ هو وابنه من بيتهما، ويشتركان في الشجار.

كان إيفان فلاحاً قوياً. فيشقّ طريقه في الزحمة وهو يلطم ويدفع، ويمسك غافريلو بلحيته، ويَنْتِفُ منها ملءَ قبضته شعراً. فيُهرع الناسُ جماعات، ويفصلون بين المتشاجرين، لكن بشيء من المشقة.

كان هذا هو سببُ الخصام كله.

بعد أن جمع غافريلو الشعر المنتوف من لحيته، طواه في ورقة وذهب فقدّم شكوى إلى المحكمة، قائلاً:

ـ هل تظنون أنني تركتُ لحيتي تنمو لكي يأتي هذا السوقي إيفان ويَنْتف منها ملء قبضته.

وراحت امرأته تردّد، أينما ذهبت، أن إيفان سيُحكم قريباً وسيُنفى إلى سيبيريا. وظلَّ البغض بين الأسرتين يَسْتفحل.

لم يطل انتظارُ أبـي إيفان حتى ينصح بالمصالحة. فمند الساعة الأولى حاول أن يُسوِّي الخلاف؛ لكن الشباب لم يوافقوا، وقالوا له:

ـ «سترتكبُ حماقة. أنتَ تَصْنع من الجبّة قبّةً».

قال لهم: «ارجعوا إلى عقولكم، كلّ هذه الضجة من أجل بيضة. أخذ الأولاد بيضة؟ ـ جزاهم الله خيراً! البيضة ليست شيئاً ثقيلاً. وهناك بيضٌ للجميع... ثم ماذا؟ قالت الجارة العجوزُ كلمةً نابيةً؟... ـ لتُؤدَّبْ، لتتعلّمْ كيف تهذّب كلامها... ثم ماذا... تضاربتُمْ؟... ـ هذه أمور تقع كل يوم. هيا تصالحوا، ولا تتحدّثوا عن ذلك بعد الآن. وإذا استمررتم في إيذاء بعضكم لبعض، فسوف تعضّون أصابعكم من الندم.

لكن الشباب لم يُصغوا إليه. ورأوا في كلامه خَرَفَ الشيخ لا لغة العقل.

لم يَلِنْ إيفان وتمسّك بموقفه، وقال:

ـ أنا، أصالح غافريلو. أنا لم أنتف لحيته، هو الذي انتزع منها شعرة بعد شعرة. انظرْ إلى قميصي؛ مزّقه ابنُه.

ومَثَلَ أمام المحكمة.

سارت الدعوى في مجراها. وعندما فقد غافريلو وتد عربته اتهم ابن ايفان بإخفائه، قائلاً:

شاهدناه يمر، تحت نافذتنا، أثناء الليل، ويحوم حول العربة. وزعمت أشبينتي أنه ذهب يبيع وتد العجلة إلى صاحب حانة القرية.

مثل الجميعُ مرة ثانيةً أمام المحكمة؛ وبدأت المخاصماتُ والمشاجرات من جديد بين البيتين، كل يوم، وأخذ الأولاد يتشاتمون بشتائم أهلهم، وكانت النساء كلما التقين معاً عند النهر استخدمن ألسنتهن أكثر من استخدامهن لمضارب الغسيل بكثير، وتقاذفن بالكلمات البذيئة.

إن هذين الفلاحين اللذين اقتصرا، في البداية، على تبادل التهم بأفظع الشرور، انتهى بهما الأمر إلى اغتصاب كل ما يقع تحت أيديهما، ودفعا أولادهما إلى أن يفعلوا مثلهما. وأخذت الأمور تتفاقم بينهما.

أتعبَ ايفان شتيرباكوف وغافريلو الأعرج جميع القضاة لفرط ما اشتكيا لجمعية الناحية، ولمحكمة الإقطاعيين، ولحاكم الصلح. فأما أن يطلب غافريلو الأعرج غرامة من إيفان، وأما أن يطلب إيفان السجن لغافريلو. وكان بغضهما ينمو بمقدار ما تزداد إساءة أحدهما إلى الآخر. كان هذا الفلاحان مثل كلبين يتهارشان: كلما تعاضّا اشتد هياجهما. ولو ضربتَ أحد الكلبين على مؤخرته لظنّ أن الكلب الآخر قد غضّه فيتلظّى سعاره. كذلك إيفان وغافريلو، كان الحقد بينهما لا يني يكبر، بعد أن اشتدت ملاحقة أحدهما للآخر أمام القضاء، فحُكم عليهما بالغرامة حيناً وبالسجن حيناً آخر.

ـ صبراً! ستدفع ثمن فعلتك!

استمرت هذه الحالة ست سنوات.

الشيخ أبو ايفان وحده، من عند زاوية موقدة، ظل يتكلم، بلا كللٍ لغة الحس السليم.

ــ ماذا تفعلون، يا أولادي؟ هلاّ انتهيتم عن إهانة بعضكم لبعض. أنتم تسلكون سلوكاً مغايراً لمصالحكم جميعاً. لا تتلظوا حقداً بعضكم على بعض وسوف تجدون الراحةَ، وإذا ظللتم تعذّبون بعضكم بعضاً فستندمون بمرارة.

لكن لم يُصغ أحدٌ إليه.

في السنة السادسة نشأ بين الفلاحين خصام جديد. ففي ذات يوم، في أحد الأعراس، سألت كنة ايفان، أمام جميع المدعوين غافريلو أسئلة أخجلته، صارخةً بأنها رأته ومعه جياد لا تخصه.

كان غافريلو قد شرب؛ فاحتدّ حتى ضربَ كنّة ايفان. وآذاها فاضطرت إلى لزوم الفراش ثمانية أيام. لقد كانت على وشك أن تغدو أمًّا.

فَرَكَ إيفان يديه. وبادر إلى تقديم شكوى لقاضي التحقيق وقال في نفسه: «سيخلصونني أخيراً من جاري. لن يُفلت من سبيريا هذه المرة.

لكنه واجه خيبةً جديدة. إذ رفض قاضي التحقيق قبول شكوى ايفان. فعندما جاء التحقيق لفحص كنّته، كانت المرأة قد تركت فراشا واختفى كل أثرٍ للضرب.

حينئذٍ قصدَ ايفان قاضي الصلح، فردّه هذا إلى محكمة القرية. وهنا، استطاع بفضل مكائده، وبفضل نصف دلو من ماء الحياة الحلو قدّمها للقاضي ولكاتب المحكمة، أن يستصدر حكماً على غافريلو بالجلد.

فرأى كاتبُ المحكمة نصَّ الحكم على غافريلو:

ــ حكمت المحكمة بجلد الفلاح غافريلو عشرين جلدة على ظهره.

كان ايفان حاضراً، ألقى نظره على غافريلو، منتظراً ما سيفعله.

بعد أن سمع غافريلو نصّ الحكم شحب وجهه. وغدا كالخرقة البيضاء، ومضى إلى الباب. تبعه ايفان، فرآه يتّجه صوب خيوله، وسمعه يدمدم بهذه الكلمات:

ــ طيّب! طيب! ستلهب ظهري بسياطك؛ لكن احترس من أن يلتهب لك شيءٌ أسوأ!

سمع ايفان هذه الكلمات، فركض إلى القاضي لينقلها إليه، وقال له:

ــ أيها القاضي العادل، هدّدني بالحرق. وهذه هي الكلمات التي نطق بها أمام الشهود.

استُدعي غافريلو. وسأله القاضي:

ــ أصحيحٌ أنك قلت هذا؟

ــ لم أقل شيئاً. فلأجلد، بما أنكم أمرتم بذلك، وربما أنني سأتألم وحدي من أجل الحقيقة، في حين أن كل شيء مسموحٌ به له.

أراد غافريلو أن يُتابع كلامه؛ لكن ارتجافاً حرّك شفتيه ووجنتيه فأدار وجهه إلى الجدار.

أرعبت تعابيرُ وجهه القاضي نفسه، وفكّر «بشرط ألا يلجأ إلى العنف إزاء جاره أو إزاء نفسه!».

وقال للخصمين:

ــ هيا، يا أخويّ، تصالحا. هذا أفضل ما يمكن أن تفعلاه... وأنتَ، يا غافريلو، ألا تخجل من ضربك امرأةً مريضة؟... من حسن الحظ أنها شفيت، ولولا ذلك، ما كان أمرّ الندامة على ضميرك! أهذا حسنٌ؟ قل لي، أهذا حسن؟ اعترفْ بخطيئتك أمامه، سلِّم عليه، سيصفح هو عنك، وسنرجع، نحن، عن حكمنا.

تدخّل الكاتب، عند سماعه هذه الكلمات، فقال:

ـ هذا غير ممكن، لأن المصالحة المسبقة التي نصت عليها المادة ١١٧ من القانون، لم تحدث. نحن الآن أمام قضية مقضية، ويجب أن يتبع الحكمُ مجراه.

لكن القاضي أبـى أن يُصغي إليه، وقال للكاتب:

ـ كفى ثرثرةً. المادة الأولى، أيها الأخ، هي: يجب قبل كل شيء، أن نتبع مشيئة الله، والله يريد أن نتصالح.

واستدار مرة أخرى نحو الفلاحين، أراد أن يلزمهما جادة الحق؛ لكن جهوده ذهبت سدًى، أبـى غافريلو أن ينثني عن رأيه، وقال:

ـ تجاوز عمري نصف قرن، ولي ابن متزوج، ولم أضرب أحداً قط؛ ويأتي هذا الشقي اليوم ويسعى إلى الحكم علي بعشرين جلدة، ثم أطلبُ، أنا، منه، الصفحَ! كفى. وسيرى!

ـ اضطُرّ مرة أخرى إلى التوقف، لفرط ما هدَّج الغضب صوته. فلوى رأسه وغادر المحكمة.

كان على ايفان أني قطع عشرة فراسخ ليعود إلى بيته؛ فلم يصل إلاّ متأخراً. وكانت النساءُ قد ذهبن للقاء الماشية.

فكّ حصانه ودخل البيت: كان البيت خالياً. كان الأولاد في الحقل والنساء عند الماشية. جلس ايفان على المقعد وفكّر. تذكّر كيف شحبَ غافريلو عند قراءة نص الحكم، وكيف أشاح بوجهه إلى الجدار. فأحسّ بقلبه ينقبض «لو كان هو، ايفان، المحكوم بالجلد!». كذلك فكّر وهو يراجع نفسه. فانتابته الشفقة عليه.

كان يفكّر كذلك عندما سمع سعالاً وحركة. كان الشيخُ نازلاً من عند الموقد وهو يدلّي رجليه. فلما بلغ الأرض جرّ نفسه بحذاء الجدار، وجاء فتهالك على المقعد، بعد أن أنهكه هذا الجهد.

وبعد نوبة سعال جديدة. اتكأ بمرفقيه على الطاولة، وقال:

ــ حسناً! وهل صدر الحكمُ؟

أجاب ايفان:

ــ لقد حُكم بعشرين جلدة على ظهره.

عزّ الشيخ رأسه، وقال:

ــ أسألت التصرّف، يا بني! ما أسوأ تصرفك! وإلى نفسك تُسيء أكثر مما تسيء إليه. إن ظهره سيُجلد بالسياط إذن! فهل تربح شيئاً من ذلك، أنت؟

أجاب ايفان:

ــ لن يعود إلى ذلك.

ــ ما الذي لن يعود إليه؟ وفيم كان ذنبه أكبر من ذنبك؟

وما أفعاله التي كانت أسوأ من أفعالك؟

غضب ايفان، وقال:

ــ كيف! ما أفعاله؟... لو زاد قليلاً لقتل كنّتي، وها هو يهددني بالحريق. أليس هذا شيئاً ذا بال! وهل ينبغي أن أشكره؟

زفر الشيخُ زفرةً، وقال:

ــ أتعتقد، لأنك تمشي حيث تشاء، وأنني لا أتحرك أنا، من فوق الموقد، منذ سنوات، أتعتقد أنك ترى كل شيء وأنني لا أرى شيئاً؟.. لا يا بني، أنك لا ترى شيئاً. الغضب يغشي عينيك. ذنوب غيرك أمامك، لكن ذنوبك أنتَ خلفك. تقولُ: إنه أتى شرًّا؟... إن كان وحده الذي أتى الشر، فلا بأس: وهل يأتي الشرُّ من واحد وحده؟ لا، لا بد من اثنين لفعله. أنت ترى ذنوبه ولا ترى ذنوبك. لو كان وحده الشرير وأنت الخيِّر، لما وجد الشر. من الذي نتف شعر لحيته؟ من الذي أخذ رحاه؟ من الذي جرّه إلى المثول أمام جميع القُضاة؟ أنتَ تتهمه بكل شيء، وحياتك ليست أفضل من حياته: هذا هو

مصدر الشرّ الوحيدُ. أنا لم أعش هكذا، يا بني ولم أكن قدوةً سيئةً لك. قلْ. أكنا نعيش على هذا النحو، والد غافريلو وأنا؟ كيف كانت علاقتُنا؟ علاقات حسن جوار... أكان بحاجة إلى طحين؟ كانت ربةُ بيته تأتي وتقول: يا عم «فرول»، أحتاج إلى شيء من الطحين. «اذهبي، يا بنتي، إلى الحظيرة، وخذي ما تحتاجين إليه». كان لا يعلم إلى مَنْ يَعْهد بجياده. فكان يقول لي: «ايفان، أعهدُ إليك بجيادي...» أكنتُ، من جهتي، أحتاج إلى أي شيء؟ كنتُ أذهب إليه لأقول له: «عم غوري، أريد هذا الشيءَ أو ذاك»، فيجيب: «خُذْ ما تحتاج إليه»... هكذا كنا نعيش، نحن، وكان كل شيء على ما يُرام... لكن انظر إلى ما يجري الآن. كان جنديّ يَرْوي لنا معركة «بليفنا»[1]؛ أليست معرككتكم أسوأ من معركة بليفنا؟ مهلاً، أهذه عيشةٌ؟ وأي إثم! أنت الفلاح، رأس الأسرة، والمسؤول عن كل شيء، ماذا تعلّم النساءَ، ماذا تعلّم الأولاد؟ أن يعيشوا كالكلاب. أمس، سمعتُ هذا الخسيس تاراسكا يشتمُ خالته آرينا ويهزأ من أمه. اتجد هذا حسناً؟ ستذوق عاقبة ذلك، أنت قبل غيرك. فكّر في روحك... أهكذا يجب أن تتصرّف؟ تقْذفني بشتيمة، فأردّ عليك باثنتين، تصفعني صفعة، فأرد عليك بصفعتين... لا، يا صاحبي، ليس هذا هو ما تأمر به المحبّة. أيتَسافه عليكَ أحدهم؟ لا تجب، وسوف يخجل. هذه هي وصايا الله: مَنْ صفعتك فأدرْ له الخدّ الآخر، قائلاً: «أضربني إذا كنتُ أستحقّ ذلك»، وسيخْجل، سيندم على فعلته، وسيأخذ برأيكَ. هذا ما أمرنا به، لا التكبّر. لمَ تظلُّ صامتاً، يا ترى؟ أليس صحيحاً ما أقوله؟

كان ايفان يصغي إلى أبيه دون أن يفوه بكلمة. أصابت الشيخَ نوبة أخرى من السعال كادت تخنقه، وعندما صحا منها، أردف قائلاً:

---

(١) معركة بليفنا: إن مدينة بليفنا المحصنة في بلغاريا والتي احتلها جيش عثمان باشا التركي، قد حاصرها الروس في سنة ١٨٧٧م.

ـ انظرْ ما حياتكَ. أأنت أسعد أم أشقى بعد تلك القصة الحقيرة؟ وقِسْ مقدار ما تنفق على الدعاوى والسفر والطعام! أولادك مثل أفراخ العقاب، وما عليك إلاّ أن تعيش بدعَة، وأن تنمّي ممتلكاتك؛ بدلاً من أن تأخذ بالتناقص، كما هي الحال الآن، ولماذا؟ الذنب دائماً ذنب التكبّر. فبدلاً من أن تحرث أرضك مع أولادك، وأن تبذر القمحَ، أنت مضطرٌّ إلى التردّد على القضاة ورجال الأعمال. ولست تفلح أرضك وتبذرها عندما يكون ذلك لازماً؛ والأرضُ المُطعمة لا تعطي شيئاً بلا مقابل. شوفاتك لم يغلّ، ذلك لأنك بذرته متأخراً، بعد عودتك من المدينة. وماذا ربحت من ذلك؟ هموماً أكثر. آه! يا صاحبي، لا تفكّرْ إلاّ في مصالحك الحقيقية. ابقَ في بيتك، وافلحْ حقلك مع أولادك. وإذا أسيء إليك فاصفحْ. وهكذا سيتسنّى لك أن تُعْنَى بشؤونك. وستشعر أنك تَخفّفْتَ من حمل.

ظلّ ايفان صامتاً.

ـ هذا ما أردتُ أن أقوله لك، يا إيفان. ثِقْ بأبيك، ثقْ بهذا الشيخ. اذهبْ واربط الحصان بالعربة، وعُدْ إلى المحكمة، وتخلَّ عن شكواك واسحبْها. واذهب غداً إلى منزل غافريلو، وصالحْه، وادْعهُ إلى بيتكَ. غداً هو يوم العيد بالذات. حضّرْ سماورك، واشترِ ماءَ الحياة. اخلصْ من ذنوبكَ، ولا يتحدّثْ عنها أحد بعد الآن. ومُر النساءَ والأولاد بما يوافقُ ذلك.

تنهّد ايفان وفكّر: «إنه لا يقول، مع ذلك، غير الحق».

هزّته أقوالُ أبيه؛ لكنه لم يكن يعلم كيف يُصالحُ. استأنف الشيخُ كلامه، وكأنه قد قرأ في نفس ابنه:

ـ اذهبْ، يا ايفان، ولا تؤجّلْ ذلك، أطفىء النار في بدء اشتعالها؛ لا تنظرْ حتى تَسْتعر، لأنك لن تستطيع السيطرة عليها حينئذٍ.

كان الشيخ سيُتابع كلامه لولا أن النساء دخلن المنزل وأخذن يُثرثرن. وقد

علمن أن غافريلو حُكم بالجلد وأنه هدّد ايفان بإشعال حريق، وأنهن تخاصمن، في الحقل، مع جاراتهن.

هدّدت جاراتُهن، على قولهن، بقاضٍ يحمي، كما زعمن، غافريلو، ويأخذ على عاتقه تغيير نتيجة الدعوى. وقد حرّر مدير المدرسة، بخطه الجميل، طلباً موجّهاً إلى القيصر نفسه يذكر أدقّ التفاصيل كالوتد، وكحوضٍ من الخضار وكل شيء. وسيحصل غافريلو، بالتأكيد على نصف أموال ايفان، على الأقل.

أصغى ايفان لهذا الهذر، وأحسّ أن قلبه يتجمّد مرةً أخرى. لم يكن مستعداً للتصالح.

الفلاح الميسور يجدُ دائماً ما يشغله. ترك ايفان النسوة يثرثرن، ونهض، وغادر المنزل، وذهب يعمل في البيدر وفي الحظيرة. وظل هناك. منصرفاً إلى عمله، حتى غروب الشمس. في هذه اللحظة، رجع الأولاد الذين قضوا نهارهم في تهيئة الأرض للبذار.

لاقاهم ايفان وسألهم عن عملهم، وساعدهم على إعادة كل شيء إلى مكانه. ووضع، في زاويةٍ، عدّةَ جوادٍ ممزّقة لإصلاحها؛ وكان على وشك إدخال العصي عندما لاحظ أن الظلام قد حلّ، فتركها في الخارج. وقدّم العلف للجياد، وفتح الباب الكبير لأن «تاراسكا» سيذهب في الليل ومعه الجياد. وقال في نفسه: «لم يبق لي إلاّ أن أتعشّى وأنام».

وضع على كتفه العدّة الممزّقة، ورجع إلى المنزل، دون أن يفكّر بغافريلو ولا بكلام أبيه. وبينما كان يدير حلقةَ الباب ويدلف إلى البهو، سمعَ، وراء السياج، صوتَ جاره المبحوح يسبّ أحدهم. كان غافريلو يصرخ:

ـــ وحقّ الشيطان! إنه يستحقّ القتلَ.

توقف ايفان وأصاخ السمعَ وهزّ رأسه. ثم دخلَ منزله.

كانت النار موقدة في المنزل، وكانت كنّة ايفان تُدير دولاب المغزل في زاوية منه، وكانت امرأته تطهو العشاءَ، وابنه البكر يضفر خفًّا، والأصغر يقرأ كتاباً، وتاراسكا يستعدّ للذهاب ليلاً.

فكّر ايفان: «كم سيكون كلُّ شيء على ما يرام، لولا هذا الجار الملعون!».

أحسّ بفظاظة مزاجه. طرد الهرّ الغافي على المقعد بركلةٍ من قدمه، وثار على النساء لأن القدر لم يكن في مكانه المعهود. وجلس، وهو بادي الانزعاج، كالح الوجه، وأخذ يصلح عدّة الجواد. ولازمتْ ذهنَه، بالرغم منه، تهديدات غافريلو في المحكمة، والكلمات التي سمعها قبل قليل... «إنه يستحقّ القتلَ!».

في هذه الأثناء، قدّمت ربة المنزل العشاءَ لتاراسكا. أكل الولدُ، وارتدى قفطانه وفرويته وزنّاره، وتزوّد بكسرة خبز، وخرج ليأخذ الجياد. بما أن أخاه البكر كان سيرافقه، فقد ترك إيفان مقعده وطلع إلى درج المدخل.

كان الليل دامساً، والسماء مغطّاةً بالغيوم، والريح تنفخ. عندما بلغ ايفان أدنى الدرج، ساعد ابنه على امتطاء أحد الجياد، ودفع المهر، وظلّ هناك مترصّداً بعينه، مصيخاً السمعَ بأذنه، بينما أسرع تاراسكا ولحق بصبنية من عمره تركوا القرية عدواً. أحسّ ايفان، وهو بلا حراك قرب باب العربات، أن كلمات غافريلو تحاصره: «خذْ حذرك لئلا يُلهبك شيءٌ أسوأ».

وفكّر: «إنه قادرٌ على أن يفعل ذلك. الجو جافٌّ، والريح تنفخ. يكفيه أن ينسلّ إلى مكان ما ويشعل النار سرًّا، من الخلف، وابحثْ عنه، بعد ذلك!.. سيُشعل النارَ هذا الملعون، ولن أستطيع القبض عليه آه! لو فاجأتهُ بالجرح المشهود لنال جزاءَه!».

وقد بلغتْ مخاوفهُ حدًّا حمله إلى أن يجتاز باب العربات، ويخرج إلى الشارع ليدور حول زاوية سياجه، بدلاً من أن يرجع إلى المنزل.

«سأذهبُ من هنا حتى الفناء. لا يمكن للمرء أن يحتاط أكثر من ذلك».

أخذ يمشي بمحاذاة الجدار، بخطوات منتظمة، ودار حول الزاوية، ورمى ببصره إلى السياج. ينظر، ويطيل النظر، فيُخيّل إليه أنه يرى في الزاوية الأخرى شيئاً يبرز فجأة من خلف الجدار، ويتحرّك.

يظل ايفان جامداً، ويَقْطع أنفاسه، ويصغي، وينظر بانتباه أشد: لا شيء يثير القلقَ، لا شيء سوى الريح التي تهزّ أوراق الصفصاف وتَصْفر في القصب. الليل أسود لا يُرى فيه شيء؛ لكن عينيه تعوّدتا العتمة، في آخر الأمر، وميّزتا الزاوية كلها، والمحراث الذي تُرك هناك، والتسقيفة الأمامية، وعبثاً تطلّع ايفان: ما من أحد. قال في نفسه:

«أقدّرُ أني أخطأتُ. لكن يجب مع ذلك أن أكمّل دورتي».

ويسير بحذاء جدار الحظيرة الخارجي، وهو يتلمّسه، ويتقدّم برفق، مُحدثاً القليل من الصوت بخفّه المضفور من اللحاء، حتى إنه لا يكاد يَسْمعُ مشيه، ويمشي، ثم يمشي، وإذا به يرى، في الزاوية الأخرى، قرب المحراث، شيئاً يلمع ثم يختفي.

صدمه ذلك كطعنة في قلبه. سمّره الخوف في مكانه؛ هناك، في الموضع نفسه تطاير الشرارُ من شيء، على نحو أشد؛ وميّز تماماً رجلاً بقبعته، مقرفصاً على الأرض، يُشعل حزمةً من القش.

أحسّ بقلبه يثبُ في صدره، مثل عصفور. فجمَعَ قواه كلها، واندفع راكضاً في اتجاه الرجل، ورجلاِ لا تكادان تلامسان الأرض. كان يفكّر: «آه! آه! أمسكتُ بك وأنت تفعل فعلتك».

لم يخطُ عشر خطوات حتى ظهر ضياءُ عظيم، لا في المكان الذي رأى فيه الشرار. بل في قش التسقيفة الأمامية التي أخذت تشتعل وأخذ لهبها يلامس السقف.

عُرفَ ايفان الرجلُ. كان يُرى بكامله. كان غافريلو. وكنا تنقضّ الحُدأةُ على القبرة، انقض ايفان على الأعرج. قال في نفسه: «سأربطه خوفاً من أن يهرب».

هل سمعه الأعرجُ وهو يأتي؟ استدار وانطلق بخفّة عجيبة، كالأرنب، بمحاذاة الحظيرة.

صرخَ به ايفان وهو يجري على آثاره:

ـ لن تُفلت مني.

وقبض عليه من ياقته، فانسل غافريلو من بين يديه وأمسك بهدب ثوبه. انخرق الهدبُ فوقع ايفان أرضاً.

لكنه سرعان ما نهض وهتف وهو يجري في إثره.

ـ النجدة! النجدة! أوقفوه!

بينما كان ايفان ينهض، انتهز غافريلو هذه المُهلةَ ليسبق خصمه. كان قريباً من فنائه عندما أفلح ايفان في اللحاق به. وحين أوشك أن يمسك به أحسّ بدوخةٍ، وكأنه أصيب بحجر في رأسه. كان ذلك من غافريلو الذي تناول بكلتا يديه جسراً من خشب السنديان، في اللحظة التي بلغ فيها منزله، وواجه عدوّه، فضربه ضربةً فظيعة على رأسه.

صُرِعَ ايفان، واهتزت الدنيا به؛ ثم غامت عيناه، وأظلمَ كل شيء، وترنح وانقلب على قفاه.

عندما صحا من إغماءته، كان غافريلو قد اختفى، ورأى حوله بوضوح وكأنه في وضح النهار؛ ومن صوب فناء ايفان سُمعَتْ فرقعة وتفجّرتْ كأنهما صادرة من آلة. أدار الفلاحُ رأسه: كانت حظيرته الخلفية تشتعل وامتدت النار إلى الحظيرة الجانبية، وأخذ يتساقط على المنزل، من وسط الدخان، شرارٌ ومعه قش.

صاح ايفان:

ــ لكن ماذا تفعلون، يا إخوتي؟

كان يرفع ذراعيه ويَخْفضهما بقلق، قائلاً في نفسه:

«ما كان عليّ إلاّ أن أنتزع حزمة القش الملتهبة، من التسقيفة. وأطفئها تحت قدميّ».

ويريد أن يصرخ لكن نفَسَه لا يُسعفهُ: تعذّر عليه إخراج صوت ويريد أن يركض، لكن رجليه تتعلّقان إحداهما بالأخرى وتأبيان أن تحملاه. ويجرّ نفسه بمشقّة، ويخطو خطوتين، ويترنّح على ساقيه، وينقطع تنفّسه مرة أخرى. ويقف، ويستردّ أنفاسه، ويتابع جرّه لنفسه. وبينما كان يدور حول الحظيرة الخلفية ليقترب من مركز الحريق، أخذت الحظيرة الجانبية تحترق بدورها. وامتدت النار إلى باب العربات وإلى زاوية من زوايا المنزل، اخذت تندفع منها ألسنة اللهب العالية وتعذّر دخول الفناء.

كان الجمهور يزدحم حول الأبنية المحترقة؛ لكن لم تكن ممكنة السيطرة على النار. نقلَ الجيران أثاثهم واقتادوا مواشيهم.

انتقلت النارُ من فناء ايفان إلى فناء غافريلو، واجتازت الشارع بتأثير الريح التي تضاعفت شدتُها، واستأصلت نصف القرية وكأنها كنستها بمكنسة.

استطاع الشيخُ بشقّ النفس أن ينسحب من منزل ايفان، كما نجا منه جميعُ أهله كما هم، وفيما عدا الجياد التي أخرجتْ في الليل، لم يمكن إنقاذ شيء من ألسنة اللهب: كل شيء احترق وتلفَ، الماشية، والدجاج في قنّه، والمحاريث، والمُشط، وصناديث الثياب، والقمح في الحظائر. أما في منزل غافريلو فقد أمكن إنقاذ الماشية، مع جزء من الموجودات.

صبغ الحريقُ، طوال الليل، السماء بحمرة ضيائه كان ايفان يردّد:

ـ عجباً! يا إخواتي؛ ما كان عليّ إلاَّ أن أسحب حزمة القش وأطفئها تحت قدمي.

لكنه عندما رأى سَقْفية منزله، تنهار، رمى بنفسه وسط اللهب، وتناول عارضة خشبية وجرّها. ثم عاد إلى غمرة النار، رغم صرخات وتضرّعات ذويه، ليسحب جسراً آخر.

تعثّر، هذه المرة، وسقط على الجمر. فركض ابنهُ إليه وانتزعه من النيران: ومع أن لحية ايفان وشعره ويديه وثيابه احترقت فلم يَبْدُ عليه أنه شعر بذلك.

قال الجمهور:

ـ مسكين، خَبلَه الحزن!

أخذت تتناقص شدّة الحريق، وظلّ ايفان يردّد، وهو مستمر في الموضع نفسه:

ـ عجباً! يا أخوتي، ما كان عليّ إلاَّ أن أسحب حزمة القش.

في مطلع النهار، أرسل عمدةُ القرية ابنه يستدعي ايفان.

ـ عم ايفان، أبوكَ يموت، ويود لو يراك.

في البداية، لم يفهم ايفان شيئاً مما قيل له. كان قد نسيَ أباه تماماً. وأجاب:

ـ أي أب؟ من الذي يريد أن أراه؟

ـ أبوك هو الذي يريد أن يراك؛ إنه يموتُ عندنا؛ فأسرعْ إليه، يا عم ايفان.

فهم ايفان أخيراً، وتبعَ ابن عمدة القرية. بينما كان يجري إنقاذ الشيخ تساقط عليه حطامٌ محترق فأحرقه حرقاً خطيرة. ونقل إلى منزل العمدة، في

الطرف الآخر من القرية، في ضاحية لم تمتدّ إليها يدُ الحريق.

عندما حضر ايفان، لم يجد في المنزل سوى امرأة العمدة العجوز وأولاده. أما الآخرون فقد ذهبوا جميعاً إلى مكان الحريق. كان الشيخ ينتظر ابنه، وهو متمدّدٌ على مقعد، وبيده شمعةٌ، وعيناه معلّقتان بالباب.

عندما دخل ايفان، بدرت من الشيخ حركةٌ. قالت له العجوز وهي تدنو منه:

ـ ابنكَ هنا.

أجاب الشيخ:

ـ قربيه مني.

عندما صار ايفان قرب أبيه، قال له أبوه:

ـ يا بني، أكنتُ على حق؟ مَنْ الذي أحرق القرية؟

أجاب ايفان بحدّة:

ـ هو، هو، يا والدي العزيز. فاجأته متلبساً بفعلته، رأيته يشعل السقف. تصوّرْ أنني ما كان عليّ إلاَّ أن أنتزع حزمة القش الملتهبة وأطفئها تحت قدمي؛ إذن لتحاشينا المصيبة.

استأنف الشيخ:

ـ ايفان، إنني أموت، وستموتُ أنت أيضاً. مَنْ الذي أَثِمَ؟

ظل ايفان جامداً، وعيناه على أبيه، عاجزاً عن الإتيان بأي صوت.

ـ تكلّمْ أمام الله: مَنْ الذي آثِمَ؟

حينئذٍ فقط، عاد إليه رشدهُ، وفهم. فارتمى على ركبتي أبيه، لاهثاً، منتحياً، وعيناه طافحتان بالدموع، وقال:

ـ أنا الذي أَثِمَ، يا أبـي العزيز. العفوَ!

أثِمْتُ بحقّكَ وبحقّ الله. أنا المذنب!

حرّك الشيخ يديه؛ أمسك باليسرى الشمعة، ورفع اليمنى إلى مستوى جبين ايفان، وأراد أن يرسم له إشارة الصليب؛ لكنه لم يستطع.

قال لابنه، وهو ينظر إليه:

ـ تبارك الله! تبارك الله! ايفان... هيا! ايفان!

ـ ماذا؟ يا أبـي العزيز!

ـ ما العمل، الآن؟

أجاب ايفان عبر دموعه:

ـ لا أدري، يا أبـي العزيز. لا أدري كيف سَنَحْيا في الوقت الحاضر؟

اغتمضت عينا الشيخ، وارتعدت شفتاه. ثم جمع كل ما بقِي له من قوى، وفتح عينيه وهمس:

ـ كونوا عادلين، وسوف تَحْيون.

توقف، وابتسم، وتابع:

ـ اصغ، يا ايفان، لا تخبر عن الذي أشعل النار. استرْ خطيئة الآخرين تُغْفَرْ لك خطيئتان.

وأمسك الشيخُ بالشمعة بين يديه كلتيهما، وضمّها إلى قلبه، وأرسل زفرةً، وتصلّب. لقد مات.

لم يَشِ ايفان بغافريلو، ولم يعلم أحدٌ مَنْ الذي أشعل النار.

لم يبق في قلبه أدنى كره لغافريلو؛ دهش غافريلو في أول الأمر، من أن ايفان لم يَشِ به، وكان قلقه أشد من دهشته، بيد أنه اطمأن في نهاية الأمر. وانتهت الخصومات بين الفلاحين وأفراد الأسرتين الذي قضوا معاً، في الفناء الوقت الذي استغرقه بناءُ المنزلين. وبعد أن صاروا جيراناً، عاشوا في وئام تام كما كان يعيش آباؤهم من قبل.

ولم ينس ايفان شتيرباكوف أبداً كلمات الشيخ الأخيرة، وهذه القاعدة الإلـٰهية وهي أنه يجب إطفاء النار في أولها. وإذا أراد أحدٌ أن يؤذيك فلا تنتقمْ منه، لكن أسعَ لإصلاح ذات البَيْن؛ وإذا شتمك أحدٌ فإياك أن تجيبه بشتيمة أسوأ منها. تحاش الكلام الفاحش. وعلّم ذويك أن يتحاشوه.

عاش ايفان شتيرباكوف منذ تلك اللحظة، أميناً لهذه المبادىء، وطاب نفساً بها.

• • •

الإبن بالمعمودية

(١٨٨٥م)

«سمعتم أنه قيل: عينٌ بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرَّ، بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً».

[متى ٥: ٣٨ ـ ٣٩]

«لأنه مكتوبٌ لي النقمة؛ أنا أجازي، يقول الربُّ».

[رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية:]

[١]

وُلِدَ لفلاح مسكينٍ ابنٌ؛ فيبتهج الفلاح بذلك، ويذهب إلى جاره يرجوه أن يكون عرّاباً؛ لكن الجار يرفض ذلك: لا يحب جاره أن يكون عراباً لإبن رجلٍ مسكين مثله. ويذهب الرجلُ المسكين إلى آخر فيرفض أيضاً.

دار القريةَ فلم يقبل أحد أن يكون عرّاباً. ويذهب الفلاحُ إلى قرية أخرى؛ ويصادف في طريقه عابر سبيل.

يقف عابر السبيل ويسأل.

ـ طاب يومك، أين يوجّه الله خطاك؟

أجاب الفلاح:

ـ لقد منحني الله ولداً لأعتني به في طفولته: سيكون عزاءً لشيخوختي

وسيصلّي لراحة نفسي بعد موتي، وبسبب فقري لم يقبل أحدٌ من قريتي أن يكون عراباً. أنا ذاهبٌ بحثاً عن عراب.

قال عابرُ السبيل:

ـ أتَخذْني عراباً.

فرحَ الفلاح، وشكر عابر السبيل وقال:

ـ ومَنْ ينبغي أن أتخذها عرّابة الآن؟..

قال عابر السبيل:

ـ إدعُ إبنةَ التاجر لتكون عرّابةً. إذهبْ إلى المدينة: في الساحة بيتْ ومعه مخازن؛ عند مدخل البيت أطلب من التاجر أن يدع إبنته تأتي لتكون عرّابةً.

تردّد الفلاحُ، وقال:

ـ وكيف أطلب ذلك، يا إشبيني، من تاجر غني. لن يقبل؛ لن يسمح لابنته بالمجيء.

ـ هذا ليس من شأنك. إذهبْ وأطلبْ. وكنْ مستعدّاً غداً صباحاً: سآتي للعماد.

عاد الفلاحُ إلى منزله، وربط جواده، وقصد بيتَ التاجر، في المدينة، ترك جواده في الفناء. وأقبل التاجر نفسه عليه. وقال:

ـ ماذا تريد؟

ـ القضيةُ، يا سيدي التاجر، إن الله رزقني ولداً لأعتني به في طفولته، وسيكون هو عزاء لشيخوختي وسيصلي من أجل راحة نفسي بعد موتي. تكرّمْ علي، واسمحْ لابنتك أن تأتي لتكون عرابة.

ـ ومتى العماد؟

ـ غداً صباحاً.

ـ حسنٌ. إمض والله معك. غداً، ستأتي عند قدّاس الصباح.

في اليوم التالي، وصلت العرّابةُ، ووصل العرّابُ أيضاً، وعُمِّد الولد.

ومنذ ذلك الوقت لم يره أحدٌ قط.

ما أن انتهى العماد حتى خرج العرّاب، دون أن نعلم مَنْ هو؛

[٢]

كبر الولدُ، وكبر من أجل فرح أهله: كان قوياً، مثابراً على العمل، ذكياً، مطيعاً. كان عمره يناهز العاشرة، عندما وضعه أهله في المدرسة. وما يتعلّمه الآخرون في خمس سنوات تعلّمه هو في سنة: ولم يبق شيء يتعلّمه.

ويجيء الأسبوعُ المقدّسُ. فيذهبُ الصبي إلى عرابته للتهاني المعتادة[١]. ثم يعود إلى بيته ويسأل:

ـ يا أبي العزيز، ويا أمي العزيزة، أين يقطن عرّابي؟ أود لو أذهب إليه لأهنئه بالعيد.

قال له الأب والأم:

ـ لا نعلم، أيها الإبن الحبيب، أين يقطن عرّابُك. ونحن حزينون لذلك. لم نره منذ أن عمدّك. ولم نسمع عنه شيئاً، ولا نعرف أين يقطن، ولا إن كان ما يزال حيّاً.

حيّا الإبنُ أباه وأمه، وقال:

ـ دعاني أذهب للبحث عن عرّابي، يا والدي العزيز ويا أمي العزيزة سأجده وسأهنئه بالعيد.

ترك الأبُ والأمُ إبنهما يذهب. وبدا الصبيُّ بحثه عن عرابه.

---

(١) إشارة من تولستوي إلى الكلمات الجوهرية التي يتبادلها الروس، إذ يُقبّل بعضهم بعضاً على الشفاه، في يوم الفصح: ـ المسيح قام! ـ حقاً قام!

[٣]

خرج الصبيُّ من المنزل ومضى على الدرب. سار نصف النهار وصادف عابر سبيل.

أوقف عابرَ السبيل، وقال له:

ــ طاب يومك، إلى أن يقودُ الله خطاك؟...

وتابع الصبـي:

ذهبتُ إلى عرّابتي العزيز لأهنئها بالعيد؛ وعند عودتي إلى البيت سألت والديَّ: أين يقطن عرّابـي؟ أودّ لو أهنّئهُ بالعيد. فقال لي والدي: لسنا نعلم أيها الإبن العزيز، أين يقطن عرابك. فمنذ أن عمدّك إستأذن وانصرف ولا نعلم شيئاً عنه، ولا إن كان ما يزال حياً. وهائذا ذاهبٌ للبحث عنه.

قال عابرُ السبيل:

ــ أنا عرّابك.

فرح الصبيُ وهنأه بالعيد وتعانقا.

قال الصبيّ:

ــ وأين تذهب الآن، يا عرّابـي. إن كنتَ ذاهباً صوبنا، فتعال إلى بيتنا، وإن كنت ذاهباً إلى بيتك فسوف أصحبكَ.

قال العرابُ:

ــ ليس عندي الآن وقتٌ للذهاب إلى بيتك؛ لي شغلٌ في القرى؛ لكني سأعود إلى بيتي غداً. فتعال حينئذٍ إلى بيتي.

ــ لكنْ كيف سألقاك، يا عرابـي؟

ــ حسناً! إمشِ في الجهة التي تطلع منها الشمس، على خط مستقيم؛ ستصل إلى غابة، وستجد فرجةً وسط الغابة. إجلسْ في هذه الفرجة، واسترحْ، وانظرْ إلى ما سيحدثُ لاحظْ جيداً ما سترى، وامضِ إلى أبعد من ذلك. إمشِ

دائماً على خطّ مستقيم. ستخرج من الغابة، وستجد بستاناً، وستجد في البستان قصراً سقفُه من ذهب فذلك هو بيتي. إقتربْ من الباب الكبير. سآتي أنا إلى لقائك.

قال العرابُ ذلك، واختفى عن عيني الصبـي.

[٤]

سار الصبيُ كما أوصاه عرّابُه. سار، وسار، فوصل إلى الغابة. وجد الصبيُّ فرجةً في الغابة، وفي وسطها شجرة صنوبر. فجلس وأخذ ينظرُ. رأى حبلاً مربوطاً بغصن، وبالحبل رُبطت قطعةٌ كبيرةٌ من الخشب وزنها ثلاثة بودات[1]، وتحت هذه القطعة سطلٌ من العسل. لم يكد يتسنّى للطفل أن يتساءل لمَ كان العسلُ هنا، ولم كانت هذه القطعة الخشبية المربوطة بحبل، حتى سمع ضوضاء في الغابة. رأى دبةً مُقْبلةً. الدّبةُ في المقدمة؛ ووراءها دبٌّ صغير عمره سنةٌ ووراءه ثلاثة دببةٍ صغار. شمَت الدبةُ النسيمَ، ومضتْ نحو السطل؛ تبعها الصغار. أدخلت الدبةُ خطمها في العسل، ونادت الصغار التي سارعت وأخذت تأكل. إنحرفتْ قطعةُ الخشب قليلاً، ثم عادت إلى وضعها الأول. تبيّنت الدبةُ ذلك فدفعتْ قطعة الخشب بقائمتها. إنحرفت قطعةُ الخشب أكثر وعادت فضربت الصغار، هذا في ظهره، وذاك في رأسه أخذت الدببةُ الصغار تصيحُ وابتعدت. أطلقت الدبةُ هديراً، وأمسكت بها بكلتا قائمتيها فوق رأسها، ودفعتها بقوة بعيداً عنها؛ فارتفعت الخشبة عالياً؛ عاد الدبُّ الصغير الأول إلى السطل وأَدخلَ خطمه في العسل وأكل. وأخذت الصغار الأخرى تقترب؛ لم يكد يتسنّى لها أن تصل حتى سقطت الخشبة على الدب الصغير الأول، وأصابته في رأسه، وقتلته.

---

(١) جمع «بود» أي نحو ٥٠ كغ.

أخذت الدبّةُ تَهدر هديراً أشد من ذي قبل، ودفعت الخشبة بكل قواها، فَعَلت فوق الغصن؛ حتى أن الحبل إلتوى. وهجمت الدبة وصغارها على السطل. كانت الخشبة تطير، تطير إلى الأعلى؛ ثم وقفت وبدأت تعود. وكلما هبطت تسارع هبوطها. ووصلت بسرعة عظيمة حتى أنها عندما بلغت الدبة وأصابتْ رأسها، حطّمت جمجمتها تحطيماً؛ سقطت الدبة وهي تدور على نفسها، ومدت قوائمها، وماتت فهربت الدببة الصغار.

[٥]

تابع الصبيّ طريقه وقد تملكته الدهشةُ. وصل بستاناً كبيراً، وكان في البستان قصرٌ عظيم سقفه من ذهب. وعند الباب الكبير وقف العرّاب باسماً.

رحّب العراب بابنه في المعمودية، وأدخله، ومشيا كلاهما في البستان لم يرَ الصبيُّ حتى في الحلم من صنوف البهاء ما رآه في البستان. أدخل العرابُ إبنه بالمعمودية القصر. كان القصر أعجبَ أيضاً.

قاد العرابُ الصبيّ إلى الغرف جميعاً، وكانت كلهامثالاً للحسن والبهجة؛ حتى بلغ به باباً مختوماً. وقال:

ــ أترى هذا الباب؟ إنه ليس مقفلاً، هو مختومٌ فقط، يمكن فتحه، لكن لا ينبغي أن تدخل منه.. إبق هنا ما شئت، وتجوّل ما شئت، وكيفهما شئت، تمتّع بكل المسرّات؛ لكن عبور هذا الباب محظور عليك، وإذا عبرته فتذكّر حينئذٍ ما رأيته في الغابة.

قال العرّاب هذا، واستأذن إبنه بالمعمودية. ظل الإبن بالمعمودية في القصر وعاش فيه. ولقي فيه الكثير من المسرة والفتنة حتى أنه إعتقد بعد ثلاثين عاماً إنه لم يقض سوى ثلاث ساعات. ولما إنقضت هذه السنون الثلاثون، دنا الإبن بالمعمودية من الباب المختوم وفكّر.

«لمَ منعني العرابُ دخول هذه الحجرة؟ سأدخل لأرى ما في داخلها».

دَفعَ البابَ، فانكسر الختم وانفتح الباب دون جهد. إجتاز الإبن بالتبني العتبة، رأى قاعة إستقبال أبدع من كل الغرف الأخرى، ورأى في وسطها عرشاً من ذهب. مشى هذا الإبن بالمعمودية عبر القاعة، دنا من العرش، وصعد الدرجات، وجلس عليه. جلس ورأى قرب العرش صولجاناً. أخذه بيديه. وفجأة إنهارت جدر القاعة الأربعة. نظر الإبنُ بالمعمودية، فرأى العالم بأسره، ورأى كل ما يفعله الناس في هذا العالم.

«سأنظرُ إلى ما يجري عندنا».

نظر أمامه فرأى البحر، والسفن مبحرة. نظر إلى اليمين فرأى شعوباً مُهرْطقة. نظر إلى اليسار فرأى المسيحيين، لا الروس؛ نظر خلفه فرأى الروس، روسنا.

«سأرى الآن إن كان القمحُ قد طلعَ عندنا».

نظر إلى حقله، فرأى الحزم التي لم تُكدَّس كلها بعد. أخذ يحصي الأكداس ليرى إن كان هناك قمحٌ وافر، فرأى عربةً تمرّ في الحقل، وفيها فلاح. ويظن الإبن بالمعمودية هذا الفلاح أباه آتياً من الليل ليرفع قمحه. لكنه يكتشف أن فاسيلي كودرياشوف اللص هو الذي يمضي في العربة، ويقترب اللص من أكداس القمح، ويشرع في تعبئة عربته. فيغضب الإبن ويصرخ:

ــ يا أبـي العزيز، لقد سُرقتْ الأكداس من حقلك!

ويُفيق الأبُ مذعوراً، ويقول:

ــ رأيت في الحلم أن الأكداس تسرق؛ سأذهب لأرى.

يمتطي جواده ويذهب. ويصل الحقل فيشاهد فاسيلي، فينادي الفلاحين. يُضرَب فاسيلي ويقيّد ويُساق إلى السجن.

ينظر الإبنُ أيضاً إلى المدينة التي تقطنها عرابتُه. فيراها وقد تزوجتْ

تاجراً. يراها تنام ويرى زوجها ينهض ويجري إلى عشيقته. فيصيح الإبن بزوجة التاجر:

ـ إنهضي، فزوجُك يفعل أفعالاً دنيئةً.

فتنهض العرّابة على عجلٍ، وترتدي ثيابها، وتجد البيتَ الذي قصده زوجُها، فتوسعُه شتماً، وتضرب العشيقةَ، وتطرد زوجها من عندها.

وينظر أيضاً إلى أمه، فيراها نائمةً في المنزل. ويرى لصاً يدخل المنزل ويبدى بتحطيم الصناديق.

تنهض المرأة، وتُطلق صراخاً. حينئذٍ يمسكُ اللص بفأس ويرفعه فوق المرأة، ويوشك أن يقتلها.

لم يستطع الإبنُ أن يتمالك نفسه، فيرمي اللصَّ بالصولجان، ويُصيبه في صدغه بالذات فيقتله.

[٦]

ما إن قتلَ الإبنُ بالمعمودية اللصَ حتى إنتصبت الجدرُ مرةً أخرى، واستعادت قاعةُ الإستقبال مظهرها العادي. وينفتح الباب، ويدخل العرابُ، ويدنو من إبنه بالمعمودية، ويأخذه بيده، وينزله عن العشر، ويقول:

ـ أنتَ لم تُطع أوامري: الشيء السيء الأول الذي عملتَه، هو أنك فتحتَ باباً ممنوعاً فتحُه؛ الشيءُ السيء الثاني هو أنك إعتليتَ العرش وأنك أخذتَ صولجاني بيدك؛ الشيءُ السيءُ الثالث هو أنك أضفت الكثيرَ من الشرور إلى شرور العالم. ولو بقيت ساعةً فوق ذلك لقلبتَ نصف الجنس البشري.

وأَصْعدَ العرّاب إبنه بالمعمودية على العرش. وأخذ الصولجان بيديه. ومرة أخرى، سقطت الجدُرَ، ومرةً أخرى إنكشفَ العالم.

وقال العراب:

ـ أنظر الآن، ماذا فعلتَ بأبيك. هذا فاسيلي يقضي سنةً في السجن.

وفي السجن خَبرَ الشرَّ كله، وغدا مسعوراً تماماً. أنظرْ، ها هو يسرق جيادُ أبيك، وأنتَ تراه يُشعل المنزل.

ما أن رأى الإبنُ إشعال النار في منزل أبيه، حتى حجب عنه العرّابُ هذا المشهد، وأمره أن ينظر إلى موضع آخر.

قال:

أنظرْ إلى زوج عرّابتك. فمنذ أن هجر زوجته، قبل سنة، وهو يلهو مع الأُخريات، في حين أن الأمرَ إنتهى بزوجته إلى إتخاذ عشيق لها، بعد أن قاومت، وقاومت. هذا ما فعلْتَه بعرابتك.

حَجبَ العرابُ هذا المشهد أيضاً عن إبنه بالمعمودية، وأراهُ بيتَ أهله. شاهد أمه تبكي ذنوبها وتتحسّر وتقول: كان الأجدر بـي أن يقتلني ذلك اللص حينئذٍ؛ إذنْ لما كنتُ أرتكبُ كل هذه الذنوب.

ـ هذا ما فعلتَه بأمك.

حجب العرّاب هذا المشهد أيضاً، وأمره أن ينظر إلى تحت. شاهد الإبنُ اللصَّ: كان يقبض على اللص حارسان، أمام السجن.

وقال العرّابُ:

ـ هذا الرجل قتل تسعة أنفسٍ. كان عليه أن يكفّر عن ذنوبه. لكنك قتلتَه فحملتَ ذنوبه. وأنت الآن مسؤولٌ عنها. فانظرْ إلى ما فعلتَه بنفسك... وأنا أعطيكَ مهلةَ ثلاثين عاماً؛ عشْ بين الناس وكفِّر عن ذنوب اللص. إذا كفّرتَ عنها فأنتما كلاكما حرّان؛ وإن لم تكفِّرْ عنها، فأنت الذي سيذهب إلى مكانه.

قال الإبنُ:

ـ لكنْ كيف يكفّر المرءُ عن ذنوبه؟

أجابه العرّاب:

ـ عندما تهدم مقداراً من الشرور، في هذا العالم، يعادل المقدار الذي

إرتكبتَه، حينئذٍ تكفّر عن ذنوبك وذنوب اللص.

وسأل الإبن:

ـ لكن كيف تَهْدمَ الشر؟

قال العرّاب:

ـ إمشِ على خط مستقيم في الجهة التي تطلع منها الشمسُ، ستجد حقلاً، وستجد في الحقل ناساً. لاحظْ ما يفعلُه الناسُ، وعلّمهم ما تعلمه. ثم إمضِ إلى أبعد من ذلك، لاحظْ كلَّ ما تراه. ستصل، في اليوم الرابع، إلى غابة؛ ستجدُ، في الغابة، صومعة؛ وفي الصومعة يسكن شيخٌ. أرو له كلَّ ما وقَعَ لك. سوف يعلّمك. وعندما تفعل كلَّ ما يأمرك به الشيخ، حينئذٍ تكفّر عن ذنوبك وذنوب اللص.

هكذا قال العراب. وشيّع ابنه بالمعمودية إلى خارج القصر، وأغلق الباب.

[٧]

سافر الإبنُ. كان يفكر وهو يمشي: «كيف يجب أن أَهْدم الشرّ في العالم؟ هل نَهْدم الشرَّ في العالم بنَفْي الناس، وبسجبهم، وباستئصال حياتهم؟ كيف يجب أن أفعل لكي لا أتحمّل تَبِعةَ الشر، ولكي لا آخذ على عاتقي ذنوبَ الآخرين؟».

ظلّ الإبنُ بالمعمودية يفكر ويفكر، دون أن يتمكن من حل المسألة.

مشى، ومشى؛ وصل إلى حقلٍ. في هذا الحقل طلع قمحٌ بلغ نضجه؛ وكان ذلك في موسم الحصاد. رأى الإبن أن عجلاً قد خاطر بنفسه في هذا القمح. شاهده الحصدةُ، فامتطو جيادهم وطاردوه خلال القمح في كل الإتجاهات. فما أن يوشك العجلُ على الخروج من القمح حتى يتصدّى له فارس، فيخاف، ويدخل القمح مرة أخرى، فيُطارَدُ مرةً أخرى. كانت الفلاحة

صاحبة العجل حاضرةً تبكي وتقول: سينهكون لي عجلي!

أخذ الإبنُ يقول للفلاحين:

ــ لمَ تَسْتخدمون هذه الطريقةَ مع العجل؟ لن تخرجوا أبداً هكذا. أخرجوا جميعاً من القمح. ولتُنادِ الفلاحةُ عجلها.

أطاعه الفلاحون. ودنتْ الفلاحةُ من الحقل وأخذت تنادي:

ــ تروبسي! تروبسي! بوريونوشكا![1] تروبسي! تروبسي!

مدّ العجل أذنه، وأصغى، وجرى نحو المرأة؛ أسرع نحوها على إستقامة واحدة، وفرك بها خطمه حتى كاد يوقعها. سُرَّ الفلاحون، وسُرَّت الفلاحةُ وعجلُها.

مضى الإبن إلى أبعد من ذلك، وفكّر: «إني أرى الآن أن الشر يتضاعف بالشر. وكلما طارد الناسُ الشر نمّوه. يجب إذن ألا نَهْدم الشرَّ بالشر. فكيف نهدمُه؟ لا أدري. حسنٌ أَنّ العجلَ أطاع صاحبته: لكن لو لم يُطعها فكيف تأتي به؟».

فكّر الإبنُ وفكّر، دون أن يجد حلاً. وأبْعَدَ في مشيه.

[٨]

مشى ومشى، ووصل قريةً. سأَل صاحبةَ بيت أن تَدَعَه ينام في بيتها. وافقتْ على ذلك. لم يكن أحدٌ في البيت الذي كانت صاحبة البيت تنظّفه.

دخل الإبن، وصعد الموقد، وأخذ ينظر إلى ما تصنعه صاحبةُ البيت. رأى أنها كانت تنظف الطاولات والمقاعد جميعاً بفُوَط وسخة. كانت تنشّف الطاولة بالفوطة فتلطّخها بالبقع. وتُنشّف البُقَع فتُحدث بقعاً جديدة وهي تنشّفها. فتترك الطاولة وتنشّف المقعد. فيَحْدُثُ الشيءُ نفسه. كانت توسّخ كل

---

(١) تصغير بورايا: السمراء؛ تصغير تحبب.

شيء بفوط وسخة. فإذا نُشِّفتْ بقعة وُسِّخت بقعةٌ أخرى.

نظر الإبنُ، ونظر، وقال:

ــ ماذا تفعلين، يا ترى، أيتها السيدة؟

ــ ألا تعلم أنني أَغْسل من أجل العيد؟ لكني لم أستطع أن أنظف. كل شيء وسخ، وأنا منهوكةٌ.

ــ لكن ينبغي أولاً أن تغسلي الفوطة، وحينئذٍ تنشّفين.

أطاعتهُ صاحبة البيت، ونظفت بعد ذلك الطاولات والمقاعد. فغدا كلُ شيء نظيفاً.

في صباح اليوم التالي، ودّع الإبنُ صاحبةَ البيت، وتابع طريقه. مشى، ومشى، فوصلَ غابةً. ورأى فلاحين منهمكين في صنع إطار عربة. دنا الإبن ورأى الفلاحين يَدُورون، لكن الإطار لم يكن يلتوي.

قال:

ــ ليكن اللهُ في عونكم.

قالوا:

ــ ليُنقذْكَ المسيح.

نظر الإبن فرأى أن الدعامة كانت تدور مع الإطار، لأنها لم تُثبَّت. نظر فقال:

ــ ماذا تفعلون، يا إخوة؟

ــ أنظر: نحن نلوي الإطار، وقد عرضْناه على الماء المغليّ مرتين؛ نحن مُنْهكون والخشب يأبى أن يلتوي.

ــ لكن يجب أن تُثبّتوا الدعامة، يا إخوة؛ لأنها تدور معكم.

عمل الفلاحون بنصيحته، وثبّتوا الدعامة، وسار كلُّ شيء سيراً حسناً.

قضى الإبنُ ليلةً عندهم، وتابع طريقه. مشى النهار كله والليل كله. وفي

الفجر صادف رُعاة. فنام بقربهم، ورأى أنهم يُشعلون ناراً. كانوا يأخذون دِقاق الحطب الجاف فيشعلونها، ثم لا يصبرون عليها حتى تلتهب، فيضعون فوقها الشوك الرطب، فيأخذ الشوكُ بالصفير وهو يدخّن، ويطفى النار. فيتناول الرعاةُ مرة أخرى الحطب الجاف ويشعلونه ويضعون الشوك الرطب فتنطفىء النارُ مرة أخرى. ويُجهدُ الرعاةُ أنفسهم زمناً طويلاً ولا يُفلحون في إشعال النار. فيقول لهم الإبن:

ــ لا تستعجلوا وضعَ الشوك، لكن أشعلوا أولاً النارَ جيداً، اصبروا عليها حتى تلتهب؛ فإذا إلتهبت ضعوا الشوك حينئذٍ.

فعل الرعاةُ كذلك. تركوا النار تلتهب، ثم وضعوا الشوك. فهبّت النار وفرقعتْ.

ظلّ الإبنُ بعضَ الوقت معهم، وتابع طريقه. وكان يتساءل لم رأى هذه الأشياءَ الثلاثة. ولم يكن يفهم شيئاً من ذلك.

[٩]

مشى الإبن ومشى؛ انقضى نهار. وصل إلى غابة؛ في الغابة صومعة. إقترب الإبن وقرع البابَ. سأل صوتٌ من الداخل.

ــ مَنْ الطارق؟

ــ مذنبٌ كبير. أريد أن أكفرّ عن ذنوب الآخرين.

ــ خرج الشيخُ وسأل:

ــ وما ذنوبُ الآخرين التي أخذتَها على عاتقك؟

روى له الإبنُ كلَّ شيء: الدبة وصغارها، والعرش في القاعة المختومة، وما أمره به عرّابه، وما رآه في الحقول، والفلاحين وهم يلاحقون العجل ويدوسون القمح، وكيف أن العجل ذهب من نفسه إلى صاحبته.

وقال:

ـ فهمتُ أننا لا يجب أن نَهْدم الشرّ بالشر، لكني لا أستطيع أن أفهم كيف يجب هَدْمُه. فعلّمني كيف.

قال الشيْخُ:

ـ لكنْ، قلْ لي، ماذا رأيتَ أيضاً على الطريق؟

حدّثه الإبنُ عن ربة المنزل، وكيف كانت تنظّف؛ وعن الفلاحين وكيف كانوا يلوون الإطار؛ وعن الرعاة، وكيف كانوا يُشعلون النار.

كان الشيخ يُصغي. عاد إلى صومعته وجاء منها بفأسٍ صغيرة متلّمةٍ. وقال له:

ـ تعال:

تقدَّم الشيخ نحن فرجةٍ صغيرة، أمام الصومعة، وأشار إلى شجرة، وقال:

ـ إقطعْها.

قطع الإبنُ الشجرةَ، فانهارتْ.

ـ الآن، قطعْها إلى ثلاث قطع.

فشقّها الإبن إلى ثلاث قطع.

دخل الشيْخُ الصومعة، مرةً أخرى، وجاء منها بنار، وقال:

ـ أَحرقْ هذه القطع الثلاث.

أشعل الإبن ناراً وأحرقها. فصارت ثلاثَ قطعٍ من الفحم.

ـ أدفن الآن هذه الفحمات الثلاث في الأآض. هكذا.

فدفنها الإبنُ.

ـ أترى ذلك النهرَ عند سفح الجبل؟ إذهبْ إليه واستقِ ماءً بفمك، وأسقِ بذلك الماء الفحمات الثلاث. إسقِ الفحمةَ الأولى كما علّمتَ ربة المنزل؛ وأسقِ هذه الفحمةَ كما علّمتَ تجاري العربات؛ وأسقِ الثالثة كما

علّمتَ الرعاة. وعندما تنبتُ قطعُ الفحم الثلاث، وتطلع منها ثلاثُ شجرات تفاح، حينئذٍ ستعلم كيف يُهدَم الشر.

قال الشيْخُ ذلك وعاد إلى صومعته. فكّر الإبن وفكّر. لم يكن بوسعه أن يفهم ما قاله الشيخ. وبدأ يفعل كما أُمِرَ.

[١٠]

إقترب الإبنُ من النهر، واغترفَ منه ملءَ فمه ماءً، وسقى الفَحْمة الأولى، ومشى ثم مشى؛ سافر إلى النهر مائة مرة قبل أن تبتل الأرض بما يكفي حول الفحمة. وحينئذٍ بدأ يسقي الفحمتين الأُخريين. تَعبَ الإبنُ وجاع. فقصد الشيخَ يطلب طعاماً. فتح البابَ: كان الشيخُ ميتاً على مقعد.

نظر حوله فرأى كسراً من الخبز فأكل. ووجد معولاً، فأخذ يَحْفر حفرةً للشيخ. كان، في الليل، يَحْملُ الماءَ ليسقي، وفي النهار يَحْفر حفرةً للشيخ. كان، في الليل، يَحْمل الماءَ ليسقي، وفي النهار لولا أن وصل من القرية ناسٌ يحملون طعاماً للشيخ. وعلموا أن الشيخ مات بعد أن بارك الإبنَ بالمعمودية. فساعدوا الإبنَ على دفن الشيخ، وتركوا خبزاً، ووعدوا بأن يأتوا بالمزيد من الخبز، ثم سافروا.

ظل الإبنُ يعيش في مكان الشيخ؛ عاش فيه يقتاتُ مما يَحْمله إليه الناس، واستمرّ يُنفِّذ وصايا الشيخ، مستقياً الماءَ من النهر وساقياً الفحمات الثلاث. عاش الإبنُ سنةً على هذا المنوال. أخذ كثيرٌ من الناس يزورونه. وشاعَ الخبرُ أن في الغابة قديساً يسعى لخلاص نفسه، ويسقي بفمه قطعاً من الحطب المحترق. فأخذوا يزورونه ويطلبون مشورته ورأيه. وجاءه أيضاً تجارٌ أثرياء يحملون إليه الهدايا. وكان الإبنُ لا يأخذ شيئاً لنفسه، إلاَّ ما يحتاج إليه؛ وكان يوزّع على الفقراء كلَّ ما يُعطيه إياه الناس.

كان الإبنُ يقضي وقته بلا فراغ: كان يحمل بفمه ماء ليسقي الفحمات في

نصفٍ من النهار، وفي النصف الآخر، كان يستريح ويستقبل الزوار. وأخذ يعتقد أنه ينبغي أن يعيش هكذا، وأنه هكذا يَهْدم الشر ويكفّر عن الذنب.

وعاش على هذا المنوال سنة ثانيةً، ولم يكن ينقضي يوم دون أن يسقي الفحمات، ومع ذلك لم تنبت أيٌّ منها. وذات يوم، كان في صومعته، فسمع فارساً يمرّ وهو يغني. خرج الإبن ليرى مَنْ الرجل؛ رأى شاباً قوياً، جميلة ثيابه، جميلاً جواده وجميلاً سرجه. أوقفه الإبن وسأله مَنْ هو وإلى أين يذهب.

توقّف الرجل وقال:

ـ أنا قاطع طريق، أطوف في الدروب، وأقتلُ الناس. وكلما قتلت إزدادت أغنياتي مرحاً.

فكّر الإبنُ وقد إرتعب: «كيف تطرد الشر من هذا الرجل؟ من السهل أن أكلّم الذين يأتون إلي ليتوبوا من أنفسهم. أما هذا فهو يفتخر بذنوبه».

أراد الإبن أن ينصرف، لكنه فكّر: «كيف أفعل؟ هذا اللص سيمر من هنا، وسيرعب الناس؛ وسيكف الناس عن زيارتي، ولن أستطيع أن أكون نافعاً لهم، ولا أن أعيش أنا نفسي».

توقّف وشرع يقول لقاطع الطريق:

ـ «يجيء إليّ المذنبون، لا ليفتخروا بذنوبهم، بل ليتوبوا وليتطهروا فتب أنت نفسك، إن كنتَ تخشى الله، وإذا كنت لا تريد أن تتوب فانصرف من هنا ولا تعد؛ ولا تعكر صفوي، ولا ترعب الذين يأتون إليّ. فإن لم تُصغ إلي عاقبك الله.

أخذ قاطعُ الطريق يضحك، وقال:

ـ أنا لا أخشى الله ولا أطيعك. لستَ سيّدي. أنت تقتات بتقاك، وأنا أقتاتُ بقطع الطريق. كل الناس يجب أن يقتاتوا، علِّمْ النساء اللواتي يزرنك، أما أنا فلستُ بحاجةٍ إلى التعلم. وبما أنك ذكّرتني بالله، فسأقتل غداً رجلين

زيادة؛ وكنت سأقتلك على الفور، لولا أني لا أريد أن ألطّخ يديّ، ولا تعترض طريقي من الآن فصاعداً.

بعد أن هدّد قاطعُ الطريق هذا التهديد. انصرف.

أخذ الإبن يخشى قاطع الطريق، منذ ذلك الوقت. لكن قاطع الطريق لم يمرّ بعد ذلك، فعاش الإبن عشيةً مطمئنةً.

[١١]

قضى الإبنُ ثماني سنوات على هذا المنوال؛ بدأ الضجر يدبّ إليه. وذات ليلة، سقى فحماته، وعاد إلى صومعته، فتناول فطوره، وأخذ ينظر إلى الطريق الذي سيأتي منه الناس. في هذا اليوم، لم يأتِ أحدٌ. وظل الإبن جالساً وحده حتى المساء، وأخذ يفكّر في حياته، تذكر كيف أن قاطع الطريق لامه لأنه لا يقتات إلاّ من تقاه، وأنه توعّد بقتل رجلين زيادةً، لأنه ذكره بالله. ظل الإبن ساهماً يفكّر، واسترجع في ذاكرته حياته الماضية.

فكّر: «ليست هذه هي الطريقة التي بها أمرني الشيخ أن أعيش. منحني الشيخُ سرَّ التوبة، وها أنا أجني منها الخبز والمجد. وهذا يسرني كثيراً حتى أني أصاب بالضجر عندما لا يأتيني الناس. وإذا جاء الناس، كانت فرحتي الوحيدة أن يمدحوا قداستي. ليست هذه هي الطريقة التي ينبغي أن أعيش بها. تركتُ نفسي تثمل بالمديح. لم أكفّر عن ذنوبٍ سلفتْ، بل إني حمّلت نفسي ذنوباً جديدة. سأمضي إلى الغابة، إلى مكان آخر، لا يراني فيه أحد. وسأعيش وحدي مكفّراً عن ذنوبي القديمة، ولن أحمّل نفسي ذنوباً جديدة.

هكذا فكّر الإبن بالمعمودية؛ أخذ مزوداً صغيراً من كسر الخبز، ومعولاً، وهجر الصومعة ليحفر خلوة له في مكان قَفْرٍ.

سار الإبن ومعه المزود والمعول فصادف قاطع الطريق. خاف الإبن وأراد أن ينصرف، لكن قاطع الطريق لحق به. وقال: ــ إلى أني تذهب؟

أخبره الإبنُ عن مشروعه.

دُهشَ قاطعُ الطريق. وقال:

ـ لكن ممّ ستعيش الآن بعد أن ينقطع الناس عن زيارتك؟

لم يكن الإبنُ قد فكّر في ذلك من قبل. لكنه فكر عندما سأله قاطعُ الطريق عن ذلك، وقال:

ـ مما يرسله الله إليّ.

لم يجب قاطع الطريق بشيء وانصرف:

أخذ الإبنُ يفكّر: لمَ لم أقلْ له شيئاً عن نمط حياته؟ ربما تاب الآن فهو يبدو أودع وهو لا يهدّد بقتلي.

صاح الإبنُ من بعيد بقاطع الطريق:

ـ ينبغي لك، مع ذلك أن تتوب، فلن تنجو من عقاب الله.

إنقلب قاطع الطريق راجعاً بجواده، واستلّ خنجراً من زناره ورفعه على الإبن. خاف الإبن واختبأ في الغابة.

لم يشأ قاطع الطريق أن يلحق به واكتفى بأن قال:

ـ صفحتُ عنكَ مرتين؛ فلا تعترض طريقي بعد الآن. سأقتلك في المرة الثالثة.

قال ذلك وانصرف.

أقام الإبنُ في موضع آخر. وذهب مساءً يسقي الفحمات، فرأى أن إحداهما أخذت تنمو، وأن تفاحة قد خرجت منها.

[١٢]

تجنّب الإبنُ الناس، وصار يعيش وحده. نفد الخبز، ففكّر:

ـ حسناً! سأبحث عن الجذور.

وبينما كان ذاهباً يبحث عنها، شاهد على غصنٍ مزوداً صغيراً فيه كسرُ

خبز. أخذه الإبن وبدأ يقتات منها. وما أن نفد هذا الخبز حتى وجد مرة أخرى، على الغصن نفسه، مزوداً صغيراً.

وهكذا عاش الإبن عيشة راضية عشر سنوات أخرى. طلعت شجرة تفاح، وظلت الفحمتان الأخريان، فحماً، كما كانتا. ذات يوم، نهض الإبنُ مبكّراً ومضى إلى النهر، فملأ فمه ماءً وسقى الفحم، عاد إليه مرة، عاد مائة مرة، وسقى الأرض حول الفحم، وتعب، فجلس ليستريح. كان جالساً يستريح وإذا به يسمع قاطع الطريق يمر وهو يجدف.

سمعه الإبنُ وفكّر:

ــ يجب أن أختبىء خلف الشجرة، وإلاَّ قتلني من أجل لا شيء، ولن يتسنى لي التكفير عن ذنوبـي.

وبينما كان يمرّ خلف الشجرة، فكّر:

«مهما يُصبْني من خير أو شر فمن الله، لا من الناس، وأين أستطيع أن أختبىء عنه؟».

خرج الإبنُ من خلف الشجرة، ولم يختبىء. رأى قاطع الطريق يمرّ وقد أَرْدف وراءه رجلاً موثَقَ اليدين، مكمّم الفم. كان الرجل يئن، وقاطع الطريق يجدّف، إقترب الإبنُ من قاطع الطريق، ووقف أمام الجواد.

قال قاطعُ الطريق:

ــ ما زلتَ حيّاً! لعلك ترغب في الموت؟

قال الإبنُ:

ــ أين تقودُ هذا الرجل؟

ــ أقوده إلى الغابة. إنه ابنُ تاجرٍ. لم يشأ أن يقول لي أين خُبِّىءَ مالُ أبيه، سأُعذّبه حتى يُعْلمني بذلك.

أراد قاطعُ الطريق أن يتابع طريقه.

فيمسك الإبنُ الجوادَ بلجامه، ويأبى أن يُرخيه، ويطلبُ إطلاق سراح ابن التاجر. فيغضب قاطعُ الطريق، ويرفع يده عليه، ويقول:

ـ دع اللجام، وإلاَّ أصابكَ ما أصابه. إن قداستك لا تخدعني.

لم يخف الإبنُ، وقال:

ـ أنا لا أخافك، أنا لا أخاف غير الله. والله يمنعني من أن أدعك تمرّ. لن أُرخي اللجام.

قطّب قاطعُ الطريق بين حاجبيه، واستلّ خنجره، وقطع الحبال، وأطلق سبيل ابن التاجر. قال:

إنصرفا كلاكما، ولا تعترضا طريقي مرة أخرى.

قفز ابنُ التاجر وولّى هارباً. أراد قاطعُ الطريق أن يمرّ، لكن الإبن بالمعمودية أوقفه أيضاً وأَخذ يطلب إليه أن يهجر حياته الفاسدة. ظلّ قاطعُ الطريق بلا حراك، وأصغى إلى كل ما قاله له، ولم يجب بشيء، وانصرف.

في صباح اليوم التالي، ذهب الإبنُ بالمعمودية ليسقي الفحمتين وإذا بفحمة تنبت: كانت تُفاحةً أيضاً.

[١٣]

ومرت عشرُ سنوات أخرى. وذات يوم، كان الإبن جالساً، لا يشتهي شيئاً، ولا يخاف شيئاً، وقلبُه ممتلىءٌ فرحاً. وكان يفكّر، قائلاً بينه وبين نفسه: «ما أعظم الفرحَ الذي يملكه الناس!... الناسُ يعذّبُ بعضُهم بعضاً من أجل لا شيء... ينبغي لهم أن يعيشوا وأن يعيشوا للفرح!».

وتذكّر شرور البشر، كم يعذّب بعضُهم بعضاً لأنهم لا يعرفون الله. وأخذ يرثي لهم.

فكّر: «إنني أقضي وقتي بلا فائدة. يجب أن أذهب إلى الناس وأن أعلّمهم ما أعلمْ».

بينما كان يفكّر في ذلك، سمع قاطعَ الطريق آتياً. تركه يمر. قال في نفسه: «لا شيء عندي أعلّمه هذا الرجل. لن يفهم شيئاً. لكن يجب أن أكلّمه مع ذلك. فهو إنسان أيضاً».

كذلك فكّر، ومضى إلى لقائه. وحالما رأى قاطعَ الطريق أشفق عليه. ركض عليه وأمسك جواده من لجامه وأوقفه، وقال:

أيها الأخ العزيز، إرحمْ نفسك! إن فيك روح الله، وأنتَ تعذّب نفسك وتعذّب الآخرين، وسوف تتعذّب أكثر من ذلك. والله يحبك كثيراً! ما أعظمَ الأفراح التي خبّأها لك! لا تكنْ جلاداً لنفسك. غيّرْ حياتك.

إكفهرّ قاطعُ الطريق، وقال له:

ـ دع اللجام.

لم يدعْهُ الإبن وانهمر الدمعُ من عينيه مدراراً.

بكى وقال:

ـ إرحمْني، أيها الأخ.

رفعَ قاطعُ الطريق عينيه إلى الإبن. نظر إليه، ونظر، ونزل عن جواده، وجثا على ركبتيه أمام الإبن وأخذ يبكي.

وقال: غلبتَني، أيها الشيخ. عشرين عاماً قاومتُكَ فكانت الغلبةُ لك. لستُ الآن سيّداً لنفسي. إفعلْ بي ما تشاء. عندما ناشدتني أول مرة ازددتُ شراً. ولم أكلّفْ نفسي التفكير في كلامك إلاّ عندما رأيتك أنت نفسك تستغني عن العالم ومنذ ذلك الوقت، علّقتُ بالغصن خبزاً لك.

وتذكّر الإبن أن المرأة لم تنظّف الطاولة إلاّ حين غسلت الفوطة؛ وأنه حين كفّ هو عن العناية بنفسه، وعندما طهّر قلبه، حينئذٍ إستطاع أن يُطهّر قلوبَ الآخرين.

وقال قاطع الطريق:

ـ ولم يتغيّر قلبـي! إلاّ حين تضرّعت إلي من أجل ابن التاجر، دون أن تخاف الموت.

وتذكّر الإبنُ أن نجّاري العربة لم يلووا الإطار إلاّ حين ثُبّتتْ الدعامة؛ وهـو قـد كـفَّ عـن الخـوف مـن المـوت، وثبّـت حيـاتـه فـي الله، وخضـع قلبُـه العاصي.

وقال قاطعُ الطريق:

ـ ولم يذبْ قلبـي فيّ إلاّ عندما أخذتكَ الشفقةُ بـي وبكيتَ عليّ.

فرح الإبنُ وجاء بقاطع الطريق إلى الموضع الذي كانت فيه شجرتا التفاح والفحمة الثالثة. إقتربا: لم تبق الفحمةُ فحمةً، ونبتت شجرةُ تفاح ثالثة.

وتذكّر الإبنُ أن الخشب الرطب لم يلتهب إلاّ عندما أشعلوا ناراً عظيمةً. وهو إلتهب قلبُه فيه وأشعَلَ قلباً آخر.

وفرح الإبنُ بالمعمودية لأنه كفّر الآن عن جميع ذنوبه.

قال لقاطع الطريق ذلك كله ومات. دفنه قاطع الطريق، وأخذ يعيش كما أمره الإبن، وصار بدوره يعلّم الناسَ.

• • •

مالاشا وآكولينا

(١٨٨٥م)

في هذه السنة، جاء أسبوع الآلام أبكر من العادة. كان الناس ما يزالون يسافرون بالزلاجات، وكانت الأفنية ما تزال بيضاء من الثلج، والسواقي الفائضة تجري في الحقول. وفي يوم العيد، على حافة بركة ماء تشكّلت، وسط زقاق، بين فناءين، التقت فتاتان من منزلين مختلفين، إحداهما صغيرة، والأخرى أكبر قليلاً، كانت كل منهما تضع على رأسها منديلاً مربوطاً، وترتدي فستاناً جديداً؛ كان فستان الصغرى أزرق، وفستان الكبرى أسفر وعليه رسوم.

عندما وصلتا إلى حافة البركة أرَتْ كل منهما الأخرى ثيابها الجديدة وأخذتا تلعبان.

قالتا:

ـ سنلهو بطرطشة الماء.

وتهيّأت الصغرى لدخول البركة بحذائها عندما قالت لها الكبرى:

ـ ستوبّخكِ أمك، يا مالاشا، إذا دخلتِ الماءَ بحذائك! افعلي مثلي، انزعي حذاءَكِ.

بعد أن نزعت البنتان حذاءيهما ورفعتا طرف فستانيهما، مشتا في بركة الماء بحيث تلتقيان في وسطها.

عندما أحست مالاشا بالماء يصل إلى عقب رجلها قالت:

ـ ما أعمق الماء، يا آكولينا، أنا خائفة.

أجابت الأخرى:

ـ لا تقلقي. لن يزيد عمق الماء عن ذلك، في أي مكان من البركة. تعالي مباشرة إليّ.

عندما وصلت كل منهما إلى الأخرى، قالت آكولينا:

ـ انتبهي، ستلطخينني بالماء. امش برفق أكبر.

لكنها ما كادت تُنهي كلامها حتى لوّثت مالاشا، بحركة مفاجئة من رجلها، فستانَ آكولينا برشاش الماء.

تطاير الماءُ عالياً حتى ابتل فستان أكولينا تماماً وحتى أصابتها قطراتُ الماء أنفها وفي عينيها. غاظها منظر فستانها الملطّخ، فثارتْ على مالاشا، وشتمتها، ولحقت بها تريد أن تضربها.

اندفعت مالاشا إلى خارج البركة، وجرت إلى منزلها، وهي خائفة، خجلة من حماقتها.

وتأتي أم آكولينا. فتسألها حين ترى فستانها وصدارها:

ـ ماذا فعلتِ لتوسخي ثيابك هكذا، يا حقيرة؟

ـ مالاشا هي التي لطختني برشاش الماء عن عمد.

لحقت أم آكولينا بمالاشا وضربتها، فأخذت تصرخ. واجتذب صراخُها أمّها فبادرت على عجل.

قالت لجارتها وهي تشتمها:

ـ لم تضربين ابنتي؟ وشيئاً فشيئاً، اشتد النزاع حتى كادتا تتضاربان. وخرج الفلاحون من منازلهم. وازدحم الجمهور على حافات البركة. وتعالى

الصراخ؛ كل واحد كان يريد أن يتكلم ولم يكن يُصغي أحد. وانهمرت الشتائم، وكادت تتلوها اللكماتُ، لولا أن خرجت بغتة امرأة عجوز هي جدة آكولينا. أرادت أن تخاطب الفلاحين الهائجين بلغة العقل. قالت لهم:

ــ ماذا تفعلون، يا أصدقائي؟ وأيضاً في يوم عيدٍ كهذا اليوم! يجب أن تفرحوا لا أن تتضاربوا:

لكن الكلمات العاقلة التي قالتها العجوزُ لم تلقَ آذاناً مصغية من الفلاحين الذين كادوا يلقونها أرضاً وهم يتدافعون. وأوشكوا أن يتقاتلوا لولا آكولينا ومالاشا.

فبينما كانت الجارتان تتبادلان الشتائم، جفّفت آكولينا فستانها، وعادت إلى البركة. وهناك، أمسكت بحجر صغير، وأخذت تحفر به الأرض لتفتح منفذاً تُخرج منه ماء البركة إلى الشارع. واقتربت مالاشا، من جهتها، وأمسكت بعصا، وأخذت تساعد آكولينا على حفر قناة صغيرة.

بينما كان الفلاحون ينهالون باللطمات بعضهم على بعض، انطلق الماء من البركة إلى الشارع، وملأ القناة الصغيرة، ووصل إلى الموضع الذي كانت تبذل فيه العجوزُ جهدها لتَفْصل بين المتقاتلين. وكانت البنتان تركضان على جانبي القناة وهما تضحكان.

ــ سبقَنا الماءُ، يا مالاشا، فَلْنلحقْ به!

أرادت مالاشا أن تجيب آكولينا، لكن فرحها كان عظيماً فلم تستطع أن تتكلم. وضاعفتا كلتاهما من سرعتهما وهما تركضان أبداً وتضحكان من غَطْس العصا في الساقية الصغيرة، فوصلتا إلى وسط جَمْع الفلاحين.

ورأت الجدّة العجوزُ البنتين، فنبّهت الفلاحين إليهما، قائلة:

ــ أنتم، أيها الفلاحون، لا تخافون الله! تتقاتلون بسبب هاتين البنتين،

وهما ـ انظروا إليهما ـ قد نسيتا موضوعَ الخصام، وعادتا إلى اللهو معاً وهما على أتم وفاق. إن عقلهما أكبر من عقولكم.

لوى الفلاحون رؤوسَهم نحو البنتين، وخجلوا من أنفسهم وعادوا جميعاً إلى بيوتهم، بعد أن هزئوا بعضهُم من بعض.

«إن لم تكونوا كالأطفال فلن تدخلوا ملكوت السموات».

• • •

أينما يكن الحبُّ يكن اللّهُ

(١٨٨٥م)

في هذه المدينة، كان يسكن إسكافٌ هو مارتان افدييتش. كان مسكنه غرفةً صغيرةً في القبو، تضيئها نافذةٌ واحدة تُطلّ على الشارع. ومنها كان يمكن رؤية المارة، مع أن سيقانهم وحدها كانت مرئية؛ لكن مارتان أفدييتش كان يعرفهُم من أحذيتهم. كان مارتان أفدييتش مقيماً هنا منذ زمن طويل، وكان يعرف كثيراً من الناس. فنادرةٌ الأحذية التي لم تمرّ، مرة أو مرتين، بين يديه، من أجل إصلاحها. بعضها لتجديد النعل، وبعضها للرقع، وبعضها لإعادة الخياطة أو تجديد ساقية الحذاء. وغالباً ما كان يتأمّل عمله من النافذة. لم يتوقّفْ عملهُ في أي وقت من الأوقات، لأن شغله كان متيناً، ولأن بضاعته كانت جيّدة، وأسعاره رخيصة، ومواعيده دقيقة: فإذا استطاع أن ينفّذ الطلب في اليوم المحدد قَبِلَه، وإلاّ فما كان لمثله أن يَخْدع أحداً؛ وكان يقول ذلك سلفاً. ولذلك كان الجميع يعرفونه، وكان العمل ينصبّ عليه انصباباً. ثم إن أفدييتش كان دائماً رجلاً خَيِّراً، لكنه عندما أسنّ ازداد تفكيره في نفسه، وازداد حرصهُ على التقرّب من الله. كان مارتان في خدمة الآخرين عندما ماتت امرأتهُ، وظل هو وصبي صغير له ابن ثلاث سنين. لم يكن الأولاد يعيشون عند مارتان، ففكّر أن يَعْهد بصبيّه الصغير إلى أخته التي كانت تعيش في الريف. لكن ذلك كان يؤلمه. كان يقول في نفسه: «صغيري المسكين «كابيتوشكا» سيعيش تَعِساً

جداً عند الغرباء. إني أفضّل أن أبقيه بجنبي». ترك مارتان ربَّ العمل واستأجر مسكناً يسكنه هو وابنه. لكن الله لم يشأ له أن يكون سعيداً بأولاده. فما إن كبر الصغيرُ، وأخذ يساعد أباه، وغدا مصدراً لسروره، حتى انقضّ عليه المرضُ، فاضطر إلى لزوم الفراش، وانتابته الحمى مدة ثمانية أيام ومات.

استولى اليأس على مارتان بعد أن دفن ابنه. وكان ينوح كثيراً حتى آل به الأمر إلى التذمّر من الله. وأخذ الضجر يرهقه، فسأل الله غير مرةٍ أن يُميته، وهو يلومه على أنه فضَّل أن يأخذ ابنه الوحيد والحبيب، على أن يأخذه هو الشيخ. كفَّ أفدييتش عن التردد على الكنيسة. وفي ذات يوم، مر به شيخ قصير من قريته، عند عودته من دير الثالوث. وكان يجوب العالم منذ سن الثانية عشر. أخذ مارتان أفدييتش يحدثه وهو يشكو، عن شقائه. قال:

ــ ليس بـي ميلٌ، حتى إلى الحياة، أيها الرجل القديس. ليتني أستطيع أن أموت، هذا كل ما أطلبه من الله. أنا رجلٌ فقد الرجاء.

فأجابه الشيخُ القصير:

ــ ما تقوله ليس حسناً، يا مارتان. فليس من حقنا أن نحكم على أعمال الله. لا حيلة لذكائنا في ذلك، فالله هو الذي يقرّر. لقد قرر أن يموت ابنك وتحيا أنتَ. وإذن فقد كان الأفضل أن تجري الأمور هكذا. أما اليأس الذي تحس به فهو ناجمٌ عن أنك تريد أن تعيش على هواك.

سأل مارتان:

ــ لكن لمَ الحياة، يا ترى؟

أجاب الشيخ القصير:

ــ للهِ، يا مارتان، يجب أن تحيا. أعطاك الحياة، وله يجب أن تحيا. وعندما تبدأ بالحياة له فلن تحزن لشيء وسيبدو لك كل شيء خفيفاً.

سأل مارتان، بعد صمت:

ـ لكن كيف نحيا لله؟

أجاب الشيخ القصير:

ـ كيف نحيا لله. لكن المسيح علّمنا ذلك. أتعرف القراءة. اشترِ الانجيل واقرأه: ستتعلّم منه كيف تحيا لله. كل شيء مشروحٌ فيه.

وقعت هذه الكلمات في قلب أفدييتش. وفي هذا اليوم اشترى العهد الجديد المطبوع بأحرف كبيرة وأخذ يقرأ.

كان ينوي أن يقرأ الانجيل في أيام الأعياد وحدها، لكنه ما إن بدأ القراءة حتى استشعرت نفسه عزاءً عظيماً فصار يقرؤه كل يوم، منذ ذلك الحين. وكان يقع له أحياناً أن يقرأ طويلاً حتى ينفد البترول من المصباح، ولا يستطيع مع ذلك أن يترك الكتاب. كان ذلك دأبه كل مساء وكان كلما قرأ ازداد فهمه وضوحاً لما يريده الله منه وكيف يجب أن يعيش لله؛ ولذلك أخذ يحسّ بقلبه يزداد خفةً. فيما مضى، كان يقع له أن ينام وهو يرسل الزفرات والأنين، وهو يتذكر بلا انقطاع «كابيتوشكا»، أما الآن فكان يكتفي القول: «المجد لك، المجد لك، أيها الرب! لتكن مشيئتك».

ولذلك، تغيرت، منذ ذلك الحين، حياة أفدييتش تغيّراً تاماً. فيما مضى، كان يقع له أن يذهب إلى الحانة تزجية للوقت، ويشرب الشاي، أجل بل لم يكن يأبى أيضاً أن يشرب جرعة من الخمر. كان يجد في الحانة بعضاً من أصحابه، ويخرج منها وقد ثمل قليلاً، دون أن يسكر تماماً، وبه لهفةٌ إلى الحديث أو مساءلة المارة لتنشيط لسانه فقط. أما الآن فقد ذهب عنه ذلك كله وكأنما ذهب بفعل السحر. وغدت حياته هادئة وفرحة. فمنذ الصباح، كان يكب على عمله، وينهي مهمته ويذهب فينزل المصباح الذي يضعه على الطاولة، ويتناول الكتاب الموضوع على الرف، ويشرع في القراءة. وكان كلما قرأ ازداد فهماً، وغمر النور والفرح نفسه. وذات مرة حدث له أن أطال القراءة

إلى وقت متأخر. كان يقرأ إنجيل لوقا. كان عند الإصحاح السادس، ووصل إلى الآية التي تقول: «مَن ضربك على خدك الأيمن فأعرض له الخد الأيسر، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً. وكل من سألك فأعطه. ومن أخذ الذي لك فلا تُطالبه. وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا.

وقرأ بعد ذلك الآيات التي يقول فيها السيّد: «ولماذا تدعونني ياسيّد! يا سيد! وأنتم لا تفعلون ما أقوله. كلُّ مَنْ يأتي إليّ، ويسمع كلامي؛ ويعمل به، أريكم مَنْ يُشبه؟ يشبه إنساناً بنى بيتاً، وحفَر وعمّق، ووضع الأساسَ على الصخر. فلما حدث سيلٌ صَدم النهر ذلك البيتَ فلم يَقْدر أن يُزعزعه لأنه كان مؤسساً على الصخر. وأما الذي يَسْمع ولا يعمل فيشبه إنساناً بنى بيته على الأرض من دون أساس فصدمه النهرُ فسقط حالاً، وكان خراب ذلك البيت عظيماً».

قرأ أفدييتش هذه الكلمات، فاستشعرت نفسه الفرحَ. رفعَ نظارته، ووضع الكتاب، واتكأ بمرفقه على الطاولة، واستغرق في أحلام اليقظة. قابل بين حياته وهذه الكلمات، وفكّر في أعماقه: «هل بيتي مبنيٌّ على الصخر أم على الرمل؟ أنا مرتاح فيه وكأنه على الصخر. بل ما أحلى إقامتي فيه وحيداً: يبدو لي أنني فعلتُ كلَّ ما يأمر به الله، أما اللهو فهو وحده كفيل بإسقاطي في الإثم، سوف أتمدّد، بالرغم من كل شيء. ما أحلى الإقامة هنا، في الحقيقة! أنجدني، يا رب!

كان يفكّر هكذا ويريد أن ينام، لكن شقّ عليه أن ينصرف عن قراءته. وهكذا بدأ يقرأ الإصحاح السابع. قرأ الآيات التي تتعلّق بقائد المائة، وبابن الأرملة، والآيات التي تدور على الجوات عن سؤال رسولي يوحنا، ووصل إلى الموضع الذي سأل فيه أحدُ الفريسيين السيّد أن يدخل بيته ويأكل معه، وقرأ

كيف أن الخاطئة دهنتْ قدميه بالطيب، وبلّتهما بالدموع، وكيف أنه غفر خطايا هذه المرأة. ووصل إلى الآية الرابعة والأربعين التي تقول: «ثم التفت إلى المرأة وقال لسمعان: أنتظر هذه المرأة. إني دخلتُ بيتكَ، وماءً لأجل رجليّ لم تُعط. وأما هي فقد غسلت رجليّ بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها. قبلةً لم تقبلْني. وأما هي فمنذُ دخلت لم تكفّ عن تقبيل رجليّ. بزيتٍ لم تدهن رأسي، أما هي فقد دهنتْ بالطيب رجليّ».

وإذا قرأ هذه الآيات فكّر: لم تسكب الماء على رجليّ، لم تعطني قبلةً، لم تدهن رأسي..».

ويرفع أفدييتش نظارته، ويضع الكتاب على الطاولة، ويُخلد إلى التفكير مرة أخرى.

«لا شك إن ذلك الفريسي مثلي أنا، أنا مثله لم يكن لي من هم إلاّ أن أتناول الشاي وحدي. كيف يمكننا أن نحتسي فنجاننا، وحدنا، في الدفء، دون أن نكترث لضيفنا؟ لم أفكّر إلاّ في نفسي، لم أفكّر قط فيه. لكن هذا الضيف، مَنْ هو؟ وإذا دخل الربُ بيتي أهكذا أتصرّف إزاءه؟

لم يفطن أفدييتش إلى أنه كان يغفو، ومرفقاه على الطاولة.

سمع اسمه، وكأن صوتاً همسه في أذنه: «مارتان»!

استيقظ مارتان مذعوراً.

ــ مَنْ نادى؟

أدار رأسه، ونظر إلى الباب، فلم ير أحداً. أغمضت عيناه من جديد. وفجأةً سمع هذه المرة بوضوح:

ــ مارتان!. هيا مارتان! انتبهْ غداً جيداً إلى الذين سيمرّون في الشارع. سآتي.

استيقظ مارتان، ونهض عن الطاولة، وفرك عينيه، لم يكن يعلم هو نفسهُ

إن كان قد سمع حقاً هذه الكلمات، أو أنه سمعها في الحلم. أطفأ مصباحه واستلقى على سريره.

في اليوم التالي، نهض أفدييتش في الصباح الباكر، وصلّى، وأشعل موقده، وأخذ يطبخ ملفوفاً وبرغلاً. ثم حضّر السماور، وارتدى مئزره وأخذ يعمل قرب النافذة. كان أفدييتش لا يني يفكر بأحداث البارحة، وهو جالسٌ يشتغل. أفكارٌ على نوعين: يقول في نفسه حيناً: إنه حلم، وحيناً آخر: إنه سمع صوتاً حقيقياً. على كل حال هذه أشياء قد تقع.

مارتان جالسٌ إلى طاولته، وإذا كان يشتغل فإنه يشتغل أقل مما ينظر من النافذة، وعندما يرى ماراً في رجله حذاءٌ لا يعرفهُ، ينحني ويرمي بطَرْفه من أدنى النافذة، محاولاً أن يشاهد وجهَ المار، فضلاً عن حذائه. وهكذا رأى كنّاس الفناء بحذاء من اللباد، والساقي، وبعد ذلك ظهر، على مستوى النافذة، جنديٌّ عجوز من عهد نيقولا[1] في حذاء مرقّع، وبين يديه رفشٌ. كان اسمه «ستيابانيتش»؛ وقد أوى إلى بيت الجار، وهو تاجر ثري، على سبيل الإحسان. وكانت مهمّته أن يمد يد المساعدة إلى البواب. أخذ ستيبانيتش يجرف الثلجَ المتراكم أمام نافذة افدييتش. وبعد أن نظر هذا إلى ستيبانيتش لحظة، استأنف عمله.

قال أفدييتش في نفسه، هازئاً من نفسه:

«يبدو لي، في الحق، أنني أفقد رشدي مع الزمن. ستيبانيتش هنا يكنس الثلج، وأنا أعتقد أنه ربما كان المسيح آتياً إليّ. ما أشدّ غبائي!».

بيد أنه، بعد أن قطبَ نحو عشر قُطب، أحسّ بنفسه مدفوعاً، مرةً أخرى، إلى النظر من النافذة. ويَنْظر فيرى ستيبانيتش يضع رفشه على الجدار، وكأنه يسعى إلى أن يتدفأ، إلاَّ إذا كان سيستريح لحظةً.

---

(١) نيقولا الأول (١٨٢٥م ـ ١٨٥٥م).

فكّر أفدييتش: «لقد شاخ الرجل وتهدّم، ولا شك أنه لا يملك القوة ليجرفَ الثلج. ليتني قدّمت له فنجاناً من الشاي، وها إن السماور يوشك بالضبط أن ينطفىء.

وضع أدفييتش مخرزه، ونهض، وحطّ السماور على الطاولة، وأضاف ماءً إلى الغلاّية، ونقرَ بإصبعه الزجاج. استدار ستيبانيتش ودنا من النافذة. أشار أفدييتش إليه بالدخول وراح يفتح الباب.

قال له:

ــ ادخلْ وتدفّأ قليلاً. لقد تجمّدت. أتريدُ فنجاناً من الشاي؟ قال ستيبانيتش:

ــ ليكنْ المسيحُ في عونك، وعظامي، فوق ذلك، محطّمة.

دخل ستيبانيتش، ونفض الثلجَ عن ثيابه، وجفّف حذاءه لكي لا يُبلّل أرضَ الغرفة. كان يترنّح وهو يمشي.

قال أفدييتش:

ــ لا حاجة إلى تجفيف الحذاء. سأعنى أنا بذلك. أدخلْ واجلسْ. خذْ، ذونكَ الشاي، أشربْ!

بعد أن ملأ أدفييتش فنجانين، قدّم لضيفه واحداً منهما، وصبّ فنجانه في الصحن ونفخ فوقه ليبرّده.

شرب ستيبانيتش فنجانه، وأعاده، ووضع بعناية، في قاع الكأس، شريحة الليمون الحامض التي قُضم نصفُها، وسكر أفدييتش لكن كان من الواضح أنه يرغب في المزيد من الشاي.

قال أفدييتش:

ــ هيا، خذ فنجاناً ثانياً!

وملأ فنجان ضيفه وفنجانه.

أفدييتش يتمتع بشرب شايه، لكنه لا يرفع بصره عما يجري في الخارج.

سأل الزائر:

ـ اتنتظر أحداً؟

ـ انتظر أحداً؟ الواقع، أن من غير السهل تقريباً أن أقول لك مَنْ أنتظرُ. إني أنتظر دون أن أنتظر، لكن كلاماً وقع في قلبي. أهي رؤيا أم شيء آخر، لستُ أدري. أسمعْ، يا صديقي: كنت أقرأ البارحة مساءً في إنجيل سيّدنا يسوع المسيح، كيف تألم، وكيف جاءَ إلى الدنيا، هل سمعتَ عن ذلك.

أجاب ستيبانيتش:

ـ نعم حُدِّثْتُ عن ذلك، لكني جاهل، لا أعرفُ القراءة.

ـ حسناً! اعلمْ إذنْ إنني كنتُ أقرأ ما جاء يَفعلُه في هذه الدنيا: وصلتُ إلى المقطع الذي يدخل فيه بيتَ الفريسي الذي لا يُحسن استقباله. وبينما كنتُ أقرأ ذلك البارحة مساءً، كنتُ أفكر: كيف لم يستقبل سيّدنا يسوع المسيح استقبالاً فخماً. قلتُ في نفسي: لنفرضْ أنه دخل بيتي، لن أعرف ما أفعله حتى أحسن استقباله. لكن الفريسي لم يحسن استقباله. وبينما أنا أفكّر في ذلك عَفَوْتُ. وبينما كنت نائماً إذا بـي أسمع مَنْ يناديني باسمي؛ وانهض، فأسمعُ كأن إنساناً يَهمِسُ في أذني. كان يقول: «انتظر! سآتي غداً». وذلك، مرتين. فهل تعتقد بذلك، إن ذلك ليَشغل بالي. أنا حاقدٌ على نفسي لأني أنتظر، ومع ذلك، فأنا أنتظره هو، سيّدنا.

هزّ ستيبانيتش رأسه، وشرب فنجانه دون أن يفوه بكلمة، ثم بطح الفنجان على جنبه، لكن أفدييتش أجلسه مرة أخرى وملأه.

ـ أشرب كما تشتهي. أرأيت: كنت أقول في نفسي، إنه لم يكن يأنف من أحد، عندما كان يطوف بين الناس، وكان يتخذ سوادَ الناس أصفياءَ له. كان البساطة نفسها. كان يختار تلاميذه من بين الصنّاع مثلنا. وكان يقول: من برفع

نفسه فسوف ينخفض، ومن يخفض نفسه فسوف يرتفع. تدعوني سيّداً وأنا أغسل أقدامكم، من شاء أن يكون الأول فسيكون الأخير. وكان يقول أيضاً: طوبى للفقراء والودعاء والمتواضعين والمتصدّقين. نسي ستيبانيتش شايه. كان شيخاً سريع البكاء، كانت الدموع تنحدرعلى وجنتيه وهو يصغي.

قال أفدييتش:

ــ هيا، اشربَ أيضاً.

لكن ستيبانيتش رسم علامة الصليب، وشكر، ونهض عن الطاولة، بعد أن دفع عنه فنجانه، وقال:

ــ شكراً لك، يا مارتان أفدييتش، أدفأت لي نفسي وجسدي.

قال أفدييتش:

ــ أرجوك، ألا تنسَ أن تأتي مرة أخرى. سيسرني أن تأتي.

خرج ستيبانيتش، وصبَّ مارتان لنفسه ما بقي من الشاي. وبعد أن شربه، رتّب آنيته، وعاد إلى العمل قرب النافذة، ليعيد خياطة كعب الحذاء. ولكنه لم يكفّ عن رفع عينيه إلى النافذة، وهو يخيط. إنه ينتظر المسيح، لا يفكّر إلاّ فيه، في أقواله وأفعاله.

مرّ جنديان أحدهما في حذاء عسكري، والآخر في حذاء مدني؛ ثم مرّ صاحبُ البيت المجاور في حذاء من المطاط يلمع من نظافته؛ ثم مرّ الخبّاز ومعه سلّته. مرّوا جميعاً دون أن يتوقفوا؛ ثم مرّت حينئذٍ امرأة ظهرت في جوربها الصوفي الغليظ وحذائها القروي. مرّت قريباً من النافذة، ووقفت مستندة إلى الجدار. نظر أفدييتش إليها، وهو ينحني، فرأى امرأة مجهولة تحمل طفلاً بين ذراعيها. كانت تدير ظهرها للريح وتحاول أن تغطيه، لكنْ بمَ تغطّيه؟ وهي نفسها كانت ترتدي فستاناً صيفياً رثاً. سمع أفدييتش عبر الزجاج صوت الطفل الشاكي، وصوت المرأة التي تبذل جهدها لتهدئته، دون أن تُفلحَ في

ذلك. نهض أفدييتش، وفتح الباب، وناداها من الدرج:

ــ أيتها المرأة الطيبة! أيتها المرأة الطيبة!

سمعت المرأة والتفتت.

ــ لم تظلّين هكذا معرّضةً للبرد أنتِ وطفلكِ؟ ادخلي بيتي، سيسهل عليكِ لفُّه في الدفء. من هنا، ادخلي.

نظرت إليه المرأة مدهوشة. فرأت هذا الرجل العجوز بمئزره. وبنظارته على أنفه، يدعوها لدخول بيته. فتبعتْه.

هبطا الدرج، ودخلا الغرفة الصغيرة. قادَ الشيخَ المرأة إلى سريره. وقال:

ــ اجلسي هنا، أيتها المرأة الطيبة، ستكونين أقربَ إلى الموقد. تدفّئي وارضعي الصبيّ.

قالت المرأة:

ــ لم يبق بي حليبٌ، فأنا لم آكل منذ عشية البارحة.

ومع ذلك، وضعت الابنَ على ثديها.

هزّ أفدييتش رأسه، ومضى إلى الطاولة، فأخذ خبزاً وقصعة، وفتح بابَ الموقد، وصبّ ملفوفاً مغليًّا في القصعة. ثم سحب قدر البرغل. لكنه وجد أن البرغل لم ينضج بعد، فلم يقدّم سوى الملفوف على المائدة. ثم أنزل ممسحة نظيفة ووضعها قرب الخبز. قال:

ــ اقتربي وكلي، أيتها المرأة الطيبة، وسأهتم بالطفل. كان لي أولادٌ أنا أيضاً، وأعرف كيف أدلّلهم.

رسمت المرأة علامة الصليب، وجلست قرب الطاولة وأكلت. في هذه الأثناء، جلس أفدييتش على السرير، قرب الطفل. وحاول أن يُفرقع له بشفتيه، لكنه لم يكد يستطيع ذلك، لأنه بلا أسنان. ولذلك خطر له أن يخيفه بإصبعه:

رفع إصبعه حتى لاصقت فم الصبي ثم سحبها في الحال. لم يدسّها في فمه لأنها سوداء من الزفت. وعند مرأى هذه الإصبع سكتَ الطفل، ثم بدأ يبتسم. أشرق وجه أفدييتش، بينما كانت المرأةُ تقصّ عليه، وهي تأكل، قصتها، مَنْ هي، ومِنْ أين تأتي. قالت:

أنا متزوجة بجندي، ومنذ ثمانية أشهر، سيق زوجي بعيداً، وانقطعت أخباره عني. كنتُ طاهية، فلما جاءني هذا الصبي أبى الذين عملتُ عندهم الاحتفاظ بي. ومنذ ثلاثة أشهر وأنا لا أجد عملاً ولا أدري ماذا سيحلّ بي. أنفقتُ كل ما معي. أردت أن أعمل مرضعاً، فلم يقبل الناس بي، ووجدوني هزيلة. ذهبتُ إلى بيت تاجرةٍ، جدتني خادمةٌ عندها، وعدتني كثيراً بأنها ستُشغلني: كنت أعول على ذلك كلياً. لكنها قالت لي أن أمرّ عليها بعد ثمانية أيام وهي تسكن بعيداً جداً! حبيبي المسكين، لقد سببت له آلاماً كثيرة، آلاماً تقتل. لحسن الحظ أن هناك مؤجرة آوتنا رحمةً بنا. ولولا ذلك، لما عرفتُ، في الحقيقة ما الذي عليّ أن أفعله.

زفر أفدييتش وسأل:

ـ أليس عندك ثوبٌ دافىءٌ.

ـ ثوب دافىء. ليس هذا أوان التفكير في ذلك. أمس رهنتُ آخر مناديلي بعشرين كوبيكا.

اقتربت المرأة من السرير وأخذت ابنها. نهض أفدييتش، وفتش في زاوية، وجاء بدثار قديم: وقال:

ـ خذي، فمع أن هذا الدثار ليس فاخراً، إلاّ أنه يصلح دائماً لتلفي به الصبيّ.

نظرت المرأة إلى الدثار، ونظرت إلى الشيخ، وأخذت الدثار، وشرعت تبكي. أعْرضَ أفدييتش عنها، وزحف تحت السرير، وسحب صندوقاً صغيراً

بحث فيه عن شيء ما، ثم رجع وجلس قبالة المرأة قالت له المرأة.

ـ شكرٌ، باسم المسيح، أيها الشيخ الطيب. ومن المؤكد أنه هو الذي دفعني إلى المرور قرب نافذتك. كان ابني سيموت من البرد. عندما خرجت كان ساخناً ثم صار مثل قطعة من جليد. والمسيح هو الذي دفعك إلى النظر من النافذة، وإلى الشفقة عليّ في بؤسي.

ابتسم أفدييتش وهو يقول:

ـ وهذا أيضاً قد علّمنا إياه.. وأنا لم أنظر من النافذة مصادفة، أيتها المرأة الطيبة.

وروى مارتان لمرأة الجندي الحلم الذي حلمه، وكيف أنه سمع صوتاً، صوت سيّدنا الذي كان يعده بالمجيء لزيارته، في هذا اليوم.

قالت المرأة وهي تنهض:

ـ كل شيء ممكنٌ.

أخذت الدثار ولفّت به الصبي، وشكرت أفدييتش مرة أخرى، وحيته وودّعته.

قال أفدييتش وهو يعطيها عشرين كوبيكاً:

ـ اقبلي هذا باسم المسيح، وفكي منديلك من الرهن.

رسمت المرأة علامة الصليب، كما رسمها أفدييتش أيضاً، وشيع المرأة إلى الباب.

بعد أن ذهبت المرأة، تناول أفدييتش حساء الملفوف وأكبّ على عمله. لكنه لم ينسَ النافذة، وهو يعمل: كان ينظر ليرى مَنْ. مرّ ناسٌ يعرفهم، وآخرون لا يعرفهم، لكن ليس بينهم وجهٌ خاص.

في هذه اللحظة، رأى عجوزاً وقفت قرب النافذة بالضبط. كانت تحمل سلّة تفاح تكاد تكون فارغة ــ لا شك أنها باعت بضاعتها كلها ــ وتجرجر على

ظهرها كيساً من الخشب. ولعلها لمت هذا الخشب من إحدى ورشات البناء، وهي الآن تستعد للعودة إلى بيتها. لكن الكيس كان ثقيلاً، وأرادت أن تنقله من كتف إلى كتف. ولذلك تركته يسقط على الرصيف، ووضعت سلّة التفاح على حافة حجر، وهززت قطع الخشب في الكيس. وبينما هي تقوم بهذه العملية، اندفع صبي، يلبس على رأسه عمرة رثةً، وقد خرج بغتة دون أن يرى من أين خرج، وأخذ تفاحة من السلة وأراد أن يهرب. لكن العجوز التي رأته استدارت وقبضتْ على الصبي من كم سترته. تخبّط الصبي ليهرب. أوقعت، العجوز التي كانت تمسكه بكلتا يديها عمرته، وقبضت عليه من شعره. كان الصبيُّ يصرخ بينما كانت العجوز تضربه وهي تسبّه. لم يصبر أفدييتش حتى يغرز مخرزة، فرماه على الأرض، ووثب إلى الباب وثبة واحدة، حتى لقد صدم الدرج وأوقع نظارته، فإذا به في الشارع. والعجوز تهزّ الصبي من شعره وتهدده، وهي توبخه، بأنه ستقوده إلى الشرطة؛ فيتخبّط الصبي ويقاوم.

قال للعجوز:

ـ لم آخذ شيئاً. لمَ تضربينني؟ دعيني.

ويتدخّل افدييتش، ويأخذ الصبي بيده، قائلاً:

ـ دعيه أيتها المرأة الطيبة، واصفحي عنه باسم المسيح.

ـ سأصفحُ عنه صفحاً يتذكره ستة أشهر. سأوصله إلى الشرطة، هذا الولد الفاسد!

رأى أفدييتش من واجبه أن ينصح المرأة:

ـ هيا، دعيه، أيتها المرأة الطيبة. لن يعود إلى ذلك، دعيه باسم المسيح.

تركته المرأة. أراد الصبي أن يولّي هارباً، لكن أفدييتش أوقفه، وقال له:

ـ اطلب الصفحَ، ولا تعد إلى ذلك. رأيتك تأخذ التفاحة.

بكى الطفل وطلب الصفح.

ــ كفى، كفى. والآن خذ التفاحة، فهي لك.

قالت المرأة:

ــ إن كان الأمر كذلك، فلا بأس. بيد أننا ندللهم أكثر من اللازم.

قال أفدييتش:

ــ وعلينا، نحن الكبار، أن نعلّمهم.

أجابت العجوز:

ــ هذا ما أقوله بالذات. كان لي سبعة ولم يبق لي سوى بنت.

وروت العجوزُ أين تعيش وكيف تعيش، عند ابنتها، وكم عدد أحفادها.

ــ أترى، ما زلتُ قوية على العمل قوة كافية. أحفادي لا يريدون ذلك لأنهم طيبون جداً: لا أجد من الإكرام في أي مكان، ما أجده عندهم. ولا تستطيع آكسيوسكا الصغيرة أن تنفصل عني: «جدتي، جدتي العزيزة والطيبة».

عاد الهدوء إلى نفس العجوز. وهذا طبيعي. فقد كانت تتحدث عن أسرتها العزيزة. وقالت للصبي:

ــ هيا، انصرف على بركة الله.

في اللحظة التي كانت العجوز ستحمل فيه الكيس على كتفها. بادر الولد وقال لها:

ــ أعطني كيسك، يا جدة، سأحمله، فالطريق طريقي.

وأخذ أفدييتش تفاحة من السلة وأعطاه إياها. وقال للعجوز.

ــ سأدفع لك ثمنها، أيتها المرأة الطيبة.

قالت العجوز:

ــ أنك تدللهم، هؤلاء العفاريت. كان يجب أن تكافئه بحيث يعجز أسبوعاً كاملاً عن الجلوس على ردفه.

قال أفدييتش:

ــ مهلاً، مهلاً، يا جدة. هذه طرائقنا، أما طرائق الله المختلفة.

إن كان يستحق الصفع على ردفه من أجل تفاحة، فماذا سيصيبنا نحن على خطايانا كلها؟

سكتت العجوز.

وروى لها أفدييتش مَثلَ السيد الذي سلَّم مدينه المبلغ الذي استدانه، وكيف أن هذا المدين ذهب ليذبح دائنه. أصغت العجوز وأصغى الصبي. قال أفدييتش:

ــ الله أراد أن نَصْفح، وإلاَّ فلن يَصْفح هو عنا. الصفح عن الجميع ولا سيّما عن الذين لا يعلمون ما يفعلون.

هزّتْ العجوز رأسها، وتنهدت، ووافقت بإشارة منها، وحملَت الكيسَ كتف الصبي.

سارا جنباً إلى جنب، ونسيت العجوز أن تطلب من أفدييتش ثمن التفاحة.

ظل أفدييتش واقفاً في مكانه ينظر إليهما، ويصيخ السمع إلى ما يقولانه وهما سائران.

بعد أن تبعهما بنظره، عاد إلى بيته. وجد نظارته التي لم تنكسر. لمّ المخرز واستأنف العمل. لكنه لم يعد يرى رؤية كافية لنَظْم الخيط المزفّت. مرّ مشعل الفوانيس. قال أفدييتش في نفسه وهو يجهز مصباحه: «هيّا، يجب أن أشعل الضوء». وعلّق المصباح فوقه، وعاد إلى عمله. أنهى حذاء وقلّبه في كل الاتجاهات وفحصه: ممتاز. وضع جانباً القالب وكتلة الزفت، ولمّ الخيطان، وأطرافها المُزفتة والمخارز، وتناول المصباح، ووضعه على الطاولة، وأحضر من الرف كتاب الانجيلين. أراد أن يفتحه على الصفحة التي علّمها بإشارة عشية

البارحة، لكن الكتاب انفتح في موضع آخر. وما أن فتح أفدييتش الانجيل حتى تذكر حلمه. ولم يكد يتذكره حتى سمع صوتاً كأنه صوت أحدٍ خلفه يتحرك وتقترب خطواته منه. وينظر أفدييتش، ويرى، بالفعل، ناساً، ناساً يقفون في الزاوية المظلمة من الغرفة، ولا يستطيع أن يعرفهم. حينئذٍ همس صوتٌ في أذنه:

ــ مارتان! هَيَّا مارتان! ألم تعرفني؟

سأل أفدييتش:

ــ مَنْ أنت؟

قال الصوت:

ــ أنا هو، أنا هنا.

ومن الزاوية المُعتمة، برز ستيباينتش وهو يبتسم، وتبدّد مثل غيمةٍ واختفى.

ومن الزاوية المعتمة ذاتها برزت أيضاً المرأة وهي تحمل ابنها، وابتسمت هذه المرأة، وابتسم الطفل، وذابا كلاهما أيضاً عند مرآه.

قال الصوت:

ــ وهذا أنا.

وظهرت العجوز مع الصبي والتفاحة، وابتسما كلاهما، واختفيا أيضاً.

أحس أفدييتش بالفرح يغمر نفسه. رسم علامة الصليب وأخذ يقرأ الانجيل، في الموضع الذي فتح الكتاب عليه. وقرأ في أعلى الصفحة:

جعتُ فأطعمتوني؛ عطشتُ فسقيتموني؛ كنتُ غريباً فآويتموني...».

وفي أسفل الصفحة قرأ أيضاً:

كل ما يفعلونه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي تفعلونه...».

وأدرك أفدييتش أن حلمه لم يخدعه، وأن المخلّص قد جاءَ حقاً إلى بيته في هذا اليوم، وأن الضيوف الذين استقبلهم كانوا «هو».

• • •

الشمعة الصغيرة

(١٨٨٥م)

وقعت هذه القصة في أرضٍ إقطاعية. وكانت حالة السادة الإقطاعيين حينذاك كحالتهم اليوم، كان بعضهم يشفق على البؤساء لأنهم يخافون الله ويفكّرون في ساعتهم الأخيرة، وكان بعضهم الآخر قُساةً، كأنهم ما خُلقوا إلاّ لشقاء الآخرين، ولم يبق من هؤلاء إلا ذكرى مُرة؛ وشرٌّ من هذه الفئة أولئك المُحْدثو النعمة الذين سحبتهم الثروةُ من بين الخدم لترفعهم فوق الآخرين. كان مُعْتَمد القصر الذي نحن بصدده أحد هؤلاء المُحدثي النعمة. كانت أملاك القصر واسعةً، خصبةً، غنيةً بالغابات والمروج المروّية، وكان الفلاحون الذين قُدِّر لهم أن يعملوا فيها سيعيشون سعداء وعلى وفاق تام مع أسيادهم، لولا أن حال خبثُ المُعتمد دون ذلك.

لم يكن المعتمدُ من قبل سوى قنّ بسيط في أرض أخرى، لكنه ما كاد يرتفع إلى مرتبة مُعْتمد حتى داس برجليه الفلاحين المساكين. كانت له أسرةٌ مؤلفة من امرأته ومن بنتين، وقد ملأ بالدراهم صُرتّه ــ كما يقال ــ منذ زمن بعيد. وكان بوسعه أن يحيا حياة مطمئنة، ميسورة، في مأمن من الهموم، لولا أن الحسد جعله جشعاً ووحشياً.

بدأ بالحدّ من إعفاءات الفلاحين الذين أرهقهم بأعمال السُخرة. وأنشأ معملاً للقرميد وأكره الرجال والنساء على العمل المُضني. وكان يبيع قرميده

ويجني من ذلك أرباحاً طائلة. حاول الفلاحون الذين ثاروا حين رأوا أنفسهم يُسْتَغلّون بوحشيّة، أن يشتكوا إلى سيّدهم الإقطاعي، وسافروا إلى موسكو لهذا القصد، لكن السيّد الإقطاعي لم يصغ إلى شكاواهم، وبدلاً من أن يحصلوا على التخفيف من أتعابهم، تعرضوا لإنتقام المُعتمد الذي لم يلبث أن علم بمسعاهم. وكان عليهم أن يتحملوا مزيداً من الإبتزاز والوحشية؛ وزادَ المصيبةَ أنْ كان بينهم أخوةٌ كاذبون يَشون برفاقهم في العبودية، بحيث أنه لم يبق أحدٌ يثقُ بصديقه. كان القلقُ والرعب يسودان في كل مكان، وكان جنونُ الشر لا يني يتزايد عند المعتمد.

كانوا يخافونه كما يخافون الحيوان المتوحّش؛ وكان إذا ظهر في قرية هرب الناس كما يهربون من الذئب؛ كانوا يختبئون أينما تسنّى لهم ذلك ليكونوا في مأمن من شراسته.

كان الخوف منه يزيده ضراوة، ويحرّك حقده، وينمّي الكره العميقَ في قلبه. وحينئذٍ تتضاعف أعمالُ السخرة، وتنهال الضرباتُ أكثر فأكثر على الضحايا المساكين. إن القتل قد يُخلّص الناسَ فجأة من وجود مثل هذا الوحش. وكانت هذه الفكرةُ تلازم الفلاحين، وكثيراً ما كانت موضوع أحاديثهم السرّية. فإذا إجتمع إثنان أو ثلاثة في مكان منعزل أقْدمَ أجرؤهم على القول: «هل نَحْتمل أن يظلّ هذا الكافرُ حياً لكي يعذبنا؟ كلا، لننْتهِ منه بضربة! ليس إثماً أن نقتل مثل هذا الشيطان». وفي يوم من أسبوع الآلام، أرسلَ المعتمدُ الفلاحين إلى الغابة. إجتمع هؤلاء في حلقةٍ أهليةٍ ليتناولوا غداءهم؛ بدا الحديث في الموضوع نفسه.

قال بعضُهم: «ماذا سيحلّ بنا، أيها الأخوة؟ لم يعد بوسعنا أن نعيش هكذا. إن هذا الرجل الوحشي يدوسنا برجليه؛ إنه ينهكنا حتى مخ العظم. لم نعد نعرف السكينة في منازلنا؛ فالنساء كالرجال لا يجدن راحةً، لا ليلاً

ولا نهاراً، وهو يُخاصمنا على كل شيء، ومن أجل الشيء التافه الذي لا يرضيه، ويأمر بجلدنا. «سيمين»، الأبله المسكين، مات من الضربات التي لقيها؛ «انيسيم» ما زال مقيّداً بالحديد! ما الذي يصدّنا عن ذلك؟ ولماذا نصبر على هذا الشيطان؟ لن يلبث أن يأتي على جواده، وأن يجد سبباً لمخاصمتنا. إن كنّا رجالاً فسنجره عن ظهر جواده إلى الأرض، وستَقْضي عليه ضربةُ فأس وتمنحنا الراحة. سندفنه كالكلب في الغابة، دون أن نترك أثراً لذلك. وليَكنْ شعارُنا: «لنتّحدْ مثل رجل واحد! الموتُ للخونة!».

هكذا تكلّم فاسيلي مينايف. كان من حقّه أن يشكو أكثر من غيره، لأنه يتعرّض للجلد، مرة في الأسبوع، على الأقل. وقد إنتزع المُعتمد امرأته بالقوة ليجعل منها طاهيةً له.

كانت هذه هي خطّة الفلاحين للإنتقام.

ظهر المُعتمد، بالفعل، عند المساء، ونقّل حوله نظرته اللئيمة، ووجده على الفور المأخذ الذي يبحث عنه، كان بين الأشجار المقطوعة شجرةُ زيزفون قُطعت خلافاً لأوامره.

ــ قلتُ لكم: يجب ألا تَقْرَبوا أشجارَ الزيزفون. من الذي قطعَ شجرة الزيزفون هذه؟ ما اسمه؟ وإلاّ تعرّض الجميعُ للجلد! وفي الوقت نفسه، كانت عينُه تطوف بين العمال من جماعة إلى أخرى، ليكتشف الذي إرتكب الخطيئةَ. أراه أحدُ الفلاحين رفيقاً من رفاقه يُدعى «سيدور». وبضربة واحدة دمّى المُعتمد وجهَ الرجل المسكين؛ ثم لم يشأ أن تفوته الفرصة لكي يصبّ جام غضبه على فاسيلي، فلسعه مراتٍ بسوطه، بحجة أن كومنه من الحطب كانت أصغر من كوم الآخرين.

تركه الفلاحون يعود بهدوء إلى بيته.

في المساء، إجتمعوا مرةً أخرى، عنّف فاسيلي إخواته بقسوة. قال لهم:

ـ أيها القطيع الذليل! كلا، لستم رجالاً. كنتم تقولون: إنكم متّحدون كالإخوة!... ويظهر الطاغية... فإذا بقراراتكم تتطاير! هكذا فعلت عصافيرُ الدوري حين تآمرتْ على العقاب. كانت تتصايح وتتبارى في الصياح: «الكلّ للواحد! الموتُ للخونة». وينقضّ العقابُ عليها فتولّي هاربةً لتختبىء وراء شوك القرّاص. لكن العقاب يُسرع كالبرق وينشب مخلبه في أحدها ويطير به إلى الأعالي. فترفرف عصافيرُ الدوري التي لم تصب متسائلة فيما بينها: «أيّنا المُختطَف؟ أيّنا المُختطَف؟ آه! «فانكا» المختطف. لقد فعل خيراً. فانكا لا يَسْتحق أفضل من ذلك!».

«هكذا تفعلون؛ تقولون: الموتُ للخونة! وكل واحد يُبادر إلى الخيانة! عندما ضرب جلادُنا «سيدور» على وجهه، كان ينبغي لكم أن تهبّوا هبّة رجل واحد، وكانت ستنتهي أخيراً آلامُنا.

لكنكم تصرخون ما استطعتم إلى الصراخ سبيلاً: «لنتّحدْ... الموتُ للخونة»، وعندما يظهر جلادُنا لا يثبتُ أحدٌ!.

تحدّث الفلاحون مثل هذه الأحاديث مرّاتٍ عديدة، لأن فكرة التخلّص من الجلاد. بإعدامه لم تغادر قلوبَهم.

في آخر أيام أسبوع الآلام، أُعلِنَ بلسان المعتمد الوحشي أن الشوفان سيُبذَر في الأراضي الإقطاعية وأن على الفلاحين أن يُباشروا الحراثة. كان ذلك ألماً جديداً؛ إجتمعوا عند فاسيلي، يوم الجمعة الحزينة، وأخذوا يتكلمون على مؤامرتهم، وهم مغتاظون أكثر من أي وقت مضى. كانوا يقولون:

ـ بما أنه يُهين الله حين أراد لنا أن نرتكب مثل هذا الذنب الكبير، فلا ينبغي أن يصدّنا شيءٌ.

لننتهِ منه بضربةٍ واحدة.

تكلّم بطرس ميكييف بدوره.

كان رجلاً هادئاً، مسالماً. لم يكن يوافق على نية القتل لدى إخوته، وكان يهزّ رأسه بحزن وهو يستمع إلى مشاريعهم المجرمة قال لهم:

ـ إنه لذنبٌ كبير أن يتكلم المرءُ كما تتكلّمون. ويل لمن يكون سبباً في هلاك نفس! هذه جريمة من أفظع الجرائم. إرسالُ نفسٍ إلى العذاب الأبدي، سهلٌ عليكم، بالتأكيد؛ لكن كم ستتألم نفوسكم بعد ذلك قصاصاً على هذه الجريمة؟ إذا أهان المعتمدُ السماءَ بجرائمه فانتظروا؛ سيلقى عقابه بين يوم وآخر، أما نحن، فكل ما علينا أن نفعله هو أن نتألم متذرّعين بالصبر.

مثل هذا الرفق أثار غضباً جنونياً لدى فاسيلي، فهتف قائلاً:

ـ بم يُدمدمُ؟ أغنيته القديمة ذاتها. إنه لذنبٌ كبيرٌ أن نقتل إنساناً، لسنا بحاجة إلى أن تقول لنا ذلك؛ حتى الصغار يعرفون ذلك، لكنّ هناك إنساناً وإنساناً آخر، وهل يمكن أن يقبل الله بأن يظل حيّاً هذا الكافرُ، هذا القاتل لإخوته، هذا الكلب الملعون! إذا أُصيبَ كلبٌ بالسعار قتله الناس لكي يأمنوا عضّه. إذا تركنا هذا الكلبَ يعيش فقد قُضي علينا: ألا ترون أنه دبّر طريقه لهلاكنا؟ إذا إرتكبنا جرماً فسيكون ذلك لكي ننقذ إخوتنا، وسيصلّون جميعاً لكي لا يُعْزى إلى الشر؟... ما جدوى النقاش طويلاً؟ أتريدون أن تنتظروا حتى يهلكنا؟... ما هذا الهذر الذي يَبْدرُ منك، يا ميكييف؟ أتظن أننا إذا ذهبنا إلى العمل في اليوم المقدّس الذي قام فيه من الموت سيّدنا يسوع المسيح، أفيكونَ ذنبنا أقل؟

أجاب ميكييف:

ـ ولماذا لا نذهب؟ إذا أَرسلنا إلى العمل فسوف أذهب، من جهتي: لن أعمل لنفسي وسيعلم الله على مَنْ يُلقي تبعةَ ذلك. قبل كل شيء، لنحافظ في قلوبنا على خشية الله. لستُ أزعم، يا أصدقائي، أني أعطيكم نصائح من عند نفسي، ولو كانت شريعة الله تُعلّمنا أن الشرّ لا يَهْدم الشر لانضممت إليكم من

أجل العمل؛ لكن الله يأمر بشيء آخر. تعتقدون أنكم تستأصلون الشرّ في قلوبكم. قتلُ الإنسان ليس عملاً عاقلاً؛ سوف يرتدّ الدمُ على القاتل وسوف يترك أثراً لا يمّحى؛ تظنون بأوهامكم أنكم تطردون الشرّ دون أن تفطنوا إلى أن الشر هو الذي يدفعكم إلى العمل، كما يقول المثل: «أنظرْ إلى البؤس، في وجهه، يَغْضض البؤسُ بصره».

زعزعَ هذا الحديثُ المستمعين. مال بعضهم إلى الأخذ بالنصائح الحكيمة التي قال بها التقيُّ ـ ميكييف وفضلّوا أن يصبروا على أن يقترفوا مثل هذا الإثمَ الكبير؛ وأصغى آخرون إلى تحريضات فاسيلي.

عندما جاء عيدُ الفصح إحتفلَ به الفلاحون حسب العادة القديمة. ونحو المساء، حضر عمدةُ البلدة يصحبه كتّابُ بلدة الإقطاعي وقال:

«يأمرُ ميشيل سيمينوفيتش، معتمدُنا العالي، ويُعلم الجميعُ أن عليهم مباشرةَ الحراثةِ غداً في حقول سيّدنا لبذر الشوفان».

طاف العمدةُ والكتّاب هكذا القريةَ كلها، وعيّنوا لكل واحد الموضع الذي ينبغي أن يبذر فيه.

إلتهم الفلاحون المساكين دموعهم بصمت. لم يجرؤ أحدٌ على المقاومة المكشوفة. وفي صباح اليوم التالي، حضر الجميعُ مع محاريثهم إلى المواضع المحدّدة. واضطروا إلى العمل بنفوسٍ متألّمة. وبينما كانت الأجراسُ تقرع بكل ما فيها من قوة من أجل قدّاس الصباح، وبينما كان المؤمنون يتوافدون إلى الكنيسة فرحين، بثياب العيد، كان ميشيل سيمينوفيتش المعتمد السّيء ما يزال نائماً نوماً عميقاً، وقد إستيقظ متأخراً؛ وما كاد يترك سريره، حتى إنطلق ليرى ما يجري في الحقول، باحثاً عمّن يستطيع أن يخاصمه. وكانت زوجتُه وابنتها في حجرة الزينة.

كان الخادم ينتظرهما أمام المنزل، ومعه العربة المربوطة. صعدت إليها

المرأتان لتذهبا إلى الكنيسة. وبعد ساعة عادتا وعاد أيضاً ميشيل سيميتوفيتش. كانت الخادمة قد حضّرت السماور، فجلسوا إلى المائدة.

تناول ميشيل سيمينوفيتش فنجان شاي، وأشعل غليونه واستدعى العمدة. سأله:

ــ كيف تسير الأمور؟ هل نفّذتَ أوامري؟ هل الفلاحون على محاريثهم؟

ــ فعلتُ ما أمرتني به، يا ميشيل سيمينوفيتش.

ــ حسنٌ، هل أطاعوك؟

ــ جميعهم، قدتُهم كل واحد إلى الموضع الذي ينبغي أن يحرثه.

ــ قُدْتَهم! لكن هؤلاء الخاملين هل يعملون، على الأقل؟ إذهبْ وانظرْ ماذا يفعلون، وقلْ لهم إني سأذهب بعد قليل لأرى ماذا فعلوا. أريد أن يحرث كل إثنين هكتاراً، وحذار ألا يكون العملُ متقناً. إن وجدتُ مذنباً، فلن توقفني قداسةُ هذا اليوم!

ــ مشيئتك أوامر.

أراد العمدةُ أن يبتعد على عجلٍ، لكن ميشيل سيمينوفيتش ناداه. لم يكن المعتمدُ الفظّ مرتاحاً، كان يضطرب كأنه على الشوك. كان لسانهُ يدور بين أسنانه، فما زال في نفسه شيء يريد أن يقول، شيء يربكه. قال:

ــ بالفعل!

وأضاف:

ــ أريد أن أقول لك كلمة أيضاً. إصغِ قليلاً إلى أحاديث هؤلاء الخاملين؛ وحاولْ أن تعرف ماذا يقولون عني. وإذا كان هؤلاء الحقراء يغتابونني في أحاديثهم الخبيثة فانقلْ لي ذلك بأمانة. آه! إني أعرفهم، هؤلاء السخفاء! همُّهم أن يأكلوا جيّداً، وأن يشربوا جيداً، وأن يتمدّدوا على جلود الخراف. أما تفويت الفرصة المناسبة للعمل فذلك لا يَعْنيهم. إصغ إذن إلى

أحاديثهم، دون أن يظهر عليك ذلك، وانقلْ لي ما يمكن أن يقوله كلُ واحدٍ منهم. يجب أن أعرف كل شيء، حتى أقل كلمة من كلماتهم. اذهب، وافتحْ أذنيك، وإياك أن تُخفي عني شيئاً.

عاد العمدةُ أدراجه، وامتطى على الفور جواده، قاصداً الفلاحين.

دنت امرأةُ ميشيل التي سمعت كل شيء من زوجها، بهيئةٍ رقيقة ضارعة. كانت امرأةً وديعة الطبع، يتألم قلبها من جميع الفظاظات التي تَلْحقُ بالفلاحين؛ كانت تحميهم، وتنجح كثيراً في تهدئة هيجان زوجها. رجته من قلبها المكروب، قائلةً بلهجة ملاطفة:

ـ يا صديق روحي، يا ميشيل العزيز، لا تنس أن هذا اليوم هو يوم العيد الأكبر، اليوم المقدّس المكرّس لله، ولا تقترف إثماً كبيراً. أرجوك، يا صديقي، بجاه يسوع، دع الفلاحين أحراراً هذا اليوم.

لكن ميشيل سيمينوفيتش أبى أن يتأثر بكلام امرأته، وأجاب بضحكة خبيثة، وهو يهدّد بإصبعه:

ـ من زمنٍ بعيد لم يُحسّ جنباك بلسع السوط، هذا واضح؛ إن أردتِ أن تَغيظيني فما عليكِ إلا أن تتدخّلي في أشياء لا تفهمين منها شيئاً.

ـ ميشنكا، يا صديقي الحنون، لا ترفضْ نصيحتي. لو كنتَ تعرف الحلم الشيءَ الذي حلمتُه. كنتَ جديراً بالرثاء، جديراً بالرثاء! أوه! كان مُرعباً، أرجوك؛ لا تجبر الفلاحين على العمل اليوم، يوم العيد المقدّس.

ـ دعيني وشأني، بحق الشيطان، يا حمقاء! لا تستغلي صبري أكثر من ذلك، واسكتي، وإلا فسيذوق بطنُكِ طعم الجَلْد! سيكون النغمْ مختلفاً حينئذٍ!

قال المُعْتمدُ ذلك، وانقض كالمجنون الهائج على امرأته، ولطمها برأس الغليون لطمةً عنيفة على فمها، ثم طردها آمراً إياها بلهجة فظّة أن تحمل إليه غداءه.

قُدِّم له حساءٌ بارد، وفطيرةٌ باللحم، وصحنان من الكرنب المخلل ولحم الخنزير المشوي، وحلوى بالقشدة. أكل بمتعةٍ كما يأكل الأمير، وشرب فوق ذلك كله كأساً من ماء الحياة وقد كانت الفطائر لذيذة جداً حتى أكل منها كما تؤكل التحليةُ بعد الطعام؛ وبعد ذلك إستدعى الطاهية، فأخذت تغني، بناءً على أمره، أغنيةً فرحةً، وصحبها، وهو يَنْقُرُ قيثاره على طريقته.

هكذا كان هذا الرجل يَهْضم طعامه، وهو مرتاح النفس، لا يبالي لا بالله ولا بالناس، وشيئاً فشيئاً توقّفت أصابعه على أوتار القيثارة، وأخذ يمزح، ويبادل الطاهيةَ الجميلة الأحاديث الغرامية.

لكن عودة العمدة وضعت فجأةً حداً لهذا الثنائي. إنحنى العمدة إنحناءة عميقة وانتظر الأمرَ بالكلام.

ــ حسناً! ماذا يَفعل هؤلاء السخفاء؟ هل تقدّموا في عملهم؟ هل ستنتهي مهمّتُهم في الساعة المحدّدة؟

ــ عملوا حتى الآن أكثر من النصف.

ــ وهل مرّ المحراث بالأماكن كلها؟ أليس ثمة مكانٌ منسيٌّ؟

ــ لم أستطع أن أعثر على مكان منسيّ. العمل مُتقنٌ، وهم خائفون و...

ــ قلْ لي قليلاً، هل يحرثون حراثة عميقة، فيحرّكون الأرض بشدّة؟

ــ الأرضُ هناك خفيفة، وهي تتطاير كالغبار.

صمتَ المُعتمدُ لحظةً، وقد إستغرق في تفكيره القلِق.

واستأنف:

ــ هذا حسن، لكنك لم تقلْ لي ما رأي الفلاحين بي. إنهم يغتابونني من دون شك؟ حدّثني قليلاً عن أحاديثهم السيئة.

تردّد العمدةُ في الجواب، لكن المعتمد أمره بغضب أن يتكلم، وصاح به:

ـ أريد أن تقول لي كلَّ شيء، أحبّ أن أسمع أحاديثَهم لا أحاديثك.

ـ إن قلتَ لي الحقيقة نلت جزاءك. لكن إن عنَّ لك أن تخبّىء عني شيئاً، أيّاً كان ذلك الشيءُ، فسوف تُجلد. أتظن أني أتحرّج منك أكثر مما أتحرّج من الآخرين؟ هيّا، يا كاتيوشا، صبيّ له كأساً من ماء الحياة لتحلّي رباط لسانه.

أطاعت الطاهيةُ، وملأت كأساً من ماء الحياة، ومدّته إلى العمدة، تمتم هذا: «على صحتك» وعبّ الشراب بجرعة واحدة، وجفّف شفتيه وهو يتهيأ للجواب. وقال في نفسه: لِيحدثْ ما يحدثُ. ليس ذنبي أن الفلاحين لا يتغنون بمدحه، وبما أنه يريدُ الحقيقة فسوف يسمعُها.

بعد أن تشجّع، على هذا النحو، بدأ كلامه:

ـ الفلاحون يتذمّرون، يا ميشيل سيمينوفيتش، وهم يجهرون بشكاوى مريرة.

ـ لكنْ تكلّمْ. ماذا يقولون؟

ـ بعضُهم يقول: إنك لا تؤمن بالله.

إنفجر المعتمدُ ضاحكاً:

ـ مَنْ النَذْلُ الذي يقول ذلك؟

ـ كلهم يقولون ذلك. يزعمون أنك أسلمتَ نفسك للشيطان.

إنفجر المعتمد ضاحكاً من جديد، وقال:

ـ حلوٌ! حلوٌ جداً! لكن إشرح لي عن كل واحد على حدة. ماذا كان يقول فاسكاً، مثلاً؟

كان للعمدة أقرباء وأصدقاء يريدُ أن يحميهم منه، أما فاسيلي فكانت بينه وبين العمدة عداوةٌ شديدةٌ منذ سنين.

قال بلا تردد:

ـ فاسيلي يزيد ويرعد أكثر من الآخرين.

ـ حسنٌ؛ لكن تكلّمْ، أريد أن تردّد على مسمعي أقواله.

ـ إنها مرعبة: يكفي إن أفكّر فيها حتى يرتعد جسمي. إنه يهدّدك ويقول: إن رجلاً مثَلك لا بد أن ينتهي بموتٍ عنيف.

قال المعتمدُ الذي كانت هذه المسارة تزيد من مرحه:

ـ عليه اللعنة! ما أصّح مسلكه! فاسيلي هذا بطل حقيقي! تبّاً له، لمَ يتأخر؟ ماله يَشْخص بنظره كالأبله بدلاً من أن يدقّ عنقي على الفور. لعل هذا المتبجح لم يجد الأمر سهلاً. إنتظر قليلاً، فاسكاد يا عزيزي فاسكا، سنتحدث عن ذلك بيننا نحن الإثنين.... لننتقل إلى آخر.. هذا الكلب تيشكا بم ينبح؟

ـ كلهم أغْلظَ فيكَ القولَ.

ـ نعم، لكني قلتُ لك إني أريد أن أُخْبرَ عن كل واحد على حدة.

ـ إني أشمئز من تكرار أحاديثهم.

ـ أرأيتم، هذه الرقة! آه! هيا، ألن تتكلم في النهاية؟

يتمنّون لو ينفزر بطنك وترى أمعاؤك خارجةً منه.

ضاعفَ هذا الحديث من مرح المعتمد الذي أغرب في الضحك حتى أمسك بخاصرتيه:

ـ سنرى من منّا سيُبْدي أمعاءه أولاً، أنا أم أشباه الرجال هؤلاء. من قال هذا؟ «تيشكا» بدون شك؟

ـ لم يقل أحدٌ كلمةً طيبة؛ التهديد والشتم على ألسنتهم جميعاً، وكل واحد يزيد على غيره.

ـ صدّقتُك. وبيتروشكا ميكيف المنافق، بأحاديثه المعسولة، يسبني كالآخرين، فيما أظن؟

ـ لا، يا ميشيل سيمينوفيتش، لم يخرج من فمه كلامٌ خبيثٌ.

ـ ماذا كان يقول إذن؟

ـ ظلّ وحده صامتاً بين الجميع. إن هذا رجل فريدٌ من نوعه. لا نستطيع أن نتصور ما رأيت؛ لا، لم أكن لأصدق عيني.

ـ ما عسى أن يكون ذلك؟

ـ شيء غريب. دهش الفلاحون ولم يصدّقوا.

ـ أيها الجلاد! هلاّ قلت لي أخيراً ماذا رأيت؟

ـ كان يحرث على خاصرة الهضبة. وبينما كنت أقترب، قرعت أذني نغماتٌ رقيقةٌ ومؤثرة. كان رجلنا يرتّل ترتيلة ورعة. كانت إحتفالية عجيبة الجمال. ثم بدا لي أنني أرى، على خشب المحراث، بين القرنين نوراً صغيراً يتذبذب.

ـ وبعد ذلك؟

ـ كان نوراً بالفعل. وكنت كلما إقتربت رأيتُ ضياءه يزداد، وسرعان ما عرفت مصدر النور.. شمعة! شمعة من هذه الشموع الصغيرة التي تباع بخمسة كوبيكات على أبواب الكنائس كانت مثبتة على خشب المحراث وكان لهبها يخفق فرحاً مع نفحات الهواء. وكان الفلاح بسترة الأحد، يمشي برفق خلف محراثه ويتابع عمله المجهد وهو يرتّل ترتيلة يوم القيامة.

لقد هزّ المحراث أمامي، وأدار السكة، وبدا ثلماً جديداً، وظل اللهبُ الصغيرُ المضيء يشتعل.

ـ ماذا قال؟

ـ لم يكد يقول سوى كلمة. عندما شاهدني تمنى لي فصحاً سعيداً، واستأنف ترتيله.

ـ ألم تتبادلا كلاماً آخر؟

ـ لا، لم أدرِ ما أقوله له عن عمله. كان الفلاحون الآخرون يضحكون ويهزؤون منه، ويقولون له: أيها المجنون المسكين، عبثاً ترتّل، لم تحمكَ التراتيل من أن تعمل اليوم؛ لا بد لك من الصلوات ومن التوبة لتتطهر من إثمك هذا!».

ـ وبم أجاب ميكييف؟

ـ كان يقطع ترتيله، ويردد عليهم قول الإنجيل، على الأرض السلام، وفي الناس المسرّة». وبعد ذلك يسوق خيله ويبدأ عمله من جديد. وكان اللهب الصغير الفرحُ يتراقص أمام نفحات الهواء.

كفّ المعتمدُ عن الضحك، وأطرق رأسه، وقد سقطت القيثارة من بين يديه؛ إستولت عليه فكرة قاتمةٌ.

ظلّ لحظةً مستغرقاً في صمت كئيب. وبعد أن صرف العمدة والطاهية، أسرع فلزم فراشه، وسُمع وهو يئن ويضطرب، وكأنه يجر من أخدود عربة تبن غارقةً في الوحل. جاءت امرأته، وقد ملأها القلق، تسأله ما به، لكنها عبثاً رجته وتضرّعت إليه، فلم تستطع أن تحصل منه إلاَّ على هذه الكلمات التي كان يردّدها باستمرار:

ـ لقد غلبني! تملّكني شيءٌ ما؛ جاء دوري الآن.

كانت امرأته تحضه حضاً رقيقاً قائلة له:

ـ إستعدْ شجاعتك، يا صديقي. إنهض واذهب فأصرف هؤلاء الفلاحين المساكين. كل شيء يمكن إصلاحه. ما السبب في أن شيئاً تافهاً قد هدّك، أنت الذي إرتكب كثيراً من الأعمال المرعبة دون تردد؟

تابع كلامه وهو يئن:

ـ لقد هلكتُ! غلبني! حاولي فقط أن تخرجي من ذلك كله سليمة بريئةً من الأذى؛ إن حزني لأعظم من أن تفهميه.

في غمرة الغمّ الذي ألمّ بقلبه، كان يتقلب ويتململ على فراشه.

في اليوم التالي إستأنف مجرى مشاغله العادية؛ لكن كم تغير! كان ميشيل سيميتوفيتش لا يكاد يعرف، كان الحزن ينهش قلبه. ومنذئذٍ جَرجر حياته الحزينة تاركاً الأمور تجري على هواها، مؤثراً أن يلزم بيته بلا عمل.

عندما جاء الإقطاعي يتفقد أراضيه، إستدعى معتمده.

قيل له إنه مريض. ودعاه ثانية فتلقى الجواب نفسه، لكنه ما لبث أن عرف أن ميشيل سيميتوفيتش صار سكّيراً مدمناً، يعيش حياة فارغة، وأن ذهنه بدأ يظلم شيئاً فشيئاً؛ ذهب ما بقي من ماله على الشراب، وانتهى البائس بالسقوط إلى الحضيض حتى بلغ به الأمر أن سرق أغطية لزوجته لكي يبادل بها صاحبَ الحانة كأساً من ماء الحياة.

إنتهى الفلاحون الذين كان قاسياً جداً عليهم بأن أخذتهم الشفقة على بؤسه، فكانوا يعطونه الماء لكي يشرب ويغرق حزنه.

لم يعش طويلاً هذه العيشة الحيوانية. فلم تكد تمر عليه سنة، حتى قضى عليه ماء الحياة.

• • •

الخاطىء التائب

ثم قال ليسوع: «اذكرني إذا أتيت في ملكوتك».

فقال له يسوع: الحق أقول لك: أنك اليوم تكون معي في الفردوس»

كان يعيش بين الناس رجلٌ ابن سبعين؛ قضى حياته في الخطيئة. أصبح هذا الرجل مريضاً فلم يتب.

وعندما دنتْ منيّته، وأثناء ساعته الأخيرة أخذ يبكي ويقول:

ـ يا ربّ، اغفر لي كما غفرت للصين على الصليب.

لوم يكد يقول هذا حتى أسلم الروح. وأحبّت الروح الله، وآمنت برحمته، وطارت إلى عتبة الفردوس.

أخذ الخاطىء يقرع، متضرّعاً أن تفتح له ملكوت السماء.

سمع صوتاً وراء الباب:

ـ مَنْ هذا الإنسان الذي يطرق باب الفردوس؟ وكيف كان يعيش على الإرض؟

أجاب صوتُ المتّهم وعدّد خطايا هذا الإنسان. ولم يذكر عملاً واحداً جديراً بالتقدير.

واستأنف الصوت قائلاً من وراء الباب:

ـ الخاطئون لا يدخلون ملكوت الله. انصرفْ من هنا!

قال الرجل:

ـ يا سيدي إني أسمع صوتك، لكني لا أرى وجهك، ولا أعرف اسمك.

أجاب الصوتُ:

ـ أنا بطرس الرسول.

قال الخاطىء:

ـ ارحمني، يا بطرس الرسول. تذكّر ضعفَ الإنسان ورحمة الله. ألستَ أنتَ الذي كان تلميذاً للمسيح؟ ألستَ أنتَ الذي تلقى عقيدته من شفتيه؟ كانت حياتهُ قدوة لحياتك. تذكّر! كانت نفسه تتعذّب، وطلب إليك ثلاث مرات ألا تنام وأن تصلّي؛ فغفوت لأن النعاس غلَبَ جفنيك، وفاجأك ثلاث مرات وأنت نائم. تذكر أيضاً أنك وعدته، متمسكاً بخلاص روحك، ألا تُنكره. وأنكرته ثلاثَ مرات عندما سيق إلى بيت رئيس الكهنة. هكذا فعلتُ. وتذكّرْ أيضاً صياحَ الديك عندما خرجتَ تبكي بكاءً مرًّا. هكذا فعلتُ. ولا يجوز لك أن تتركني في الخارج.

صمت الصوتُ خلف باب الفردوس. بعد لحظة، أخذ الخاطىء يقرع من جديد، متضرّعاً أن تُفْتحَ له ملكوت السماء.

وسُمع صوتٌ آخر خلف الباب قائلاً:

ـ مَنْ هذا الإنسان وكيف كان يعيش على الأرض؟

ومرة أخرى أجاب صوتُ المتّهم معدّداً جميع خطايا هذا الإنسان. ولم يذكر عملاً واحداً جديراً بالتقدير.

واستأنف الصوت من وراء الباب:

ـ انصرف. فمثلُ هذا الخاطىء الكبير لا يمكن أن يعيش معنا في الفردوس.

قال الرجل:

ــ يا سيدي إني أسمع صوتك، لكني لا أرى وجهك ولا أعرف اسمك..

أجاب الصوت:

ــ أنا الملك النبي داود.

لم ييأس الخاطىء ولم يترك باب الفردوس، وقال:

ــ ارحمني، أيها الملك داود، تذكّر ضعفَ الإنسان ورحمة الله. كان الله يحبّكَ؛ وَضعكَ فوق جميع الناس، أعطاك كلَّ شيء، ملكاً ومجداً وذهباً ومحظيات وأولاداً. لكنك ما إن شاهدتَ من فوق السطح، امرأة رجل مسكين، حتى استولت عليك الخطيئة، فأخذت امرأة «أوري» وأسلمته هو نفسه لسيف العمونيين... أنتَ الغني انتزعتَ من الفقير آخر نعجة له وقتلته هو نفسه. وهكذا فعلتُ. وتذكّرْ أيضاً كيف تُبتَ قائلاً: «أقر بذنبي وأتوب عن خطيئتي» هكذا فعلتَ. ولا يجوز لك أن تتركني في الخارج.

بعد لحظة، عاد الخاطىء يقرع متضرّعاً أن تفتح له ملكوت السماء.

تعالى صوت ثالث وراء الباب قائلاً:

ــ مَنْ هذا الإنسان وكيف كان يعيش على الأرض؟

وللمرة الثالثة أجاب صوتُ المتهم محدّداً جميع خطايا هذا الرجل. ولم يذكر عملاً واحداً جديراً بالتقدير.

وعاد الصوت يقول من وراء الباب:

ــ انصرفْ. الخَطأَةُ لا يدخلون ملكوت السماء.

قال الرجل:

ــ إني أسمع صوتك، لكني لا أرى وجهك ولا أعرف اسمك.

ــ أنا يوحنا الانجيلي، تلميذ المَسيح المفضّل.

فرحَ الخاطىء وقال:

ـ الآن لا يجوز أن أترك في الخارج. بطرس وداود سيدعانني أدخل لأنهما يعرفان ضعف الإنسان ورحمة الله. وأنت ستدعني أدخل لأنك ممتلىء بالحب. ألست أنت يوحنا الانجيلي الذي كتبَ في كتابه: «الله هو المحبّة، ومن لا يحب لا يعرف الله»؟ ألست أنت الذي كان يردّد أبداً في شيخوخته «أيها الأخوة لنحبّ بعضنا بعضاً!»، فكيف تحتقرني، وكيف ترفضني الآن؟ إما أن تُنكرَ ما قلتَ، وإما أن تحبني وتفتح لي ملكوتَ السماء.

فُتح الباب على مصراعيه، وضم يوحنا الانجيلي، الخاطىء التائب بين ذراعيه، وسمح له بأن يدخل ملكوت السماء.

• • •

أوّل مقطّر

(١٨٨٥م)

ذهب فلاحٌ مسكينٌ، ذات يوم، ليحرث حقله، دون أن يأكل شيئاً، حاملاً معه كسرة خبز. بعد أن أدار محراثه، وضع كسرة الخبز تحت شجرة شوك، ومدّ قفطانه فوقها ليخبئها.

احتاج الحصانُ إلى الراحة، والفلاحُ إلى الطعام. فكّ الفلاح رباطَ الحصان، وتركه يرعى، واتجه إلى شجيرة الشوك ليتغدّى. رفع القفطان، ونظر تحته، فلم يجد كسرة الخبز. وينظر، ويفتّش، ويقلّب قفطانه، وينفضه: لم يجد أثراً للخبزة.

دهش الفلاح، وفكّر:

ــ غريب، لم يأت أحدٌ، ومع ذلك أخِذَت خبزتي.

كان السارقُ شيطاناً صغيراً أخذ الخبزة، بينما كان الفلاحُ يدفع محراثَه، ثم اختبأ خلف شجيرة الشوك، كي يسمع الفلاح وهو يغضب ويدعو الشيطان.

استاءَ الفلاحُ، وقال:

ــ لن أموت من الجوع. لا شك أن مَنْ أخذها كان جائعاً. فَلْيأكلْها بالصحة والعافية.

واتجه إلى البئر، فروى ظمأه، واستراح بضع لحظات، وربط حصانه بالمحراث، مرلاً أخرى، واستأنف الحراثة.

ثار غضب الشيطان الصغير لأنه لم ينجحْ في حَمْله على الخطيئة، فمضى لمقابلة رئيس الشياطين ليطلب مشورته. فعرَضَ كيف أنه سرق خبزة الفلاح، وكيف أن الفلاح قال، بدلاً من أن يغضب: فَلْيأكلْها من أخذها بالصحة والعافية.

أغضبت هذه الحكاية رئيس الشياطين، فقال:

ـ إنما لعبَ الفلاح بك، لأنك لم تحسن التصرّف بدهاء. إذا تركنا الفلاحين ونساءَهم يهزؤون بنا، غدت الحياة لا تُحتمل. لكن الأمر لن يمرّ كذلك. عُدْ إلى ذلك الفلاح؛ إذا شئت أن تأكل الخبزة فيجب أن تستحقّها. وأنا أمهلك ثلاث سنوات للتغلّب على هذا الفلاح؛ وإذا لم تنجح، في هذه المدة، فسوف أُغطسك في الماء المقدّس.

هذا التهديد أرعبَ الشيطان الصغير، فجرى نحو حقل الفلاح، وأخذ يبحث عن وسيلة لتدارك خرقه. وفكّر كثيراً، وبعد طول التفكير، وجد الوسيلة.

تحوّل إلى رجل طيّب، ووضع نفسه في خدمة الفلاح. تنبّأ بجفاف الصيف التالي، فنصح سيّده ببذر حنطته في الأراضي السَّبْخية. عمل الفلاح بنصيحة خادمه، وبذر حنطته في الأراضي السبخية.

جميعُ الفلاحين الآخرين حرقت الشمسُ حنطتهم. الفلاح المسكين وحده جنى غلّة وفيرة. وكان لديه من الخبز ما يكفي لانتظار الموسم القادم، بل قد فضل عنده كثيرٌ من الخبز إلى ما بعد ذلك.

في موسم البذار، نصح الخادمُ سيّده بالبذار في الأماكن العالية؛ وفي هذا العام بالذات، كانت الأمطار غزيرة.

في جميع الحقول الأخرى التوى القمحُ، وتعفّنت سنابلهُ، ولم تنضج. أما ذلك الفلاح فقد حصد على الأماكن العالية قمحاً كثيفاً ونقياً.. وجنى غلةً وافرة جداً حتى إنه لم يَدْرِ أين يضعها.

حينئذٍ علّمه خادمهُ طريقة تقطير ماء الحياة من القمح. شرب هو منه وسقى الآخرين.

بعد ذلك، عاد الشيطانَ الصغير إلى رئيس الشياطين وأبلغه أنه استحق خبزته.

حرص رئيسُ الشياطين على التأكّد من الأمر بنفسه، فقصد منزلَ ذلك الفلاح. وجده يقدّم ماء الحياة إلى الوجهاء الذين دعاهم. وكانت ربة البيت تخدمهم بنفسها، وإذا بها تَصْدم زاوية المائدة، وهي تدور حولها، وتقلبُ كأساً ملأى.

ثار الفلاحُ على امرأته. قال:

ــ أرأيتم، هذه الغبية بين جميع الشياطين! أتحسبُ ماءَ الحياة ماءً ل للغسيل، حتى تلقي به هكذا على الأرض.

دفع الشيطانُ الصغيرُ بمرفقه رئيسَ الشياطين، وقال له:

ــ هلاّ نظرت. أنا واثقٌ من أنه سيأسفُ الآن على خبزته.

بعد أن أفرغ الفلاح غضبه على امرأته تناول الزجاجة وصب لمدعوّيه. وفيما هم يدقّون كؤوسهم بعضها ببعض، حضر فلاحٌ مسكين لم يكن ينتظره أحد. حيّا الحاضرين وجلس في زاوية. رأى الآخرين يشربون، وكان بودّه لو شرب قبلهم شيئاً من ماء الحياة، ليجدّد قواه؛ لكنه ظلّ في زاويته يبلع ريقه، فصاحبُ البيت أبى أن يسكب له شيئاً من ماء الحياة. وكان يدمدم:

ــ أصنعتُ من ماء الحياة ما يكفي الناسَ جميعاً!

فرح رئيس الشياطين بذلك. قال له الشيطان الصغير وهو معتزٌّ:

ــ وليس هذا كل شيء. انتظرْ قليلاً أيضاً.

عندما أفرغ الفلاحون الأغنياء ومضيفهُم كؤوسهم، غمر بعضهُم بعضاً بالإطراء؛ كانوا يتبادلون المدح والكلام المعسول.

لم تَفُتْ رئيسَ الشياطين كلمة مما قيل. فأبدى ارتياحه للشيطان الصغير. قال:

ـ إذا كان هذا الشراب يجعلهم جميعاً مُرائين إلى الحدّ الذي يَخْدع فيه بعضهُم بعضاً، فقد وقعوا تحت سيطرتنا.

أجاب الشيطان الصغير.

ـ انتظر التتمّة. ليشربوا أيضاً كأساً صغيرة فقط. أنت تراهم الآن كالثعالب يتبخترون ويحرّكون أذنابهم ويحاول بعضهُم أن يخدع بعضاً؛ وستراهم بعد لحظة خبثاء كالذئاب.

ويسكبُ المضيف لضيوفه كأساً صغيرةً أيضاً؛ فإذا بهم يتصايحون ويتنادون بفظاظة. لقد أخذوا يتبادلون الشتائم بدلاً من الكلام المعسول وإذا بهم يثورون ويتخاصمون ويتضاربون ويحطّم بعضهم أنوفَ بعض. وحين أراد ربّ البيت أن يتوسط بينهم أوسعوه ضرباً.

هذا المنظر أفرح رئيس الشياطين، فقال:

ـ ها إن الأمور تسير سيراً حسناً.

لكن الشيطان الصغير أجابه:

ـ انتظر حتى يشربوا كأساً صغيرة أخرى. هم الآن كالذئاب المسعورة، لكنهم سيصبحون كالخنازير، عند الكأس الثالثة.

شرب الفلاحون كأساً ثالثة، فكأنما صُرعوا. أخذوا يَنْخرون، ويصرخون، ويتكلمون في آن واحد، دون أن يعرفوا هم أنفسهم ما يقولون، ودون أن يصغي أحدٌ إلى أحد، وقد تفرّقوا يمنةً ويسرةً، واحداً واحداً، أو اثنين، أو ثلاثة ثلاثة، وانبطحوا جميعاً على الأرض، أما ربّ البيت الذي خرج ليشيّع ضيوفه، فلم يلبث أن تدحرج في نقفعة ماء وظل فيها ملطّخاً يتمرغ وينخر كالخنزير.

فرك رئيس الشياطين يديه، وقد ازداد افتتاناً بما رأى، وقال للشيطان الصغير.

ـ يحقّ لك أن تفتخر باختراعكَ هذا الشراب العجيب. لقد استحققت تلك الخبرة. قل لي الآنممّ ركبتَ هذا الشراب. لا شك أنك، لكي تصنع هذا الشراب، مزجت بين أشياء ثلاثة معاً: أولاً دم الثعلب الذي أوحى إلى الفلاحين مكر الثعالب؛ ثانياً دم الذئب الذي جعلهم خبثاء كالذئاب؛ ثالثاً دم الخنزير الذي حوّلهم إلى خنازير.

قال الشيطان الصغير:

ـ كلا، لم أتبَعْ هذه الطريقة. كل ما فعلته هو أني عملتُ على إنتاج الفائض من الحنطة في حقل الفلاح. وفي هذه الحنطة كان دم الحيوانات؛ لكن هذا الدم لا يمكن أن يحدث مفعوله ما دامت الحنطة لا تكاد تكفي للطعام. كان ذلك حينما لم يأسف الفلاحُ على كسرة الخبز. أما عندما أغلّت الأرضُ فقد بحث الفلاحُ عن الوسائل لاستعمال الفائض. حينئذٍ علّمته طريقة تقطير ماء الحياة. وعندما حوّل هبة الله إلى ماء الحياة من أجل لذّته، وعندما شربه أحدث دم الثعلب ودم الذئب ودم الخنزير تأثيرها. وكلما شرب الآن، ماء الحياة، غدا من فوره شبيهاً بهذه الحيوانات.

بعد أن هنّأ رئيس الشياطين الشيطانَ الصغير مرةً أخرى، سلّمه كسرة الخبز، ورفّعه إلى مرتبة أعلى.

• • •

الشيوخ الثلاثة
(أقصوصة من منطقة الفولغا)
(١٨٨٥م)

صعد رئيس أساقفة أركانجيلسك[1] إلى سفينة مُبحرةٍ من هذه المدينة إلى دير سولوفكي[2]. كان بين المسافرين حُجاجٌ أيضاً ومن الذين يُدعَوْن «قدّيسين». كانت الريح تَدْفع بمؤخرة السفينة، وكان الجو صحواً، فلم تهتزّ السفينةُ أو تترنّح.

كان الحُجاج الذين اضطجع بعضهم أو أخذ يأكل، وجلس بعضهم الآخر جماعات جماعات، يتحّدثون فيما بينهم. خرج رئيسُ الأساقفة من حجرته وأخذ يتمشّى من طرف السفينة إلى الطرف الآخر. وعندما وصل إلى مقدّمة السفينة، رأى رهطاً من المسافرين تجمّع هناك. كان فلاحٌ قصيرٌ يشير بيده إلى شيء في عرض البحر، ويتكلم، بينما كان الآخرون يصغون، توقّف رئيس الأساقفة، ونظر إلى الجهة التي أشار إليها الفلاح: لم يكن يُرى شيءٌ سوى البحر المتوهج تحت الشمس. دنا رئيس الأساقفة ليكون إستماعُه أفضل. فلما

---

(١) مرفأ على البحر الأبيض، أُسّس سنة ١٥٦٠م.

(٢) أُسّس هذا الدير سنة ١٤٣٠م على جزر صخرية في البحر الأبيض؛ وحُصّن في أواخر القرن السادس عشر، وصمد في ١٨٥٥م لهجوم الأسطول الإنكليزي.

شاهده الفلاحُ القصيرُ، رفع قبّعته وصمت. وكذلك الآخرون، كشفوا عن رؤوسهم وانحنوا باحترام.

قال رئيس الأساقفة:

ـ لا تتضايقوا، يا أصدقائي. أنا نفسي، جئت لأسمع ما تقوله، أيها الرجل الطيب.

قال أحد التجار وقد تشجّع:

ـ كان صيادُ السمك يحدّثنا عن الشيوخ.

سأل رئيس الأساقفة، وقد جاء إلى قرب متراس السفينة ليجلس على صندوق:

ـ عن أي الشيوخ؟ حدّثني عن ذلك، أنا مُصغ إليك، إلامَ كنتَ تشير؟

قال الفلاح وهو يشير أمامه إلى يسار السفينة:

ـ هناك، في تلك الجزيرة الصغيرة المنتصبة. هناك، في تلك الجزيرة، شيوخٌ يعيشون من أجل خلاص نفوسهم.

سأل رئيسُ الأساقفة:

ـ وأين تلك الجزيرة؟

ـ تفضّلْ وانظرْ متابعاً يدي. أنظرْ إلى هذه الغيْمة الصغيرة، حسناً! تحتها إلى اليسار قليلاً ما يشبه الشريطَ الضيّق.

نظر رئيس الأساقفة. كان الماءُ يلتمع في الشمس. لم يشاهد شيئاً لأنه لم يتعوّد ذلك. وقال:

ـ لم أرها، وما هؤلاء الشيوخ الذين يعيشون في هذه الجزيرة؟

أجاب الفلاح:

ـ من أهل الله. سمعت الناسَ يتحدثون عنهم منذ زمن بعيد، لكنْ لم تُتَحْ لي رؤيتُهم؛ وفي السنة الماضية، رأيتُهم.

وروى الصيّادُ كيف أنه ذهب لصيد السمك، في السنة الفائتة، فألقتْ به العاصفةُ على هذه الجزيرة التي كان يجهلها. وبينما كان يرود الأماكن، في الصباح، وقع على كوخ صغير رأى عند عتبته شيخاً، وخرج منه، بعد ذلك، شيخان آخران. قدّموا له طعاماً، وجّففوا ثيابه، وساعدوه على إصلاح قاربه.

سأل رئيس الأساقفة:

ــ وكيف كانت هيئتهم؟

ــ أحدهم قصيرٌ، مقوس الظهر قليلاً، طاعنٌ في السن، وهو يرتدي جبّة باليةً، ولا شك أنه تجاوز المائة. أخذ بياضُ لحيته يخضرّ؛ ومع ذلك فهو يبتسم دائماً، وهو نقي مثل ملاك السموات. والثاني أطول قليلاً، وهو شيخٌ أيضاً، يرتدي قفطاناً رثّاً. أما لحيتُه الشائبة فتنتشر على صدره مصفرّة، لكن الرجل قوي: لقد قلب قاربي وكأنه سطلٌ، قبل أن تتسنى لي مساعدته. وهو أيضاً مشرق الوجه. أما الثالث فطويل جداً، تنزل لحيته إلى ركبتيه مثل نهر من الثلج. وهو عار تماماً، ما عدا قطعة من حصير تقوم مقام الزنار.

سأل رئيسُ الأساقفة:

ــ هل حدّثوك؟

ــ كانوا يشتغلون بصمت وقلّما كانوا يتكلمون فيما بينهم. كانت النظرة تكفيهم لكي يتفاهموا. سألتُ أكبرهم سناً إن كانوا يعيشون هنا منذ زمن بعيد. فعبس وهمس بشيء، وكأنه قد غضب حتماً. لكن الشيخ القصير أمسك بيده من فوره، وتبسّم، فصمت الشيخُ الطويل. ليس بينهم سوى الكلمة العذبة والإبتسامة.

بينما كان الفلاح يتكلّم هكذا إقتربت السفينة من الجزر.

قال التاجر:

ــ ها إننا نشاهدها الآن.

وأضاف بحركة:

ـ تفضّلْ وانظر إليها، يا سيّدنا.

نظر رئيس الأساقفة ورأى بالفعل شريطاً أسود:

كان الشريط هو الجزيرة الصغيرة. نظر رئيس الأساقفة ثم إنتقل من مقدّمة السفينة إلى مؤخرتها ليسأل ربّان السفينة:

ـ ما تلك الجزيرة التي تُشاهَد هناك؟

ـ لا إسمَ لها. وها هنا عددٌ كبير من هذه الجزر الصغيرة.

ـ أصحيحٌ أن ثلاثة شيوخ يعيشون فيها من أجل خلاص نفوسهم؟

ـ يقال ذلك، يا سيّدنا. لكني لا أعلم شيئاً من ذلك. رآهم صيّادو السمك، فيما يُزعَم. لكن ربما كانت تلك شائعات تُروى.

قال الحبر:

ـ أودّ لو أقف قليلاً في هذه الجزيرة، وأرى هؤلاء الشيوخ. فكيف العمل؟

أجاب الربّان:

ـ يتعذّر على السفينة الإقتراب من الشاطىء. ذلك ممكن بالزورق؛ لكن يجب أن يُطلب الإذن من القائد.

وأُحضِرَ قائد السفينة. قال رئيس الأساقفة:

ـ أود أن أرى هؤلاء الشيوخ. ألا تستطيعون إيصالي إلى هناك؟

أجاب القائد جواباً مُداوراً:

ـ بالنسبة إلى إستطاعتنا، نحن نستطيع أن نفعل ذلك؛ لكننا سوف نضيع كثيراً من الوقت، وأنا أسمح لنفسي أن أعلن لسيادتك أن الأمر لا يستحق هذا الجهد. وقد سمعتُ أن هؤلاء الشيوخ أغبياء، فهم لا يفهمون شيئاً وهم خُرسٌ مثل سمك الشبوط.

أصرّ الحبرُ:

ــ أرغبُ في أن أراهم. وسأدفع بدل الجهد؛ فأوصلوني إلى هناك.

لم يكن بدٌّ من ذلك. وعليه فقد صدرت الأوامر إلى البحارة وغُيِّر إتجاهُ الأشرعة. أدار الربانُ دفّة السفينة فاتّجهت إلى الجزيرة. وحُملتْ كرسيٌّ إلى مقدمة السفينة للحَبْر فجلس وأخذ ينظر.

في هذه الأثناء، تجمّع الحَجاجُ أيضاً في مقدّمة السفينة، وشخصوا بأبصارهم إلى الجزيرة. فمَنْ كان منهم أَحدَّ بصراً رأوا حجارة الجزيرة وأشاروا إلى كوخ صغير. بل إن منهم مَنْ تبيّنوا الشيوخَ. تناول القائدُ منظاره، وصوّبه في ذلك الإتجاه، ثم ناوله رئيسَ الأساقفة، وقال:

ــ صحيح، أنظرْ إلى الشاطىء، إلى يمين الصخرة الضخمة، هناك ثلاثة رجال وقوف.

نظر رئيسُ الأساقفة بدوره، في المنظار بعد أن ركّزه. وبالفعل. كان على الشاطىء ثلاثةُ رجال وقوف: أحدهم طويل، والثاني أقل طولاً، والثالث قصير القامة جداً. وقد أمسك كل منهم بيد الآخر.

إقترب القائدُ من رئيس الأساقفة وقال:

ــ ها هنا يجب أن نقف، يا سيدنا. وإذا كنت تحرصُ حقاً على النزول، فلا بد من أن تستقل زورقاً، بينما نرسو نحن هنا.

وعلى الفور، فُكّت الحبال، وأُلقيت المرساةُ، وحُلّت القلوع، وسحب الزورق إلى البحر. وثبَ الجدّافون، ونزل رئيس الأساقفة بالسلّم. عندما جلس على مقعد الزورق شدّ الجدافون على مجاديفهم ومضوا باتجاه الجزيرة. وحين صاروا على بعد رمية حجر من الجزيرة، رأوا الشيوخَ الثلاثة: الطويلُ عارٍ إلا من قطعة حصير تزنّر بها، المتوسط القامة بقفطانه الممزّق، والقصير المقوّس الظهر، المتدثّر بجبة. كان كل منهم يمسك بيد الآخر.

توقّف الجذّافون ليربطوا الزورق. نزل رئيسُ الأساقفة. حيّاه الشيوخُ بانحناءة عميقة. باركهم رئيس الأساقفة فانحنوا له انحناءةً أكبر.

ثم خاطبهم رئيس الأساقفة قائلاً:

ـ سمعت أنكم هنا، يا شيوخ الرب الرحيم، لكي تخلّصوا نفوسكم بالصلاة لسيّدنا عن ذنوب الشر. وقد جئتُ إلى هنا بنعمة الله، أنا الخادم الوضعيُ للمسيح، المدعوّ لرعاية رعيّته، ولذلك أحببتُ أن أراكم، يا أهل الله، لأعلّمكم إن استطعتُ ذلك.

تبسّم الشيوخُ بصمت ونظر كل واحد إلى الآخرين.

سأل الحبرُ:

ـ قولوا لي كيف تسعون إلى خلاصكم وتخدمون الله.

تنهد ثاني الشيوخ ونظر إلى الشيخ الأطول ثم إلى الأقصر. عبس الشيخُ الطويل ونظر إلى الشيخ القصير، أكبر الجميع سناً. تبسّم هذا وقال:

ـ نحن نجهل، يا خادمَ الرب، كيف نخدم الرب. نحن لا نخدم سوى أنفسنا، إذ نقوم بشؤون معاشنا.

ـ وكيف تفعلون لتصلّوا لله؟

قال الشيخ القصير:

ـ نصلي قائلين: «أنت ثلاثةٌ، ونحن ثلاثة، فارحمْنا».

ولم يكد يلفظ هذه الكلمات حتى رفع الشيوخُ الثلاثة عيونهم إلى السماء وردّدوا معاً:

ـ أنت ثلاثةٌ، ونحن ثلاثةٌ، فارحمْنا».

تبسّم رئيس الأساقفة وسأل:

ـ سمعتم، من غير شك، عن الثالوث المقدس، لكنكم لا تصلّون كما ينبغي، إني أحبكم كثيراً، يا شيوخ الرب الرحيم، وأرى أنكم تبتغون رضاه،

لكنكم لا تعرفون كيف تخدمونه. لا ينبغي أن تكون صلاتكم هكذا. إصغوا إليّ. سأعلمكم، لا من عند نفسي، بل بحسب الكتاب المقدّس الذي يعلّمنا كيف يريد الله أن نصلي له.

أخذ الحبرُ يعلّم الشيوخ كيف ظهر الله للناس. وحدثهم عن الله الآب وعن الله الإبن وعن الروح القدس... وقال:

نزل الله الإبن على الأرض ليخلّص الناس ويعلمهم جميعاً كيف يصلون له. إصغوا وكرروا بعد ذلك أقوالي.

وقال رئيس الأساقفة:

ــ أبانا.

ردّد أحد الشيوخ:

ــ أبانا.

وردّد الآخران ذلك.

ــ الذي في السموات.

ــ الذي في السموات

لكن ثاني الشيخين خلَطَ بين الكلمات ولم يلفظها كما ينبغي؛ ولم يتوصل الشيخ الثاني إلى لفظها لفظاً سليماً: كانت شعرات شاربه تسد شفتيه؛ أما الشيخ القصير فقد خرجت غمغمةٌ غير مفهومة من فمه الأدرد.

ردّد رئيس الأساقفة صلاته، فردد الشيوخ بعده، ثم جلس على حجر، ووقف الشيوخ حوله، ينظرون إلى فمه، ويبذلون جهدهم لتقليده وهو يتكلم، تابع رئيس الأساقفة مهمته، النهار كله حتى المساء، وكرر كل كلمة عشر مرات، عشرين مرة ومائة مرة، وكان الشيوخ يرددون ذلك بعده. فإذا تشوّشوا صحح لهم وأجبرهم على إعادة كل شيء من أوله.

لم يترك رئيس الأساقفة الشيوخ إلا بعد أن علمّهم «أبانا» كلها وبعد أن

توصلوا إلى إلقائها بأنفسهم. وكان الشيخ الثاني الأسرع في حفظها وإعادتها دفعة واحدة. وأمره الحبرُ أن يُعيدها عدة مرات متتالية إلى أن استظهرها الآخران.

هبط الغسقُ، وعلا القمرُ من البحر، عندما نهض رئيس الأساقفة ليعود إلى السفينة. إستأذن الشيوخ الذين جثوا جميعاً أمامه. أنهضهم الحبر وبعد أن قبّل كلاً منهم، حثهم على الصلاة كما علمهم. ثم نزل إلى الزورق وابتعد عن الشاطىء.

وبينما كان رئيس الأساقفة يعود إلى السفينة. سمع الشيوخ الثلاثة يُلقون الصلاة عالياً. وعندما بلغ السفينة، غابت أصواتهم، لكنهم كانوا يرون في ضوء القمر وقوفاً في الموضع نفسه من الشاطىء، الأقصر في الوسط، والأطول عن يمينه، والأوسط عن يساره.

عندما صعد رئيس الأساقفة إلى السفينة، إتجه إلى مقدمتها؛ أقلعت السفينة، ونفخت الريح القلوع، فدفعت السفينة التي إستأنفت إبحارها.

بلغَ رئيس الأساقفة مقدمة السفينة وهو لا يكف عن النظر إلى الجزيرة. كان الشيوخُ ما يزالون ظاهرين للعيان، لكنهم ما لبثوا أن أمحّوا، ولم تُرَ بعد ذلك سوى الجزيرة. ثم غابت الجزيرة أيضاً، ولم يبق سوى البحر يتلألأ في ضوء القمر.

إضطجع الحجاج ليناموا، وسكن كل شيء على ظهر السفينة. لكن رئيس الأساقفة لم يخامره النعاس. ظلّ وحده في مقدمة السفينة، ناظراً إلى البحر هناك حيث إختفت الجزيرة، متذكّراً الشيوخَ الثلاثة الطيبين. فكّر في فرحهم عندما تعلّموا الصلاة. وشكر الله الذي قاده إلى هذا المكان ليعلّم الشيوخ الكلمات الإلـٰهية.

جلس رئيس الأساقفة عند مقدمة السفينة، يفكّر، وهو ينظر إلى البحر،

نحو الجهة التي غابت فيها الجزيرة. وإذا بضياء باهر يتلألأ أمام عينيه: شيء شبيه بالنور يتذبذب هنا وهناك على هوى الموج، ويلمع فجأة ويبياضّ على آثار مخر السفينة التي أضاءها القمر. أهو طائر، أو نورسٌ، أو شراع يلقي هذه البقعة البيضاء؟ ويطرف الحَبْر بعينه ليحسن النظر. قال في نفسه: «إنها سفينة: قلوعها تسير على آثارنا. ولن تلبث حتى تلحق بنا قبل قليل، كانت بعيدة جداً، أما الآن فيسهل تمييزها تماماً. هذه السفينة ليس فيها شيء من السفينة، الشراع لا يُشبه شراعاً. لكن شيئاً ما يجري خلفنا ويحاول إدراكنا».

لم يستطع رئيس الأساقفة أن يتبين ما هذا. سفينة؟ لا، وليس طائراً. سمكة؟ لا، ليس سمكة. لكأنه إنسان، لكنه إنسان كبير جداً. وكيف يُصدَّق أن إنساناً يمكنه المشي على الماء؟ نهض رئيس الأساقفة من مكانه وذهب ليلقي الربّان.

سأله رئيسُ الأساقفة:

ـ أنظر، ما هذا، أيها الأخ؟ ما هذا الذي نراه هناك؟

قبل أن يجيب الربان، رأى رئيس الأساقفة أن ما أمامه هو الشيوخ الثلاثة يمشون على الماء، كل ما فيهم أبيض، ولحاهم البيضاء تسطع، وهم يقتربون من السفينة التي تبدو وكأنها جمدت مكانها.

وينظر الربان حوله مرعوباً؛ ويترك دفة السفينة، ويصرخ بأعلى صوته:

ـ يا سيدي! هؤلاء الشيوخ يتبعوننا، وهم يجرون على البحر كما لو كانوا على الأرض اليابسة!

نهض الحجاج الذين سمعوه، وخَفّوا إلى مقدمة السفينة. كلهم رأوا الشيوخ مسرعين وكل واحد يمسك الآخر بيده. وكان الشيخان على الطرفين يلوّحان للسفينة كي تقف. كان الثلاثة كلهم يجرون على الماء كما لو كانوا على الأرض اليابسة، دون أن يبدو على أرجلهم أنها تتحرك.

لم يكد يتسنى للسفينة أن تقف، حتى كان الشيوخ على مستوى السفينة، فتقدموا إلى جانبها، ورفعوا رؤوسهم، وقالوا بصوت واحد:

ـ يا خادمَ الله، نسينا تعليمك! تذكرنا الكلمات ونحن نرددها، لكن ما أن توقفنا ساعة عن ترديدها، حتى طفرت كلمة من ذاكرتنا، فنسينا كل شيء، وضاع كل شيء. لسنا نذكر شيئاً على الإطلاق. فعلّمْنا مرة أخرى.

رسم رئيسُ الأساقفة علامة الصليب، وانحنى نحو الشيوخ وقال:

ـ إن صلاتكم ارتفعت إلى السماء، أيها الشيوخ القديسون. ليس لي أن أعلّمكم. فصلّوا من أجلنا، نحن الخطاة المساكين.

وجثا رئيس الأساقفة أمام الشيوخ. استدار الشيوخ الذين توقفوا واستأنفوا طريقهم على المياه. واستمر الضياء على البحر حتى الفجر. في الجهة التي توارى فيها الشيوخ.

• • •

الفهرس

• • •